

إنّه بن لادن

كلّ شيء عنه بلسان زوجته وابنه

بقلم جين ساسون

من معلومات زوّدتها بها

نجوى غانم وعمر بن لادن

معلومات تُنشر لأول مرة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بقلم جين ساسون

من معلومات زوّدتها بها نجوى غانم وعمر بن لادن

إنّه بن لادن

كلّ شيء عنه بلسان زوجته وابنه



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

إنّه بن لادن

كلّ شيء عنه بلسان زوجته وابنه

للكاتبة عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

- **مغامرة حب في بلاد ممزقة**

القصة الحقيقية لجوانا، وهي امرأة من كردستان ومناضلة من أجل الحرية هربت من العراق

- **إنه بن لادن**

كلّ شيء عنه بلسان زوجته وابنه

- **سموّ الأميرة**

وقائع من قلب العائلة المالكة في السعودية
خفايا تمكّنت من الظهور وأسرار معلنة

- **عالم الأميرة سلطانة**
- **بنات الأميرة سلطانة**
- **طفل إستير**

لمزيد من المعلومات عن جين ساسون وعن كتبها،
زوروا موقعها الإلكتروني: www.jeansasson.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

Originally published as. **Growing Up Bin Laden**.

Published by arrangement with the Sasson Corporation, c/o Rembar & Curtis, P.O.Box 908, Croton Falls, NY 10519, USA.

الطبعة الثانية ٢٠١١

ISBN: 978-9953-88-392-2

ترجمة: أنطوان باسيل

تدقيق: فؤاد زعيتر

وفيق زيتون

رسم خرائط: إيفان ت. وايت

تصميم الغلاف: إيهاب الأسعد

الإخراج الفني: بسمة تقي

نهدي هذا الكتاب إلى جميع الأبرياء الذين عانوا أو فقدوا حيواتهم في هجمات إرهابية عبر العالم؛ وإلى الأُسر التي لا تزال تتألم وتتفجّع عليهم.

نصلّي ليعم السلام العالم.

المحتويات

القسم الثالث
أفغانستان

شكر

شكراً لكَ يا عمر على صدقك واستقامتك. وأشكرك يا عزيزتي نجوى، على أسلوبك اللطيف، وإجاباتك المحترسة والمحتاطة جدّاً عن أسئلتي المتطفّلة التي لا تنتهي. وشكراً لكِ يا زينة على إخلاصك لعمر، وتشجيعك له على عدم التخلّي عن إنجاز هذا الكتاب.

أما أنتِ، يا ليزا، يا وكيلتي الأدبية، فأنا شاكرة لكِ جزيل الشكر لإيمانك بهذا المشروع الذي لم يؤمن به من كان يُفترض بهم ذلك. وأنا أكثر المؤلفين حظاً لقبولك أن تكوني ممثّلة لي. وأشكرك يا فرانك، يا محاميَّ الأدبي، لأنك كنتَ، منذ ست عشرة سنة، «صخرة» مسيرتي الأدبية. ولن أنساكِ يا هافيس، على كرمكِ ومساعدتك التي لا تنتهي. ولك يا شاندلر، أيها العارف بالحقوق الخارجية، كل امتناني لوقوعك في حب هذه الرواية، وعرضك إياها على الناشرين في العالم، بهذا الحب الذي تحمله لها في قلبك.

شكر خاص إلى محررتي، هوب. فقد أبلغتني ليزا أنك واحدة من المحررات الكبيرات، وقد أثبتَ لي عملي معك هذه الحقيقة. وأنتِ يا لورا، لم تخذليني أبداً، وكنتِ دائمة الحضور للإجابة عن أسئلتي بكلام ودّي. أشكركِ وأشكر كثيرين من موظفي دار «سانت مارتن»، الذين انجذبوا، على غراري، إلى هذه الرواية الفريدة، وتمتعوا بممارسة مهاراتهم لإنجاح هذا المشروع المهم إنجاحاً كاملاً.

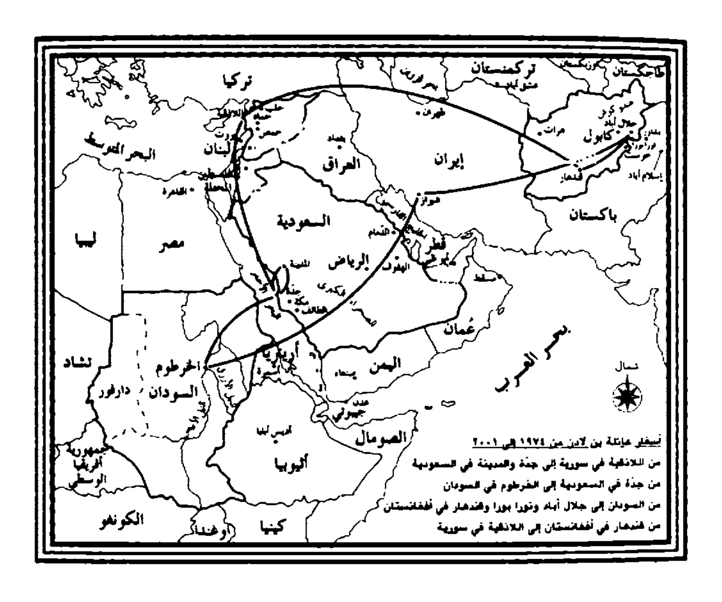
ولا يسعني هنا إلا أن أشكركَ يا عزيزي حكمت، على جِدّك وتفانيك في ترجمة ما بدا أنه فيض لا ينتهي من الصفحات، ونقله من الإنكليزية إلى العربية، ومن العربية إلى الإنكليزية من أجل أبحاثي النقدية. وأنتِ أيضاً يا

أمينة، فقد جهدت في العمل عندما بدا أن سيل الترجمة يكاد يبلغ الزبى، ويفيض. أما أنت يا إيفان، فقد كنت محترفاً من اللحظة الأولى. وأضفَت رسومك الكثير من القيمة على هذا العمل. اقبل مني شكري الخالص لعدم تبرّمك أبداً برغم «قرصات» الأذن الكثيرة بهدف الوصول إلى الكمال.

شكراً لمن يهتمون كثيراً بهذا الكتاب، ولا يهملون الكتب الأخرى التي وضعتها، أو المشاريع التي لا أزال أخطط لكتابتها، ويشمل هذا أقربائي، العمة مارغريت، ونسيبي بيل، وأليس. وقد أعرب حفيدي غريغ وابنه ألي عن اهتمام حقيقي، بدوام الاتصال والاستفسار عن التقدم الذي أحرزته، وسؤالهما عن حسن حالي خلال النهارات والليالي التي أمضيتها في الكتابة الصعبة. ولا يمكن إلا ذكر الأصدقاء الأعزاء الذين يساندونني بلطف لدى كل لفتة. أشكر أليس، أنيتا، داني جو، جوان، جودي ووالدتها، إليانور، ليزا، ماريا، بيل، ميادة، بيتر، جولي، فيكي ووالدتها جو.

وطبعاً، الشكر مرّة أخرى لحبيبي جاك الذي يهبني حبّاً غير مشروط ويحمي مختلف جوانب حياتي.

جين ساسون


تسفار عائلة بن لادن من ١٩٧٤ إلى ٢٠٠١
من اللاذقية في سورية إلى جدة والمدينة في السعودية
من جدة في السعودية إلى الخرطوم في السودان
من السودان إلى جلال أباد وتورا بورا وقندهار في أفغانستان
من قندهار في أفغانستان إلى اللاذقية في سورية
تركيا
تركمنستان
طاجكستان
لبنان
البحر المتوسط
العراق
إيران
كابول
قندهار
باكستان
السعودية
ليبيا
مصر
الرياض
قطر
غمان
بحر العرب
تشاد
الخرطوم
السودان
دارفور
إريتريا
اليمن
صنعاء
الصومال
أثيوبيا
الكونغو
كينيا
شمال

ملاحظة للقارىء

حرص أسامة بن لادن، منذ اللحظة التي استرعى فيها انتباه العالم، على إخفاء حتى أدقّ التفاصيل غير الشخصية المتعلّقة به وبزوجاته وأولاده. وغذّى غياب المعلومات الخاصة عنه وعن عائلته المباشرة، مخيّلة العالم منذ ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. وقد نُشر كثير من الكتب عنه وعن تنظيمه، القاعدة. وهذا هو الكتاب الأول الذي يُكتب من داخل حياة عائلة أسامة بن لادن، ويتضمن روايات شخصية مباشرة من زوجته الأولى، نجوى، وابنهما الرابع، عمر. وأريد من القرّاء أن يعرفوا أنه لم يتم إضافة أي شيء مما ورد في كتاب «إنه بن لادن» عبر آراء المؤلفة، بل سجلت الأحداث، والروايات، والأفكار الخاصة، من نجوى وعمر مباشرة. وقد تركتُ الحقيقة عن عائلة بن لادن تتكشّف تكشّفاً طبيعياً، برغم أنني ارتعت لبعض ما تم إفشاؤه. ونجوى وعمر، على غرار الأفراد الآخرين في عائلة بن لادن الكبرى، ليسا إرهابيين. ولم يؤذِ أي منهما أحداً أبداً، بل إنهما، في الواقع، من ألطف الأشخاص الذين سُعدت بالتعرّف إليهم.

من المهم التنويه بأن هذا الكتاب يتعلّق بالحياة الخاصة لأسامة بن لادن وعائلته. وأرجو أن تُبقوا في أذهانكم أن ابنه عمر كان صغيراً قبيل الفترة التي أمضاها في أفغانستان؛ وأن والدة عمر، نجوى، عاشت خلال زواجها في عزلة انصياعاً لرغبات زوجها. وهذه رواية شخصية خالصة عن حياة العائلة، لأن الكثير من أسرار أسامة بن لادن السياسية والجهادية والإسلامية أُخفي عن زوجته وابنه؛ برغم أنها تغلغلت في حياتهما بطرائق لم يفهماها جيّداً في ذلك الوقت.

غالباً ما انشغل عمر ونجوى، خلال السنوات المضطربة التي عاشاها مع أسامة بن لادن، عن الاحتفاظ بملاحظات أو بيوميات. واعترفا بأن تواريخ

المناسبات العائلية قد لا تكون دقيقة دائماً، وطلبا من القراء أن يعتبروا أن معلومات هذا الكتاب هي في الأساس تاريخ شفوي، وهو بالتالي عرضة لـ «سهوات» الذاكرة.

أخيراً، بالرغم من أن هذا الكتاب هو قصة نجوى وعمر، وذكرياتهما ووجهات نظرهما، كما أخبراني إياها، فعلى القارئ أن يفهم أن المادة التي أضفتها إلى النص ويمكن التعرف إليها بوضوح - وهي ملاحظات المؤلفة في النص وفي الملاحق في آخر الكتاب - لا تعكس إلا وجهات نظري ورأيي أنا، وليس وجهات نظر عمر أو نجوى بن لادن، وآراءهما.

وربما علينا، ونحن نسعى إلى تعميق معرفتنا بأولئك الذي يُلحقون أذىً كبيراً بالعالم، أن نأخذ بتوجيهات كلمات السِّير وينستون تشيرشل في نهاية الحرب العالمية الثانية:

> «الآن وقد انتهت، فإننا نسعى بعناية دقيقة إلى اكتشاف مجرميها وأبطالها. من هم؟ من هم الأرذال الذين شنوا الحرب؟ علينا أن نعرف، ونريد أن نعرف. ونحن، وقد كوتنا جراحنا، وأغضبتنا أذيتنا، وأدهشتنا جهودنا الرائعة وإنجازاتنا، نطالب بإلحاح سلطتنا بمعرفة الحقيقة وتحديد المسؤوليات».

لا يولد الناس إرهابيين. ولا يصبحون إرهابيين بضربة واحدة. فحياتهم أشبه بمُزارع يحضّر الحقل للزرع، تتكشَّف خطوة فخطوة في نمط يُحضّرهم لتلقي بذرة الإرهاب.

وهكذا الأمر مع أسامة بن لادن. وقد اضمحل الرجل والرجال والأحداث الذين زرعوا تلك البذرة. لكن البذرة نمت وانطلق الإرهابي. ومن كان رجلاً أصبح إرهابياً.

نجوى غانم بن لادن لا تعرف سوى الرجل، أما الغرب فلا يعرف سوى الإرهابي.

جين ساسون

سورية

حلب

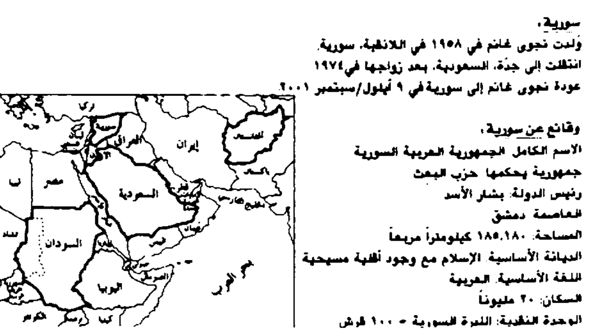
اللاذقية

حماه

حمص

دمشق

شمال



سورية،

وُلدت نجوى غانم في ١٩٥٨ في اللاذقية، سورية.
انتقلت إلى جدّة، السعودية، بعد زواجها في١٩٧٤
عودة نجوى غانم إلى سورية في ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

وقائع عن سورية،

الاسم الكامل الجمهورية العربية السورية
جمهورية يحكمها حزب البعث
رئيس الدولة: بشار الأسد
العاصمة دمشق
المساحة: ١٨٥،١٨٠ كيلومتراً مربعاً
الديانة الأساسية الإسلام مع وجود أقلية مسيحية
اللغة الأساسية العربية
السكان: ٢٠ مليوناً
الوحدة النقدية: الليرة السورية = ١٠٠ قرش

القسم الأول

الأيام الأولى في السعودية



لم أكن في ما مضى زوجة لأسامة بن لادن، بل كنت طفلة بريئة تراودها أحلام الفتاة الصغيرة. وغالباً ما أعود، في هذه الايام، بأفكاري إلى الزمن الماضي، وأتذكّر الفتاة الصغيرة التي كنتُها، والطفولة الآمنة والسعيدة التي تمتعت بها.

غالباً ما سمعت الكبار يتحدثون بحسرة وغضب عن طفولتهم، وقد سُرّوا لأنهم جاوزوا سنوات طفولتهم. مثل هذا الكلام يُعجزُني، لأنني أودّ، لو استطعت، العودة بالزمن إلى الفترة الأولى من حياتي، وأبقى فتاة صغيرة إلى الأبد.

عشنا، أنا وأهلي وأخوتي، في فيلّا متواضعة في مدينة اللاذقية السورية الساحلية، التي يربض على شاطئها مرفأ جميل. والمنطقة الساحلية في سورية رائعة، تتمتع بهواء البحر وبأرض خصبة يزرع فيها المزارعون المحظوظون الفاكهة والخضر. وقد نُصبت حديقتنا الخلفية بأشجار خضراء تحمل ثماراً لذيذة. ويرى المرء، من خلف السهل البحري الضيّق، الجبال الساحلية بمناظرها الرائعة، وتلالها المزروعة بالأشجار المثمرة وبساتين الزيتون.

عاش سبعة أشخاص في منزل آل غانم، وبالتالي كان جو بيتنا حميمياً بلا ريب. كنت الطفلة الثانية المولودة لأمي وأبي، وقد تمتعت بعلاقات جيدة مع

شقيقي الأكبر، ناجي، وأخوتي الأصغر مني سناً، ليلى ونبيل وأحمد. وكان لي أيضاً أخ غير شقيق، هو علي، يكبر أولاد أمي ببضع سنوات. فقد سبق لوالدي أن تزوج مرات عدة قبل أن يقترن بأمي، وأنجب علياً من زوجة سابقة.

وناجي أقرب أخوتي إلي، ويكبرني بعام واحد. وعلى غرار معظم الصِّبْية، كان شقيقي، بالرغم من أنني أحببته حباً جمّاً، يسبب لي بعضاً من الأذى الذي لطالما أرعبني.

فأنا، على سبيل المثال، وُلدت وأنا أخاف من الأفاعي. وقد استخدم ناجي، في أحد الأيام، مصروفه، فتسلل إلى السوق المحلية واشترى أفعى بلاستيكية، ثم قرع، بتهذيب شديد، باب غرفة نومي. وعندما فتحت الباب ابتسم شقيقي بخبث، ورمى بين يديّ فجأة بما اعتقدته أفعى حيّة. هزّت صرخاتي الحادة المنزل بأسره، وأنا أرمي بالأفعى وأركض بسرعة كبيرة يعتقد المرء معها أنني أمتطي الهواء.

صدف وجود والدي في المنزل، فهرع لمعالجة الأزمة، وهو يعتقد، بما يشبه اليقين، أن لصوصاً مسلّحين اقتحموا المنزل لقتلنا. وعندما أدرك أخيراً أن صراخي سببه ناجي، الذي كان يلوّح بفخر بالأفعى المزيّفة، حدّق طويلاً وبحدّة إليه قبل أن يشرع في إطلاق العنان لتهديداته الأبوية.

لكن ناجي استمرّ في غيّه، وهو يصيح فوق صياح أبي «نجوى جبانة! وأنا أعلّمها كيف تكون شجاعة».

ولو أمكنني رؤية المستقبل، عندما ستصبح الأفاعي زائرة اعتيادية لمنزلي الجبلي في أفغانستان، فلربما توجّهت بالشكر إلى أخي.

شكّلت الشرفة العلوية بقعتي المفضلة في الفيلّا، وهي المكان الأثير لفتاة يافعة تريد الهروب إلى أرض الأحلام. قضيت فيها ساعات ساحرة كثيرة مسترخية برفقة احد كتبي المفضّلة. وكنت، في العادة، بعد قراءة بضعة فصول، أستخدم إصبعي للإمساك بالصفحة، وأحدّق إلى الخارج، إلى الشارع من تحتي.

تلاصقت البيوت في حيّنا، وأحاطت بها المؤسسات التجارية الصغيرة من كل النواحي. وقد أحببت مراقبة الحركة الكثيفة للأناس المتدفّقين على الحي، يُنجزون مهامهم اليومية ليعودوا إلى منازلهم ويمضوا أمسية ممتعة بعد العشاء ويرتاحوا مع عائلاتهم.

يتحدّر الكثير من عائلات حيّنا من ديار أخرى، وقد جاءت عائلتي من اليمن، وهي بلد بعيد يُقال إنه يتمتع بجمال رائع. لم يخبرني أحد بأي تفاصيل عن سبب هجرة أجدادنا، لكن الكثير من العائلات اليمنية هاجرت إلى بلدان مجاورة، إلى حد يُقال معه إن الدم اليمني يسري في العالم العربي بأسره. والأكثر ترجيحاً أن الفقر وحده، هو الذي دفع بأجدادنا اليمنيين إلى أن يبيعوا أنعامهم، ويقفلوا منازلهم، ويتخلّوا عن حقول قاحلة، ويخلّفوا وراءهم، إلى الأبد، أصدقاء قدامى في مدن مألوفة.

يمكنني أن أتخيّل أجدادي يجلسون في بيوتهم: الرجال منهم وقد تمنطقوا بخناجرهم المعقوفة، وربما مضغوا أوراق القات؛ بينما النساء، بعيونهن السوداء وقد أبرزها الكحل، يستمعن بصمت، في حين يجادل رجالهن في ما تمثّله أرض قاحلة أو فرص مهدورة من تحدّ. ولّت تجارة البخور القديمة، وباتت الأمطار غير المنتظمة لا تسمح بزرع المحاصيل التي يمكن الركون إليها. ولربما كان الجوع الذي يعض أولادهم، هو الذي أقنع أجدادي بركوب جِمالهم الفارعة الطول، والنزوح عبر الأودية الخضراء التي تزركشها تلك التلال البنّية المرتفعة.

عندما وصلوا إلى سورية، أقام أجدادي منزلهم على شاطئ البحر المتوسط في المدينة الكبيرة ذات الشاطئ والمرفأ، وهي المكان الذي وُلدتُ فيه وقضيت طفولتي في حناياه. ذُكر اسم اللاذقية في نصوص تعود إلى ألفي سنة مضت، ووُصفت بأن فيها «أبنيةً تثير الإعجاب وميناءً مميزاً». يحيط بها البحر من جهة، والأراضي الخصبة من الجهة الأخرى، وقد طمع بها الكثيرون، وتناوب على احتلالها الفينيقيون، والإغريق، والرومان، والعثمانيون. وعلى غرار جميع المدن القديمة، هُدمت اللاذقية وأعيد بناؤها مرات عدّة.

كانت خبرات حياتي، حتى الوقت الذي تزوجت فيه وسافرت إلى جدة، محصورة في منزلي العائلي، ومدرستي، ومدينتي اللاذقية، وبلدي سورية.

كنتُ الابنة التي تجلب الفخر لوالديها. ولما أصبحت ناضجة كفاية لأفهم ما يقوله الناس من حولي، صرت أدرك الحديث الودّي المتعلّق بكل من الجَمال الداخلي والجمال الخارجي لعائلتي. وأسعدني، بالتأكيد، أننا مُحترمون لمسلكنا الجيّد، لكن افتخاري، كفتاة، كان خصوصاً بالحديث عن مظهرنا المليح.

عمل والدي في التجارة، وهي السبيل الشائع لدى كثير من الرجال العرب في المنطقة لكسب العيش. لم أعرف أبداً الكثير عن حياة والدي اليومية، ففي ثقافتي لا تُرافق الفتيات آباءهن إلى العمل. لكنني أعلم بأنه كان مجتهداً، يغادر المنزل في الصباح الباكر ولا يعود إلا في ساعات المساء. وقد أمّن عمله الشاق حياةً مرفَّهة لعائلته. وأعتقد، حينما أتذكر سنوات طفولتي، أنه كانت لوالدي لمسة لِين ورفق مع بناته. فهو أشد قسوة مع أشقائي الذين أجبره عنادهم أحياناً على أن يظل يقظاً.

بقيت والدتي في المنزل تهتم بحاجاتنا الشخصية. كانت طبّاخة موهوبة وربّة منزل مبالغة في الدقة. ولا ينتهي عملها أبداً بوجود زوج وثلاثة أبناء وابنتين، فتمضي معظم يومها في المطبخ. ولن أنسى أبداً الأطباق اللذيذة التي تحضّرها لعائلتها، بدءاً بالفطور الشهي من البيض والجبن والزبدة والعسل، مع اللبنة والخبز والمربّى. والغداء الذي يتألف من الحمّص المتبّل، ومختلف أنواع الخضر الطازجة من حديقتنا، من بندورة وخيار مقطوفين حديثاً، وباذنجان مخلَّل ومحشو بالثوم (مكدوس)، وجوز البكّان. وكانت وجبة المساء تُقدّم ما بين السابعة والثامنة، وغالباً ما تستقبل أعيننا الكبيرة صحوناً لذيذة من الأرزّ مع البزلّى، ومحشو ورق العريش، والبامية، والكبّة، وهي طبق شعبي جداً لدى العرب، وهي في الأساس لحم غنم مطحون مع البرغل وممزوج مع الملح والبهار والبصل وتوابل أخرى.

كنت، أنا وشقيقتي، نساعد في أعمال المنزل، لكننا كنا نقوم بالواجبات الخفيفة مقارنة مع مهام الوالدة. كنت أبقي سريري مرتّباً، وأغسل الأطباق. وفي اليوم الذي لا أكون فيه في المدرسة، أساعدها في أعمال المطبخ.

لعبتْ أمي دور المؤدِّبة الرئيسية لجميع الأولاد. وكنت أخاف، وأنا صغيرة، من قواعدها الصارمة المتعلقة بالسلوك الاجتماعي لابنتيها. وهذا شيء مألوف في ثقافتي، حيث تشكّل الفتيات نور العائلة المضيء، ويُتوقّع منهن الكمال في كل شيء، بينما يكون التوقّع المسبق بأن الأبناء سيقومون بالأمور الطائشة والمتهوّرة في شبابهم. ولو أن طفلة أنثى قامت بتصرّف سيئ، فستعاني العائلة بأكملها العار الكبير في عيون المجتمع. ولو أنني تصرفّت بسوء لصعب على والديّ أن يجدا عائلة تسمح لأبنائها وبناتها بالزواج من عائلتنا. فمن شأن تصرّفات الفتاة الرعناء، أن تحرم أخوانها وأخواتها من شركاء جديرين بالزواج.

لم توافق والدتي، وأنا في سن المراهقة، على أسلوبي في ارتداء الملابس. فهي امرأة مسلمة محافظة تغطي شعرها بوشاح وترتدي ملابس تلفّها من عنقها إلى أخمص قدميها، وأنا تمرّدت على مثل هذا اللباس التقليدي. قاومتُ توسلاتها بارتداء ملابس محتشمة، بل رفضت حتى تغطية رأسي. ارتديت فساتين جميلة ملوّنة لم تكن قد أصبحت كلّياً بعدُ خارج الموضة. ورفضتُ أن ألبس صيفاً البلوزات التي تغطي ذراعيّ، أو التنانير التي تصل إلى رسغي. وأخذت أجادل والدتي كلما تحدّثت عن أسلوب لباسي المعاصر. وأنا الآن خجلة لأنني سببت لها مثل هذا الأسى.

لا أزال أذكر مدى افتخاري بذهابي للمرة الأولى إلى المدرسة. ارتديت، وأنا صغيرة جداً، زي البنات المعهود، وهو كناية عن ثوب فضفاض. لكنه لم يعد في وسعي، ما إن بدأتُ مرحلة الدراسة الثانوية، أن أتجاهل والدتي، ولبست، للحشمة، سترة فوق فستاني.

كم أحببت المدرسة! لقد وسّعت عالمي الصغير الذي كان محصوراً في أفراد عائلتي، وأدخلت إليه صديقات جديدات ومعلّمين يحملون الكثير من المعلومات المكتنزة في رؤوسهم، ولطالما تساءلت في سرّي كيف لم تتفجّر جماجمهم. كنت

طفلة كثيرة الأسئلة، وقرأت ما أمكنني من الكتب، وتمتعت أكثر ما تمتعت بروايات عن أماكن بعيدة وأناس لم ألتقِ أياً منهم. وسرعان ما أدركت كم لديّ من القواسم المشتركة مع فتيات صغيرات من عمري، بغض النظر عن المكان الذي يعشن فيه.

في ثقافتي، نادراً ما يختلط الصبيان والبنات الذين بلغوا سن الدراسة، خارج حلقة العائلة. وكانت مدرستي بالتالي مخصصة للبنات فقط. تعرّفت إلى عدد من التلميذات الفقيرات، وقد علّمني فقرهن واحدة من أكبر أمثولات الحياة. وأذكر، بنوع خاص، صديقة بلغت عائلتها حداً مدقعاً من الفقر، يعجز معه والدها عن شراء اللوازم الدراسية أو حتى الطعام لاستراحة الظهر. وبصرف النظر في كيفية تأثير ذلك في وضعي، لكون موارد عائلتي متواضعة، تقاسمت مالي، وطعامي، ولوازمي الدراسية مع صديقتي الصغيرة. وشعرت بأكبر إحساس من السعادة حيال ردّ فعلها.

علمت، منذ ذلك اليوم البعيد، أن فرح العطاء يصبح أكثر حدّة عندما تؤدي المشاركة إلى مشقّة شخصية، فيسهل كثيراً على الشخص التقاسم عندما يملك الكثير.

وأذكر صديقة ثانية كانت تهمّ دوماً بالبكاء. وسرعان ما علمت بأن والدها طلّق أمها حديثاً. ولم يُسمح لصديقتي المسكينة حتى برؤية والدتها، بل أُجبرت على العيش مع أبيها وزوجته الجديدة. تألمت كثيراً وتعاطفت مع حالتها، لأن كل طفل يحتاج إلى أن تكون أمه قربه. وأدركت أن المشاركة لا تعني بالضرورة تقديم المال أو الحاجات العينية، بل تكمن العطيةُ الأعظمُ في تجاهل مشاكلك الشخصية، والاستماع إلى حرقة الآخر والاهتمام به.

التقيت أخيراً صديقة الطفولة هذه مصادفة. ورقص قلبي فرحاً عندما أخبرتني بأنها وجدت السعادة في لقائها «النصف الآخر» من حياتها. اختارت ارتداء الحجاب، وهي سعيدة في زواجها. ولم تفاجئني بقولها إن أولادها يجلبون لها الفرح الأكبر.

شكّلت المدرسة لذّة فتّحت ذهني، لكن ثمة هوايات أخرى أضافت المتعة إلى حياتي. وكنت، خلافاً لافتراضات كثير من الناس حول حياة النساء المسلمات المحافظات، لاعبة كرة مضرب ماهرة. ولأني لا أملك اللباس الخاص بهذه الرياضة، واظبت على ارتداء ثوب طويل، بحيث لا أكشف الكثير من ساقيّ وأنا أقفز. وكنت أنتعل حذاءً مريحاً، وأتدرّب لساعات، وأضرب الكرة بالشكل المناسب تماماً، أو أرد الإرسال بقدر من القوة يترك خصمتي تقف فاغرة الفم من الدهشة. لكن الغرض الأساسي من ذلك كان الرياضة. وأنا لا أزال، حتى اليوم، أسمع الضحك الذي يجلجل في المكان عندما كنا نلعب أنا وصاحباتي كرة المضرب.

أحببت أيضاً ركوب دراجتي الملوّنة. وكنت، مرّة أخرى، أنتقي ثوباً طويلاً حتى لا أكشف عن ساقيّ للمارة، ثم أهرب من المنزل مع أشقائي وشقيقتي نبذل جهدنا ونحن نصعد تلال اللاذقية، ثم نغرق في الضحك ونحن نمرّ، في طريقنا نزولاً، بالجيران المتفاجئين. وفي مرّات أخرى، كنت أركب دراجتي إلى منازل صديقاتي أو أقاربي المجاورين.

اختبرت، على مدى سنين كثيرة، فرحاً عظيماً بوصفي فنانة مبتدئة، أرسم المناظر الطبيعية على القماش والأواني الفخارية الناعمة. قضيت ساعات أمزج الألوان لأجعل الرسوم تُرضي عيني الفنانة، وذوقها. وقد أُعجب أشقائي كثيراً بنوعية رسوماتي ليتنبأوا بأن نجوى غانم ستصبح في أحد الأيام فنانة ذات شهرة عالمية.

وأنا عاجزة، في هذه الأيام، عن التمتع بمثل هذه الحِرَف، لكنني، بوصفي أماً وحيدة ذات مسؤوليات كثيرة حيال أولادي الصغار، لا أزال حتى اليوم أجد بعض اللذة في استخدامي مخيلتي. فغالباً ما أرسم في ذهني مناظر جميلة، أو أوجهاً صلبة فيها الكثير من التوقّد، أو أتخيّل عضلاتي وقد تشنّجت من ركوب الدراجة صعوداً ونزولاً على تلّة شديدة الانحدار، أو حتى الفوز بمباراة في كرة المضرب في مواجهة خصمة لا وجه لها.

أعتقد أنه في إمكان المرء أن يقول إن نجوى غانم فنانة بلا لوحات، وراكبة دراجة بلا دراجة، ولاعبة كرة مضرب بلا كرة، ولا مضرب، ولا ملعب.

كان لأشقائي أيضاً هواياتهم. أحببنا جميعاً الآلات الموسيقية، وكثيراً ما كان يسمع الزوار قيثارة تدندن من زاوية خفية من زوايا المنزل. بل إن شقيقي الأكبر أهداني أكورديون. وأنا واثقة من أن منظري كان مسلّياً، لأنني كنت نحيفة، والأكوردين مناسب أكثر لموسيقي ذي وزن.

كان أفضل الأوقات هو الصيف عندما يأتي أقاربنا للإقامة في منزلنا. وقد سررتُ أكثر ما يكون بزيارات شقيقة أبي، عليا، التي تقيم في جدة، في السعودية. فعمتي عليا رائعة في كل شيء، وتثير المهابة في كل من يلتقيها. وكانت تثير دهشتي لأنها ترتدي ثياباً على الموضة عندما تزورنا، ولمعرفتي أنها في الديار في السعودية ترتدي الحجاب، وما يعنيه من تغطية كاملة للمرأة، بما في ذلك جسمها، ووجهها، وشعرها. كانت تلبس، في سورية، ثياباً محتشمة، ولكن أنيقة، تغطي ذراعيها وساقيها. وترتدي أيضاً وشاحاً رقيقاً فوق شعرها، لكنها لا تغطي وجهها.

اشتهرت عمتي عليا بلطفها أكثر من نمط لباسها وسحرها. فهي كلما سمعت عن عائلة مكافحة، تؤمّن لها سرّاً مقومات البقاء.

سمعت عَرَضاً أهلي وهم يتحدّثون سرّاً عن زواجها الأول بالموسر الكبير محمد بن لادن، وهو متعهد ثري في السعودية. أصبح زوج عمتي الأول، بفضل صداقته المميزة مع الملك السعودي عبد العزيز بن سعود، واحداً من أثرى الرجال في بلد يفيض بالأغنياء.

كان زواجها بمحمد بن لادن قصيراً، ورُزقت منه بولد وحيد، صبي، أسمياه أسامة. وتزوجت عمتي، بعد الطلاق، بمحمد العطاس، وهو رجل سعودي عمل لحساب زوج عمتي عليا الأول. وعُرف عن العطاس أنه زوج يعنى بعمتي، ويحن على ابنها. ولم أسمع أي كلمة أو وشاية في حقه. وقد أنجب الزوجان معاً أربعة أولاد: ثلاثة صبيان وبنتاً.

عرفتهم جميعهم حق المعرفة، لأن العائلة كلها تصاحب عمّتي في زيارتها لأقربائها في اللاذقية. تناولنا وجبات كثيرة في منزلنا، وأذكر أنها كانت مناسبات احتفالية بنوع خاص، تدور فيها الأحاديث المفرحة والمضحكة. وكان أسامة، طبعاً، جزءاً من المجموعة. فلطالما كان ابن عمتي، الذي يكبرني بسنة، حاضراً في حياتي.

ما إن أصبحتُ في السابعة أو الثامنة حتى بدأت الذكريات تعلق في ذهني. بدا أسامة أكبر بكثير من سنة واحدة منّي، ربما لأنه كان ذلك الصبي الجدّي، وصاحب الذمة. وقد شكّل لغزاً لأنسبائه، لكننا أحببناه جميعاً لشدّة هدوئه ولطف مسلكه.

وأود أن أقول في وصف أسامة الصبي الصغير الذي عرفناه جميعاً، إنه كان فخوراً، لكنه لم يكن متغطرساً. لطالما بدا رقيقاً بلا ضعف، ورزيناً بلا قساوة. وهو بالتأكيد مختلف كثيراً عن أشقائي الذين كانوا يعشقون الصخب. لم ألتق أبداً مثل هذا الصبي الناعم الكلام والجاد. ولم يفكّر أحد في أسامة على أنه ضعيف الإرادة برغم مسلكه الوادع، لأن طبعه قوي وحازم.

غالباً ما كانت العائلة بأسرها، لمّا تزورنا عمتي عليا مع أسرتها، تقوم بنزهات نهارية إلى الجبال أو إلى الشاطئ. فتتملّكنا، نحن الأولاد، الإثارة، خلال مثل هذه النزهات العائلية. نركض في الجوار؛ ونتسابق على الشاطىء؛ ونلعب الغميضة؛ ونربط حبلاً بشجرة ونصنع أرجوحة أو نقفز بالحبلة. وأذكر كيف كان أسامة يختار، باهتمام، عناقيد العنب الريانة من الكرمة، ويناولني إياها لآكلها. وقد يكون أشقائي في هذه الأثناء يصرخون بأنهم عثروا على بعض الجوز الجَرِش الواقع تحت أغصان الشجرة. وكنا في أحيان أخرى، نتسلق جميعاً أشجاراً ذات جذوع قصيرة لنتش بعض التفاح الحلو، أو نُقحم أيدينا عبر العلّيقات المحمّلة بالصعرور الحامض. وكنت فرحة كثيراً باللعب مع أنسبائي، برغم تحذير أمي لنا من الأفاعي، إلى درجة أن مخاوفي لم تعترض سبيل نشاطاتي.

مرّت علينا، برغم ذلك، أوقات حزينة، بما في ذلك يوم الثالث من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧، عندما كان والد أسامة، محمّد، راكباً في طائرة صغيرة سقطت وتحطمت. قُتل بسببها، وهو في الحادية والستين، ومات معه أشخاص عديدون آخرون.

كان ابن عمتي يومها في العاشرة، إلا أنه أحب والده حباً عظيماً وكنّ له الاحترام. ولطالما كان أسامة متحفظاً على نحوٍ غير مألوف في مسلكه وفي كلامه. لكن وفاة والده أكمدته كثيراً إلى درجة بات معها أكثر انكساراً. وهو، على مر السنين، لم يتحدّث سوى بالقليل عن هذه الحادثة المأسوية.

سكن صوت أمي وهي تخبرني عن خسارة أسامة. وصدمني ذلك إلى حدّ أنني عجزت عن الانفعال. لكنني انسحبت إلى الشرفة لتخيُّل مقدار محبتي لوالدي، والفراغ الذي سأشعر به بدونه.

أوقع شقيقي ناجي وأسامة نفسيهما أحياناً في المشاكل مرات كثيرة وهما فتيّان. كانا مرّة يخيّمان عندما قررا، في نزوة، المضي في نزهة طويلة، سيراً على الأقدام إلى كسب، وهي بلدة في محافظة اللاذقية، قريبة من الحدود مع تركيا، وسرعان ما وجدا نفسيهما وقد عبرا الحدود. أن يضل المرء طريقه إلى دولة أخرى قد يؤدي، في هذا الجزء من العالم، إلى عواقب خطيرة يختفي معها مسافرون مهملون إلى الأبد.

عاين جندي في الجيش التركي «الغريبين» على أرضه. صاح بهما بتهديدات هائجة ورفع سلاحه، فتبادل ناجي وأسامة نظرة واحدة واستدارا وركضا بأسرع من الحصان إلى أن بلغا إحدى الحدائق. ومن حسن الحظ أن الحارس التركي تخلّى عن ملاحقتهما إلى بلد آخر.

وفي مناسبة أخرى، ذهب ناجي وأسامة إلى دمشق، المدينة القديمة العابقة بالتاريخ وعاصمة سورية. ولطالما تمتّع أسامة أكثر من الجميع بالرحلات الطويلة. جلس الفتيان ورفاقهما، بعد سير نشط، وتفيأوا إحدى الأشجار،

وكانوا متعبين ويشعرون ببعض الجوع، وكانت أغصان الشجرة مثقلة بالتفاح الريّان. تسلّق ناجي وأصدقاؤه الشجرة، وقد أغراهم منظر الفاكهة، وطلبوا إلى أسامة البقاء حيث هو، والمراقبة. قال ناجي لاحقاً إنه عرف أن هذا النسيب الورع يُرجِّح أن يُعرض عن أكل التفاح من شجرة ليست ملكاً له، لذا لم يرد لأسامة أن يشارك في الاختلاس الفعلي.

تسلّق الصِّبْية الشجرة. لكن، قبل أن تسنح لهم الفرصة بالتقاط تفاحة واحدة، شرعت زمرة من الرجال في الركض صوبهم، صارخين بغضب، وهم يضربون الهواء بأحزمتهم الجلدية.

صاح الرجال، «انزلوا عن الشجرة، يا سارقي التفاح!».

ولأنه لا مفرّ لهم، نزل شقيقي وأصدقاؤه بهدوء عن الأغصان الكثيفة لمواجهة متحدّيهم. وما إن وطأت أرجلهم الأرض حتى شرع الرجال في ضربهم بتلك الأحزمة الجلدية القاسية. صاح ناجي بأسامة: «اهرب! اهرب بأسرع ما استطعت!». فأسامة ضيفهم، ومن المهم ألا يصاب الضيف بأذى. كما أن ناجي عرف كم أن العمّة عليا تحب ابنها الأول حباً جماً. ولم يشأ أخي العودة إلى المنزل حاملاً أخباراً سيئة عن أسامة.

اندفع أسامة، بسبب إلحاح ناجي، مبتعداً عن المواجهة. لكن المالكين رأوا، لسبب ما، أن في القبض على الصبي الهارب أهمية قصوى، فمضوا وراء أسامة إلى أن أمسكوا به وهم يهددونه بأحزمتهم. أصبح أسامة وحده بدون أقربائه أو أصدقائه، فهجم عليه أحد الرجال وكان الأضخم، وانحنى وعضه بذراعه عضة قوية إلى درجة أن أسامة لا يزال يحمل أثراً خفيفاً منها حتى اليوم.

سحب أسامة أسنان الرجل من لحمه ودفع به بعيداً، ثم واجه أولئك الرجال الغاضبين: «من الأفضل لكم تركي وشأني! فما أنا إلا زائر لبلدكم. لن أسمح لكم بضربي!».

جعل تعبير أسامة الشديد هؤلاء الرجال يبتعدون عنه. خفضوا أحزمتهم،

محدقين إليه لبضع دقائق، قبل أن يقولوا: «سنتركك فقط لأنك ضيف في أرضنا». عند هذا الحد تمكّن شقيقي وأصدقاؤه من الإفلات. واستطاع سارقو التفاح، بعدما بُرئت ساحة أسامة، لمّ شملهم والعودة إلى مكان آمن. نُظّف جرح أسامة وتم تضميده. ومن حسن الحظ أنه لم يعانِ من أي التهاب بسببه.

مرّت أيام الطفولة السعيدة تلك بسرعة كبرى. دخلتُ أولى سنوات مراهقتي، فأخذت عواطف غير متوقعة تسري كالدوامة بين ابن عمتي وبيني. لم أكن متأكدة مما يحصل، لكنني عرفت بوجود علاقة خاصة بين أسامة وبيني. لم يتفوّه هو بأي شيء، لكن عينيه البنّيتين أخذتا تشعان بالسرور كلما دخلت الغرفة. ارتعشت بسعادة عندما شعرت باهتمام ابن عمتي الشديد. وسرعان ما ستطفو مشاعرنا الخفية إلى السطح، وتغير حياتنا إلى الأبد.

السعودية

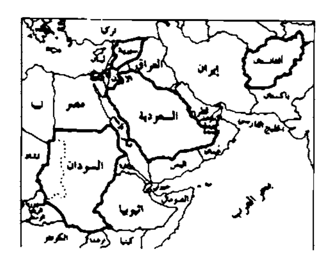
الدمام
الهفوف
الرياض
المدينة
جدّة
مكة
الطائف
الربع الخالي
شمال

المملكة العربية السعودية:

ولد أسامة بن لادن في ١٩٥٧ في السعودية

عاشت نجوى في البلاد بعد زواجها بأسامة في ١٩٧٤

المدينتان اللتان عاشت فيهما عائلة بن لادن هما جدّة والمدينة



وقائع عن السعودية:

الاسم الكامل: المملكة العربية السعودية

نظامها ملكي تحكمه: عائلة آل سعود

رئيس الدولة: خادم الحرمين الشريفين

الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود

العاصمة: الرياض

المساحة: ٢,١٤٩,٦٩٠ كيلومتراً مربعاً

الديانة الوحيدة: الإسلام

اللغة الأساسية: العربية

عدد السكان: ٢٤,٨ مليوناً

الوحدة النقدية: الريال = ١٠٠هللة



في ثقافتي، تتزوج معظم الفتيات باكراً. وأنا، في الوقت الذي دخلت فيه سن المراهقة، دفعني قلبي المختلج إلى التفكير في الزواج بأسامة. لا أعرف الكثير عن حياة البالغين، إلا أنني أحببت كل شيء فيه، وانبهرت بمظهره الأنيق ومسلكه اللطيف وشخصيته القوية.

من الشائع عند المسلمات، الزواج بالأنسباء المباشرين. ومثل هذه الزيجات مُفضّلة، بالعموم، لأنها تحافظ على سلامة العائلة بدون أن تشكّل أي تهديد للثروة الموروثة، في حال شكّل ذلك معضلة.

اعتقدت، من الطريقة التي ينظر فيها أسامة إلي، أنه يحبني، لكن لم تدر بيننا أي مناقشة صريحة في أي أمر محدد يتعلق بالعاطفة أو الزواج. ومن غير المناسب أن يدور حديث جدي عن الحب والارتباط بيننا نحن الاثنين، قبل أن يعطي أهلنا موافقتهم، إلا أن كل شيء، مع أسامة، آخذ يتحرّك ببطء.

سرعان ما أصبح صمت أسامة مغيظاً. أردته أن يقول شيئاً؛ أن يُسرّ إليّ بأنه سيفاتح أهلنا في شأن الخطبة، لكنه ظلّ عنيداً في لباقته! وبدا أنه، في كل مرة يغالب بنفسه في الدردشة معي، يجد صعوبة في التعبير عن ذاته. وأذكر تحديقي في عينيه اللطيفتين وأنا أفكر على نحو لاذع، في أن ابن عمتي خجول أكثر من «عذراء وراء النقاب».

أخيراً، وقد أصبحتُ في الرابعة عشرة، استجمع أسامة شجاعته. حصل ذلك بعد زيارة صيفية مطولة إلى منزل عائلتي في سورية، حيث أخذنا نلتقي يومياً. وبعودته إلى السعودية، ناقش فكرة الخطوبة مع والدته. سُرّت عمتي عليا لاحتمال الزواج بين ابنها وابنة أخيها، على اعتبار أن مثل هذا الأمر، سيزيد من التقارب بين الأسرتين.

النساء في عالمي الإسلامي هن اللواتي يشرعن عادة في العملية الشاقة، التي هي تدبير الزيجات. فتبدأ الأم، من اللحظة التي تُرزق فيها بابن، في حضور المناسبات الاجتماعية النسائية، تراودها فكرة العثور على عروس مناسبة. ولن تفكّر الوالدة المهتمة إلا في فتاة من عائلة جيدة، صحيحة الجسم، ذات شكل جذاب. وما إن يتم العثور على الفتاة المناسبة، حتى تشرع الوالدتان في النقاش حول الزواج. وإذا رضيتا، يُؤتى بالزوجين المستقبليين لتسوية مسألة المهر الذي قد يكون كناية عن جواهر، أو حتى مال نقدي. وعند حد ما يُحكى للعروس والعريس المحتملين عن بعضهما البعض. وبما أن الذكور والإناث يثقون في العادة بقرار أهلهم حول الشريك في الزواج، فمن النادر للولد أن يرفض. لكن يجب على الأهل عدم إكراهه في حال حصول الرفض.

ومن حسن الحظ أن مثل هذه التخطيطات لم تكن ضرورية في حالتنا. ليس لأنني وأسامة رفيقا طفولة وحسب، بل أيضاً لأن عمتي عليا تميل إلى السماح لابنها القوي الإرادة باتخاذ قراره الخاص في شأن الزواج. وهي قد ناقشت الفكرة مع أهلي الذين سرّبوا إلي الخبر.

لم يخبرني أحد بتفاصيل تلك المحادثة، وسيُعتبر السؤال تقليلاً من الاحترام. ولدهشتي، في حين أن قلبي يقفز فرحاً لأن أسامة يريد الزواج بي، جادلتْ والدتي ضد هذا الزواج. لم يكن فقدان الحماسة لديها ناتجاً من أي كره لأسامة، بل من أمر أكثر جوهرية: فهي لم تردني أن أنتقل إلى هذا المكان البعيد.

توسّلتني أمّي: «نجوى، أرجوك، لا توافقي على هذا الزواج. أريدك قريبة مني يا ابنتي. إذا ذهبت إلى السعودية، فستصبح زياراتنا أندر من الجواهر الباهظة الثمن».

حدّقت لحظة في عيني أمي قبل أن أجيب. فهي على حق. ما إن استقر في السعودية حتى تصبح زياراتي للمنزل نادرة، ذلك أن السفر في تلك الأيام لم يكن سهلاً كما هو اليوم. أمكنني فهم حزنها، لأن أسعد الأوقات بالنسبة إلى والدة عربية، عندما تتمكن من رؤية أولادها وأحفادها في شكل روتيني.

ويعني زواجي بأسامة أيضاً أن حياتي ستتغير بطرائق أخرى، أكثر درامية. فسارتدي، بعد انتقالي إلى السعودية، نقاب الوجه. وأسامة محافظ جداً، إلى درجة أنني ساعيش أيضاً في خدر، أي في عزلة، ولن أغادر حدود منزلي إلا في ما ندر.

أجبتُ بحزم، عارفة أن إجابتي لن تُرضي والدتي: «إنها حياتي، يا أمي. وأنا التي أقرر. إنني أحبه وسأتزوج به».

لطالما كنت قوية ما إن أنوي القيام بعمل ما. ولن يمنعني أحد من الزواج بأسامة.

وهكذا حصل. تزوجت في سنة ١٩٧٤، وأنا في الخامسة عشرة وعلى مشارف السادسة عشرة، وزوجي في السابعة عشرة.

كنت، في يوم زفافي، صغيرة السن، لكنني ناضجة في أفكاري، وغير متوجّسة. فكل شيء على ما يرام. ثوب زفافي أنيق وأبيض، وشعري على آخر طراز، ومصفّف على نحو مميز. عرفت أنني أبدو كأبهى ما يمكن أن أكون عليه من الجمال. وكانت أمنيتي الأثيرة الوحيدة أن يُعجب عريسي بمظهري.

تُشكّل الأعراس في سورية مناسبات زاهرة، لكن تقرّر أن يكون حفل زواجي مختصراً وهادئاً، وقد عُقد في منزل أهلي على نحو متوافق بالكامل مع المعتقدات والتقاليد المحافظة للرجل الذي أتزوج به. حرصنا بنوع خاص على إجلاس الضيفات النساء في جهة من الغرفة، والضيوف الرجال في الجهة الأخرى. وبعد الاحتفال القصير، جلس ضيوف حفلة العرس المميزون إلى مائدة عشاء عامرة بالأطباق السورية المعهودة: اللحم المشوي، البرغل مع الحمام، ورق العنب، والكبّة. بالإضافة إلى كثير من الحلوى والفاكهة. لكنني لم أشعر

بالجوع ولم آكل إلا القليل. فالأمسية بأسرها بدت أشبه بالحلم: وها أنا امرأة متزوجة بالرجل الذي أحب.

مُنع كل أنواع المرح، وغاب عن الحفل الموسيقيون الذين يعزفون على آلاتهم أو ينشدون الأغاني. وأُبلغ محبّو الرقص بعدم تحريك أقدامهم، ولم يُرحَّب بالضحك والنكات. لم تصل الأمسية إلى ما هو أبعد من بعض الثرثرة. وكنت برغم ذلك سعيدة، لأنه أمكنني أن أعرف من التعبير اللطيف على وجه أسامة، أنه مسرور مني وراضٍ عن خياراتي. وهكذا انتقلت حياتي من الطفولة إلى البلوغ مع نهاية تلك الأمسية. أصبحت امرأة متزوجة بالكامل.

حصلت خيبات أمل. بقي أسامة وعائلته في سورية لفترة وجيزة لنتمكن من التعوّد على التغيير في علاقتنا، لكنني شعرت بالبؤس لمعرفتي أن على زوجي العودة إلى السعودية بدوني. فوثائق سفري الرسمية لم تجهز بعد، ومثل هذه الوثائق تتطلب وقتاً، ولم ينفع، لتسريع وتيرة إنجازها، أنني متزوجة بسليل واحدة من أكثر العائلات نفوذاً وثراءً في المملكة. وسأبقى بدلاً من ذلك في منزل أهلي، وقد عدت تلميذة، وأنا أنتظر الموافقة على وضعي الجديد كمواطنة سعودية، زوجة أسامة بن لادن.

سُرّت والدتي أكثر مني بهذا التأخير. فأنا متحمسة لفكرة العيش في بلد جديد، وأتوق إلى البدء في حياتي الجديدة كامرأة متزوجة.

تميّزت الأشهر القليلة التالية بعدم الاستقرار الشديد. فقد حاولتُ، بدون جدوى، التركيز على دروسي وأنا أنتظر بشوق رسائل من أسامة. وكنت أعتقدُ، من الكلمات التي كتبها زوجي الشاب، أنه متشوّق إلى انضمامي إليه بقدر اشتياقي إلى أن أصبح معه.

بلغت حداً لم يعد في وسعي تحمّل الفراق أكثر، وجاء أخيراً اليوم الموعود الذي أبلغني فيه والدي أنه تمت الموافقة على إقامتي في السعودية، وعلى وثائق سفري. وفي وسع أسامة وعائلته المجيء قريباً إلى سورية لمواكبتي إلى جدة، لأنه من غير اللائق، بوصفي امرأة مسلمة، أن أسافر بدون وصيّ.

سبق لي أن وضّبت أغراضي، ولم يعد أمامي بالتالي سوى انتظار زوجي وأمه وزوجها. وقيل لي إن أبي سيرافقني أيضاً للإقامة في جدة إلى أن أستقر.

لم يأتِ من سيقرع الباب بالسرعة الكافية. لكنهم وصلوا أخيراً! وهذا هو المهم. وكانت إحدى أسعد اللحظات في حياتي، رؤية وجه زوجي برغم أننا كنا لا نزال خجولين في التعامل مع بعضنا البعض، وبرغم أننا سنغادر إلى جدة في غضون يوم أو اثنين.

شُحنّا صبيحة مغادرتنا بالطاقة، فكنت أُسرع في حركتي وأعيد التدقيق في حقائبي، وأردد كلمة الوداع، بلا ملل، مرة تلو مرّة. لم أستطع كبح سعادتي برغم معرفتي أن لا شيء سيعود إلى سابق عهده أبداً. ولاحظت، عند حد ما، النظرات الكئيبة على وجوه أفراد عائلتي، فحاولت ردع حماستي للمغادرة. لم أرد أن أجرح عائلتي العزيزة، وبالأخص أمي الحبيبة. وبرغم ذلك، عندما جاء وقت الوداع الأخير، كنت مستعجلة بعض الشيء للبدء في رحلتي.

كنت على وشك اختبار أول رحلة لي بالطائرة، وبرغم ذلك لم تتملّكني أي ذرّة خوف. فمنذ نعومة أظفاري، وأنا على قناعة بأن حياتي في يد الله. وهذا الاعتقاد هو ما أبقى أعصابي هادئة دون أي توتّر.

صحيح أنني لا أخشى الموت، لكن ذلك اليوم شكل تاريخاً بالغ الأهمية في حياتي، فقد أخذ كل شيء يتغيّر في ومضة عين. سيصبح زوجي، منذ تلك اللحظة، رأس عائلتنا. وستتحكم قراراته، في معظم الأمور، في حياتي وحياة أي أولاد قد نُرزق بهم. وسأعيش، من الآن وصاعداً، حياة محصورة، متخلّية عن أي احتمال في قيادة سيارة، أو العمل في وظيفة خارج المنزل.

ثم عليّ أن أتعايش مع الحجاب المرهوب. وكان ذلك أيضاً اليوم الأول الذي ألفّ فيه غطاءً أسود حول وجهي وجسمي. فبرغم أنني كنت أرتدي ثوباً بسيطاً بكمّين طويلين، يصل إلى ما بين كاحلي وركبتي، لم يكن هذا على درجة كافية من المحافظة بالنسبة إلى السعودية، البلد الذي لا يجوز فيه للمرأة أن تظهر أي جزء من جسمها أو شعرها لرجل من خارج عائلتها المباشرة.

كنت على أهبة الاستعداد للمحتوم، لأن عمتي عليا أهدتني الستار الأسود الفضفاض، ويدعى العباءة، وهو كناية عن وشاح أسود، وحجاب رقيق للوجه. والعباءة بسيطة، كاملة الكمين، ومفتوحة من الأمام بدون أي أزرار أو مشبكات. وبرغم أنني لم ألفّ هذا الزيّ فوق ثيابي ونحن لا نزال في سورية، فقد حذوت حذو عمتي وغطيت نفسي خلال وقت قصير على صعودي إلى الطائرة.

ها أنا جالسة هناك مقمّطةً من الرأس إلى أخمص القدمين. وبما أن النساء السعوديات المقيمات في المدن لا يكشفن عن أعينهن، فقد غطّيت وجهي كلّه. شعرت فجأة بالاختناق، بينما كنت أفكّر مذعورة عما سيحدث عندما يحين وقت مغادرة مقعدي. هل سأتمكن من الرؤية بشكل يسمح لي بالسير في أمان عبر الحشد؟ وماذا لو تعثّرت وسقطت على طفل صغير؟

تطلّعت إلى أسامة، فابتسم. كان زوجي مسروراً جداً لأنني غطيت نفسي بالحجاب دون كثير من الإثارة. لكنه بدا غريباً الشروع في محادثات عادية من خلال ستار للوجه. وجدت صعوبة، لكوني صغيرة، في كبت ضحكاتي، إلا أنني تمكنت من ذلك بطريقة ما.

ما لبثت طائرتنا أن هبطت، فاستجمعت قواي لتحدّي السير وعيناي مغطاتان. والحمد لله الذي أنعم عليّ بخطى ثابتة، إضافة إلى نظر ثاقب، فأمكنتني الرؤية بما يكفي من الوضوح عبر القماشة الرقيقة لحجاب الوجه. وتحرّكت في الستارة السوداء بدون أن أؤذي نفسي أو أياً من المارة.

بقيت في الخلف مع عمتي في حين قام زوجانا بإجراءات دخول المملكة. وما لبثنا أن أصبحنا في السيارة السوداء الطويلة التي ستأخذنا عبر المدينة إلى منزلنا الزوجي.

لم يخب ظني في جدّة التي دُعيت «عروس البحر»، برغم أنه لم تمكنني رؤيتها إلا من خلال نسيج الخمار الأسود. كل ما في هذه المدينة جميل، من البحر الأزرق، إلى الشوارع الواسعة والبيوت المميزة. ثم إنني، وقد ترعرعت في مدينة اللاذقية ذات الميناء، أصبح لديّ ولع شديد بكون البحر جاراً لي.

لم تكن جدة، لقرون طويلة، سوى مستوطنة صغيرة اشتهرت بكونها مرفأ للحجاج، وبوابة إلى مكة، أقدس مدننا، الموجودة على بعد سبعة أميال في الداخل. وعندما اكتشف الأوروبيون شهوتهم إلى لبان شبه الجزيرة العربية ومرّها، نهض التجار العرب، وبنوا السفن وأقاموا الموانئ لتجارة البخور.

يقال إن سكان جدة كانوا خمسة وعشرين ألفاً في سنة ١٩٤٥، أي قبل مولدي بثلاث عشرة سنة. وفي الوقت الذي اتّخذت من السعودية موطناً، في سنة ١٩٧٤، أصبحت جدة مدينة عالمية يسكنها أكثر من مليون مواطن.

أبلغني أسامة أن جدة مدينة تنمو بأسرع مما يجب، وأنها أصبحت مكتظة بالسكان، خصوصاً في بعض الأعياد الإسلامية، حيث ينزل فيها ما يقارب المليون حاج، وهذا ما يضاعف عدد سكانها. لكن، برغم أن وصولي لم يتصادف مع زمن الحج، أمكنني على الفور أن أرى جدة تنبض بالإثارة. وسأعلم لاحقاً أن الفورة النفطية جلبت فورة من الحيوية إلى هذه المدينة ذات المرفأ التي ارتفع عدد سكانها إلى المليونين بعد ست سنوات فقط على وجودي فيها.

تطلّعت بشوق إلى رؤية المنزل الذي نشأ فيه زوجي، ولم أُصَب بخيبة. فدارة عمتي عليا تقع في منطقة المشرف في جدة، وهو حي فخم يضم على مقربة منه عدداً من المتاجر والمساجد. ومنزلي الجديد بيت رائع من طبقتين، شكّل، برغم أنه ليس مُعدّاً بكامل العناية والتفصيل، مكاناً ممتازاً لنا للشروع في حياتنا الزوجية. وقد سُررت لمعرفة أن العمة عليا وزوجها أجريا ترتيبات لنحصل، أنا وأسامة، على طابق كامل لنا، ولنحظى معه بالكثير من الخصوصية.

أذكر أنني شعرت بالراحة في منزلي الجديد كما لو أنني عشت هناك لسنوات طويلة. وبرغم انشغالي في توفير الراحة والاستقرار - وقد أصبحت تفاصيل الأسابيع الأولى مشوّشة في ذهني - فإنني أذكر أنه كان وقتاً رائعاً بالنسبة إلي.

أضحت حياتي اليومية مختلفة جذرياً عن طفولتي في سورية، إلى درجة أن زوجي كرّس الكثير من وقته ليشرح لي بصبر وأناة مدى أهمية حياتي كزوجة مسلمة مطيعة: «نجوى، أنت لي درّة ثمينة يجب حمايتها». وابتسم مُطَمْئِناً، ووعد قائلاً: «سأكون الصَّدَفة الصلبة التي تحميك، تماماً كما تحمي صدفة البحر الصلبة الدرّة النقيّة».

شعرت بالفخر لأن أسامة أراد أن يحميني، وهو يحملني بهدوء إلى إدراك الأسباب التي تقف وراء حاجة الأنثى إلى حياة الانعزال. لم أعترض أبداً لأنني أدركت أن زوجي خبير في الشؤون المتعلقة بإيماننا.

قررنا معاً، أنني لن أستمر في تعليمي الرسمي، لكنني تعلّمت القضايا الدينية بمساعدة منه. كان أسامة واسع الاطلاع، بحيث إنه كان نِعْم المعلّم. فوالده كان مسلماً ورعاً، طالبَ أبناءه بتشريف إيمانهم. ولم يتبع أي منهم نصيحة والده أكثر من أسامة.

أمضيت، من أجل هذا الهدف الجليل، ساعات طويلة وأنا أجلس في حديقتنا البهيجة، وأتلو بشغف القرآن الذي يضم ما أوحى به الله إلى النبي محمد (ص). والأحاديث مهمة جداً أيضاً، وهي كناية عن تقارير مكتوبة عن كلمات النبي محمد وأفعاله. ومع أن كثيراً من الدارسين ورجال الدين يستطيعون قراءة الأحادث عن ظهر قلب، فقد فوجئت بأن زوجي الشاب يتلو النصين المقدسين دون الرجوع إلى أي ورقة. وأردت أن أتمكن من الأمر ذاته.

استمرّت جدة، مدينة التناقضات الجذابة، تشكّل متعة كبيرة لي. فلا يزال نبض قلب جدة القديمة حيّاً. ويوجد فيها الكثير من البيوت التقليدية مع شرفات صغيرة ساحرة مدعَّمة بحواجب لحماية نساء المنزل اللواتي يمكنهن تمتيع أنفسهن بالجلوس بهدوء والنظر إلى الشوارع المزدحمة، يلعبن دور المراقبات للحياة بدلاً من المشاركات فيها. ويقول بعض الناس إن شرفات الأيام الخوالي المسيَّجة، شكّلت ملاذات تحمي شاغلي المنازل من الإهانات والسرقات.

تناقضت تلك المنازل القديمة مع العالم الجديد الذي يسابق لاحتضان

السعودية، بأبنية ذات مرايا تتوهج تحت شمس جدة. ووراء هذا الزجاج الغالي الثمن، يعيش الوافدون الجدد قرب سيدات صالحات مختليات وراء نوافذهن ذات الحواجب، ولا بد من أنهن تساءلن ما الذي تؤول إليه حياتهن الآمنة والهنيئة.

اتخذ زوجي قرار توظيف خادمة تساعدني في أعمال المنزل العامة ووظائف المطبخ. وكانت المرأة التي استخدمها إثيوبية لطيفة اسمها زمزم، أعتقدُ أنها سُرّت سروراً عظيما لحصولها على وظيفة في منزل تحظى فيه بالاحترام.

كان زوجي يستيقظ فجر كل يوم من تلقاء ذاته، وينهض قبل شروق الشمس بدون أي جهد كما لو أنه فترة الظهيرة. ويغادر منزلنا سريعاً سائراً إلى الجامع المجاور بينما المؤذن يدعو المؤمنين، عبر مكبرات الصوت، إلى الصلاة. يصعب على المرء التخيّل، ما لم يسمع الصوت العالي للأذان الملازم للصلاة، لكنه بدا أشبه بالموسيقى لأذني:

الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر!

أشهد أن لا إله إلا الله،

أشهد أن لا إله إلا الله،

أشهد أن محمداً رسول الله!

أشهد أن محمداً رسول الله!

حي على الصلاة! حي على الصلاة!

حي على الفلاح! حي على الفلاح!

الصلاة خير من النوم! الصلاة خير من النوم!

الله أكبر! الله أكبر!

لا إله إلا الله!

من حسن حظ السعوديين أن الحكومة أصدرت قراراً بتشييد مسجد في كل

حيّ، بحيث لا يضطر أحد إلى السير مسافة طويلة تلبية لواجب المسلمين أداء خمس صلوات في اليوم. وموعد الصلاة محدد بدقة، ويتم الالتزام به بوصفه وقتاً مخصصاً لصلاة جميع المسلمين وعبادة خالقهم. ويقفل كل متجر وكل عمل في السعودية خلال تلك الاوقات.

يُدعى إلى صلاة الفجر ما بين أول ضوء يظهر في الأفق وشروق الشمس. ويواصل الرجال المتدينون المراقبة حتى لا تفوتهم اللحظة المثلى. وتحين الدعوة إلى صلاة الظهر، ظهراً. ولا يمكنها أن تنتهي ما لم تقطع الشمس خمسة أتساع رحلتها نحو المغيب. وصلاة العصر هي صلاة بعد الظهر، تعقبها صلاة المغرب التي تجب بين الغياب والاختفاء الكامل لآخر ضوء في الأفق. وصلاة العشاء هي صلاة اليوم الأخيرة، وتُقام لحظة يتحول الضوء في السماء إلى الأصفر إلى أن يصبح مظلماً كلياً، وهي من أطول صلواتنا.

كنت، في الوقت الذي يكون فيه أسامة في المسجد، أؤدي صلواتي في المنزل، فأصلي أحياناً في غرفة نومنا، ومرّات أخرى في غرفة جلوسنا أو على الشرفة، فالنساء في السعودية لا يصلّين في جوامع الحي. لكن كل مسلم يعرف أنه لا حاجة إلى مكان خاص للصلاة، إذ يمكنه أن يركع ويسجد على الرصيف ويصلي إلى الله.

لديانتنا متطلبات كثيرة، لكنني وزوجي نقوم بواجباتنا بسرور. فما يُغبط النفس أن يرضي المرء الله بالتقوى اللازمة.

لا يطيل أسامة صلوات الفجر. وكنا، بعودته إلى المنزل، نتناول الفطور. وهو يتمتع بذوق بسيط؛ يرضى بكسرة من الخبز مع الزيت أو الصعتر، كما بأفضل شرائح اللحم. يقول لي «لا تقلقي، يا نجوى، كل ما توفّر وما يعطينيه الله، يستحق الامتنان، وأشكره على كل ما يمدّني به». وأنا، بالطبع، كنت أحرص على حصوله على فطور جيد من الجبن والخبز والبيض واللبن. وأعرف، منذ طفولتي، أن طبقه المفضّل هو الكوسى مع مخ العظام، وسرعان ما أصبح طبقي المفضّل أيضاً.

صممت على أن أقدم إليه طعاماً صحّياً لأن نهاراته كانت طويلة ومجهدة. فهو لم يكتف وحسب بالالتحاق بالمدرسة، حيث من الضروري له أن يركّز على دروسه، بل اشتغل أيضاً في أعمال العائلة، وهي مجموعة بن لادن الضخمة. واهتم كثيراً بالقيام بعمله على أكمل وجه، وكان يتابع أشغاله حتى وقت متأخر.

نشرع، بعد الفطور، في التحادث لبعض الوقت، قبل أن يبدّل أسامة ثوبه الأبيض، وهو الزي السعودي الذي يشبه قميصاً طويلاً يصل إلى الكاحل ومناسباً للصلاة وغيرها من النشاطات اليومية، ويرتدي الزي الدراسي الغربي الطراز، وهو كناية عن قميص أبيض مكوي حديثاً وسروال رمادي. افتخرت بأن زوجي فارع الطول، لكن طوله اقتضى أن يخيط له خياط خاص جميع ثيابه، بما في ذلك الزي المدرسي. وكان يعلّق أهمية كبيرة على مظهره، وتنبئني عيناي، وأنا أشيّعه من المنزل، بأنه صورة عن الكمال.

كنت أراقبه وهو يغادر المنطقة وأنا أشعر بالفراغ في داخلي لغيابه طوال النهار. كان أسامة طالباً في مدرسة التاجر النموذجية، وهي مدرسة ثانوية للصبيان فقط، لم أدخل فناءها أبداً، لكنه مرّرني، في مناسبات عدة، بالسيارة من أمامها، فرأيت أنها مؤلفة من مبنى حديث من طبقتين على مقربة من وسط مدينة جدة. افتخر أسامة بأنها أحد مشاريع العاهل السعودي الثالث، الملك فيصل، الذي أشرف على تقدّم المدرسة حتى حادثة اغتياله المأسوية في سنة ١٩٧٥. وقد تسجّل فيها أسامة أولاً وهو في الحادية عشرة، وسيتخرج منها في سنة ١٩٧٦، أي بعد سنتين على زواجنا.

قال إنه ملتحق بإحدى أفضل المدارس في السعودية، وإن البرامج الدراسية عالية المستوى، بحيث يمكن لجميع المتخرجين منها الالتحاق بأي جامعة جيدة. فكثير من أساتذتها من إنكلترا، وأسامة يتحدث الإنكليزية بطلاقة. وكان، في الوقت الذي تزوجنا فيه، يتلقى الدروس المعتادة في الرياضيات، والبيولوجيا، والتاريخ، إضافة، طبعاً، إلى التعليم الديني.

تولى، مع انتهاء دراسته فيها، مهامه في شركة البناء التابعة للعائلة. وقام، برغم موقعه كابن لبن لادن، بأصعب الأعمال وأخطرها، إلى جانب رجاله. فهو يعرف كيفية تشغيل أكبر المعدات، بما في ذلك الآلات العملاقة ذات الرفوش الضخمة التي تحفر الطرقات الجبلية. وعمل بالفعل في تعبيد الشوارع، برغم أنه يقول إنه استمتع أكثر ما يكون بحفر الأنفاق الآمنة في الصخر الصلب لجبال الصحراء السعودية.

وثق أشقاؤه الأكبر منه سناً بقدراته، برغم حداثة سنه، فجعلوه مشرفاً على مشروع بناء خاص في أبها، وهي مدينة سعودية على بعد بضع ساعات بالسيارة جنوب جدة. ويطير كثير من الناس من جدة إليها توفيراً للوقت، لكنني لم أثر الموضوع أبداً لأن أسامة خسر والده في حادثة تحطم طائرة. ثم إن زوجي امتلك ما يكفي من المال من ميراثه، ليشتري آخر طراز من السيارات التي يهوى أن يرى المدى الذي تبلغه سرعتها. وكان يقول لي، «لا تقلقي. فالسفرة آمنة وسهلة. إن والدي هو الذي أشرف شخصياً على بناء الطريق من جدة إلى أبها، وبالتالي فإنها الأفضل». عرفت أنه يقول الحقيقة، لأنني سمعت آخرين في العائلة يتحدثون عن تلك الطريق الجيدة؛ إلا أنني علمت أيضاً بأن الطريق تستغرق منه وقتاً أقل من معظم الناس، لأنه يقود بسرعة كبيرة جداً. لكنني صنت لساني عن الحديث في مثل هذه المسائل، لأنه ليس ممن يحبذون الأنثى التي تمتلك آراء مخالفة.

اتبعتُ، مع ذهاب أسامة إلى المدرسة، نظاماً محدداً. كنت أرتدي ثياب النهار، وأستمتع بكوب من الشاي مع عمتي عليا، ونناقش كل شيء، من آخر الأخبار عن العائلة المالكة، إلى تفاصيل إعادة تزويق منزلنا. وقد استمعتُ باهتمام خاص إلى كل ما تخبرني إياه من الأسرار الصغيرة حول عشيرة بن لادن الضخمة، وأردّد على مسامعها الأمور التي أعرفها من أسامة. وهي لم تلتقِ أي فرد من العائلة منذ نحو خمسة عشر عاماً، ولا تزال برغم ذلك تعرف الكثير عن أخبارهم الخاصة.

أخذت أعرف شيئاً فشيئاً عن آل بن لادن، برغم خجلي لدى حضوري

المناسبات العائلية، لكوني واحدة من أحدث الزوجات وأصغرهن سناً. كنت أجلس بهدوء وأستمع، بينما الزوجات الأكبر سناً يتحدّثن. وأتخيل، في نظرة إلى الوراء، أنه لا بد من أن الأكثر خبرة بينهن، قد أصابهن القلق لعدم وجود أي فكرة في رأسي، برغم أن الأمر لم يكن على هذا المنوال.

وأذكر مرة، في أحد الاجتماعات النسائية، أن إحدى شقيقات أسامة الأكبر سناً، أخبرت نكتة عائلية مفادها أن ثلاثة من أبناء بن لادن هم من «المجانين والمعتلّين». ضحكت الشقيقة وهي تقول: «المجنون الأول بالسماء، وهو سالم الطيار، ويبلغ من التهور في قيادة طائرته، درجة يخشى فيها الجميع من أن كل طلعة من طلعات طيرانه ستكون الأخيرة. والمجنون الثاني بالبحر، وهو لادن الذي يبحر بمركبه بلا انقطاع، مسبباً لعائلته الخوف من أنه قد يختفي، في يوم من الأيام، في لجة البحر، أو في حادث زورق. والمجنون الثالث بالأرض، وهو أسامة الذي يقود سيارته بسرعة كبيرة جداً في الصحراء، ثم يقفز ليتسلّق جبلاً وعراً يعصى على أي إنسان، ونخشى أن يقتل أسامة نفسه من جراء تهوره في القيادة».

عرفت أن النساء يمزحن، وأن زوجي وشقيقيه ليسوا مجانين. تحوّل المزاح إلى حقيقة لاحقاً، وصحّت مخاوف نساء بن لادن عندما مات سالم بعد ذلك بسنوات قليلة في حادث تحطم طائرة.

تعلق زوجي كثيراً بالطبيعة أكثر من أي شخص أعرفه، إضافة إلى ولعه بالسيارات ذات المحركات الكبيرة والسريعة، فلا يُرضيه شيء أكثر من قضائه يوماً كاملاً يقود فيه بسرعة في الصحراء، حيث يترك سيارته ليقوم برحلات طويلة. وحرص كثيراً على كل ما هو من مخلوقات الله، وصولا إلى أصغر نبتة أو حيوان موجود على أرضنا.

كنت، بعد زيارتي عمتي عليا، أقرأ القرآن وأكرّس بضع ساعات من وقتي في حديقة العائلة لمزيد من دراسة ديننا، وأتصل أحياناً بوالدتي لتسقُّط آخر أخبار العائلة في سورية. وبرغم أنني أعيش لحظات من الاكتئاب لكوني بعيدة

جداً عن أهلي وأشقائي، فالحزن لم يغزُ حياتي لأنني عرفت أنني موجودة إلى جانب زوجي، تماماً حيث أنتمي.

كنت أمضي الوقت نهاراً في هواياتي المتنوعة. واهتممت بنوع خاص بالتخطيط للمنزل الذي سيجمعنا أنا وأسامة بعد تكوين عائلتنا. وحلمت، وأنا أنظر إلى صور المنازل المزوّقة بأناقة، بأنني سأحظى بفرصة تأثيث منزلي الخاص وتجميله. وأكد لي أسامة، بابتسامة، أنني سأكون المسؤولة كلّيا عن التزويقات.

اهتممت أيضاً، بُعيد وصولي إلى جدة، بخياطة ملابسي الخاصة. واستمتعت، برغم بساطتها، بقراءة مجلات الموضة واختيار التصاميم التي تعجبني، فأقوم من ثم برسم المقطع بإتقان على ورق رقيق. وفي حال توفر المواد، أقص القماش بعناية وأخيط القطع معاً. وإلا فإنني أرسل السائق لشراء المواد اللازمة. ولم يكن سهلاً أبداً أن أجعل سائقنا المرتبك، الذي عاش معظم حياته في قرية صغيرة في اليمن، يدرك أهمية الوزن المحدد للقماش النسائي ولونه. وأنا أضحك اليوم عندما أفكّر في تلك المحادثات التي تجلب العذاب، برغم انها لم تكن مسلّية في ذاك الوقت.

لكن هذه ما كانت عليه الحياة في السعودية؛ إذ نبقى، نحن النساء، معظم الوقت في عزلة. نادراً ما أحسست بالإحباط، سوى أنني أشعر أحياناً بأعصابي تتوتر وتحتاج إلى مشهد مختلف. وعندما يحصل ذلك، تنبري عمتي عليا لمواكبتي في رحلة نادرة إلى المؤسسة التجارية لاختيار ما يلزمني وأحتاج إليه من الأقمشة الجميلة.

ولمثل هذه النزهات إحباطاتها. فغالباً ما قرأت إعلانات على نوافذ متاجر الأقمشة النسائية وأبوابها، تعلن أن الدخول ممنوع على النساء. فمعظم المتاجر التي يملكها سعوديون، يديرها رجال من بلدان أخرى، مثل باكستان والهند ودول عربية عدة. ومعظم النساء المسلمات لا يشعرن بالراحة في التحادث مع رجل من غير عائلاتهن، في حال سُمح للإناث بدخول المتجر.

كنت أصيب النجاح أحياناً، برغم العراقيل، وتصبح جائزتي ثوباً رائعاً ارتديه لزوجي، أو أعرضه في إحدى المناسبات التي تلتقي فيها نساء العائلة. وأضطر في مرات أخرى إلى رمي الثوب في سلة المهملات.

استمررت في الرسم على القماش، وإن بنسبة أقل من قبل. وواظبت على القراءة، إلا أنني أقرأ في الأغلب التعاليم الدينية، لأن هدفي أن أصبح أكثر معرفة بإيماني.

شغلتني هواياتي برغم بقائي وحدي ساعات طويلة كل يوم. وغالباً ما كنت أنهك نفسي في فترة الظهيرة، وأحتاج إلى قيلولة طويلة. وقد درّبت نفسي على الاستيقاظ والنهوض، ولدي متسع من الوقت لأهتم بمظهري قبل عودة زوجي إلى المنزل في المساء.

كنا، بعودة أسامة، نناقش قليلاً مجريات يومه ويومي، ثم نتناول طعام العشاء. نأكل أحياناً وحدنا، وفي الأغلب مع عمتي عليا وعائلتها، وهو أمر ممتع كثيراً. ونقطع بالتأكيد كل حديث اجتماعي لأداء جميع الصلوات المفروضة، حيث يخرج الرجال مسرعين إلى الجامع، والنساء يصلّين في المنزل.

كان زوجي ينضم، بعد الوقت المخصص للعائلة، إلى غيره من الرجال، فيخوضون في نقاشات منفعلة في السياسة والمواضيع الدينية. ومن الشائع في السعودية، أن يقضي الرجال أمسياتهم مع أصدقائهم الرجال بدلاً من زوجاتهم وعائلاتهم. يجتمعون في منازل متنوعة في أمسيات مختلفة، حيث توجد غرفة مخصصة لهم وحدهم. يشربون الشاي أو القهوة، وبعضهم يدخن السجائر، ويتمتعون بحسن رفقة أقرانهم.

وأنا، على غرار جميع النساء في السعودية، لا أحضر أبداً مثل هذه اللقاءات، بل أبقى مع النساء في المنزل. ومع عودة زوجي، يأوي الجميع إلى الفراش. وكان أفضل الأوقات عندي هو وقت النوم.

أصبحت لي، بعد سنوات من العيش في جدة، صديقات تعرّفت إليهن والتقيتهن عن طريق عمتي عليا. أخذنا نزور منازل بعضنا البعض في المناسبات، ونناقش أحياناً مسائل متعلقة بأزواجنا وحمواتنا. وكنت واحدة من بين قلة من الزوجات الجديدات، التي لا أشتكي من زوجي، أو من زواجي، ولا من حماتي.

وشكّل عيشي على مقربة من مكة المكرمة، أقدس المدن الإسلامية، واحدة من النِّعَم الكثيرة في حياتي، فهي لا تبعد سوى خمسين ميلاً عن منزلي. صحيح أني شعرت بعاطفة كبيرة حيال جدة، لكن مكة هي المدينة التي أحببتها أكثر من كل شيء.

وُلد نبينا محمد في مكة، وقلب المدينة هو المسجد الحرام، أقدس المساجد الإسلامية. لهذا، يمضي المسلمون في جميع أقصاع الدنيا سنوات طويلة يحلمون باليوم الذي ستتبارك فيه أعينهم السعيدة برؤية المدينة المكرمة، وتطأ أقدامهم أرضها الرملية.

تشوّق أسامة إلى اصطحابي إلى هناك بُعَيْدَ وصولي إلى جدة. وكان منبع شوقه هذا، ليس فقط الأسباب الدينية الواضحة، بل أيضاً لأنه يفتخر بأن حكام المملكة اختاروا عائلته لصيانة المساجد المقدسة في مكة والمدينة، وهو شرف كبير لأي مسلم.

أتذكّر حماستي الكبرى في الرحلة القصيرة بالسيارة إلى مكة. لا يستغرق السفر من جدة إلى هناك سوى ساعة، وأقل من ذلك إذا أمسك أسامة بالمقود. ترتفع مكة تسعمائة وعشر أقدام عن سطح البحر، وبالتالي فإن الطريق العامة تتصاعد ببطء إلى هذا الارتفاع. لم يُحضّرني شيء أبداً للمشاعر التي تملّكتني في اللحظة التي تراءت فيها المدينة لناظري، ورأيت المشهد الذي يتشوق كل مسلم إلى مشاهدته.

سرعان ما وطأت قدماي الأرض، وسرت في ذهول حالم في اتجاه المسجد الحرام. ومن سوء الحظ أنني سرعان ما وجدت نفسي وقد تشتت

ذهني. ارتديت الحجاب احتراماً لرغبة أسامة، برغم أن ارتداءه في المسجد الحرام في مكة ليس إجبارياً.

لم أكن قد اعتدت بعدُ على الحجاب. وبرغم أن النساء السعوديات اللواتي تعوّدن على العباءة، يَبدين غيداوات وأنيقات، فإن الجديدات على لبسها لسن على هذا القدر من الرشاقة. يُثبَّت حجاب الوجه في مكانه بدبابيس الشعر، بينما يتم إقفال العباءة بالإمساك بها باليد اليمنى، وتضطر معه مرتديتها إلى تنسيق الكثير من الحركات. وأذكر، بسبب قلّة خبرتي، قلقي من أنني قد أكشف، عرضاً، عن وجهي أو عما أرتديه تحتها. وضعت أولاً حجاب الوجه، وبعده وشاح الرأس، ثم أمسكت أطراف الثوب بقوّة بيدي اليمنى. وصلّيت، وأنا أسير عبر منطقة المسجد الهائلة، كي لا أفعل ما يلفت الانتباه، فأحطّ من قدر نفسي أمام المصليات الأخريات.

كنت شبه متأكدة من أنني بدوت حمقاء، وأنا متمسكة بقوة بثوبي وأخطو كل خطوة بحرص كبير. وفجأة، قفزت إلى ذهني، في هذا المكان الأكثر قداسة، صورة هزلية غير مستحبّة. تذكّرت قصة قرأتها وأنا طفلة عن طائر أسود كبير خُدع ليفلت قطعة الجبن. دارت حكاية الأطفال هذه في رأسي كالدوامة كما لو أن أحداً ضغط على زر آلي. ولم أتمكن من انتزاع هذه الحكاية من رأسي، برغم توقي الشديد إلى التمتع بهذه اللحظة المقدسة:

«جلس غراب مرّة عالياً على الشجرة

وفي منقاره قطعة مستديرة لذيذة من الجبن.

جاء ثعلب مكّار كأبناء جلدته،

وفكّر: «أود لو أحصل على قضمة من هذا الجبن».

«يا غراب»، نادى الثعلب، «لو أن لصوتك نصف جمال ريشك،

فسيشنّف غناؤك أذنيّ وأنت تُنشد نغمة صغيرة».

لم يسبق للغراب أن سمع أحداً يقول أمراً لطيفاً كهذا.

فتح منقاره وأخذ في النعيق والغناء،

وسقطت الجبنة في فم الثعلب المنتظر.

فنعق الغراب، «آه، لا! حصلتَ على جبنتي».

وأخذ الثعلب في هذه الأثناء يلعق شفتيه، ويقول:

«أنت تحصل على الثناء، وأنا أحصل على الجبنة!

إنها صفقة عادلة!».

فهل افتقاري إلى الرشاقة هو الذي جعلني بارزة للعيان، أشبه بغراب أسود كبير؟ أثارت الفكرة مخاوفي، ثم ضحكاتي العصبية. تعازكت مع أفكاري السرّية إلى أن ساعدني الوقع الانفعالي للمسجد وقربي إلى الله، على تهدئة ذهني ومحو تلك الصورة الغريبة. أسرعت في السير بلا رشاقة وسط الكثيرات من النساء السعوديات اللواتي يَنْسَبْنَ برشاقة راقصات الجليد الماهرات، ذاتها.

في الوقت الذي عثرت فيه على البقعة المخصصة للنساء، كان العصفور الأسود قد طار. لم أكشف لزوجي أبداً عن أفكاري غير اللبقة، لأن مثل هذه الاستهانة بالمقدسات ستثير غضبه. شعرت بالتواضع وأنا أركع لأتلو للّه الصلوات التي أحسست برهبتها في قلبي، لأنني عرفت أنه سيغفر لي خطاياي، الكبيرة منها والصغيرة. وسرعان ما ملأت مثل هذه الروعة روحي، ففاضت عيناي بالدموع الغزيرة التي انهمرت على خدّي.

أخذت، في غضون عام من الزواج، أشعر بالغرابة في جسمي. أسررتُ إلى العمة عليا بالأمر، فقالت لي إن جميع الدلائل تشير بوضوح إلى أنني حامل.

شكّل انتظار المولود إحساساً جميلاً لم يسبق أن شعرت بمثله من قبل. فرح أسامة كثيراً بالخبر، وأعرب، على غرار جميع الرجال السعوديين، عن رغبته في أن يكون مولودنا الأول صبياً. فكّرتُ في قرارة نفسي في أنه من الأفضل أن يكون مولودنا الأول صبياً، إلا أنني لطالما أردت بنتاً صغيرة أتمكن

من إلباسها ثياباً ذات كشاكش، ومن تضفير شعرها الطويل. وأنا في الحقيقة، كحال معظم الأمهات، لم أشأ سوى أن يرزقني الله بطفل يتمتع بالصحة.

طار الجميع فرحاً بالحدث المنتظر، واستمر زوجي وعائلته في الحرص على صحتي وحالتي الذهنية طوال الأشهر التسعة كلها. وهكذا، أصبحت حاملاً مدلّلة. لم أحتج إلى شيء إلا وحصلت عليه، وأشكر الله على أنني لم أعانِ خلال الأشهر التي سبقت ولادة طفلي الأول. وصل الخبر السعيد إلى أهلي، وفرحوا هم أيضاً، برغم حزنهم لعدم وجودهم مع ابنتهم في تلك المناسبة السارة.

فوجئت، بعد هذا الحمل السهل، بدرجة صعوبة الولادة وآلامها. لم أذهب إلى المستشفى، بل تولّت رعايتي في المنزل قابلة قانونية محترفة. وقد بلغت عذابات الولادة حداً مبرحاً إلى درجة أن زوجي القلق أعلن أنه «من الآن وصاعداً، ستُنقل نجوى إلى المستشفى عند ولادة أطفالنا».

لم أسعد أبداً برؤية وجه بقدر ما سعدت برؤيتي وجه مولودنا الأول. وأشكر الله على نِعَمه لأنه أتاني بطفل صحيح الجسم. أسمينا ابننا الصغير عبد الله، وانشرح صدرانا كثيراً لوجوده بيننا. حصلت تلك الولادة منذ زمن بعيد، في سنة ١٩٧٦، إلا أنني أتذكر حصول مشاكل في إرضاعه. كنت أماً صغيرة وعديمة الخبرة، ولا أعرف الأجوبة عن جميع الأسئلة. ومن حسن الحظ أن ذلك كلّه، وجد حلاً له مع الوقت، وترعرع ابننا ليصبح ولداً يتمتع بصحة جيدة.

استخدم أسامة، بعد ولادة عبد الله، خادمة أثيوبية ثانية اسمها نعيمة. يا لها من أيام سعيدة! كنا زوجين جديدين بدون المشاكل العادية التي يعانيها أغلب المتزوجين حديثاً. سررنا بابننا الذي يتمتع بالصحة، وتمتعنا بعلاقات وثيقة مع أهلنا من الجانبين، وامتلكنا ما يكفي من المال لقضاء حاجاتنا. كنّا ممن أُنعم عليهم.

كم أتمنى لو أننا بقينا في ذلك المكان السعيد إلى الأبد.

بلغ انشغالنا بعائلتنا الشابة، وانصراف زوجي إلى عمله ودراسته، حداً مرّ به الوقت بسرعة البرق. بدا كل شيء على طبيعته بالنسبة إلى قلبي وذهني، وبرغم ذلك أخذ كل شيء يتغيّر.

أصبح عبد الله، في غضون سنة على ولادته، طفلا عزيزاً في أول مشيته، وأنا حملت من جديد. وأنعم علي الله في سنة ١٩٧٨، في السنة ذاتها التي انتقلت فيها من المراهقة وصرت في العشرين، بابن ثانٍ أسميناه عبد الرحمن.

شعرت، في مطلع سنة ١٩٧٩، وأنا حامل من جديد، بأن الله سينعم علي هذه المرة بابنة بالتأكيد. أصبحت موضع حسد الكثيرات من النساء السعوديات، لأن عاداتنا وتقاليدنا تعطي قيمة عظيمة للأبناء؛ إلا أنني حلمت سرّاً بفتاة صغيرة.

التحق زوجي، الذي سيبلغ قريباً الثانية والعشرين، بالمعهد في جامعة الملك عبد . زيز. تعلّق مقرره الدراسي الأساسي بالاقتصاد والإدارة، لكنه أولى اهتماماً خاصا بصفوف الدين. وكرّس أيضاً وقتاً لعمل الخير المهم جداً للمؤمن الحقيقي.

استمعت عَرَضاً، برغم أنني لم أنغمس قط في الحياة العامة، إلى مختلف النقاشات حول الأحداث التي تدور في العالم. سمعت شيئاً عن الاضطرابات في إيران، الدولة المسلمة المجاورة للسعودية، حيث يعبّر المتظاهرون عن استيائهم من الشاه ويفضّلون بدلاً منه حكومة دينية. وبالفعل، أُجبر الشاه وعائلته، في كانون الثاني/يناير سنة ١٩٧٩، على الهرب، مفسحاً المجال أمام رجل دين اسمه الخميني لحكم ذلك البلد الكبير.

ولاحظت، وقد أصبح زوجي أكبر سناً وأكثر ثقافة، أن إدراكاً جديداً وأكثر اتساعاً للعالم الخارجي، أخذ يشغل ذهنه. وسيعلّق، من وقت إلى آخر، على خيبته من سياسات العالم، وبخاصة من أنه لا يُنظر إلى الإسلام باحترام أكبر. لم يَرْتَبْ أحد في عائلتنا بوعيه السياسي الجديد وتدينه، بل تلقى أسامة الكثير من الثناء على اهتمامه الشديد بنصرة الاسلام.

عاد زوجي في إحدى الأمسيات إلى المنزل بإعلان مفاجئ: «نجوى، سنسافر إلى الولايات المتحدة، وسيرافقنا ولدانا».

صُدمت، لأقول الحق، لأن تلك شكلت المناسبة الأولى التي سأرافق فيها أسامة في رحلة. كان عبد الله في ذلك الوقت صبياً يكاد يُحسن المشي، وعبد الرحمن لا يزال رضيعاً أحمله بين ذراعي، وعمره أقل من سنة. لا أذكر تفاصيل كثيرة عن سفرنا، لكوني حاملاً ومنشغلة بطفلين، ما عدا أننا مررنا بلندن قبل أن نطير إلى مكان لم يسبق لي أن سمعت به، وهو ولاية أميركية تدعى إنديانا. أبلغني أسامة أنه سيلتقي رجلاً اسمه عبد الله عزّام، واكتفيت بما عرفته، ولم أطرح أي سؤال لأن أعمال زوجي لا تعنيني.

قلقت على عبد الرحمن لأنه مرض كثيراً خلال السفرة وعانى كذلك ارتفاعاً في حراراته. تدبّر لنا أسامة رؤية طبيب في إنديانا بوليس. واسترخيت بعدما أكد لنا ذلك الطبيب اللطيف أن ابننا سيكون قريباً بخير.

عندما يكتشف الناس، بدون توقّع، أنني زرت الولايات المتحدة، يسألونني أحياناً عن رأيي الشخصي في تلك البلاد وشعبها. والمستغرب أنه تصعب الإجابة عن ذلك. لم نُمضِ هناك سوى أسبوعين، كان أسامة في أحدهما في لوس أنجلس لمقابلة شخص ما في المدينة، وتركني والصبيين في إنديانا مع صديقة أفضّل ألا أسمّيها، حفاظاً على خصوصيتها وسلامتها.

تلطّفت صديقتي وأرشدتني في رحلات قصيرة خارج منزلها، لأنني ما كنت أبداً لأغامر وحدي. حتى أننا ذهبنا إلى مركز كبير للتسوق في إنديانا بوليس.

دُهشت لأن المنظر الطبيعي بدا مسطحاً كثيراً، ويختلف في أوجه كثيرة عنه في السعودية. أما مواطنو الولايات المتحدة بحسب ما اختبرته في تلك الرحلات الوجيزة، فأعتقد أنهم طيبون ولطفاء، ويسهل التعامل معهم. أما بالنسبة إلى البلد بحد ذاته، فأنا وزوجي لم نكره أميركا، لكننا لم نحبها أيضاً.

حصلت معي حادثة ذكّرتني بأن بعض الأميركيين لا يعرفون الثقافات الأخرى. لمّا حان وقتنا لنغادر الولايات المتحدة، انتظرنا، أنا وأسامة مع

الصبيين، خروجنا في مطار إنديانا. جلست في كرسيي بهدوء، مسترخية، وشاكرة لأن ولدينا هادئان.

حذّرتني، فجأة، غريزتي بالنظر من حولي. وبالفعل، رأيت رجلاً أميركياً ينظر إلي بجفاء. عرفت بدون سؤال أن التفاتته غير المرحَّب بها، قد جذبها زيي السعودي الأسود المؤلف من حجاب الوجه، ووشاح الرأس، والعباءة. وقد أنهك الرجل الفضولي نفسه وهو يمشي أمامي جيئة وذهاباً.

لم يتبادر إلى ذهنه أن عيني مثبتان أيضاً عليه من تحت الحجاب. كاد ذلك الرجل المضحك يُتلف حذاءه وهو يأتي من جهة ثم يذهب من أخرى، وكل مرور يقرّبه إليّ أكثر. فغر فاه دهشة، وجحظت عيناه الفضوليتان أشبه بحشرات كبيرة تبرز من جمجمته، وتوقف فجأة وقد فتح فمه تعجباً عند وجهي المحجب. لم أنفعل، طبعاً، برغم أنه استغرق ما يكفي من الوقت للتحديق فيَّ من كل زاوية ممكنة.

تساءلت عمّا يفكّر فيه زوجي. فألقيت عليه نظرة جانبية، ورأيت أنه يتمعّن بحذّةٍ في الرجل الفضولي. عرفت أنه لن يسمح له أبداً بالاقتراب مني، لذا لم يعترني القلق في شأن ما قد يحصل.

شعرنا، لما ناقشنا، أنا وأسامة، الحادثة لاحقاً، بالتفكهة أكثر من الإهانة. جعلنا الرجل نضحك من قلبنا، إذ اتضح أن لا معرفة له بالنساء المحجبات، ولا أن المرأة يمكن أن تغطي وجهها وجسمها بالحجاب الأسود، لأنها هي اختارت القيام بذلك.

عدنا إلى السعودية، ولم يكن ذلك أسوأ اختياراتنا.

لحسن الحظ، تحسنت صحّة عبد الرحمن، وتيسّرت أموري مع ولادة ابننا الثالث. جاءنا سعدٌ طفلاً مبتسماً. وتلقى أسامة، طبعاً، التهاني الكثيرة لكونه والداً لثلاثة أبناء على التوالي.

شهدت سنة ١٩٧٩ مزيداً من الحوادث الدرامية، وجلبت مزيداً من القلق على المسلمين، برغم أنني كنت، في الحقيقة، منشغلة في تربية ثلاثة أطفال، فلم أنتبه إلى الكثير مما يدور في العالم خارج جدراني الأربعة.

انعكس حدث واحد سلباً على عائلتي، وبخاصة على حياة أبنائي المولودين والذين سيولدون. فقد اجتاح الاتحاد السوفياتي أفغانستان في سنة ١٩٧٩، وجرّ معه احتلالاً غاشماً لإخواننا المسلمين. وبرغم أن كثيراً من السعوديين والمسلمين من بقاع أخرى، هالهم الهجوم، بدا زوجي أكثر اضطراباً من أغلبهم. تسقّط على نحو دائم أخبار ما يحصل في ذلك البلد، إن من مصادر إسلامية، أو من وسائل إعلامية دولية. وكلما عرف أكثر ازداد قلقه، وتضاعف.

لم أملك أي فكرة عما يُحتمل أن يحصل في تلك الأرض البعيدة، سوى أنه، مهما كان، أثّر في زوجي كثيراً. ولمّا استجمعت شجاعتي للإلحاح على الحصول على المعلومات، اكتفى أسامة بالقول إن شرّاً مستطيراً قد حل بالارض المسلمة. وبلغ به الاستياء حدّاً أكبر بكثير مما سبق لي أن رأيته عليه في ما يتعلق بأخبار نساءٍ واطفالٍ مسلمين أبرياء يُسجنون أو يُعذَّبون حتى الموت.

ولا بد من أن الروايات التي يعرفها، ويرفض مشاركتي فيها، مرعبة لأنه يبدو أن قلبه قد اكتوى اكتواءً مريعاً.

عند هذا الحد كان أسامة قد بلغت به الحال ذروتها، وردود فعله هي ردود فعل رجل يعرف ما عليه القيام به. سار في طليعة الحملة السعودية لتقديم العون إلى إخواننا المحاصَرين في أفغانستان. في البداية، ركزت حملته التي لم تهدأ، على جمع المال لمساندة زعماء القبائل في أفغانستان الذين يخوضون حرباً بكل ما في الكلمة من معنى ضد الغزاة. حصلت حملة ناجحة لجمع المال في المساجد وداخل وحدات عائلة بن لادن، لأنها كانت عائلة سخية جداً. أراد الجميع المساهمة، لكن قلة هم الذين عملوا جاهدين أكثر من أسامة لجمع المال لمصلحة الضحايا الأفغان.

وسرعان ما أخذت الحرب في أفغانستان تستولي على حياة زوجي.

وضع أسامة خططاً للسفر إلى باكستان، البلد المجاور لأفغانستان، حيث يعيش عشرات الملايين من المسلمين. وقال إنه سيأخذ أموال التبرعات التي جمعها ويشتري الغذاء، والمواد الطبية، والأسلحة. وسينظم، بعد وصوله إلى باكستان، الشاحنات، وإعلام سائقيها بكيفية تسليم المؤن إلى المقاتلين الأفغان.

فاجأني أسامة، قبل أن يسافر، بشراء مبنى كبير مؤلف من اثنتي عشرة شقة، في مكان غير بعيد عن منزل والدته، وقال إنه سيصبح منزلنا الجديد. اجتاحتني مشاعر متباينة: سُررت لأن عائلتنا الآخذة في الازدياد تحتاج إلى مساحة أكبر، وحزنت لأنني تعوّدت عِشْرة والدته وأفراد عائلتها الذين أحبهم جميعهم.

أخذني أسامة لرؤية مبنانا الجديد الموجود في قرية عزيزة الرقم ٨، على مقربة من شارع المكرونة. وهو مبنى مشُيّد بتصميم جميل، بحجارة باهتة اللون. دهشت بعض الشيء لحجمه، وفكرت في نفسي في أنه لن يمكنني أن أُرزق بما يكفي من الأطفال لملء ذلك المبنى الضخم.

شاهدت، مع أول خطوة لنا فيه، أنه يحتوي على كثير من الغرف غير المزوّقة، زُينت بغير تكلّف بالسجاد الفارسي التقليدي وبالوسادات ذات النمط العربي المصفوفة إلى الجدران. لطالما تخيّلت منزلنا مزيّناً بالستائر والأثاث والتزويقات الخاصة، لكن من يعلم متى يعود أسامة من باكستان؟ وكيف لي أن أتدبّر بغيابه إعادة تأثيثه، ويستحيل عليّ التجول في المدينة وحدي لشراء أثاث جديد.

بُعيْدَ خروجنا معاً، تدبّر أسامة انتقال العائلة إلى المبنى الجديد، ثم غادر جدة متوجهاً إلى باكستان.

أمكنني أن أرى أن ذهن زوجي، برغم أنه لم يكفّ مرة عن أن يكون شريكاً لطيفاً، يفيض بالأمور التي لا علاقة لها بمنزلنا أو بأولادنا. قدّمت إليه الدعم الدائم، وصرت أتوق إلى النجاح في ساحة المعركة، لسببين: الأول، ليتمكّن الأفغان من أن يعيشوا بدون خطر ويعيدوا بناء دولتهم المخرّبة؛ والثاني

ليعود زوجي ووالد أطفالي إلى المنزل فنتمكن من مواصلة الحياة التي عرفناها سابقاً.

وهكذا، وجدت نفسي وحدي مع ثلاثة اطفال.

ومن حسن الحظ أنني لم أدرك أننا لن نستعيد حياتنا العادية. ومنذ ذلك الوقت وصاعداً، أصبح أسامة، في أكثر الأحيان، بعيداً عن السعودية. ولم يُمسِ المبنى الضخم، ذاك المنزلَ الأنيق الذي تصوّرته خلال سنوات الزواج الأولى تلك.

صارت حياتي أشبه بدولاب سريع الدوران، حتى مع وجود خادمتين للمساعدة على تربية الصبيان الثلاثة، وسائق مسؤول عن تأمين حاجاتنا. لم أُرد أن أفوّت لحظة من طفولة ابني، لذا غالباً ما حلّ بي التعب. وإضافة إلى إعيائي الشديد، وجدت نفسي حاملاً من جديد في تموز/يوليو سنة ١٩٨٠.

رفس الطفل الجديد الذي حملته بحماسة قوية، إلى درجة أنني تألمت ظَهْراً لبطن. ومن المؤكد أنه بعد ثلاثة أبناء جاء وقت أنثى جميلة، بيد أنه يصعب تخيّل أن الطفل الذي يتفجّر بمثل هذه الطاقة في داخلي، هو فتاة رقيقة. لا بد أن يكون ذَكَراً.

من حسن الحظ أن أسامة انتبه إلى وضع علامة على التاريخ في آذار/مارس ١٩٨١، وعاد من باكستان ليبقى إلى جانبي عندما حان موعد وضعي. وتحمّس كما في مراتنا الثلاث الأولى عندما قلت له إن عليّ الذهاب إلى المستشفى. تحوّل زوجي إلى رجل يؤدي مهمة؛ أجلسني في سيارته وسابق بي الريح إلى مستشفى بقشان. سار بي في أحياء جدة بسرعة هائلة بانت معها المباني المألوفة مغبّشة.

شعرت بأنني أكثر النساء حظّاً في العالم، برغم حدة آلام المخاض التي تبرّح جسمي.

ملاحظة عن نشاطات بن لادن السياسية

جين ساسون

خلال السنوات التي تزوجت فيها نجوى، وانتقلت إلى السعودية، وأخذت تلد الأطفال، أنهى أسامة بن لادن تعليمه الثانوي في مدرسة التاجر النموذجية في جدة، والتحق سنة ١٩٧٦ بجامعة الملك بن عبد العزيز في المدينة ذاتها، حيث درس الاقتصاد والإدارة. وتقول نجوى، برغم وجود تقارير تخبر العكس، إن أسامة لم يتخرّج أبداً من جامعة الملك بن عبد العزيز، بل تركها بعد ثلاث أو أربع سنوات من الالتحاق بها، قبل فصول قليلة على تخرجه. فقد دفعته صحونه الشخصية إلى الانتقال إلى الحركة السياسية التي اكتسحت الشرق الأوسط بأسره، الذي مرّ في الواقع، خلال سنوات التنشئة الدراسية لبن لادن، بنهضة إسلامية، دُعيت بالصحوة. ويمكن اقتفاء بداياتها إلى حرب سنة ١٩٦٧ مع إسرائيل، عندما حلّت بمصر، والأردن، وسورية، هزيمة عسكرية نكراء. حينذاك شرعت ألوف كثيرة من الشبان العرب في التشكيك في زعمائهم، والتساؤل عن مشاكل بلدانهم الداخلية، إضافة إلى خسائرهم في مواجهة إسرائيل. وزادت قوة الصحوة الإسلامية، عندما أخذ كثير من الشبان العرب يطالبون بالتغيير.

أخذ ولع أسامة بالجهاد، أو الحرب المقدسة، في التبلور، برغم أنه كان هادئاً سياسياً في خلال تلك السنين. والتقى، في خلال ذلك الوقت، مرشده الأول، الناشط الفلسطيني عبد الله عزام، الذي أوحى إليه بتكريس حياته لأمر غير زيادة ثروة آل بن لادن.

وُلد عبد الله عزام سنة ١٩٤١ في الحارثية في فلسطين، زمن الاحتلال البريطاني للبلاد. والتحق بمدرسة قريته قبل أن يدرس في معهد الخضري، ثم عمل مدرّساً في الاردن قبل أن يحصل على البكالوريوس في الشريعة من دمشق.

وقد هرب إليها، بعدما احتل الإسرائيليون الضفة الغربية إثر انتصارهم في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين الفلسطينيين.

في الأردن، أصبح عبد الله عزام عضواً في ائتلاف المقاومة الفلسطينية، لكن ازدراءه الحكام العرب، أخذ في التزايد، لإيمانه بأن الحاليين منهم مرتاحون كثيراً في الحفاظ على الوضع القائم. وصمّم على أنه على العرب إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط التي وضعتها بريطانيا العظمى وفرنسا غداة الحرب العالمية الأولى.

ثم اشتعلت سنة ١٩٧٨ نار الاضطرابات التي كانت موضوعة على نار خفيفة في أفغانستان. وضغط السوفيات لمزيد من النفوذ في المنطقة، فدعموا انقلاباً لإحلال حكومة شيوعية خالصة. وأطاح انقلاب ثانٍ بالحكومة الشيوعية الحاكمة بأمر غيرها، واغتيل الرئيس الأفغاني ومعظم أفراد عائلته. وما لبث أن نُصّب رئيس مدعوم من روسيا على العرش، واجتاحت الدبابات السوفياتية والجنود كامل أفغانستان في كانون الأول/ ديسمبر/ سنة ١٩٧٩.

وفي شكل شبه فوري، شن المجاهدون المسلمون الجهاد ضد الروس «الملحدين». وساندت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ودول إسلامية أخرى المجاهدين. وفوجئ السوفيات بالمقاومة الشديدة، وسرعان ما بدأوا يتكبدون خسائر جسيمة.

أصبح أسامة، وقد استهوته رسالة عبد الله عزام السياسية، جاهزاً ذهنياً للرد على الغزو السوفياتي لأفغانستان. وسرعان ما غادر المعهد بعد ذلك لتكريس حياته للعمل لمصلحة مقاتلي المقاومة الأفغانية المعروفين بالمجاهدين. كان عبد الله عزّام رفيقه، وقد التقى الرجلان في بيشاور، باكستان، عند الحدود مع أفغانستان، وعملا عن قرب لتنظيم طريقة تسليم الغذاء، والمعدات الطبية، والأسلحة، إلى المجاهدين.



سرعان ما اكتشفت أن طفلي الرابع هو صبي آخر بالفعل. لفّ الفرح الشديد كل من حولي عندما لم يعلن الطبيب عن ولادة ابنة، وسرعان ما تورّد وجهي سروراً بعد لحظة الخيبة التي انتابتني. وذكّرت نفسي بأن كثيرات هن النساء اللواتي لا يستجيب الله طلباتهن بالحصول على أبناء.

تصل درجة تفضيل الصِّبْية الذكور في السعودية إلى حد اعتبار المرأة التي لا تلد إلا ذكوراً، مُباركة من عند الله نفسه. وشاهدت، الآن وقد رُزقت بأربعة أبناء، كثيراً من الوجوه الحاسدة.

أطلقنا، أنا وزوجي، على مولودنا الرابع اسم عمر أسامة بن لادن. أعترف بأنني، من اللحظة التي نظرت فيها إلى عيني ذلك الطفل المعبّرتين، احتفظت له بعاطفة خاصة. شدّني في صميمي شيء في عمر، برغم أنني أحببت جميع أولادي ملء جوارحي. وربما لهذا السبب، أرضعت عمر أكثر من أي ولد آخر من أخوته.

سُرّ أسامة كثيراً. وكرّر أكثر من مرّة أن ولادة أبنائنا هي في يد الله، وأن عمر عطية منه، وبركة أخرى تنزل على عائلتنا المتنامية.

سرعان ما قام زوجي برحلة أخرى إلى باكستان لمساندة أخواننا المسلمين في أفغانستان. استغرق بعض الرحلات أكثر من شهر، ما وفّر لي الوقت

الإضافي لأتلهّى بالصغير عمر. لاحظت في أحد الأيام أن شعر عمر الأشقر آخذ في النمو. وشرعت، بدون تفكير، في تجديله وترتيبه في تصفيفات متنوعة على آخر طراز، وبعضها كان يشبه الضفائر التي رأيتها معقودة على ذيول بعض من أحصنة زوجي.

كان عمر طفلاً جميلاً على نحوٍ غير معهود، إلى درجة أن نزعاتي أخذتني إلى ما هو أبعد من تصفيف الشعر. وجدت نفسي أصمم ثياب فتاة صغيرة، وأخيطها، مستخدمة عمر عارضاً لأزيائي. وبدا تركه في هذه الملابس الجميلة الصغيرة، خطوة طبيعية. فما هو في النهاية إلا طفل صغير الحجم لا يعرف شيئاً عما يرتديه. ولمّا يمض وقت طويل حتى أخذت ألبسه بالكامل أثواب فتاة صغيرة. وكان الزهري الأفضل له، لأن هذا اللون بدا زاهياً للغاية على بشرته الناعمة واللدنة كالمخمل.

يا للمتعة التي حصلتُ عليها مع هذا الطفل الحبيب! وقد شجّعني إعلان صديقاتي أن عمر يزداد جمالاً يوماً عن يوم. لم يعرب أي ممن حولي عن أي انتقاد، ولم أقدّر بالتالي عواقب أعمالي إلى أن جاء زوجي إلى المنزل. ما إن دبّ عمر إلى الغرفة، حتى لاحظ أسامة شعره الطويل ولباسه الأنثوي. اضطربت أعصاب معدتي وأنا أراقب لأرى ما الذي قد يقوله أو يفعله.

ارتدى وجه أسامة في البداية، تعبير من التبس عليه الأمر وهو يقرفص على الأرض ويجذب بأصابعه النحيفة ضفائر شعر عمر وزيه الأنثوي. نظر إليه، ثم إليّ، ثم إلى عمر من جديد. مسّ بأصابعه الطويلة ثوب ابننا الجميل وأعلن بهدوء: «عمر، الثوب الذي ترتديه هو للبنات، وأنت صبي». وداعبت يده بخفة شعر الصغير: «تصفيف الشعر هذا للبنات، وأنت صبي».

هبط قلبي هولاً لأنني لم أسعَ أبداً إلى إثارة استياء زوجي. وأنا اشتهرت، في الواقع، بأنني أكثر الزوجات طاعة.

تفرّس زوجي بي. لم يصرخ، بل تحدّث بهدوء أكثر من المعهود، وبصوتٍ ناعم كالحرير. «نجوى، عمر صبي. ألبسيه ثياب صبي. وقصّي شعره الطويل».

هززت برأسي صامتة وفعلت ما طلب مني، موقتاً على الأقل.

انتهت خيالاتي المسلّية بوجود زوجي في المنزل. إلا أنني بقيت أشعر في داخلي بأنني شقية، على الأقل في هذه المسألة. وما إن عاد أسامة إلى باكستان حتى أغواني تمرّدي من جديد. استهواني جمال عمر إلى درجة أنني عدت، غريزياً، وألبسته من رأسه حتى أخمص قدميه تلك الثياب الأنثوية. واستمر فرحي الصغير إلى بعد ظهر اليوم الذي دخل فيه زوجي المنزل على غير توقّع، وضبطني بالجرم المشهود وأنا أتأمل بإعجاب الفستان الزهري على عمر، بينما كان شعره يتراقص بالضفائر المعقودة.

لم يتفوه أسامة بكلمة. وقف محدّقاً، وتعبير وجهه يبلغني أنه ليس عليّ من هذا الوقت وصاعداً أن أجرّب القدر. وهكذا، تخلّيت عن خطيئتي الصغيرة، وقصصت مرّة أخرى شعر عمر بتسريحة صبيانية، وطويت بصمت ثياب الفتاة الصغيرة تلك. لكن، لم يفارقني أبداً الشعور بأن ابنة ستزيّن منزلنا في يوم من الأيام، وترتدي تلك الملابس العزيزة.

عشنا أيضاً، برغم الكثير من المناسبات السعيدة، وقتاً طافحاً بالهموم. أخذ زوجي، بعد ولادة عمر، يقضي الكثير من الأسابيع الطويلة في باكستان. وعندما سمعته عَرَضاً يقول لأفراد آخرين في العائلة، إن بعضاً من سفراته يشمل الآن أفغانستان، شعرت بالسوء ظناً مني أن والد أبنائي في خطر حقيقي. لكنني لم أجرؤ على الشكوى، لأنه أوضح لي على نحو وافٍ وصارم، أنني لست في محلِ التعليق على أي شيء خارج منزلنا.

لم نملك جهاز تلفاز لأن زوجي يعتقد أن مثل هذه الصور تفسد عائلته، إلا أنني علمت من الصديقات ومن آخرين في دائرتي المحدودة، بأنه أصبح بطلاً سعودياً معروفاً جداً. وسمعت كلاماً سخيفاً عن أناس كثر يريدون تنشق الهواء ذاته الذي يتنشّقه أسامة.

لم يكن مفاجئاً أنه وأخوته في عائلة بن لادن الكبيرة، قدّموا كثيراً من المال للقضية. فمن المعروف أن الورعين يسخون عندما يتعلق الأمر بالمبرات

الإسلامية، لكن الجميع صُعقوا في الواقع بين لادن الثري الذي يخاطر بالموت أو بالإصابة على خطوط الجبهة.

شعرت بشدة، بدون أن أعرف مواصفات حياة زوجي العسكرية أو السياسية، بوجود خطر في هواء أفغانستان ذاك. وصلّيت في كل يوم إلى الله ليحفظه لي. عرفت أن مخاوفي لا تتجاوز المعقول بعدما عاد إلى جدة بندوب حمراء في جميع أنحاء جسمه. وأكّدت لي عيناي بأنه لا يزال يُقحم نفسه في مهامٍّ خطرة لكونه جُرح أكثر من مرة.

تولاني الذعر عندما اعترف بأنه تعلّم كيفية الطيران بالهيليكوبتر. راقب زوجي تعبيري القلق لبضعة أيام، وجاء بعدها بعصا مستديرة كبيرة ووضعها بين يدي، وقال: «الآن، يا نجوى، أمسكي العصا بصورة مريحة بيديك الاثنتين، على هذا الشكل، وأديريها ببطء وأنت تسيرين في الغرفة».

فعلت ما طلبه مني.

«أهذا صعب عليكِ؟».

«لا»، قلت معترفة.

«لا تقلقي إذاً، على سلامتي. فقيادة الهيليكوبتر هي بمثل سهولة تحريك تلك العصا».

وعندما طرحت بضعة أسئلة في مناسبة أخرى، أمرني قائلاً: «كفّي عن التفكير».

وقُضي الأمر! حاولت بعد ذلك أن أطرح جانباً أي أفكار عما يفعله أسامة عندما لا يكون إلى جانبي.

لكنه أخبرني في أحد الأيام، وكان في مزاج جيّد، رواية صغيرة وَجَدَها مسلّية. أخذني التيه لأنه يشاطرني أخيراً إحدى مغامراته، فجلست عند قدميه ساكنة كطفل مأخوذ، وانغمست كثيراً في روايته إلى درجة الشعور بأنني أشاركه في مغامرته.

«ذهبنا في إحدى الليالي في مهمة خطرة جداً، داخل أفغانستان، على مقربة من الحدود الباكستانية. لم يمكننا السفر على أرض تلك المنطقة الجبلية القاسية جداً إلا على ظهور الخيل. كانت المعركة دائرة ورجالنا في حاجة إلى التسلّح، وقضت مهمتنا بتسليم الأسلحة إلى مقاتلينا في أسرع ما يمكن. لهذا، اضطررنا إلى سلوك طريق خطرة فوق العادة. وبات قطار خيلنا قريباً من الجنود السوفيات، بحيث لو إنهم رفعوا أعينهم للنظر إلى محيط معسكرهم لأمكنتهم رؤيتنا. عرفنا أن علينا المرور عبر العدو بأسرع من ريشة تسقط من السماء.

«ولكن، اعترانا قلق خاص. فقد امتطى أحد مقاتلينا جواداً لا ينفكّ يصهل. يا ويلتاه، كم استمتع ذلك الحصان بالصهيل. ناقشنا أنا ورجالي كيفية العمل لإبقاء جوادنا «الثرثار» صامتاً. وفجأة، راودت أقرب صديق إلي في المهمة فكرة ماكرة. أخذ كيساً صغيراً من حقيبته، مصنوعاً من شعر جوز الهند. هزّ لي برأسه وابتسامة ماكرة تعلو وجهه، وهو يلوّح بذلك الكيس الخشن. لم أملك أي فكرة كيف يعتقد أن ذلك قد يحل المشكلة، لكنني ما لبثت أن عرفت بعدما انحنى، وهو يوازن نفسه عند وجه الحصان الصغير. وفي المرة التالية التي فتح فيها «ثرثارنا» فمه، دفع صديقي الكيس فيه. أقفل الحصان المرتاع فمه على الفور وقد شعر بضغط الكيس.

«وفي كل مرّة كان الحصان يفكّر في فتح فمه يدخل إليه الكيس. اضطررت إلى إجبار نفسي على النظر بعيداً حتى لا أضحك وألفت نظر العدو إلى موقعنا».

نادراً ما عبّر زوجي، وهو أكثر انسان جدّي عرفته، ولو عن تفكهة عرضية. وها هو فجأة يتضاحك للذكرى. وقهقهتُ أيضاً وأنا أتخيل التعبير المفاجئ على وجه ذلك الحصان «الثرثار» الصغير.

استمعت في مرات أخرى بانتباه وهو يحكي لأكبر أبنائنا عن حياته العسكرية. لا يمكنني تذكّر التاريخ، ولا حتى أعمار أبنائنا في تلك المناسبة،

إلا أنني أتذكر تلك المرة التي بقي فيها في المنزل لأسابيع عدة وقد مرّ ما يكفي من الوقت لتخف حدة التوتّر في ذهنه وجسمه. جلس وهو يرتشف كوباً من الشاي، واستدعى أبناءنا إلى غرفة جلوسنا، ودعاهم بإشارة من يده إلى الجلوس. قرر أن يشاركهم في بعض من حياته، وقد عرف أن معظم الأولاد الصغار يحلمون بأن يصبحوا جنوداً.

بدا الأولاد متوترين بعض الشيء. فوالدهم منشغل في العادة كثيراً عنهم. لذا، أصابهم القلق من السبب الذي دفعه إلى استدعائهم، وهم يخشون أنهم ربما ارتكبوا «معصية» ما، وعلى وشك أن يُعاقَبوا عليها.

بقيت في الغرفة، برغم أنه لا يليق بي الجلوس في مجلس للرجال، حتى لو تألف من زوجي وأبنائي وحدهم، وأشغلت نفسي بأمر ما، ثم بآخر، بحيث أتمكن من استراق السمع إلى حديثهم.

كان أسامة في مزاج جيّد نادر للغاية، ويسلّي أبناءنا بحكايته. «كنا في إحدى الليالي نقاتل عندما ظهرت هيليكوبتر روسية من مكان خفي. ويصعب الإفلات بدون إصابة عندما يحصل مثل هذا الأمر في ساحة المعركة.

«كنا في تلك الليلة في منطقة محدّدة في أفغانستان، حيث توجد بقعة واسعة مسطحة تتدرّج في الارتفاع ببطء إلى أن تبلغ بعض الكهوف الجبلية. وكنت في داخل أحد الكهوف عندما سمعت الهيليكوبتر وهي تقترب. انتقلت إلى فم الكهف لمراقبة مقاتلينا المكشوفين. لقد علقوا في العراء، ولا وقت لديهم للبحث عن مخبأ، فعرفت أنه لا يوجد الكثير مما يمكن لأيٍّ منّا القيام به لإنقاذهم. قُدّر لي أن أقف وأتفرّج على المجزرة، أو هكذا خُيّل إليّ.

«خفق قلبي بقوة وأنا أراقب مقاتليَّ مشتّتين. وعندما بدأ قنّاص الهيليكوبتر بإطلاق النار عليهم، شرعوا في الانطلاق مسرعين من جهة إلى أخرى. وأخذ بعضهم في الجري إلى الوراء ومن ثم إلى الأمام. سُررت لرؤية أنهم يتذكّرون تدريباتهم عندما قيل لهم أن يستمروا في كونهم أهدافاً متحركة. ولم يعطِ رجالنا

الشجعان، بمثل هذه التحركات السريعة وغير المتوقعة، للقناص الروسي هدفاً سهلاً».

استرقت النظر إلى أولادنا الصغار. شعروا، لكونهم غير ناضجين، بالإثارة حيال ذلك كله بدلاً من الخطر. أضاءت أمارات التعجّب وجوههم وهم يسمعون من والدهم عن الحياة والموت في خلال معركة محتدمة. أخذت أذهانهم الصّبيانية تتخيل أولئك الجنود السريعي الحركة وهم يندفعون هرباً من أضواء رصاصات الآلة القاتلة ويعدون بينها.

مرّر زوجي نظره على أبنائنا وقد أرضاه رد فعلهم حيال الرواية.

«أخذت قناص الهيليكوبتر ذاك حمّى المقاتل، وصمم على قتل كل رجل على الأرض. أضحت المعركة في النهاية على درجة كبيرة من الحدة بحيث أخذ الرصاص يئزّ سريعاً عبر الهواء كالعاصفة المحمومة. وتشوّش عدد من جنودي بعدما علقوا في العراء فتوقّفوا عن الجري. راقبتهم وهم يركعون في الرمل. اعتقدت لفترة وجيزة أنهم سيرفعون الصلوات. لكنهم شرعوا، بدلاً من ذلك، كالمسعورين، في حفر ثقوب صغيرة في التراب. ثم انحنوا إلى الأمام لدفن رؤوسهم فيها. ذكّروني بالحشرات التي تنزل تحت الأرض، بل إنهم ذهبوا إلى حد إهالة التراب حول رؤوسهم».

أطلق عدد من أبنائي صيحات ضاحكة وهم يتخيلون أولئك المقاتلين ورؤوسهم مدفونة في التراب.

قال أسامة، في مزيد من الشرح، «دفع المنظر الغريب لكل هذه المؤخرات في الهواء، بطيار الهيليكوبتر إلى الطيران بعيداً. يمكن أنه اعتقد أنهم يحفرون لاستخراج سلاح جديد من الرمل».

ضحك أبناؤنا ضحكاً صاخباً، وقد سعدوا لإدخالهم في حياة والدهم المغامِرة.

وتوسّع زوجي، في مناسبة أخرى، في مغامراته، وصوته الهادئ أكثر ارتفاعاً من المعتاد. ومرّة أخرى استمعتُ بهدوء.

«سمعتموني، أيها الصِّبْية، أتحدث عن عبد الله عزام. كان أفضل منسّق، ينظِّم التجمعات في جميع أنحاء العالم، ويجمع الصَّدَقات، ويجنّد المسلمين للذهاب إلى أفغانستان لمحاربة الروس. وكان، بعد قيامه بالتجنيد، يسافر إلى منطقة الحرب ويقاتل، بنفسه، في الخطوط الأمامية».

تذكّرتُ فجأة أن عبد الله عزّام هو الرجل الذي التقاه زوجي في أميركا لدى زيارتنا ولاية إنديانا. وهو لم يكن حذقاً كثيراً وحسب، بل كان أيضاً شجاعاً جداً، وفقاً لمقاييس زوجي.

«كنت، في هذه الرحلة الأخيرة، مع عبد الله عزام على خط الجبهة في أفغانستان. وفجأة، تعرّض موقعنا لهجوم إحدى طائرات الهيليكوبتر المهولة تلك. أخذت الصواريخ تدوّي وتنهمر علينا من كل اتجاه. وعرفنا معها أننا سنُقتل إذا لم نتمكن من العثور على ملجأ.

«فجأة، وفّر الله لنا الملجأ! شاهدت فتحتين في سفح الجبل الصخري، كانتا عبارة عن مغارتين صغيرتين قريبتين جداً من بعضهما البعض. ولا بد من أن عبد الله عزام قد رآهما في اللحظة ذاتها، إذ نبتت أجنحة لقدميه وقدميّ ونحن نركض مسرعين عبر ساحة المعركة. لا أعرف لماذا، لكن عندما دخلت مسرعاً إحداهما ركض عبد الله عزّام إلى الأخرى. وما إن توفّر لي ملجأ آمن حتى نظرت إلى الوراء لأرى صاروخاً يصيب المغارة التي لجأ إليها عبد الله. سبّب الصاروخ انهياراً أرضياً مُسقطاً أكواماً من التربة والصخور التي سدّت مدخلها كليّاً.

«هرعت إلى كومة التراب والصخور، وأخذت أقذف الركام وأحدث أثلاماً في التربة. بالكاد أمكنني إحداث شق في الكومة الصخرية عندما عادت الهيليكوبتر، وجعلت الهواء يسخن مرة أخرى بالمتفجرات. أُجبرت من جديد على الانسحاب، لكنني حرصت على إبقاء عيني على كتلة الصخور التي تخفي المدخل. فإطلاق النار سيتوقف في النهاية وسأنقذ عبد الله، أو هكذا اعتقدت. لكن كانت لله مآرب أخرى».

مرّ أسامة بنظره على أولادنا، سائلاً: «هل تعرفون ما حصل؟».

فتمتم صبياننا بهدوء «لا، لا».

«حصلت معجزة. أرسل الله صاروخاً ثانياً ليصيب بالتحديد مدخل المكان الذي علق فيه عبد الله عزّام. فتح هذا الانفجار الثاني المغارة على نحو لا يفعله أحد، كما لو أن حفّارين محترفين قاموا بحفرها». وهزّ برأسه متذكّرا أن «عبد الله عزام خرج سائراً من ذلك الشق الذي أحدثه الله بهدوء رجل ذاهب في نزهة!»

راعت أولادي فكرة عجائب الله.

أبلغني أسامة، بعد ذلك ببضعة أيام، أن لديه مشاريع يعتقد أنها ستُسعدني. قال إنه، في رحلته التالية إلى بيشاور، المدينة الباكستانية التي تشكل قاعدته لجمع الإمدادات وتنظيم المقاتلين الذين سيُرسلون إلى أفغانستان، سيجد منزلاً مناسباً لعائلتنا. قرر أن العائلة ستذهب معه، أحياناً، إلى بيشاور عندما لا يكون أولادنا الكبار في المدرسة.

لم يسبق لي أن زرت باكستان، إلا أنني تشوّقت إلى القيام بالرحلة، آملة أننا ستمكن من مرافقته عاجلاً، وليس آجلاً.

بدت حياة أسامة، في السنوات الثلاث الأخيرة، أشبه بحياة طائر مجتهد ينتقل من موطن إلى آخر. فيطير من منزلنا في السعودية إلى بيشاور في باكستان، وينتقل سريعاً إلى أفغانستان للاتصال بالمقاتلين العرب على الأرض. ويعود إلينا عندما يشعر بأن من الضروري الرجوع إلى جدة، من أجل جمع المزيد من الأموال للمقاتلين، أو العمل مع أشقائه في شركة بن لادن. لكن وقته مع عائلته، حتى وهو في جدة، كان محدوداً على نحو قاس. فكل وقت تقريباً من أوقات اليقظة، مشحون بالاجتماعات المهمة المتعلقة بالمعركة ضد السوفيات، أو بأعمال البناء.

سُررت لسماعي أنه سيمضي بعض الوقت في باكستان. فقد تزايد ترددي في البقاء في جدة في حين يغيب زوجي لأشهر على التوالي؛ ويحتاج أبناؤنا

الناشئون إلى والدهم، وبالأخص أصغرهم، عمر، وهو في أول مشيته، ويبدو أنه يفتقد أباه أكثر من الصبية الآخرين مجتمعين.

مضى على هذا النظام ثماني سنوات على زواجي من أسامة. وكان الجزء الأكبر من زواجنا دافئاً، برغم بعض التوتّر المرتبط بعمله في أفغانستان. كنت راضية جداً مع زوجي، وقد دلّ مسلكه على أنه سعيد بالقدر ذاته معي.

وكيف لي أن أعلم بأن حياتنا الزوجية على وشك أن تتغيّر إلى الأبد؟



منذ بدأت أفكر وأعي، أدركت أن والدي رجل مطمئنّ النفس بغض النظر عما يمكن أن يحصل. كان يؤمن بأن كل شيء في هذه الحياة الارضية، هو في يدي الله. لهذا، يصعب عليّ أن أتخيّل مدى إثارته عندما أبلغته أمي أن وقت ولادتي قد حان، حتى أنه نسي أين وضع مفاتيح سيارته.

وقيل لي إنه، بعد بحث محموم، استعجل كثيراً في وضع أمي في السيارة قبل أن ينطلق بها بسرعة متهوّرة. ومن حسن حظه أنه اشترى سيارة جديدة، آخر طراز من المرسيدس، لأنه اختبر في ذلك اليوم كل قطعة فيها. أخبروني أن لونها كان ذهبياً، وعلى درجة كبيرة من الجمال، بحيث تخيّلتها عربة ذهبية تكابد في شق طريقها عبر شوارع جدة العريضة المزدانة بأشجار النخيل. جئتُ إلى الدنيا بعد فترة قصيرة على تلك الرحلة الفوضوية، وأصبحت المولود الرابع لأهلي بعد أشقاء ثلاثة هم: عبد الله، وعبد الرحمن، وسعد.

غالباً ما تذكّرني أمي بأن حملها بي كان الأكثر مشقة، وأن ركلاتي التي لا تنتهي سببت لها إزعاجاً حقيقياً. اعتبرتْ أشهرَ نشاطي هذا، بمثابة إشارة إنذار، تماماً كما يراقب العلماء بركاناً مضطرباً. وعرفت والدتي أن مولودها الرابع سيتمتع بشخصية قوية.

ما أنا إلا واحد من كثر في سلسلة الشخصيات القوية في عائلتنا بن لادن. لطالما كان والدي رجلاً لا يمكن لأي رجل آخر السيطرة عليه برغم طبيعته الهادئة في جوانب كثيرة. واشتهر جدي لأبي، محمد عوض بن لادن، كثيراً بقوة طباعه. مات والده قبل أوانه مخلفاً وراءه أرملة مفجوعة وأربعة أولاد صغار، فسعى جدي بن لادن في طلب رزقه بدون أي دليل إلى أين قد ينتهي به المقام. فهو البكر وفي الحادية عشرة من عمره فقط.

كانت الإمكانات المتوفرة في يمن تلك الأيام ضئيلة، فأدار جدي ظهره بشجاعة للأرض الوحيدة والأناس الوحيدين الذين سبق له أن عرفهم، وأخذ معه شقيقه الأصغر عبد الله للانضمام إلى واحدة من قوافل الجِمال الكثيرة التي تجوب المنطقة.

بلغا مرفأ عدن بعد سفرهما عبر قرى اليمن المغبّرة ومدنها. وأبحرا من هناك لمسافة قصيرة عبر الخليج إلى الصومال في القارة الأفريقية. وهناك استخدم أحد الطغاة القاسين الأخوين بن لادن، وقد عُرفت عنه نوبات ثورته العنيفة حتى أنه اغتاظ من جدي مرّة فضربه بعصا غليظة على رأسه، فقد بسببها النظر في إحدى عينيه من جراء الإصابة. واضطر جدي وعمي إلى العودة إلى قريتهما حتى يشفى. انطلقا في السنة التالية، وسافرا هذه المرة شمالاً، في الاتجاه المعاكس، إلى السعودية. وأنا واثق بأنهما أرادا التوقف في واحدة من المحطات الكثيرة، لكن لم يبدُ أن أيّاً منها امتلكت السحر الذي يسعيان خلفه. وتلبّث الصبيان، الصغيران والأميان، ما يلزم من الوقت لكسب المال الضروري لسدّ جوعهما ومواصلة ما بدا أنه رحلة لا تنتهي. إلا أن أمراً ما في جدّة جذب جدي، لأن تلك المدينة المسوّرة على البحر الأحمر، تؤشّر إلى نهاية رحلتهما الشاقة.

سمعتُ مرّة أنه لا يمكن للرجل الذي لا يملك بارة إلا أن يرتقي صعوداً في هذا العالم. ومن المؤكد أن هذا ينطبق على جدي بن لادن، الذي كان فقيراً لكنه يمتلىء حيوية وتصميماً. لم يشعر بأي خجل من القيام بأي عمل شريف، وجدة هي المكان المثالي لمثل هذه الأعمال، لأن المدينة والبلد

يشهدان انعطافة ونهضة اقتصاديتين. في أوائل الثلاثينيات، لفت عزمُ جدّي وقوّة ذهنه واهتمامه بالتفاصيل، انتباه أحد مساعدي الملك عبد العزيز، الملك الأول على السعودية والذي انتصر للتو في حروب قبلية كثيرة، وأنشأ بلداً جديداً هو المملكة العربية السعودية.

عُرفت عن الملك عبد العزيز ألمعيته في إخراج أفضل ما في الرجال. أدرك أنه يحتاج إلى كثير من الرجال الفطنين والعاملين بكد للمساعدة على تحديث المملكة التي يحتاج مواطنوها إلى المستشفيات والطرق والأعمال والمنازل. وقد أصيب الملك بالإحباط لأن لديه الكثير من المشاريع، لكنه لا يملك إلا القليل من البنائين الأكفياء لإنجاز مخططاته.

أوصى المساعد الملك بجدّي بعدما شاهد نوعية عمله. وقد أحب جدّي بصدق الملك المهيب، الذي تمتع بالقوتين الجسدية والذهنية. وأسرع، لما طلب منه القيام ببعض الإصلاحات، في إنجاز العمل بحسب ما يحب الملك. وأدى نجاح هذا العمل الأول إلى توالي الأعمال عليه.

اتجهت السعودية في ذلك الوقت، من غير علم أحد، إلى أن تصبح واحدة من أغنى دول العالم وأشدّها نفوذاً. دخلت المملكة، بعد تأسيسها في سنة ١٩٣٢ واكتشاف النفط في سنة ١٩٣٨، فورة عمرانية لم يسبق لها مثيل. ولجأ الملك إلى جدي، كلما أراد تشييد مبنى جديد أو إقامة طريق. وسُر كثيراً باجتهاده ونزاهته، فكلفه مسؤولية العمل الذي يطمع به كل مؤمن أكثر ما يطمع، وهو توسيع المسجد الحرام في مكة.

يعرف الجميع في عائلتي، أن جدنا بن لادن تولّع أساساً بأمرين، هما: العمل والنساء. وحقق نجاحاً تاماً على هذين الصعيدين معاً. واكسبته أخلاقيته في العمل الشاق ونزاهته الكاملة، ثقة الملك التامة. ومع العمل المرهق، جاءت المكافآت المالية التي سمحت لجدي بإشباع ولعه الثاني بالنساء.

من الشائع في ثقافتي، أن يمتلك الرجال، وبخاصة الأغنياء كثيراً منهم، والفقراء أيضاً، أربع زوجات معاً. وسرعان ما أصبح جدي ثرياً إلى درجة أنه

لم يكتفِ بالتزوج بأربع، بل أخذ يطلق الزوجات القديمات ليتمكن من اتّخاذ زوجات جديدات.

أصبح له، مع هذا العدد الكبير من الزوجات والزوجات السابقات، عدد أكبر من الأولاد، بحيث صعبت عليه المحافظة على العلاقة مع كل منهم. وأولى، على جري العادة، انتباهاً إضافياً إلى أكبر أبنائه، برغم أنه لم يكن يرى أبناءه الآخرين إلا في مناسبات مهمة. لكن هذا لا يعني أنه لم يتابع أحوالهم، فقد خصص وقتاً، في خضمّ برنامج عمله الحافل، للقيام بتدقيقات مستعجلة للتأكد من أن أبناءه يتقدّمون في المدرسة، وأن بناته سعيدات مع أزواجهن.

لم يكن والدي في وضع يسمح له برؤية والده بانتظام، لأنه ليس واحداً من الأبناء الكبار. أضف إلى ذلك، أن زواج جدي بوالدة أبي السورية، الجدة عليا، لم يعمّر طويلاً. فقد حملت مرة أخرى بعد ولادته، لكنها طلبت الطلاق من زوجها بعدما طرحت الطفل وفقدته. وقد حصلت، لسبب من الأسباب، على طلاق سهل، وأصبحت حرّة لتتزوج بعد فترة قصيرة بمحمد العطاس، وتصبح أماً لأربعة أولاد آخرين.

لم تتطوّر حياة والدي كما كان يرغب، برغم أن زوج والدته واحد من أفضل الرجال في السعودية. شعر بالضياع، على غرار معظم أولاد الأهل المطلقين، لأنه لم يعد على علاقة وثيقة بعائلة والده. من المُعتقد أن والدي، برغم أنه ليس بالشخص الذي يشتكي، شعر بحدّة بفقدان مكانته، وعانى بحقٍ غياب محبة أبيه الخاصة وعنايته.

أعرف ما الذي شعر به أبي. فأنا، في النهاية، واحد من عشرين ابناً. ولطالما عانيت غياب الاهتمام ذاته من والدي.

عرف الجميع أبي في داخل عائلتي وفي خارجها، بأنه فتى بن لادن السوداوي، الذي أخذ ينشغل باطراد في التعاليم الدينية. ويمكنني، بوصفي ابنه، أن أشهد على أنه لم يتغيّر أبداً. لا يتناقص ورعه، ويأخذ الدينَ دوماً على

محمل الجد أكثر من أغلب الناس. وقد كرّس ساعات كثيرة لدراسة القرآن، وتعاليم الديانات الأخرى، وحِكَمها.

وبرغم أن معظم الرجال، بغض النظر عن ثقافتهم، يُغويهم النظر إلى امرأة غير اللواتي في عصمتهم، فإن والدي لا يفعل. بل يُعرف عنه أنه يشيح بنظره كلما بدت أمامه امرأة من غير عائلته. وآمن بالزيجات المبكرة كوسيلة لإبعاد الإغراء الجنسي. وهذا هو السبب في قراره الزواج، وهو لم يتجاوز السابعة عشرة.

وأشعر بسرور كبير، لأن أمي، نجوى غانم، وهي ابنة خال والدي، كانت زوجته الأولى. فموقع الزوجة الأولى رفيع في تقاليدنا، وهذه المنزلة تتضاعف ثلاث مرات عندما تكون هذه الزوجة ابنة عم أو بنت خال، ووالدة للابن الأول. ونادراً ما يطلّق الرجل المسلم زوجة هي قريبة له ووالدة ابنه الأول. فقد ارتبط أهلي بروابط الدم، والزواج، والأبوّة.

لم أسمع والدي أبداً يرفع صوته في وجه أمي غضباً. بدا دوماً راضياً عنها. ومرّت أوقات، وأنا لا أزال صغيراً جداً، انزوى فيها وأمي في غرفة نومهما لا تراهما العائلة لأيام عدة. وهكذا كنت أعرف أن والدي استمتع برفقتها.

أفهم الآن إخلاصه لوالدتي لأنها كانت زوجة مخلصة وأمّاً رائعة. فحبها أولادها لا يفنى، وقد اعتنت شخصياً بالكثير من حاجاتنا برغم أنها تزوجت برجل ثري، وحظيت بكثير من الخادمات لمعاونتها في سنوات زواجها الأولى، لكنها كانت شديدة الحرص على كل شاردة أو واردة تتعلق بنا، حتى أنها كانت تُطعمنا بيدها عندما نُصاب بالمرض.

كانت والدتي في عيني كابن، أماً مثالية.

أما والدي فرواية مختلفة. أنا لا أوافق على مسلكه، برغم أنه لا يمكنني أن آمر قلبي بالكفّ عن حبه. فأحياناً يمتلئ فؤادي غضباً على أفعاله التي آذى فيها كثيراً من الناس: أناس لم يعرفهم، إضافة إلى أفراد من عائلته. وأنا، بوصفي

ابناً لأسامة بن لادن، آسف حقّاً للأمور الرهيبة التي حصلت، وللأرواح البريئة التي أزهقت، وللأسى الذي لا يزال معشّشاً في كثير من القلوب.

لم يكن والدي دوماً رجلاً حاقداً، كما لم يكن دوماً إنساناً مكروهاً من الآخرين. فقد جاء زمن تحدّث فيه الناس عنه بأرفع درجات الثناء. ويُظهر التاريخ أن كثيرين أحبوه في ما سبق. وأنا لست خَجِلاً من الاعتراف بأنني، برغم خلافاتنا، أحببته، وحملت له في قلبي المشاعر المعتادة التي يكنّها صبي صغير لوالده. أحببت في الواقع أبي، وأنا فتى صغير، حتى العبادة، وقد اعتقدت أنه ليس أبرع رجل في العالم وحسب، بل الأكثر طولاً أيضاً. وكان عليّ الذهاب إلى أفغانستان لأقابل رجلاً أطول قامة من والدي، بل كان علي أن أقصد أفغانستان لأعرف والدي حق المعرفة.

أملك ذكريات لطيفة عن طفولتي. وإحدى محطاتها الأولى تتعلق بالمكايدة حول الرجل الذي لديه أكثر من زوجة. وكان والدي في مرات كثيرة، ينادي عليّ وهو جالس مع أصدقائه الرجال. وكنت أتبع، وأنا متحمّس، نبرة صوته. وما إن أظهر في الغرفة حتى يبتسم لي قبل أن يسألني «عمر، كم زوجة ستتخذ؟».

كنت أعرف الجواب الذي يسعى إليه، برغم أنني أصغر كثيراً من أن أعرف أي شيء عن الرجال والنساء والزواج. فأرفع أربع أصابع وأصرخ بحبور، «أربع! أربع! سأتخذ أربع زوجات!».

فيغرق والدي وأصدقاؤه عندها بالضحك.

أحببت إضحاكه، لأنه من النادر أن يفعل.

وجد كثر في والدي نابغة، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالمهارات الحسابية. ويقال إن والده نفسه كان عبقرياً في الأرقام، إذ يمكنه أن يجمع صفوفاً كثيرة من الأرقام في رأسه.

اشتهر أبي كثيراً بهذه المهارة، إلى درجة أن رجالاً كانوا يقصدون منزلنا ويطلبون منه مقارنة ذكائه مع الآلة الحاسبة، فيوافق أحياناً، ويرفض أحياناً.

ويبلغ بي التوتر، عندما يوافق بكل طيبة خاطر على التحدي، حدّاً أنسى معه أن أتنفّس.

واعتقدت في كل مرة أنه سيفشل في الاختبار. وكنت في كل حين أخطئ. وقد ذُهلنا جميعنا بأنه لا يمكن لأي آلة حاسبة أن تضاهي مقدرته العجيبة، حتى عندما تُطرح عليه أكثر الأرقام تعقيداً، فيقوم بحساب الأرقام الطويلة والمعقدة في رأسه، بينما يكافح أصدقاؤه للحاق بعبقري الحساب بآلاتهم. وأنا لا أزال مندهشاً إلى الآن، وأتساءل كيف يمكن لأي انسان امتلاك مثل هذه المقدرة غير الطبيعية.

سحرت ذاكرته الخارقة كثراً ممن عرفوه. وكان كتابه المفضّل هو القرآن، ويجد حبوراً كبيراً في بعض المناسبات، عندما يمتّع من يطلبون منه ذلك بتسميع القرآن كلمة بكلمة. فأقف في الخلفية صامتاً والقرآن بيدي مدققاً بعناية في تلاوته. لم يخطئ والدي أبداً بأي كلمة. ويمكنني أن أقول الآن صادقاً، إنني، وأنا أكبر في السن، أصبت بالخيبة سرّاً. أردت لوالدي لسبب غريب أن يخطئ بكلمة هنا أو هناك، لكنه لم يفعل.

اعترف مرّة بأنه تمكّن من براعته هذه خلال فترة من الاضطراب الذهني الكبير، وهو في العاشرة من عمره، غداة مقتل والده في حادث تحطّم طائرة. ومهما يكن تفسير هذه الموهبة النادرة، فإن إنجازاته البطولية جلبت أوقاتاً سعيدة.

أمتلكُ ذكريات سيئة إلى جانب الطيبة منها. وما لا يُغتفَر أكثر ما يكون في ذهني، أننا أُبقينا في حكم السجناء في منزلنا في جدة.

كمنت أخطار كثيرة بأولئك الذين أصبحوا متورطين في «وحل» أفغانستان الذي أخذ يزداد تعقيداً، وقد بدأت مع الغزو السوفياتي للبلاد قبل مولدي بسنتين. أصبح والدي شخصية على درجة كبيرة من الأهمية في الجهاد، بحيث قيل له إن مناوئين سياسيين قد يعمدون إلى خطف أحد أبنائه، أو ربما قتل أفراد من عائلته.

دفعت هذه التحذيرات بوالدي إلى توجيه أوامره ببقاء أولاده داخل منزلنا. فمن غير المسموح لنا اللعب في الخارج، ولو في حديقتنا الخاصة. وكنا بعد بضع ساعات من اللعب الفاتر الهمّة في الممرات، نقضي، أنا وأشقائي، ساعات طويلة نحدّق عبر نوافذ شقتنا ونحن نتوق إلى الانضمام إلى الأولاد الكثر الذين نراهم يلعبون على الأرصفة، يركبون دراجاتهم أو يقفزون فوق الحبال.

وجعلت تقوى أبي منه متشدداً بأساليب أخرى. فبرغم أننا عشنا في جدة، وهي واحدة من أكثر المدن حرارة ورطوبة في بلد يشتهر بمناخه الحار، لم يسمح والدي لأمي بإشعال جهاز التبريد الذي وضعه المتعهد في المبنى السكني. كما لم يسمح لها باستخدام الثلاجة الموضوعة في المطبخ. وأعلن أن «الحداثة أفسدت المعتقدات الإسلامية». وبالتالي، فإن طعامنا يفسد إذا لم نتناوله في اليوم الذي نشتريه فيه. وعندما طلبت أمي حليباً لصغارها، حرص على أن تتسلمه مباشرة من البقرة الموجودة لهذه الغاية وحسب في مزرعة عائلته.

سمح لوالدتي بالطبخ على فرن الغاز. كما أجاز للعائلة استخدام الإنارة الكهربائية. وهكذا، فإننا لن نسير في الجوار متعثّرين في الظلمة، ولن نستخدم الشموع لإنارة الغرف المعتمة، ولن نطبخ الطعام على موقد في الخارج.

كرهنا، أنا وأشقائي، مثل تلك التوجيهات غير العملية، لكن والدتي لم تشتكِ أبداً.

ثمة مكان واحد عاش فيه أبناء بن لادن نوعاً من الحياة الطبيعية، وهو مزرعتنا الواقعة في جنوب جدة على مسافة قريبة بالسيارة. وقد بنى فيها والدي مجمّعاً عائلياً. فالأرض شاسعة، والمجمع كبير جداً يضم مباني عدة. طُليت منازل العائلة كلها بلون درّاقي لطيف جميل ليندمج مع لون الصحراء الهادئ. يضم المجمّع مسجداً لأنه لا يمكن لوالدي تفويت الصلوات اليومية الخمس المفروضة. وكان مبنى المزرعة المفضل لدى والدي، هو الاسطبلات التي بُنيت خصيصاً لجياده الجميلة.

أحب والدي العراء، فحرص على إقامة بستان زرعه بمئات من الأشجار، بما فيها النخيل وغيره من الأنواع. وأنشأ أيضاً واحة اصطناعية مكلفة، زرع فيها القصب وغير ذلك من النباتات المائية. وكانت عيناه تتوهجان بسعادة كبيرة لمرأى نبتة جميلة أو زهرة، ويفتخر بمنظر واحد من فحوله المتبخترة.

كانت المزرعة ملعباً لنا، وكان ذلك شيئاً ممتعاً، لأن الألعاب مُنعت علينا مهما بلغت درجة توسلاتنا. وكان والدي يعطينا بعض الماعز نلعب بها، قائلاً إننا لا نحتاج إلى أكثر من عطايا الله الطبيعية لنكون سعداء. وجاء مرة منشرح الصدر ومعه غزالة صغيرة.

لم تسعد أمي عندما أدخلنا الغزالة عبر إحدى النوافذ المفتوحة في منزلنا في المزرعة. كان وبرها ينسل، ولما عثرت والدتي على وبرها على الأثاث، رفعت صوتها، وهو أمر لم نتعوّد عليه منها. وأدركنا لاحقاً أنها كانت تدعي الغضب بعدما ضبطناها تبتسم سرّاً على تهريجنا.

أذكر مرة أُهدي فيها والدي فصيلاً. تحمّسنا لوجوده في المزرعة، لكننا سرعان ما أدركنا أنه أصغر من أن يُحرم من أمه. شعر الفصيل المسكين بالوحدة المريرة، وأثار ضجيجه الشفقة، فقرر والدي أخذه إلى إحدى مزارع شقيقه. لكن الجمال الأخرى هناك هاجمت الفصيل فلم يتمكن من مشاطرتها المكان. ولم نعرف أبداً نهاية القصة الحزينة، لكن بؤس هذا الفصيل لازمني أياماً طويلة، لأنني لطالما أحببت الحيوانات وأعاني كثيراً إذا تألم واحد منها.

وحدث أن أتى إلى المزرعة في أحد الأيام، على غير توقّع، أخ غير شقيق لوالدي وقد ملأ سيارته بالألعاب! لم يسبق لنا أبداً أن شعرنا بمثل هذه الإثارة. وشكّل الأمر لنا فرحة تضاهي مئة مرّة فرحة العيد الكبير! كظم والدي غيظه عن أخيه، وليس عنّا، وبقي ممتعضاً إلى أن تم تهشيم جميع تلك الألعاب. لكن لطف عمّنا جعلنا نعيش أسعد أيام حياتنا. وأفترضُ، في نظرة إلى الوراء، أنه رثى لحالنا.

لكن أبي يلين عندما يتعلّق الأمر بكرة القدم. وأذكر الصدمة التي شعرنا بها عندما جلب كرة إلى المنزل، ورأيناه يبتسم بعذوبة لمنظر أبنائه وقد تحمّسوا لرؤيتها. واعترفَ بولعه بلعب كرة القدم، وبأنه يشارك في هذه الرياضة كلما سمح له الوقت بذلك.

واستمتعنا أحياناً بلعبة أخرى مع والدي، تدعى «لعبة القبعة». كنت أقفز طرباً عندما يطلب من شقيقي الأكبر الخروج إلى الباحة وتحديد الأرض لهذه اللعبة. فيقوم أخي بتحديد خط حيث يُرص الرمل ليصبح قاسياً كالإسمنت. ويتبعه والدي ليضع قبعة رجالية على الخط، ثم يذهب في الاتجاه المقابل له ويقف هناك، وقد بدت عليه الجدّية وهو يراقب مناوئيه، أبناءه الصغار.

وكنا نجتمع، أنا وأشقائي، بالقدر ذاته من الجدّية، لنصطف واقفين في الجهة المقابلة للخط. والهدف من المباراة هو هزيمة الخصم من خلال التقاط القبعة، والعودة بسرعة إلى خط الانطلاق. ويتبارى كل شخص وحده، وعند انتهاء العد العكسي يندفع الصبي الأول في الصف مسرعاً للإمساك بالقبعة.

أما أبي، الذي يراقب من الجهة الأخرى، فينتظر إلى أن يتحرك خصمه نحو القبعة ليلتقطها ويعود بها إلى خط النهاية، وهدفه هو الإمساك بالفتى قبل بلوغه إياه. كانت ساقا والدي طويلتين على نحو غير معقول، وكان خفيفاً ويتمتع باللياقة، إلا أن أبناءه الصغار يركضون أيضاً بسرعة الريح. وبرغم مقدرتنا على التحرك سريعاً، كان هو الرابح دائماً، لأننا، أنا وأشقائي كنا نحرص على ذلك. ففي تقاليدنا، يجب ألا نتغلّب على من هو أكبر منا، وبالتأكيد لا يمكن أن ننتصر على آبائنا ولدواعي احترام أبينا كنا، أنا وأشقائي، نخفف من سرعتنا للتأكد من تمكّنه من الإمساك بنا قبل بلوغ الخط بأمان.

لكنني كنت أجد دائماً شائبة مرتبطة بالمباراة؛ فلم أقتنع أن من العدل الإذعان للحياء وترك أبي يربح دائماً. وقررت في أحد الأيام، دون أن أبوح بسري لأحد من أخوتي، أن أهزم والدي من خلال الإمساك بهذه القبعة والعودة بالسرعة الزائدة إلى خط الانطلاق. لن أدعه يمسك بي.

عرفت، في المرة التالية التي لعبنا فيها المباراة، أنني سأفوز. سارت السباقات كالمعتاد إلى أن حان دوري بعدما سمح أخوتي لأبي بالإمساك بهم. انطلقت على عجل، راسخاً وسريعاً كالسهم، وبلغت القبعة بسرعة، واستدرت للعودة بالسرعة ذاتها. صُدم أبي عندما أدرك أنني أركض بأسرع مما يمكّنه من الإمساك بي، فقفز في الهواء وشعرت بيديه وهما تلمسان رجليّ، إلا أنني النويت وتملصت منه. وسمعت أشقائي يصرخون عندما سقط والدي على مرفقيه على التراب المرصوص.

أصيب مرفقاه وانخلعت كتفه اليمنى بعدما تلقى وقع السقطة، وعرفت من تعابير وجهه أنه يعاني ألماً حقيقياً. صُدمت وذُهلت لتسببي في الكارثة. وبلغ بي الخوف حداً لم أستطع معه أن أنظر إليه وهو يُنقَلَ في إحدى السيارات إلى المستشفى في جدة.

قيل لنا، بعد العلاج الأولي، إن عليه أن يتحمّل حقنة بالكورتيزون وعلاجاً فيزيائياً طوال ستة أشهر. فالإصابة المؤلمة بليغة، وتعني بالتالي أنه لا يمكنه السفر إلى باكستان عائداً إلى عمله المهم من أجل الإسلام.

اغتاظ مني أشقائي لأنهم أخذوا يكرهون وجود أبي في جدة. أرادوه أن يعود إلى باكستان لأنهم قالوا إنه متشدد فوق اللزوم عندما يكون بيننا.

لا بد من أنكم حزرتم الآن أن والدي ليس رجلاً حنوناً. لم يحتضن أبداً أياً منا، أنا أو أشقائي. حاولت إجباره على إظهار عطفه، ليقال لي إنني جعلت من نفسي بليّة. وكنت أبقى إلى جواره عندما يكون في المنزل، وأقوم بألاعيب تلفت الانتباه كلما تجرّأت على ذلك.

لم يشعل أي شيء عاطفته الأبويّة، بل إن سلوكي المزعج شجعه على استعمال العصا التي أصبحت بمثابة توقيعه. وشرع، مع مرور الوقت، في ضربي وأشقائي بها قصاصاً على أقل هفوة.

ومن حسن الحظ أن لوالدي موقفاً آخر عندما يتعلق الأمر بنساء عائلتنا. لم

أسمعه أبداً يصرخ بأمه، وشقيقاته، وأمي، وأخواتي. ولم أشاهده أبداً يضرب امرأة. فقد حصر كل معاملته القاسية بأبنائه الذكور.

لكنني أحببته برغم بطشه، إلى درجة عدم تمكّني من كبح جماح فرحي في كل مرة يعود فيها إلى المنزل من سفرة طويلة. وأنا كطفل، لم أفهم سوى اليسير عن الوضع في أفغانستان برغم أنني سمعت عَرَضاً رجالاً يتحدثون عن كرههم الروس، لكني لم أكرههم لأنهم احتلوا افغانستان، بل لإبعادهم والدي عني.

أذكر أحد الأوقات إثر عودته بعد رحلة سفر استغرقت أكثر من المعتاد، فقد عملت في ذلك اليوم يائساً على لفت انتباهه. كان يجلس على الأرض ويدرس بهدوء خرائط عسكرية معقّدة. أملت ألا يأمرني بالخروج من الغرفة وأنا أراقبه وهو يضع خريطته بحذر على الأرض، ووجهه الجدّي مقطّب من التفكير، ويدرس بعناية كل تلة وواد، ويحضّر في ذهنه للحملة العسكرية المقبلة.

لم أعد قادراً على كبح جماح نفسي أكثر، فركضت أمامه، وأنا أضحك بصوت مرتفع، وأقفز، وأنقل رجلي في أوضاع ماهرة متنوعة، وأسعى جاهداً إلى لفت انتباهه. لوّح لي بالابتعاد، قائلاً بصوت صارم، «اخرج يا عمر من الغرفة». خرجت مسرعاً من الباب وحدّقت فيه لبعض الوقت، ثم فقدت القدرة على إيقاف حماستي الصبيانية، فاندفعت من جديد إلى الغرفة وأنا أضحك، وأقفز، وأمارس بعض الخدع الإضافية. وبعد التكرار الرابع أو الخامس لظهوري، نظر والدي إليّ بحنق. تفحّص مشهدي الراقص دقيقة، ثم أمرني بصوته الهادئ: «اذهب، يا عمر، واجمع أشقاءك كلهم وأحضرهم إليّ».

قفزت فرحاً، معتقداً أنني أغريت أبي بالابتعاد عن عمله العسكري. وقد تيقّنت الآن، واهماً، من أنه سيترك مشاغله للانضمام إلى أبنائه الصغار في لعب الكرة. ابتسمت بسعادة، وركضت بأسرع ما يمكن لساقيّ القصيرتين أن تأخذاني. شعرت بالفخر بنفسي معتقداً أنني الوحيد الذي يحمل شرارة تذكّره بأن لديه أبناء صغاراً.

جمعت كلاً من أشقائي، وأنا أتحدث بسرعة وصوت متحمّس، «تعالوا! يريد والدنا رؤيتنا جميعنا معاً! هيا!». ولم ألاحظ أن أخوتي الأكبر سناً ليسوا على هذا القدر من التشوق إلى لفت انتباه والدنا.

بقيت متفائلاً بالأوقات الطيبة، حتى بعدما أمرنا والدي بالوقوف في خط مستقيم. وقف بهدوء، يراقبنا ونحن نتجمع مطيعين، وهو يمسك بالعصا بإحدى يديه. ابتسمتُ ابتسامة عريضة سعيدة، وأنا متيقّن من أن أمراً مميّزاً جداً على وشك الحدوث. وقفت مستبقاً الأمور بتململ، وأنا أتساءل عن نوع اللعبة الجديدة التي سيعلّمنا إياها. ربما هي لعبة مارسها مع جنوده، وقد سمعت أن البعض منهم شبان صغار جداً.

دبّ الخجل والحسرة والرعب في شتى أنحاء جسمي وهو يرفع عصاه ويشرع في استعراض الخط البشري، ويضرب كلاً من أولاده بدوره. ونشبت غصّة كبيرة في حلقي.

لم يرفع والدي صوته أبداً وهو يوبّخ أشقائي ويضربهم بالعصا، وحافظت كلماته على تواترها الإيقاعي: «أنتم أكبر سناً من أخيكم عمر، وأنتم مسؤولون عنه. أنا غير قادر على إنجاز عملي بسبب سوء سلوكه».

أُصبت بضيق عظيم عندما توقف أمامي. كنت صغيراً جداً في ذلك الوقت، وقد بدا، في عيني الطفوليتين، أطول من الأشجار. لم أصدق، برغم أنني رأيته، بأم عيني، يُوسع أخوتي ضرباً، أنه قد يمسني بضربة واحدة من تلك العصا الغليظة. لكنه فعل.

وبرغم أن الإهانة لا تُحتمل، لم يصرخ أي منا، لمعرفتنا أن مثل هذا التعبير الانفعالي ليس رجوليّاً. وانتظرتُ إلى أن أدار ظهره لأنسحب قبل أن أركض في الاتجاه المعاكس، فلا يمكنني مواجهة أشقائي لمعرفتي أنهم سيلومونني لأنني تسببت لهم بانهيال عصا والدي على أقفيتهم وسيقانهم.

ذهبت إلى اسطبل الخيل لأجد التعزية، وبحثت عن فرسي المفضلة، وهي عربية بيضاء جميلة اسمها «بيضا». يبلغ ارتفاعها ستاً وخمسين بوصة ولها ذنب

وعُرف أسودان فاحمان. واعتقدت، بسبب وقفتها القوية والشامخة، أنها ملكة. بادلتني بيضا المحبة، وأمكنها أن تميّزني وسط حشد شديد، فتعدو إلي لانتشال تفاحة ريانة من رؤوس أصابعي. بقيت معها لساعات، وقد بلغ جرحي حداً منعني من التفكير بروية وهدوء. أجبرت نفسي، بينما أخذت الشمس تغادر السماء، على العودة إلى المنزل لأنني خفت كثيراً من التسبب بالمزيد من الجلبة. تسللت إلى الداخل بدون أن يلاحظني أحد، فقد أردت تحاشي أخوتي الذين لا بد من أنهم يلومونني على تلقيهم الضرب. وما إن أصبحت في السرير حتى انهار جدار الحزن بعويل مفاجئ وغير متوقع يخرج من عمق أعماقي.

بلغ بكائي درجة كبيرة من الحدة والنشيج دفعت بأمي القلقة إلى المجيء إلى غرفتي وسؤالي عن سبب نحيبي. فارتبكت خجلا، ودفنت رأسي في وسادتي لأكتم أصوات شقائي.

أعتقد، الآن وقد أصبحت بالغاً، أن والدي ربما رُزق بعدد كبير من الأولاد في سن صغيرة جداً؛ أو ربما كان متماهياً إلى حد كبير بعمله الحربي، فلم تستطع أهميتنا فرض نفسها حيال قضية عظيمة كمحاربة الروس.

يمكنني أن استعيد في ذاكرتي لحظة سحرية واحدة في طفولتي عندما أحاطني والدي بذراعيه. وقد ارتبطت هذه الحادثة السحرية بميعاد الصلاة.

عندما يكون أبي في المنزل يأمر أبناءه بمرافقته إلى الجامع. وفي أحد الأيام، ونحن في المزرعة، ارتفع صوت المؤذن داعياً إلى صلاة الظهر، فدعانا والدي إلى الانضمام إليه. كنت متحمساً أنتظر ميعاد الصلاة بوصفه عذراً رائعاً لأكون إلى جانبه. وغفلت في ذلك اليوم عن ارتداء خفيّ اللذين أبقيهما دوماً عند باب المدخل، بحسب العادة المتبعة في بلادي.

في منتصف النهار، أصبح الرمل حاراً كالجمر. ركضت بدون خفّيّ، وسرعان ما شعرت بأسفل قدميَّ العاريتين يحترقان، وصرت أتراقص صارخاً من الألم. صعقني أبي عندما أحنى قامته الطويلة ورفعني بين ذراعيه.

جفّ فمي من عدم التصديق. لا يمكنني أبداً أن أتذكر والدي وقد احتضنني بذراعيه. استبدّت بي السعادة على الفور، وانحنيت صوبه أكثر لأشم رائحته. فوالدي يستخدم دوماً بخوراً زكياً يدعى العود، وهو عطر أشبه بالمسك.

نظرت من عليائي إلى أسفل، صوب أخوتي، وافترّ ثغري عن ابتسامة عريضة، وقد شعرت بفرح كبير لا يوصف. بدوت أشبه بالقزم المفضّل على رأس كتف عملاق، أنظر إلى أبعد مما يمكن للمارد أن يرى.

كنت يومذاك في الرابعة أو الخامسة فقط، لكنني كنت بديناً. وكان والدي طويلاً ونحيلاً، ولا يتمتع بعضلات قوية برغم لياقته العالية. أمكنني الشعور، حتى قبل بلوغ باب المسجد، بأنني أصبحت حملاً ثقيلاً. فقد أخذ يتنفس بعُسر، وأسفت شديد الأسف لذلك. وبرغم حصوله، أحسست بالفخر لأني ألوذ بين ذراعيه القويتين، إلى درجة أنني تعلّقت به راغباً في البقاء في هذه البقعة الآمنة إلى الأبد. لكنه وضعني باكراً على الأرض وسار مبتعداً، وتركني أعدو بعناء من ورائه. فشلت ساقاي القصيرتان في اللحاق بخطواته الطويلة على نحو لا يمكن تصديقه.

وسرعان ما بدا والدي سراباً بعيداً يصعب إدراكه!

الفصل الخامس

مفاجآت الزواج

نجوى بن لادن

أختار أسامة الوقت الذي حملت فيه بطفلي الخامس ليثير موضوعاً غير متوقّع. قال إنه يفكّر في اتخاذ زوجة ثانية، وقليلات هن الزوجات اللواتي يرقصن فرحاً عندما يعرفن بمشاركة أزواجهن مع امرأة أخرى، برغم أن تعدد الزوجات عادة معترف بها في ثقافتي الإسلامية.

أدركت، برغم انزعاجي من اقتراحه، أنني أكثر حظّاً من الكثيرات. فقد سمعت عن أزواج سعوديين يتزوجون بنساء أخريات حتى بدون أن يناقشوا هذه المسألة مع زوجاتهم الراهنات. لهذا، شعرت بالارتياح عندما وعدني أسامة بعدم إدخال امرأة أخرى إلى حياتنا إذا لم أوافق على قراره.

اعتقدتُ أنه أراد اتخاذ زوجة ثانية تمثّلاً بنبيّنا. كان نبينا محمد في الخامسة والعشرين لمّا تزوّج بزوجته الأولى، خديجة بنت خويلد، وكانت تكبر زوجها بخمس عشرة سنة، وبرغم ذلك استمر زواجهما خمساً وعشرين سنة لم يتخذ النبي خلالها زوجة أخرى له. وبعد وفاتها تزوج النبي محمد بأخريات، برغم أن عدداً من زوجاته كنّ أكبر سنّاً، وقد مات أزواجهن في ساحات المعارك، وهنّ يحتجن إلى الحماية التي يؤمّنها لهن الزواج. ويعتقد الفقهاء أن محمداً تزوج في حياته باثنتي عشرة أو ثلاث عشرة امرأة.

والإشارة إلى العدد المشروع للزوجات واضحة في كتابنا المقدس، القرآن الكريم، في سورة النساء:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾.

ويرى الفقهاء المسلمون، بناءً على هذه الآية، أنه يمكن للمؤمن الزواج بأربع نساء، لا أكثر. ولا يستطيع الرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة واحدة إذا لم يتمكن من أن يعدل بينهن، وهذا هو الجزء المهم.

وأنا، برغم معتقداتي الدينية القوية، وإيماني القوي بالله، ما زلت امرأة تتردّد حيال مشروع أسامة إدخال امرأة أخرى إلى حياتنا. وتتوقّع ديانتنا الإسلامية من زوجات الرجل نفسه أن يصبحن صديقات، وأن يلعب أولادهن مع بعضهم البعض.

هدّأ زوجي من روعي بتكرار قوله إنه لن يتخذ نساء أخريات إذا لم أوافق على ذلك. فلا يتحمّل قلبه إيذائي أو جرحي في مسألة كهذه. وقال إنه يترك كلّياً بين يديّ واحداً من أهم القرارات الشخصية في حياته.

أعرف أن زوجات سعوديات قليلات جداً ينلن مثل هذا الاحترام ومراعاة الشعور. لذا، سمحت للفكرة بأن تحفر في رأسي.

وعلى امتداد بضعة أشهر، بقيت مسألة زواج أسامة بامرأة أخرى موضوعاً كبيراً للنقاش بيننا. وفي إحدى الامسيات، كشف عن أسراره الدفينة، معترفاً بأن هدفه المحض هو الحصول على أولاد عديدين لخدمة الإسلام. ووجدت نفسي فجأة أصبح أكثر استرخاءً حيال الفكرة. فزوجي لا يبحث عن امرأة ثانية لأنه غير سعيد معي، بل من أجل مصلحة الإسلام الكبرى.

أدرك أسامة، في نهاية النقاش، أنني بدأت أرى الحكمة من زواجه بأخريات. وذكّرني بلطف بحقيقة ذات دلالة كبرى. «نجوى، سترضين الله إذا رضيتِ في قلبك بأن أتخذ زوجة ثانية. من المؤكد أن حياتك ستنتهي في الجنة».

عادت السكينة في النهاية إلى قلبي، وأنا أشعر بالتأكيد بأن موقفي المتفهم سيزيد من صلاح حياتي. وعند هذا الحد شعر أسامة بما يكفي من الراحة للمضي في قراره بالزواج ثانية. وأنا لم أطلب، ولم أتلقَّ الإذن بأن تكون لي كلمة في الاختيار الفعلي لزوجته الثانية.

وهكذا تزوّج أسامة من جديد. لم أحضر الزواج، لكن المراسم جرت بحسب متطلبات ديننا. وكانت زوجته الثانية سعودية، اسمها الأول خديجة، وهو الاسم ذاته للمرأة التي اقترنت بنبينا. وقيل لي إن خديجة تنتمي إلى عائلة الشريف التي تحظى باحترام كبير، وتتحدر من النبي. وهي تكبر أسامة ببضع سنوات، ومتعلمة كثيراً، ومدرّسة للبنات في إحدى مدارس جدة.

من الأمور الجيدة أن يتبع المسلم سنّة النبي. وقد كنت لطيفة وأنا أستقبل خديجة في منزلنا الكبير، حيث خُصصت لها شقتها الواسعة، بالرغم من أنني، لأكون صادقة، احتجت بعض الوقت لأتقبّل بأن تقاسمني زوجي امرأة أخرى.

قال أسامة إن عليه، من الآن وصاعداً، الالتزام بتعاليم الإسلام المتعلقة بتعدد الزوجات. وسنُعامَل أنا وخديجة على قدم المساواة، وهذا يعني أننا ستقاسم كل ما لدى زوجي بالتساوي: أفكاره، ووقته، وحتى هداياه.

عرفت أنه، بسبب تمسكه الشديد بجميع الفروض الإسلامية، سيقسّم الليالي بين منزلنا ومنزل زوجته الجديدة. وعرفت أن عليّ، كزوجة مسلمة صالحة، أن أتقبّل هذا الوضع، برضا صاف وقلب طيّب. وإلا، فلن أحظى بمكافأتي في الجنة.

لكنني لم أكن مستعدة للفراغ في منزلنا في الليالي التي يغيب فيها أسامة. واشتقت، بوصفي امرأة نادراً ما تخطو خارج سور المنزل، إليه وإلى الإثارة التي يحدثها وصوله. جهدت لأكون مسلمة صالحة، وحاربت مشاعر الفراغ في داخلي، لأنني عرفت أن الاسلام يُسوّغ ما يفعله زوجي.

أعطيت التعليمات لأولادي بتكريم ضرّتي واحترامها، وعلّمتهم أن ينادوها «خالتي».

توافقت الأمور كلها بسلاسة، وسرعان ما أخذنا أنا وزوجة أسامة الثانية نستمتع بزيارات روتينية لبعضنا البعض، فنتشارك الكتب، أو نقرأ معاً، أو حتى نتناول بعض وجباتنا معاً. وقد استفدت من رفقتها، وصرت أنتظر بشوق ساعاتنا المشتركة، وأصبحنا مع الوقت صديقتين.

ولمّا يمضِ وقت طويل على ذلك حتى وضعتُ ابني الخامس، عثمان. أرضاني تماماً النظر إلى وجهه المليح، بحيث إنني للمرة الأولى لم أحزن لفشلي في الحصول على ابنة.

وضعت خديجة، بعد سنة على زواجهما، طفلها الأول، وهو صبي دُعي علياً. وبالتالي، بات يُطلق على خديجة، من اليوم الأول لمولد علي، لقب أم علي المشرِّف، تماماً كما أطلق علي اسم أم عبد الله من اللحظة الأولى التي وُلد فيها ابني. وأطلَق من لهم دالة على زوجي عليه اسم أبي عبد الله، لأن الرجل يُلقّب أيضاً باسم ابنه الأول.

ومن ذلك الوقت وصاعداً، بات أولاد خديجة وأولادي يعيشون معاً. وأصبح أصغر أبنائي رفاق لعب علي.

ولمّا يمر وقت طويل على ولادة علي، حتى تدبّر أسامة أخذ عائلته للمرة الأولى إلى باكستان. فقد مرت سنوات عدة على الوعد الذي قطعه للمرة الأولى بتدبير منزل لنا في بيشاور، لكن الحمل وزواجه الثاني أخّرا رحلتنا.

ومع صعود زوجتَيْ أسامة، وأبنائه الستة الممتلئين حيوية، الطائرة من جدة إلى مطار بيشاور الدولي، استبدّت بي الرغبة في رؤية ما شاهده زوجي طوال الأعوام الخمسة الماضية.

بدت بيشاور، بالمقارنة مع الكبح الموجود في السعودية، بهيجة الألوان بالنسبة إلى مدينة مسلمة، يجوبها أناس بأزياء تقليدية إثنية متنوعة في باصات وسيارت أجرة مطلية بألوان زاهية. بدت لي المدينة مبهرة لكوني تعوّدت على

العزلة. وقد أصبحت بيشاور، بعد الغزو السوفياتي لأفغانستان في سنة ١٩٧٩، بحكم المخيّم للاجئين البشتون الأفغان، تكثر فيها النساء اللواتي يرتدين البرقع ويتسوّقن من المتاجر الموجودة على الأرصفة. ويخدم البرقع الغاية ذاتها من العباءة، وهي لفّ المرأة المسلمة المحتشمة من الرأس إلى أخمص القدمين، برغم الاختلاف في الطراز بين الزيين. وفي حين أن العباءة السعودية سوداء، يمكن للبرقع أن يكون أزرق زاهياً، أو أصفر، أو بنّياً، أو غير ذلك من الألوان. والتصميم مبهرج إلى حد كبير، مع حجاب مشبّك يغطي عيني المرأة، كما توجد رسوم مطرّزة من الأمام، وتموجات مثنية تبرز من الخلف.

عثر أسامة على فيلا جميلة، فيها ما يكفي من الغرف لعائلته المتنامية. وبقينا، أنا وخديجة، نعيش في عزلة بحكم الواقع، وحياتنا العائلية تسير كالعادة، بينما واصل أسامة عمله خارج المنزل، بل أخذ يقوم بسفرات متكرّرة إلى أفغانستان. سُررت لأنه كرّس المزيد من الوقت لأبنائنا، حتى أنه، في مرّة أو مرتين، اصطحب معه ابننا البكر، عبد الله، وهو في الثامنة، إلى داخل أفغانستان.

أمضينا أشهر الصيف الثلاثة في بيشاور، وقال بعدها أسامة إنه سيواكبنا إلى جدة لأن ابنينا الكبيرين شرعا في الذهاب إلى المدرسة. ولأن السفرة تمت على خير، تعوّدنا أن نقضي أشهر الصيف في بيشاور.

وجدت نفسي حاملاً من جديد، بعد ولادة ابن خديجة الأول، علي. وتيقّنت هذه المرة، بعد خمسة صبيان، من أنني سأرزق ببنت. وعاد زوجي إليّ في جدة من أجل الولادة، برغم أنه أصبح أكثر انغماساً في الحرب في أفغانستان. ولما تبيّن أن الطفل السادس صبي آخر، أطلق عليه الاسم الأكثر تميزاً لمسلم، وهو محمّد.

جعل أولادي الستة، إلى جانب عليّ، منزل بن لادن يضج فعلاً بالحياة. وأنا متيقنة من أن رجالاً كثيرين راعهم زوجي وعائلته المؤلفة من سبعة أبناء.

بُعَيْدَ ولادة محمد، فاتحني زوجي برغبته في اتخاذ زوجة ثالثة. حان الوقت

الذي سيحتاج فيه الإسلام، بحسب أسامة، إلى المزيد من الأتباع، وهو يريد المزيد من الصبيان والبنات لنشر رسالة الله. وأشار أسامة في هذه المناسبة، بأنه سيكون مسروراً لو وجدت له زوجة مناسبة. فوافقت بعدما فكّرت في الموضوع لبضعة أيام فقط. أخبرني قلبي أنني لو فعلت أمراً مهماً له وللإسلام، فسيحبا حبي له وينمو أكثر.

ومن المؤكد أن الله أرشدني في هذه الوظيفة المهمة، لأنني، في غضون أسابيع فقط من حديثنا، التقيت امرأة سعودية رائعة من جدة اسمها خيرية صابر، وهي معلّمة متخصصة في تدريس الأطفال الصم والبكم.

يهمني أن تكون النساء اللواتي يتزوج بهن زوجي ورعات. وخيرية متدينة جداً، لكنها امتلكت فضائل أخرى جذبتني إليها. أحببتها من اللحظة الأولى التي وقع نظري فيها على وجهها الساحر. وزاد كل اكتشاف جديد عن حياتها الدينية، وعن عائلة آل صابر الرفيعة القدر، في محبتي لها. وصرت أروح وأجيء بين أسامة وعائلة خيرية، للتوصّل إلى الاتفاقات الروتينية المتعلقة بالمهر وغيره من المواضيع، بحيث أتمكن من تدبير خطوبتهما.

أصبحت، مع مرور موعد زواجهما، أحب خيرية مثل شقيقة عزيزة. وأخذت مشاعري الصادقة حيالها تنمو مع كل سنة تمر. ساعدتها في الاستقرار في شقتها الخاصة في منزلنا الكبير. وأغنى وجودها العذب متعتي، وأمضينا ساعات كثيرة نقرأ القرآن وناقشه، إضافة إلى جوانب أخرى من ديننا.

جعل زواج أسامة الثالث من سنة ١٩٨٥ سنة ملأى بالإثارة، وكانت السنة التالية أكثر استقراراً، على الأقل للزوجات والأولاد. وهي السنة الأولى، منذ فترة طويلة، التي تمرّ بأكملها بدون ولادة أي طفل.

تركّز اهتمامنا الأول، كزوجات، على العناية بأولادنا الصغار وبسعادتهم، وعلى إدارة شؤون البيت. ويُفترض بنا الإشراف على الخادمات وعلى الفتيات اللواتي يُعددن الشاي، إضافة إلى المحافظة على مواعيد أولادنا، لكون الأكبر

سناً بينهم قد بلغوا سن الدراسة. أصبح منزلنا أشبه بقفير نحل بوجود ثلاث زوجات، وسبعة صِبْية نشطين، وخادمات كثيرات، وفتيات لإعداد الشاي، وطباخات، وسائقين. ولا يهم كثيراً أن منزلنا كان واسعاً يضم اثنتي عشرة شقة كبيرة، لأن زحمة الناس، بوجود هذا العدد الكبير منهم يتحركون بسرعة لإنجاز مهامهم الكثيرة، أنتجت ضوضاء وحركة تصم الآذان، حتى في يوم عمل روتيني.

اعتادت زوجتا أسامة الأخريان غيري، على القول، على سبيل المزاح، إن منزلنا في جدة يشكل أمماً متحدة مصغّرة، بوجود موظفين من الفيليبيين، وسريلانكا، وأفريقيا، ومصر، واليمن، وبلدان كثيرة أخرى. وبرغم أنه تدبّر أن يقوم سائقون عديدون بنقل أولادنا إلى المدرسة، وشراء المواد الغذائية والحاجات الضرورية، انشغلنا نحن الزوجات الثلاث في إبقاء كل شيء منتظماً.

حزت، بوصفي زوجة أسامة الأولى، التي تُعتبر الأهم في مجتمعنا الإسلامي، الاحترام الكبير من جميع من حولي، بمن فيهم زوجتاه الأخريان، لكنني لم أشعر بنفسي أبداً أرفع مقاماً من خديجة أو خيرية. فقد أصبحنا صديقات، ولا مجال للنزاع بيننا أبداً.

حملت من جديد في سنة ١٩٨٦، وأملت بصدق أن تعلن خيرية عن حملها، لكن ذلك اليوم السعيد لم يأتِ بعد.

جاءني زوجي قرابة ذلك الوقت، وأعلن أن سيتخذ قريباً زوجة رابعة. ناقش أفكاره معي، لكنه لم يطلب مني أي موافقة صريحة أو مشاركة. وشعرت بأنه يكفيني العثور على زوجة واحدة لأسامة.

كانت زوجة أسامة الجديدة شقيقة أحد المحاربين السعوديين في أفغانستان، وعائلتها من المدينة، واسمها سهام. لم أحضر المراسم، برغم أنني ساعدتها على الاستقرار في منزلنا.

أبلغنا أسامة، بُعَيْدَ زواجه الرابع، خبراً ما كنت أتوقعه أبداً. ستنتقل عائلتنا إلى المدينة، على بعد ٢٠٠ ميل شمال شرق جدة، لأنه سيشرف على مشروع بناء لبن لادن فيها.

صحيح أنني أحببت الحياة في جدة، إلا أن المدينة بالغة الشأن والأهمية في الإسلام، لأن النبي محمداً لجأ إليها بعدما أُخرج من مكّة على أيدي الكفّار؛ وهي مركز منزل النبي وقبره. ويعرف المسلمون المدينة باسم «المدينة المنوّرة» أو «مدينة النبي»، وتتمتع بدرجة عالية من القداسة، بحيث تحل ثانية بعد مكة في قلوب جميع المسلمين، ومعتقداتهم.

انتهى نظام أيامنا مع إعلان أسامة. وعمّت الفوضى ونحن نرتّب حاجاتنا الشخصية ليوضّبها جماعته وموظفوه.

كان أسامة، في بداية حياتنا الزوجية، على درجة كبيرة من السخاء، لكنه تحوّل إلى التقشف اعتقاداً منه أنه على المرء، ليكون مسلماً صالحاً، أن يتحوّل إلى البساطة. وبعدما ترسّخت لديه هذه الفكرة، أفتى بأنه على أثاث بيتنا أن يكون غير متكلّف، ويكون عدد ملابسنا متواضعاً، وطعامنا بسيطاً. والشيء الوحيد الذي أنفق فيه أسامة، بلا قيود، هو سياراته التي كانت دوماً من آخر طراز. وهكذا؛ لم تحصل زوجاته وأولاده على كميات السلع المنزلية أو الشخصية التي تقتنيها كثيرات في العالم المعاصر. وبرغم هذا، فإن العائلة كانت كبيرة جداً حتى أن صناديق كثيرة امتلأت بحاجات الحياة الأساسية.

لم أتحمس لمغادرة جدة، برغم أنني أحببت المدينة، ومَنْ لا يحب مدينة عزيزة على نبينا محمّد. ففي جدة شعرت أكثر ما يكون بالراحة بوجود خالتي عليا وعائلتها قريبتين منّا، إضافة إلى عدد من الصديقات، كما أن مزرعة العائلة، لنزهات نهاية الأسبوع، تقع فقط على مسافة قصيرة منّا. وكانت ساعات القيادة الأربع إلى المدينة كافية لتثبط همة الزيارات العادية لعائلة أسامة، أو الرحلات الطبيعية إلى مزرعته. ولم أفرح، بسبب حملي، بكوني بعيدة عن الأماكن المألوفة عندما يأتي الطفل.

إلا أنه ليس في وسعي عمل شيء لتغيير الوضع.

انتقلنا في المدينة إلى فيلا رحبة يملكها زوجي. وكانت هائلة الحجم، أكبر بأربع مرات تقريباً من المنزل العادي، وذات طبقات أربع كبيرة. لكننا احتللنا

معظم مساحتها بوجود أربع زوجات، وما سيصبحون قريباً ثمانية أولاد، مع طاقم كبير من الخدم.

أقمت في الطابق العلوي لكوني الزوجة الأولى ووالدة ابنه الأول، لكن كل زوجة حصلت على طابق مستقل، بما في ذلك غرف النوم، والحمامات، وغرف الجلوس، والمطابخ. وبرغم أن حماسة العيش في مدينة النبي لم تخبُ أبداً، فسرعان ما اتضح أن معظم أفراد الأسرة يفتقدون جدة.

وما هو إلا وقت قليل، حتى أدخل طفلي السابع البهجة إلى حياتنا.

مرّ حملي بهدوء برغم مشقة الانتقال. فقد أصبح روتيناً في حياتي بعد ولادة ستة أبناء، قبلت في النهاية بأنني سأكون الأم القانعة لهم، حتى أنني دربت أفكاري على ألا تنجرف إلى الألوان الزاهية لملابس الفتيات المقفل عليها في صندوق التخزين.

تأكّد أسامة من وجوده في المنزل في الوقت الذي ألد فيه، ومرّة أخرى ذهبنا في الرحلة السريعة إلى مستشفى المدينة. ومن حسن حظي أن مخاضي أصبح أكثر سهولة، ووُلد الطفل سريعاً. وسمعت صوت طبيبي يتحدث وهو يحمل الخبر الذي أثار شهقتي. فها إن نجوى غانم، بعد ثلاث عشرة سنة من الزواج وستة أبناء، أم لطفلة أنثى! اجتاحت جسمي رعشة جميلة. ولم أشعر بمثل هذا الإحساس الذي انتابني عندما نظرت إلى وجهٍ على درجة كبيرة من العذوبة، إلى درجة أنني شعرت بأنني أحدّق في السكّر الصافي.

بدا أسامة مسروراً أيضاً، لكنه قال إن سعادته جاءت بدون زهو. اسمينا ابنتنا العزيزة فاطمة، وهو اسم إسلامي مُفضّل، لأن النبي سمّى ابنته به.

شعرت برغبة ملحّة في العودة إلى المنزل مع ابنتي العزيزة، بحيث يمكنني أن أنبش في تلك الصناديق عن ثياب أنثوية. يا للسعادة! كانت تلك السنة الأولى مع ابنتي الصغيرة، واحدة من أكثر السنوات سعادة في حياتي.



شعر أولاد بن لادن بأنه من الطبيعي لوالدنا أن يتزوج بنساء غير والدتنا، وأن يأتي بهن للعيش في منزلنا. كنت في الثانية عندما اقترن أبي بزوجته الثانية؛ وفي الرابعة عندما تزوج بالثالثة؛ وفي السادسة عندما تزوّج بالرابعة.

لم أفكّر كثيراً في واقع وجود أربع نساء يُقمن تحت سقف واحد. نساء أربع تزوّجن جميعهن بالرجل نفسه: والدي. بدا تصرّف والدتي إيجابياً، وبالتالي لم نمتلك، نحن الأولاد، سبباً للرد بأي طريقة أخرى. بل إنها علّمتنا، بلطف، احترام النساء اللواتي قاسمنها والدي.

تكمن أسباب كثيرة وراء النظرة السعودية المحبّذة لتعدّد الزوجات. فالثقافة السعودية يسيطر عليها الرجال. وهم الذين يتخذون القرارات المهمة، برغم الوجود الرمزي لبضع أناث في منظمات تتعاطى بقضايا النساء وحسب. والصحيح أيضاً، عندما يتعلّق الأمر بالحياة الخاصة، أن بضع نساء يتخذن قرارات شخصية لا تتعدّى تنظيم منازلهن، إلا أن أفعالهن ترتكز على الأمل، لا غير، في إرضاء أزواجهن.

وفي منزلنا، أُعطيت التعليمات لزوجات أبي حول المسلكية المتوقعة منهن ومن أولادهن، برغم قول أمي إن زوجها غالباً ما ناقش معها مسائل شخصية قبل أن يتخذ قراراً نهائياً في شأنها.

وُجد هذا «النظام الأبوي» في شبه الجزيرة العربية منذ فجر الأزمنة. تزوّج الرجال، في العصور القديمة، بالعدد الذي أرادوه من النساء، وبلغ بعضهم أن تزوج بالمئات منهن. وعندما يضجر رجل ما من امرأة يهجرها بدون أي متوجبات قانونية إلزامية. وينطبق الأمر ذاته على الأطفال الإناث. وكانت العادة وأدهن. كانت النساء، ببساطة شديدة، ملكاً للرجال، ويمكن نبذهن بحسب رغبة الذكر المسؤول عن مصيرهن، سواء أكان هذا الذكر والداً، أم زوجاً؛ أم عماً أم ابناً.

وتحسّنت حياة النساء كثيراً بعدما وضع النبي محمد أسس الإيمان الإسلامي، فحرّم الإسلام قتل المولودات البنات، ووأدهن، وأعطيت للإناث حقوق مالية محددة، بما في ذلك الحق في الملكية. وحدد للرجل أربعاً من الزوجات، لا أكثر، وأرفقه بشرط مهم يقضي بأن يساوي تماماً في الرعاية بين كل من زوجاته.

ويعتقد بعض الفقهاء المسلمين أن مثل هذه العلاقة مع أربع زوجات هي في الأساس مستحيلة، وأن ذلك هو السند العقلي للشرط التحديدي للنبي محمد. ولفقهاء آخرين آراء متنوعة، مع قول عدد كبير منهم إنه يمكن لرجل منصف أن يعامل أربع زوجات بصورة متطابقة. ولهذا السبب، يبقى الرجال السعوديون أحراراً في الزواج بما يصل إلى أربع زوجات.

وأنا، لطالما أحببت الجنس الآخر. لم أكن قد ذهبت بعدُ إلى المدرسة عندما أدركت أن الحب بين الرجل والمرأة كناية عن انفعال قوي جداً. وباتت النساء يحتللن مكانة كبيرة في ذهني، لكون والدي قد اتخذ أخيراً زوجة أخرى له.

وقعت للمرة الأولى في الحب وأنا صغير. وقد أُصبت به، برغم حداثتي، بقوة شديدة، بحيث شعرتُ بأن شرارة صاعقة عصفت بقلبي. أغرمت بـ «امرأة أكبر سناً»، وكانت فتاة في الثامنة، هي ابنة صديقة أمي، طويلة القامة، ذات شعر كستنائي يصل إلى خصرها، وبشرة زيتية نضرة، وعيني ظبية غريبتين سوداوين. بلغت جاذبيتها من القوة بحيث إنني اكتفيت في التحديق إليها. ولم يُثمر ذلك أي علاقة، طبعاً، بسبب حداثتي.

ووجدت في غضون ذلك متعة كبيرة في الخيل وركوبها. وقد زرع والدي في أبنائه حب الخيل في سن مبكرة، وهو المحب في طبعه للجياد، ويمتطيها منذ طفولته.

كنت في الرابعة أو الخامسة في المرة الأولى التي امتطيت فيها فرساً، مع شقيقي الأكبر، عبد الله، وكان حينذاك في التاسعة. وقد أوكل أبي لابنه البكر شرف تسهيل الدخول إلى عالم الخيل على أصغر أبنائه. وتولّى عبد الله هذه المسؤولية بحماسة.

لا أذكر الكثير عن ذلك اليوم سوى الأمور المهمة التي حصلت فيه. أذكر أنه تم وضعي بحرص على السرج وعبد الله من خلفي. شعرت بالإثارة لوجودي للمرة الأولى على صهوة فرس، وسرعان ما فقدت توازني. كنت طفلاً قويّاً، فتمسّكت بذراعي شقيقي وعنقه بقوة كبيرة، وأخذته معي وأنا أقع على الأرض القاسية تحت حوافر الفرس. ومن حسن الحظ أنها متعوّدة على الأولاد، وتمكنت في اللحظة الأخيرة من الرقص حول جسمينا الصغيرين واجتناب الدوس علينا.

ارتعش أخي خوفاً من السقطة، وقلق كثيراً من تلقي الملامة لو جُرح شقيقه الطفل، فأعلن أننا «تعلّمنا ما يكفي عن الخيل ليوم واحد».

تشوّقت كثيراً إلى المحاولة من جديد برغم أنني تلقّيت كبوة مبكرة. وفي غضون سنة أو اثنتين، أصبحت أمتطي الحصان مع أخوتي بدون سرج.

ركبت لماماً مع أمي. فقد أحبت هي ركوب الخيل، لكنها واجهت عقبتين: الأولى أنها كانت حاملاً معظم فترة حداثتي، وعرفت أن امتطاءها خطر عليها وعلى الجنين؛ والثانية أنه لا يمكن لأي رجل من خارج عائلتنا المباشرة أن يراها تمتطي الخيل، لذا كان التخطيط بعناية لنزهاتها.

أصبحت الخيول محور حياتي. وكرهت واقع أن والدي سمح لي فقط بركوب الألطف بينها في اسطبله، وتشوّقت إلى امتطاء أقواها، على غرار أشقائي الأكبر سناً.

لا أذكر عمري عندما امتطيت أول حصان شموس، بل أذكر أنه قد مضت عليّ سنوات قليلة فقط عندما واكبنا، أنا وأشقائي الثلاثة الأكبر مني، والدنا ومجموعة من سبعة أصدقاء إلى الصحراء. امتطى البالغون الأحصنة. ولسبب لم أعد أذكره، تبعهم أولاد أبي في سيارة ذات دفع رباعي.

انزلقت السيارة فجأة وتوقّفت. فقد رمى أحد الأحصنة الشُّمُس أحد أصدقاء أبي عنه. ومن حسن الحظ ان إصابته لم تكن بليغة، وأمكنه النجاة من الحادثة وهو يعرج، إلا أنه قرر متابعة الرحلة في السيارة. جرّ والدي الحصان ورسنه يتدلّى من بين أصابعه. وانحنى، وألقى نظرة داخل السيارة، وسأل: «من يريد الركوب؟».

تحاشى أشقائي الأكبر مني النظر في عيني أبي. ودُهشت وأنا أفكّر في أنها فرصة عظيمة. فقفزت من السيارة، وكنت مقداماً بالفعل نسبة إلى عمري: «أنا سأركب!».

لم يُسمح لي أبداً بامتطاء مثل هذا الحصان الكبير والقوي، وخشيت أن يجابهني والدي بالرفض، لكنه أشار بكتفيه علامة الموافقة. كنت صغيراً، وأضطر إلى النزول ليرفعني إلى السرج. وشعرت، برغم حجمي الضئيل، بأنني رجل كبير فعلاً، وقد استارني أن الوقت قد حان لأثبت فروسيتي.

جرى والدي وأصدقاؤه سريعاً قبل أن أستقر على السرج. وبدون أي إنذار، اهتزّ حصاني الشموس الكبير ووثب إلى الأمام وراء الأحصنة الأخرى. تساءلت، هل لحصاني أجنحة؟ لأنني كنت أطير عبر الصحراء بسرعة كبيرة إلى درجة أنني لم أعرف اتجاهي. وقد تموضعت على هذا القدر من الارتفاع عن الأرض إلى حد أنني شعرت بنفسي وكأنني على رأس جبل. حاولت، وأنا أتمسك بحياتي العزيزة، القيام بكل خدعة أعرفها لإيقاف الحصان، لكنه تجاهل كل أمر صادر عن راكبه الصغير. ليس هذا فقط، بل زاد من سرعته بدلاً من إبطاء خطواته. وتعلّمت، متأخراً جداً، أن كوني فارساً حاذقاً بالنسبة إلى عمري، لا يعني أنه يمكنني ترويض الحصان الشموس. فصَحت بوالدي: «أبي! أوقف الحصان! أوقف الحصان!».

الحمد لله، لأن والدي سمع أخيراً صراخي طلباً للنجدة. فاستدار، وجاء صوبي، وخطف بمهارة رسن الحصان من يدي، وأبطأ من عدوه إلى أن توقف تماماً.

حاولت ألا أظهر فرحتي العظيمة، برغم أنني اعترفت في قرارة نفسي بأن مهارتي في الركوب لم تكتمل بعد. وقفزت عن ذلك «الفحل اللعوب» وأنا مصمم على إكمال ما بقي من الرحلة سيراً. تركني والدي ورفاقه وسط الغبار، وقد اعتبروا أنني في أمان. وسرعان ما مرت بي السيارة التي تقل أخوتي. شعرت بأنهم يستمتعون بورطتي، فحرصت على ألا تلتقي عيناي عينيّ أي منهم، واجتازتني السيارة على مهل.

سرعان ما اختفى الفرسان، والأحصنة، والسيارة في غبش الصحراء. وأصبحت وحدي تماماً، ويداي الصغيرتان تمسكان بلجام حصان أعرف أنني لا أستطيع السيطرة عليه. شعرت بغصة ومرارة تنشبان في حلقي كالعلقم.

اعترى الحصانَ فجأة أمرٌ ما. شبّ إلى أقصى طوله، وقائمتاه الأماميتان ترفسان، والخلفيتان ترقصان، وقوته الشديدة تجذب اللجام. تمسّكت به في محاولة عبثية لإبقائه تحت السيطرة، إلا أنني، برغم كوني قوياً بالنسبة إلى عمري، لم أمتلك القوة المطلوبة لكبحه، أو حتى للبقاء ممسكاً باللجام. قام الحصان بوثبة أخيرة قبل أن يسرع مبتعداً، فارتعبت من العواقب في حال فقدت واحداً من أحصنة والدي الشُمُس الغالية عليه، وانقضضت على الرّكاب، وتمكنت بأعجوبة من الإمساك به بيدي. تمسّكت جيداً، وشعرت بألم في ركبتيّ وقدميّ وأنا أنطنط إلى الأمام وإلى الخلف على الأرض، وأجذب بسرعة عبر الهشيم، والتراب، والحجارة الصغيرة.

أفلت الركاب فانتهى سباقي المجنون، وتجمّد العالم من حولي. كنت متكوّراً في التراب، أتفّ الرمل وأتجشأ الغبار، ولا أزال متمسّكاً بالركاب المكسور. وعندما تطلّعت صوب الحصان الهارب الذي أوكل أمره لي، حصلتُ على نظرة أخيرة لعجز الحصان وذنبه وهو يتحرّك كالريح. حصل ما لا يمكن

احتماله، فأنا لم أستطع السيطرة على واحد من «فحول» أبي العزيزة على قلبه وحسب، بل فقدت أيضاً ذلك الحصان. جلست بهدوء، أنظر من حولي، وأتساءل عما أفعله.

وسرعان ما عادت الحياة إلى الصحراء مع دبيب مرحّب به. فقد استدار سائقنا الذي انتابه القلق وعاد للاطمئنان علي. قفزت على قدمي، وأمكنني أن أسمع، من خلال ضوضاء السيارة، أصوات ضحكات أخوتي. توقّفت السيارة إلى جانبي، وبلغ بي الخزي حدّاً لم أعرف معه ما العمل، فحاولت أن أدعي أنني لا أهتم بشيء البتة.

عاد والدي وهو يعدو بحصانه، وفاجأني بقلقه الظاهر على حالي. وعندما كشفت بتردّد عما حصل، أفلت ضحكة نادرة، أعطت أشقائي الشجاعة للضحك بقوة عليّ، كشفوا معها عن أسنانهم، وهذا غير مسموح في عائلتنا.

لم يتمكن ضجيج محرّك السيارة من كتم قهقهات أخوتي. ضحك الجميع مني، ما عدا سائقنا اليمني. كم أحببت ذلك الرجل اللطيف. فهو يعمل لدينا منذ طفولتي، وكان يعتني بنا عناية خاصة، بالرغم من أن لديه أولاده. فكان أن رمقته بنظرة تقدير.

ازداد هَواني مع استمرار أشقائي في الضحك. ولأنني لم أُرد لوالدي أو لهم أن يعرفوا أنني خجل، شرعت أضحك معهم. وسرعان ما وجدت نفسي غير قادر على التوقف عن الضحك. وبلغت بهجتي درجة مفرطة من الحدّة بحيث تساقطت الدموع من عيني وانهمرت على وجهي.

لكن ذلك النهار الكريه حمل أخيراً خبراً جيّداً. فبعدما تركني حصان أبي لقدري، عاد مسرعاً إلى المزرعة حيث وجدناه لاحقاً ينتظرنا بفارغ الصبر عند باب الاسطبل.

كلّما كبرت في السن، عرفت مزيداً من المفاجآت حول كيف يُتوقَّع من أولاد أسامة بن لادن أن يعيشوا. امتلك أبي، كما سنكتشف جميعنا، الكثير من الأفكار غير المعهودة عمّا يسمّيه «شرور الحياة العصرية».

فعلى سبيل المثال، عانينا أنا وأشقائي جميعنا من الربو، وتحمّلنا في حداثتنا، نوبات خطيرة كثيرة، وبخاصة عندما كنا نلعب في مناخ الصحراء الحار. وقد نُقلتُ في مناسبات عدة إلى المستشفى على عجل، وتم إمدادي بالأوكسيجين. قلق الطبيب من تكرار إصابتنا بالربو، فنصح والدي بالاحتفاظ بمؤونة من الفانتولين في متناول اليد، وأن يجعل أولاده يستخدمون جهاز استنشاق، لكن أبي تصلّب في رفضه إعطاءنا عقاقير حديثة، مهما بلغت خطورة مرضنا.

أفتى والدي في كل شيء، ما عدا وسائل النقل الحديثة، بأن علينا أن نعيش، كلما أمكن ذلك، مثلما عاش النبي. ومُنعنا من تناول الأدوية الحديثة بما أنها لم تكن معروفة في تلك الأيام القديمة. ورفض أي علاج طبي حديث، اللهم إلا إذا وصل أحدنا إلى شفير الموت.

ونصحنا، لعلاج للربو، بأن نكسر قطعة من قرص عسل ونتنشّق عبر ثقوبه. لم ينفع هذا كثيراً، لكن والدي لم يلن، وهو يذكر لنا أولاً ما يدعيه في شأن حياة النبي، ويحذّرنا من أن الفانتولين سيدمّر رئاتنا.

غالباً ما شعرت كما لو أنني أكافح للتنفس عبر قشّة، وبرغم ذلك يتم تجاهل معاناتي ما لم يأتِ الموت قارعاً بابي. ولما كبر عبد الله وسمع بالفانتولين، اشترى مؤونته منه خفيةً. وسمح لي باستخدام جهاز الاستنشاق الخاص به.

فعلت ذلك عند بداية النوبة التالية، فتحوّلت حياتي بعد نفختين. واكتشفت أمنا أننا نعصي أوامر أبينا باستخدامنا أجهزة التنشق، إلا أنها، من حسن الحظ، لم تبلّغ أبداً عن تحدّينا إياه. فقد اهتمت وحسب بألا نستمر في المعاناة.

لم يسبق لأحد منا، إلى أن أصبحنا مراهقين نعيش في أفغانستان، أن التقى أيَّ شخص يشاطر والدي وجهات نظره المتشددة. فمنذ الوقت الذي أصبحنا فيه ناضجين كفاية، أوضح لنا أبي أنه يتوقع منا التزام قواعد محددة حول كيفية حياة صبي مسلم.

حاولنا في كل فرصة التحايل على تلك القواعد، على غرار الأولاد في كل مكان. فقد منعنا والدي، مثلاً، من تناول المشروبات الغازية المستورَدة من أميركا. وكم رغبنا بالممنوع! أطعناه في قراره المتعلق بالمنتجات الأميركية ما دام على مرأى منّا، لكننا تهافتنا، كلما واتتنا الفرصة، على استهلاك «البيبسي كولا» وغيرها من المشروبات الخفيفة.

وُضعت قواعد أخرى غير مُتوقّعة لا علاقة لها بنفوره من المنتجات الغربية. فقد أصرّ، ونحن أطفال في أول مشينا، على ألا نُعطَى إلا القليل من الماء. وشدد، لمّا كبرنا، على أهمية عدم شربه إلا في حالة الضرورة القصوى. وقال إن على أبنائه أن يكونوا «صلبين» و«صبورين»، وعلينا بالتالي أن نعزم النية على مقاومة أي نوع من أنواع الغذاء لما أمكن من الوقت.

وسُنّت قواعد مطابقة في صرامتها لشقيقاتنا، لكنه ترك لأمي أن تبث روح الانتظام فيهن. وكانت شقيقاتي أوفر حظاً لأن أمي وجدت أنه يستحيل عليها مقاومة صراخ بناتها الصغيرات وتوسلاتهن طلباً للماء أو الطعام.

أخذ والدي، حتى ونحن صغار، ينقل أولاده إلى الصحراء الجافة خارج مزرعة جدة، ويصرّ على أن نرافقه في رحلاته الطويلة برغم أننا غالباً ما نكون عرضة لنوبات الربو. وقضى أقسى أحكامه في أنه لا يسعنا شرب أي ماء إلى حين عودتنا من رحلتنا. وقيل لنا إنه لا يجب حتى أن «نفكّر» في الماء. ويعرف الجميع، بالتأكيد، أن السير في الصحراء يستنفد على نحو خطر السوائل من الجسم. وتنصح الحكومة بالفعل جميع زوّار الصحراء، بضرورة استهلاك ما أمكنهم من الماء.

لكن أبناء أسامة بن لادن لُقّنوا، على العكس من ذلك، أنه يجب علينا أن نتدرب للبقاء ساعات طويلة في الصحراء بدون أي سوائل. كان علينا أن نتعلم كيف نصبح محصّنين جسمانياً ضد حر الصحراء الوخيم، وأن نجعل أجسامنا وأذهاننا قوية وصلبة. وتم تحذيرنا تكراراً من أنه علينا أن نستعد لمواجهة حرب الصحراء عندما يهاجم «الكفار» العالم الإسلامي، وهو اعتقاد طوّره أوّلاً في ذهنه وأنا طفل، وأخذ ينمو مع كل سنة تمرّ.

كما خضنا الكثير من هذه الدورات، بحيث إن معظمها اختلط في ذاكرتي، برغم أنني أتذكّر رحلة محددة أعلن فيها والدي أننا سنضيف اليوم تدريباً قاسياً إلى برنامجنا، وسنضمنه تسلّق الجبال. وأنه قد اختار منطقة فيها الكثير من التلال الشديدة الانحدار. وانخفض صوته الهادئ وهو يعلن: «لن يكون ثمة ماء إلا بعد النزول من التلال». وعرفنا، برغم ذلك، أنه غالباً ما يحمل «مطرة» صغيرة من الماء لإنقاذ من ينهار من الحرّ.

أصبنا بالإحباط أنا وأشقائي من هذا الاحتمال، لكننا لم نحتجّ. وقد سبق لنا أن حاولنا محاججة والدنا من قبل. فقرّرتُ أن أهيّئ نفسي ذهنياً بدلاً من المحاججة التي لا فائدة منها.

انطلقنا مع سائقنا الذي يُؤمَر دوماً بمرافقتنا في مثل هذه الجولات، واقتفينا أثر والدنا. سرنا صعوداً، والشمس السعودية الحارقة تلسع رؤوسنا. وسرعان ما تشنّجت سيقاننا من جراء الانحدار الشديد. لا يمكن لأحد أن يجاري والدي. فقد درّب نفسه جسمانياً منذ حداثته. ولا يمكن لأي كان التسلّق بمثل قوة أسامة بن لادن التي لا تني برغم أنه ليس رجلاً مفتول العضلات.

راودتني، بعد مراقبته في رحلات صحراوية كثيرة، فكرة طفولية بأن في وسعه الدوران حول العالم بدون لحظة استراحة، أو ارتشاف قطرة ماء واحدة.

كنا في منتصف الطريق صعوداً إلى التلة، حينما كاد جفنا عين سائقنا اليمني المسكين يصبحان مجرد شقّين. راقبته بينما أخذ وجهه يشحب، وخطواته تتباطأ، وتنفّسه يصعب. وأثار صوته الشفقة وهو يحشرج: «ماء... يجب أن أحصل على الماء...».

تجاهله والدي في البداية. ولم يلن إلا عندما خرّ الرجل المسكين على الأرض، وهو في سن أخذ معها الشعر الأبيض ينبت في لحيته، وشرع يتوسّل: «سأموت من غير ماء، يا شيخ أسامة. سأموت. فقط قطرة، مجرّد قطرة...».

ارتحت عندما رُوي عطشه وخرجت مني زفرة سريعة. ومن سوء الحظ أن هستيريا الماء لدى سائقنا أصبحت مُعدية. وسرعان ما أخذ أحد أشقائي في

الانسحاب، معتقداً أنه، هو أيضاً، سيهلك بدون شربة ماء. أما أنا فسرت بثبات، محدّقاً في قدمي، لكنني كنت أستمع إلى أشقائي الذين أخذوا يستسلمون الواحد تلو الآخر، ويتوسلون أبي رشفة ماء واحدة.

زمَّ والدي شفتيه خيبة وهو يوزع حصص الماء، ويعطي كلاً من أشقائي رشفات قليلة. تفحّصت تعابيره التي تنضح بعدم الاغتباط، وأدخل الغليان من الغضب الحرارة إلى قلبي وذهني أكثر مما فعلت شمس الصحراء! وقرّرت أنني أفضل الموت على التوسّل. وسيلقى جزاءه إذا اضطر إلى أن يبلغ أمي أنه قتل واحداً من أبنائه.

كان رأسي يخبط على إيقاع ضربات قلبي المرتفعة الصوت، وجف حلقي كثيراً إلى درجة أن لساني أخذ في التورّم، لكنني رفضت السماح للكلمات التي أتوق إلى الصراخ بها أن تفلت من شفتي. وسرت بثبات إلى أن خطوت الخطوة الأخيرة عند أسفل التلة.

نظرت إلى والدي نظرة انتصار. لقد اجتزت هذا الاختبار الشاق غير الإنساني، ولم أتوسّل من أجل الماء. كنا، الوحيدين اللذين نجحنا في الوصول إلى أسفل التلة بدون أي جرعة منه.

أعرف الآن، في استعادة لما حدث، أن والدي فوجئ بأن واحداً من أصغر أبنائه، هو الذكر الأخير الذي بقي واقفاً على قدميه طوال مشقة الطريق.

سُنّت قواعد أخرى لا تُعقل، تتعلق بمسلكنا. يُسمح لنا بالحديث بحضوره، لكن أصواتنا يجب أن تبقى منخفضة، وكلامنا يجب أن يكون موزوناً بحذر. أي، بعبارات أخرى، يُمنع علينا «الإفراط في الكلام». وقيل لنا إنه لا يجب لأي وضع أن يستثيرنا، وعلينا أن نكون جادين في كل شيء. لا يُسمح لنا بإخبار النكات. وأُمِرنا بعدم التعبير عن الفرح حيال أي شيء. ويُسمح لنا بالابتسام ما دمنا لا نضحك. وإذا فقدنا السيطرة على انفعالاتنا واستسلمنا لإحدى نوبات الضحك، فلا يجب أن نُظهر أسناننا. وقد حضرت مواقف قام فيها والدي بعدّ الأسنان المكشوفة، مؤنباً أبناءه على العدد الذي كشفه فرحهم.

تأثر أبناء أسامة الأكبر سناً سلباً بتعصّب أبينا. لم يسع عبد الله، البكر، وهو طفل، إلى الصداقة مع غيره من الصِّبْية، مفضّلاً حياة الوحدة. وشكّل فرحه الأكبر امتطاء دراجة نارية. عندما نكون في المزرعة، يقفز عليها ويغيب لساعات، بينما شعره يتطاير في الهواء وهو يختفي في الصحراء.

أما شقيقي الثاني، عبد الرحمن، المولود سنة ١٩٧٨، فشخصية متوحّدة، يجلس في الغالب وحده ويحدّق بدون هدف. وأذكر أنه كان، وهو صبي صغير، يدخل في هوجة نشاط جنوني محطماً الأدوات المنزلية، أو مستغرقاً في ألعاب أكثر مللاً، مثل اللعب بقطع من الورق لساعات بدون توقّف.

وأعتقد أنه، مهما تكن المشكلة، لا يمكن لعبد الرحمن رسم الحدود بينه وبين الآخرين. فهو، على سبيل المثال، يعشق الحيوانات، وبخاصة الأحصنة، لكن ثمة أوقاتاً في طفولته تتغير فيها شخصيته ويصبح قاسياً مع هذه المخلوقات المسكينة التي يجاهر بحبّها، إلى درجة يصدق معها القول «ومن الحب ما قتل»! وأظهرت هذه الصفة ذاتها عندما كان عبد الرحمن صغيراً جداً.

لاحظ والدي أيضاً هذا الخلل النفسي خلال سنيّ عبد الرحمن الصغيرة، وحدثني مرة عن حادثة مزعجة: «أذكر يا عمر أنني قمت بزيارة لأمي عندما كان شقيقك طفلاً بالكاد يمشي. دخلت هرّة جدتك الأليفة الغرفة، فأسرع عبد الرحمن لالتقاطها. أمسك بها بين يديه، ولم أعرف ما الذي يفكّر في القيام به. وفجأة عض عبد الرحمن الهرّة. وقبل أن نتمكن من سحبها منه، خرمشت الهرة المسكينة شقيقك وأسرعت بالعدو بعيداً. اعتقدنا الأمر حادثاً عرضيّاً، لكنني أمسكت في وقت لاحق من تلك الأمسية به يراوغ الهرّة. وتحرّك بسرعة وأمسكها مرّة أخرى بقبضته، وعضها من جديد إلى أن زعقت من الألم». هزّ والدي رأسه أسفاً، ولم يتفوّه بالمزيد.

أما سعد، الابن الثالث، فنقيض عبد الرحمن. إنه كوميدي بالفطرة، ويستمتع بالكلام أكثر من أي إنسان عرفته، ويستفيض في الثرثرة في أكثر

المواضيع سخفاً، وبأي شيء يخطر على باله، سواء أتعلّق الأمر بجدي ماعز، أم باللبن الذي تناوله على الفطور. وغالباً ما بدا سعد خارجاً عن السيطرة في ثرثراته التي لا تنتهي، فيبوح أحياناً بمعلومات شخصية خاصة لا يريد أحد سماعها.

لقد أوقعته مثل هذه الحيوية التي لا حدود لها في مشاكل دائمة، لأنه، من بين جميع الأولاد، الشخص الذي يفشل دوماً في الالتزام بقواعد السلوك المتشددة التي يفرضها أبي. تتحرك أطرافه بالسرعة ذاتها التي يتحرك بها لسانه. فشقيقي لا يسير أبداً إلى أي مكان، بل إنه يركض إلى ما لا نهاية، إلى أن ركض في أحد الأيام مباشرة نحو إحدى السيارات.

حصل ذلك ووالدنا في أفغانستان، ونحن في جدة.

كان سائقنا اليمني قد سار بنا إلى الجامع المجاور. وسعد، كالعادة، يركض سابقاً الجميع. وبلغ به الاستعجال حداً سها معه، بتصرف أحمق، عن التطلّع قبل عبور الطريق، مسبباً حدوث صدمة تعل النفس عندما اصطدم بسيارة متحرّكة.

هرعنا إلى مكان الحادث، واضطرب كل من في المكان، لكن ليس أكثر من سائق السيارة، وهو يعمل مهندساً في مؤسسة العائلة ويقود سيارة الشركة. عندما أدرك الرجل المسكين أنه صدم ابن أسامة بن لادن، كاد يفقد أعصابه، وكذلك سائقنا المسؤول تجاه والدي عن سلامة أبنائه. وأنا متيقّن من أن الرجلين أخذا يتصوران خسارة وظيفة جيدة، أو ربما توقعا أحكاماً طويلة بالسجن، لأنه يمكن إبقاؤهما، لكونهما متورطين في حادث سيارة وقع فيه جرحى، في السجن في انتظار صدور الحكم.

تحلّقنا، أنا وإخوتي، حول سعد المطروح أرضاً. ولم يستطع حتى الحادث من إخراس لسانه، فأخذ يدمدم وينوح. وسرعان ما استنتجنا أن الجروح ليست خطيرة. راقبنا حالته وقد أسرعت سيارة الإسعاف بسعد إلى المستشفى؛ بينما هرع سائقنا إلى المنزل لإطلاع والدتنا على الحادث. وبقينا، نحن الأولاد، في الجوار لمعرفة ما الذي سيحدث تالياً.

ومن حسن حظ السائق أن نقيب الشرطة ترك لعائلة بن لادن أمر تولّي الحادث. وبدا الارتياح واضحاً على وجهه إلى أن أدرك أنه يجب إخبار والدي، فعاوده القلق من جديد. لا أذكر من الذي اتخذ القرار، إلا أن شخصاً صاحب سلطة في عائلتنا، قرر أنه لا ضرورة لإخبار والدنا، طالما أن سعداً بخير، وعلى الأقل ما دام موجوداً في أفغانستان.

ومن حسن حظ الجميع أن سعداً شُفي كلياً من إصابته في الوقت الذي عاد فيه الوالد إلى السعودية. وبرغم أنه صُدم بعدما علم أن سعداً صدمته سيارة، فإنه لم يحمّل المسؤولية لأحد. وقال: «ليس الحادث خطأ السائق. إنها مشيئة الله أن يُصدم سعد. ومشيئة الله أن ينجو سعد. نحمد الله».

وإذ تصعب الدقّة على أي كائن بشري، وهو يصف شخصيته الخاصة، فإنني أعرف ما يكفي عن نفسي لأقتنع بأن الحياة التي قررها والدي لأبنائه كوّنتني أيضاً على نحو سلبي.

كانت السنوات التي سبقت التحاقي بالمدرسة الابتدائية، هي الأفضل في حياتي. وقد استحوذتُ بِشَرَهٍ على كامل انتباه أمي قبل أن يولد أخي الأصغر عثمان، على الأقل عندما كان والدي بعيداً في باكستان وأفغانستان. واستهلك عثمان الصغير بعد ولادته، الكثير من اهتمام أمي. عند ذاك أخذت أمضي المزيد من الوقت مع سائقنا اليمني، الرجل اللطيف الذي كرّس جزءاً كبيراً من وقته وعاطفته لي.

تبدأ صباحاتنا، عندما يكون والدي بعيداً، بصلاة اليوم الأولى. بعد ذلك تدعونا أمنا إلى فطور بسيط مؤلف من الخبز والجبن والبيض. ثم يوصل سائقنا أخوتي إلى المدرسة. وصرتُ، بعد ولادة عثمان، أرافقهم في تلك الرحلة.

شعرت يومها بالحزن لعدم تمكني من ارتياد المدرسة مع أشقائي، لأنني أصبح وحيداً عندما يرحلون. أخذت ألعب أحياناً مع أولاد السائق الذين يقيمون مع أهلهم في منزل أبي. وإذا أصابني الضجر، أذهب إلى أمي

وأتبعها، كظلها، في كل مكان لفترة قبل أن تضعني في السرير لآخذ قيلولة. وكنت، بعد القيلولة، أتناول الغداء معها، وغالباً ما يتألف من السلطات والأرز بالدجاج.

وقد يأخذني سائقنا معه بعد الغداء في رحلاته القصيرة لشراء الطعام والحاجات الخاصة لعائلتنا. ونعود لاحقاً بعد الظهر إلى المدرسة لجلب أشقائي.

أصبحت، بمرور السنين، أكثر توحّداً. اقرأ الكتب وحدي، وألعب مع الحيوانات وحدي. وكوني وُلدت مُحباً لها، طربت لمعرفة أي طيور قد تحط في حديقتنا. وفي المزرعة يوجد الكثير من الحيوانات التي أراقبها أو ألهو معها. أصبحت معتاداً على أن أكون وحدي، بحيث أخذت أستمرئ الوحدة. وكنت، لدى سفر العائلة، أستمتع بإيجاد زاوية منعزلة لسريري، لكن غالباً ما يلاحظ والدي ذلك، ويأمرني بوضعه إلى جانب أسرّة أشقائي.

امتحنت شخصيتي العنيدة صبرَ أهلي مرات كثيرة.

أردت، في واحدة من تلك المرات، الذهاب إلى المتجر لأشتري شيئاً خاصاً لنفسي. وعرفت من تجربتي، عبر مراقبتي سائقنا، أن المرء يحتاج إلى نقود في مقابل السلع. ولم أعرف كيف أستحصل لنفسي على المال اللازم. وفجأة تذكّرت أن والدتي تحتفظ ببعض القطع الذهبية في خزانة قرب سريرها في غرفة النوم. وهي كناية عن هدايا من أفراد العائلة قُدمت إليها في كل مرة كانت تلد.

أخذت أخادع، وأراقب متى تشغل أمي نفسها. ودخلت، لدى أول مناسبة، مسرعاً إلى غرفة نومها. فتحت درج الخزانة فوجدت قطعتين ذهبيتين كبيرتين. وأنا أعرف الآن أن كلاً منهما تساوي حوالى الألف ريال سعودي، أو نحو ٣٠٠ دولار أميركي.

هربت من المنزل، متسللاً عبر بوابة المدخل، وشققت طريقي إلى المتجر الذي أزوره دائماً مع سائقنا. كان مالك المتجر مصرياً، وهو رجل لطيف أخفى

دهشته عندما دخلت أخبّ في سيري عبر الباب. شعرت بأنني حقاً ذلك الفتى الكبير عندما سألني بتهذيب عن حاجتي. أشرت إلى بعض الحلوى وإلى مشروب خفيف وبعض أقلام التلوين، وهي كلها سلع منعها عنا والدي بالتحديد. دفعت لصاحب المتجر القطعتين الذهبيتين المسروقتين، ودببت عائداً من مهمتي الناجحة إلى بيتنا، وخبأت ما اشتريته حتى لا يطالبني أشقائي بحصة منه.

ومن سوء حظي أن كان لوالدي حاجة في ذلك المتجر بعد أيام قليلة. ولما دخله، سحب المصري قطعتي الذهب وأعطاهما له إلى جانب الخبر الصدمة بأن ابنه الصغير عمر جاء في زيارة للقيام ببعض المشتريات غير المعتادة.

سُرّ والدي كثيراً بنزاهة الرجل، وقدَّم إليه إحدى القطعتين كمكافأة. وطبعاً، لم يكن مسروراً أبداً مني، وعوقبت بقساوة على خداعي وسرقتي. لكن عقابه القاسي فشل في وضع حد لسلوكي الشقي. وكما دخلت في السابق على رؤوس أصابعي غرفة أمي بحثاً عن مال، عثرت هذه المرة على عملة ورقية، وأخذت نحو ٥٠٠ ريال سعودي.

علمت بأن والدي نبّه موظفيه إلى إبقاء عيونهم يقظة عليّ، وأدركت صعوبة التسلل إلى الخارج بدون أن يراني أحد. فدخلت أحد الحمامات وتسلّقت خارجاً من النافذة، وتزحلقت نزولاً على أنبوب الصرف قبل أن أعبر الحديقة. ارتحت عندما وجدت البوابة الحديدية الكبيرة مفتوحة، فجنّبت نفسي تسلّقاً خطراً من فوق السور المرتفع الذي يحيط بمنزلنا. ركضت إلى المحلات، لكنني خُذلت لاكتشافي أنها مقفلة، فالوقت أكثر تأخراً مما اعتقدت.

عدت على خطاي، وأعدت المال إلى مخبأ أمي. ولأنني أردت أن أتباهى بمغامرتي، بحت بغباء بسرّي لشقيقي الأكبر عبد الله، فحدجني بنظره قبل أن يسير إلى والدتنا ليخبرها عن رحلة منتصف الليل التي قمت بها. ونجوت من عقاب شديد لأنها غير قادرة على أن تكون قاسية مع أي من أولادها، حتى عندما نستحق التوبيخ.

عندما علم أبي بفراري، دعاني بال«رذيل الصغير»، وأمر رجاله بتركيب سياج شائك فوق السور الذي يحيط بأرضنا. وأجهدوا في جعله «مقاوماً للرذيلين»، مثلي، كما أسموه. وقد نُصب على شاكلة حرف Y، بحيث يستحيل تسلّقه. افتخروا بعملهم وهنأوا بعضهم البعض وهم يتحدثون كيف أن ابن الشيخ لن يتسلّق أبداً مثل هذا السياج، مضيفين أن أبرع السارقين لن يمكنه أبداً سرقة منزل بن لادن.

أصبحنا محتجزين في الداخل، والعالم بات محتجزاً في الخارج.

في غضون أسبوع، قمت بأول عملية للإفلات، باكتشافي أنني إذا تسلّقت السور تحت بيت الناطور حيث موقع الحراس، فسأجد بقعة واحدة يمكنني منها أن أتعلّق بساقيّ وأقذف بجذعي على عمود الإنارة في الشارع، فأتمسّك أولاً بيدي، ثم أنزلق على العمود بسهولة إلى أن تبلغ ساقاي القصيرتان الرصيف.

ولما اكتشف بناة السياج أنني كسرت «القوة المقاومة للرذيلين» للقيام بتسللات يومية، أصيبوا بالإذلال. وشرع والدي، بعد ذلك الحادث، في إبقائي إلى جانبه كلما كان في جدة، وكان يأخذني معه إلى حيث يذهب، زاعماً أن ابنه الرابع هو الذي قاد الآخرين إلى الشرّ، لأن أشقائي أخذوا حينذاك في مضاهاتي.

أما شقيقي عثمان الذي وُلد تالياً من بعدي. فكان، على مدى سنوات، الأصغر قامة بين الأبناء، لكنه بدأ في يوم من الأيام في النمو ولم يعد في وسعه التوقف، فأصبح بديناً، وبقي وزنه زائداً لأعوام عدة. ثم شرع في فقدان سريع للوزن وأصبح هزيلاً، ونمت قامته إلى أن بلغ طول والدي نفسه. كان عثمان فتى هادئاً جداً إلى حد أنه لم يفهم أبداً المقصود من النكتة. وفي الواقع، فإن إخبار نكتة واحدة يُغضبه، ما يدفعه إلى الابتعاد ليحرد. كان متديناً، لكن ليس على القدر من التدين الظاهر كوالدنا. وهو يشبه أشقاءه بطريقة واحدة، في حبه الحيوانات. وغالباً ما يمتطي الأحصنة.

أما محمد فكان «الصبي الطفل» لسنوات، ومنصرفاً إلى اللعب. تاق محمّد الصغير إلى سيارات الألعاب، وبما أن والدي منع أي شكل منها، اخذنا نحن الإخوة الأكبر منه، على عاتقنا التسلل إلى المتاجر وشراء سيارات اللعب لشقيقنا الطفل.

شكّلت شقيقتنا الطفلة الصغرى فاطمة حدثاً لكونها البنت الأولى بعد خمسة صبيان. وقد سلّت العائلة لساعات عندما تعلّمت أولاً كيف تدبّ ثم تمشي. حلمت أمي لسنين طويلة بابنة، بحيث إنها أحبّت أن تلعب مع فاطمة وتُلبسها ثياباً مكشكشة. وأخذت فاطمة، وهي تكبر، تراقب والدتنا وتقتدي بكل ما تفعله.

غالباً ما أمعنتُ النظر في سلوك والدي مع الإخوة الأصغر سناً. بدا أنه يستمتع بالتمدد على الأرض و«الشقلبة» مع الأطفال، سامحاً لمحمد وفاطمة بالدبيب على رأسه وصدره. بل إنه احتضنهما وقبلهما. ولا يمكنني أن أتذكر أن والدي كان على هذا القدر من العطف عندما كنتُ طفلاً، برغم أن والدتي تدّعي تذكّرها مثل تلك الأوقات.

عرفت، بُعَيْدَ زواج أبي بامرأته الرابعة، أن العائلة كلها ستنتقل إلى المدينة. لم أضطرب البتة لأنني كنت أصغر من أن أدرك ملابسات مغادرة جدة.

الفصل السابع

الانتقال إلى المدينة

عمر بن لادن

كانت الحياة في المدينة، في البداية، مثيرة. فقد جحظت عيناي عندما وقع نظري على الفيلا الضخمة التي ستصبح بيتنا، والتي هي أكبر حتى من شقق منزلنا في جدة. لكننا أصبنا بالخيبة. بدا منزلنا قصراً من الخارج، لكننا اكتشفنا أن الداخل بسيط إلى درجة الوحشة. كانت الأرضية الرحبة فارغة إلا من بعض السجاد الفارسي الرخيص، والوسادات المصفوفة إلى الجدران، والمفارش الرقيقة للنوم.

وغالباً ما تساءلت عن سبب هذه البساطة المبالغ فيها في تزويق قصورنا الجميلة. طرحت السؤال مرّة على والدتي، فاعترفَتْ بأنها حلمت، وهي عروس شابة، بالحصول على منزل مزوّق منتهى التزويق. لكنها تخلت عن تلك الأحلام منذ زمن بعيد.

حرمها غياب والدي المتكرر، إضافة إلى حملها شبه الدائم، من فرصة التزويق في سنوات زواجهما الأولى. ثم غيّر والدي رأيه، بعد انتقالهما إلى منزلهما الجديد، وأفتى بأنه على عائلتهما أن تعيش حياة بسيطة، قائلاً إنه لن يسمح لها بإنفاق المال على أثاث ثمين. وعندما أتذكّر الأثاث المتواضع جداً في ذاك المنزل في المدينة، أصنّف مسكن والدتي بأنه شقة فاخرة بدون رفاه.

افتقد معظم أفراد الأسرة جدة، برغم وجودنا معاً كعائلة. وحدها سهام، زوجة والدي الرابعة المتحدّرة من المدينة، بدت الأكثر سعادة لأنها تمكّنت من رؤية عائلتها دائماً. أما نحن، فقد تركنا قلوبنا في جدة، المدينة الوحيدة التي عرفناها، والتي تقع على مسافة قصيرة بالسيارة من مزرعة العائلة العزيزة على قلوبنا. لم نتخيّل أبداً الوحشة التي أصابت حياتنا بدون الحرية التي توفرها عطلات نهاية الأسبوع في المزرعة.

وبرغم ذلك، فقد عشنا بعض الأوقات الجميلة في المدينة. وأستذكر حادثة مسلّية حصلت بُعَيْدَ انتقالنا إليها.

أُصبنا، أنا وسعد - أكثر أخوتي شقاوة - بالضجر ونحن نجول في المنزل الفارغ بحثاً عن أمر مسلٍ نشغل به وقتنا. ولدى سماعنا الصوت المُرحِّب به يقرع بابنا، أسرعنا إلى رؤية من عساه يكون الزائر. وجدنا ثلاث نساء محجبات، وقد مددن أيديهن يتسوّلن المال.

يتجه السعوديون بطبعهم إلى الجُود، لكنهم يزدادون سخاءً في الأعياد الدينية. وتقصد بالتالي النساء السعوديات اللواتي ضاقت بهن الدنيا الأحياء الغنية، قارعات الأبواب، فيعرضن حاجتهن إلى الصدقة في مثل تلك الأوقات.

كنا، أنا وسعد، صغيرَين، ولم يدرك أي منّا ما الذي علينا القيام به بالضبط بما أننا لا نحمل نقوداً نعطيهن إياها. أشرنا إليهن بداية بالانصراف، ثم بدّل سعد رأيه فجأة وأعلن، «انتظرن! لا يمكنكن الذهاب!».

تفرّستُ في سعد بفضول، وكذلك فعلت زائراتنا المحجبات. تطلّعن إلينا لبضع دقائق من خلال أوشحتهن السوداء، ثم استدرن جميعهن في الوقت ذاته للذهاب.

أصبح صوت سعد أكثر إلحاحاً. وصاح من جديد، «لا! لا يمكنكن الذهاب!». توقّف، ثم صاح، «يريد والدنا الزواج بكن!».

اعتقدتُ أن فكرة سعد سديدة وقد استعدت في ذهني أن أبي يستمتع على

ما يبدو بوجود النساء من حوله. وطَنّ صوتي، «نعم! يريد والدنا الزواج بكن!».

فتحنا، أنا وسعد، الباب على مصراعيه، ونحن نشير بأيدينا إلى النساء للدخول وتهيئة أنفسهن للعرس.

وعندما رأت النسوة أننا جادان استدرن وهربن وهن يتحرّكن بالسرعة التي تسمح بها أوشحتهن السوداء وعباءاتهن الطويلة.

ذُعرنا، أنا وشقيقي، من أن العرائس المحتملات لوالدي يهربن، فركضنا في أثرهن. رمى سعد بجسمه الرشيق أمام النسوة اللواتي التبس عليهن الأمر، وصوته يرجوهن، «عُدن! عليكن بالدخول! يريد والدي الزواج بكن!».

فكّرت في الإثارة التي سيعيشها أبي لكسبه ثلاث زوجات دفعة واحدة، فصممت على عدم السماح لهن بالفرار ثانية.

اضطربت النسوة من هذا «الفصل» المجنون، فدفعننا جانباً وهربن بأسرع من ذي قبل. وآخر ما رأيناه منهن، عباءاتهن السوداء وهي تتمايل خلفهن.

مرت بنا حادثة ثانية بدت فكاهية في حينها، وكنا نجهل خطرها الفعلي. فقد رصد أحد أشقائي عشاً للحمام في أحد أحواض الغرس المستديرة المبنية خارج نافذة الطابق الرابع. ولأننا نبحث دوماً عما يُلهينا، فقد صارت المراقبة شغلنا الشاغل. وسرعان ما فقّست بيضتان زغلولَيْ حمام، فبدأنا نراقبهما يومياً.

وفي صبيحة أحد الأيام لم تعد الحمامة الأم بحسب البرنامج المعتاد، وقررنا أن علينا إنقاذهما. صعدنا الدرج إلى السطح من أجل أن نصل إليهما، ونطوّع عبد الرحمن للتأرجح من السطح إلى الحوض. وما إن بلغ المكان حتى مد يده وانتشل الزغلولين. راقبنا، أنا وأشقائي، عبد الرحمن يتأرجح وهو ممسك بالزغلولين، ويحاول التسلق عائداً إلى السطح. لكننا كنا نفيض نشاطاً إلى حد فقدنا معه الاهتمام، وعثرنا لأنفسنا على أمر آخر نشغل أنفسنا به.

خرجنا مسرعين بدون الاكتراث لحال أخينا، وأقفلنا الباب المؤدي من السطح إلى الدرج بالمزلاج.

في منزلنا، على غرار الكثير من البيوت السعودية، مهوى مستدير يبلغ من الطابق الأرضي إلى السطح. وسرعان ما أخذ عبد الرحمن ينادي علينا من أعلى نقطة فيه. وبدلاً من العودة أربع طبقات من الأدراج صعوداً لفتح الباب، صرخنا به ليقفز.

تردّد عبد الرحمن، فأنشأنا أنا وأشقائي كورساً، «اقفز! اقفز! سنلتقطك! اقفز! اقفز! اقفز! سنلتقطك!».

لم ندرك أنه لو وافق عبد الرحمن وقفز لتعرَّض حينها لإصابات خطيرة، ولربما مات أيضاً. فالألم والموت غابا ببساطة ذلك الصباح عن أذهاننا، برغم أننا عرفنا الألم من ضربات والدنا، وسمعنا كم من الناس انتقلوا من الحياة إلى الموت في لحظة. حتى أن بعض الناس يذهبون، بعد الموت، إلى مكان قائظ وملتهب ومرعب، يدعى الجحيم. وغالباً ما ركّز مدرّسونا الدينيون على أهوال الجحيم، بحيث لا يرغب أحد منا في القيام برحلة إلى هناك.

اعتقدنا حقيقة أنه في وسع عبد الرحمن القفز من السطح إلى الأرض دون أن يتألم أو يموت، وسنمدّ أيدينا ببساطة لالتقاطه.

أقنعت هتافاتنا أخانا المسكين، فوضع الزغلولين أرضاً وهمَّ يقفز، لكنه عدل في آخر لحظة عن رأيه، وأمسك غريزياً بحافة الطابق العلوي بينما وجدت قدماه اللتان تحرّكتا بسرعة حافةً صغيرة تستندان إليها في الجدار الداخلي.

أخذنا نضحك ونصرخ دفعة واحدة: «أفلت يديك يا عبد الرحمن! سنلتقطك!».

لم أملك أي فكرة عن سبب عدم رد والدتنا، أو أيّ من خالاتنا الثلاث، على صخبنا. أفترضُ، في استرجاع لتلك الحادثة، أن والدي قد دربهن، ونجح إلى حد كبير، على البقاء وراء أبواب موصدة، بحيث يتجاهلن كل ما يجري خارج نطاقهن. ومن حسن الحظ أن صراخنا نبّه أحد سائقي العائلة، فدخل

مسرعاً من الباب الرئيسي لنفقّد سبب الجلبة. تطلع سائقنا إلى حيث ننظر ليرى عبد الرحمن متدلّياً. شهق بقوة، ويداه على رأسه، قبل أن يُفلت بضع صرخات ثم يركض بأسرع ما يمكنه، صاعداً كل ثلاث درجات دفعة واحدة، لبلوغ السطح، فأمسك بيدي عبد الرحمن، وكافح طويلاً لينتشله إلى بر الأمان.

أثارنا الضجيج الذي أصدره السائق، فلحقنا به على الدرج، حيث وجدنا الرجل المسكين وقد بدا عليه الامتعاض الشديد. وجه إلينا تأنيباً نادراً، قائلاً إنه كاد يسقط مع عبد الرحمن، ولو حصل ذلك لماتا كلاهما بسبب الاصطدام بالأرضية الرخامية الصلبة من على علو أربعة طوابق. ومن حسن حظنا أنه أنقذ الموقف.

عشت محطة مميزة أخرى في المدينة. أصبحت في السابعة، وتم تسجيلي في مدرسة أُبَيّ بن كعب، وشرعت في سلوك الطريق اليومي إليها مع أشقائي الأكبر سناً. تشوّقت، على مدى سنين، إلى الذهاب إلى المدرسة مع أشقائي، ولم أصدّقهم، برغم تحذيراتهم، بأنني المحظوظ في بقائي في المنزل. اعتقدت أنهم ربما يستمتعون كثيراً ولا يريدون إشراكي في متعتهم.

اكتشفت بعد فوات الأوان أنهم لم يضلّلوني. شكّلت المدرسة عذاباً فورياً، ما بعده عذاب، لأن اسم عائلتنا خلق لدى أساتذنا شحناء خبيثة. وصُدمت لمعرفتي أنني مكروه لأنني أتحدّر من صلب بن لادن.

عُرف عن آل بن لادن أنهم من بين العائلات الأكثر غنى ونفوذاً في المملكة. ونادراً ما تسنح الفرص لسعوديي الطبقة المتوسطة أو الدنيا أن يكونوا في جوار فرد من أفراد عائلة جدي ذات الثراء الأسطوري. وربما كان الأساتذة حاقدين سرّاً على ثروة آل بن لادن ونفوذهم. ومهما يكن السبب، فكلما أتيحت لهم الفرصة لتفريغ حسدهم علينا، كانوا يفعلون. ولم ينفع أي شيء في حرف غضب أولئك المدرّسين، برغم محاولاتنا اليائسة إرضاءهم. وأذكر أستاذاً أعلن في الصف، أن ثروة عائلتي ونفوذها لن يؤثّرا في مسلكه. وذلك الرجل كان أكرهم سوءاً، وعيّرني أكثر من الآخرين.

آلمني ذلك كثيراً، لأن بعض التلاميذ قلدوا أعماله. حتى أن عصبة من الصِّبْية هددوني وأخوتي بالاغتصاب! وجاءت أوقات اضطررنا فيها إلى القتال لحماية أنفسنا، أو إلى الهرب مثل الريح إذا ما استُفرد أحدنا.

يملك المعلّمون في السعودية حقّاً قانونياً في ضرب أي تلميذ بالعصا، وبعضهم مارس هذا «الحق». وغالباً ما خُفضت علاماتنا، وأحياناً توضع لنا ملاحظات الرسوب، حتى عندما يكون عملنا على أكمل وجه. وجاءت أوقات صار فيها الضرب والظلم لا يُطاقان، إلى حد أننا توسّلنا والدنا أن يسجّلنا في مدارس لا يستجلب فيها اسمنا مثل هذه العدائية.

تساءلنا أحياناً، لماذا يُرسَل أولاد أسامة بن لادن إلى المدرسة الرسمية، في حين أن والدنا وعمومتنا وأولاد عمومتنا يذهبون إلى أفضل المدارس الخاصة. وفي حين كان يتم تحضير أولاد عمومتنا لحياة المحظيين، نقصد مدارس متدنية المستوى من شأنها أن تعيق مستقبلنا. وتم بالفعل تحديد مستقبلنا في هذه المدارس المتدنية المستوى. فليس الأساتذة قساة وحسب، بل إننا نتلقى تعليماً غير مناسب أيضاً.

ولو أن والدي تقدم بشكوى شديدة إلى المدرسة لأصلح الأساتذة مسلكهم. لكنه، للغرابة، لم يكترث لورطتنا، وأخذ يعظنا متحدثاً عن معتقداته القاسية: «على الحياة أن تشكل حملاً ثقيلاً. عليها أن تكون قاسية. ستصبحون أقوى إذا عوملتم بقساوة. ستصبحون بالغين قادرين، في وسعكم تحمّل الكثير من المشقات». وبينما كان ردّ والدنا على هذا النحو، أصبح المدرّسون أكثر تطاولاً في ظل غياب من يدافع عنّا.

شكّل اليوم الذي علمت فيه بأننا عائدون إلى جدة في سنة ١٩٨٨، أي بعد عام من الانتقال إلى المدينة، واحداً من أسعد أيام حياتي، بسبب تجارب أولى سنواتي الدراسية. كل ما أمكنني التفكير فيه هو: سأنجو من مدرسة أبي بن كعب! حاول أشقائي تحذيري من أن الأمور ستكون سيان في المدرسة في جدة، لكنني تجاهلت تحذيراتهم، اعتقاداً مني أنه ما من شيء يمكنه أن يكون بقدر السوء الذي نعانيه في مدرسة المدينة.

شكّل كل يوم عذاباً إلى أن تم توضيب حاجياتنا وحُمّلت كلها في آليات كبيرة لرحلة العودة. ابتسمت ابتسامة عريضة لرؤيتي جدّة، حتى أن واحداً من أشقائي الأصغر حذّرني من أنه يستطيع رؤية كثير من أسناني، وتوقفت عن الابتسام لما شرع في عدّها. وبرغم ذلك بقيت سعيداً لأن نسمات بحر جدة الباردة بدت لي بلسماً شافياً.

اكتشفت سريعاً أن أشقائي لم يكذبوا في شأن المدرسة في جدة. بتُّ يائساً إلى درجة أنني أخبرت أمي عن سوء المعاملة. هالها الأمر كثيراً، لكنني أعتقد أنها خشيت التحدث إلى والدنا الذي يصرّ على أنه وحده الذي يتخذ كل قرار متعلّق بأبنائه.

إنها لمعجزة عدم تعرّض أيّ منا للضرب حتى الموت، لأنها مسألة مؤلمة إلى حد كبير نخشى أن نقاربها. إلا أن القسوة التي أعطى أولئك الأساتذة جسمي وذهني نصيبهما منها، تركت أثراً فيّ طوال الحياة.

الوقت السعيد الوحيد الذي أذكره، هو عندما قدّمت رسماً اختير لتعليقه على جدار المدرسة. لم يسبق لي أبداً أن حصلت على تقدير إيجابي في المدرسة. سُرّت والدتي أيضاً، مُفكّرة أنني ورثت موهبتي الفنية عنها، وأعتقد أنها كانت على حق.

استمرت المدرسة حالة بؤس دائم، في حين حدثت تغييرات أخرى في حياتنا. كان والدي، بمقدار ما يمكنني أن أتذكر، يطير جيئة وذهاباً إلى باكستان وأفغانستان من أجل قضية الجهاد.

والجهاد واجب ديني على المسلمين، ويعني الكفاح في سبيل الله. ويمكنه أن يكون عنفيّاً أو سلمياً. ويعني الجهاد اللاعنفي كفاحاً داخلياً، مثل أولئك الذين يحاربون دوافعهم الأساسية ليعيشوا حياة البِرّ. وفي حالة والدي، يتضمن مفهوم الجهاد كفاحاً عنفياً مسلحاً ضد الجيش السوفياتي الذي يستبدّ بأرض إسلامية.

عندما يُدعى المسلم المؤمن إلى الانخراط في الكفاح المسلّح، فإنه يصبح معروفاً بالمجاهد. والمجموعة التي تقاتل ضد الاستبداد تدعى المجاهدين. وأكثر المجاهدين شهرة هم الجنود الذين حاربوا في أفغانستان، بمن فيهم والدي وعصبته من المقاتلين العرب. وبالفعل، تمتعت الحركة لقتال الغزاة الروس في أفغانستان، بدرجة كبيرة من الشعبية، إلى درجة أن الولايات المتحدة، في عهد الرئيسين جيمي كارتر ورونالد ريغان، ساعدت في تمويل المجاهدين، وقد أثنى ريغان علناً عليهم وأسماهم «المقاتلين من أجل الحرّية».

في تلك الأيام كان والدي بطلاً عظيماً، حتى بالنسبة إلى الغرب.

وفجأة، حصل حديث مثير عن المستحيل الذي تحقق: الجيش السوفياتي ينسحب من أفغانستان، وقد هُزم على أيدي مجموعة من الرعاع المجاهدين، كان والدي يقود بعضهم!

وأذكر تكهّني بما سيفعله والدي بوقته الحرّ، بما أن حياته تركّزت كلّياً، لسنوات طويلة، على تلك الحرب البعيدة. ولدهشتي، أصبح أكثر انشغالاً من قبل، لأنه حصد شهرة عالمية بوصفه بطل حرب السعودية. كانت الحكومة السعودية، إضافة إلى أفراد من المواطنين السعوديين، قد وهبوا مبالغ هائلة من المال للقضية الأفغانية. كما أن كثراً من الرجال السعوديين تطوعوا للقتال في ساحة الوغى في أفغانستان، وقد أُصيب كثير من الآباء والأبناء السعوديين إصابات بالغة، أو حتى ماتوا. شعر السعوديون، بعد مثل هذه التضحيات، بأن لهم حصة كبيرة في الحرب، والنصر الذي انتهت إليه.

احتفل كل واحد في البلاد بالنصر الإسلامي. وأجلّ كثيرون من السعوديون ومن مسلمي البلدان الأخرى، والدي كثيراً بوصفه بطل هؤلاء الأبطال. أراد كثير من الرجال مقابلته ليسمعوا منه عن تجاربه الشخصية في ساحات القتال. وبرغم أن أبي لم يسع إلى الحصول على انتباه خاص، فقد وافق على إلقاء المحاضرات في المساجد وفي مناسبات خاصة.

أصبحت حياتنا أكثر روتينية، وهو أمر لم يسبق لأحد منا أن عرفه من قبل.

أخذ والدنا، على غرار الآباء الآخرين، يذهب في كل يوم للعمل في مؤسسة العائلة، برغم أنه استمر منشغلاً بقوة في ديننا الإسلامي، وأمضى الكثير من الوقت في اللقاء مع آخرين، والتباحث حول واجباته كمؤمن.

ومن حسن حظنا أن طباعة أصبحت أقل شراسة مدة سنة أو ما يقاربها، برغم أنه لا يزال يتوقّع من أبنائه أن يتصرّفوا بطريقة مبالغة في الجدّية. وأزعجني، مع كثرة قواعد والدي التي لا مساومة فيها، سماعي أشقائي الأكبر سناً يشتكون من أن المرات الوحيدة الذي ذاقوا فيها طعم الحرية، هي عندما كان بعيداً، يحارب الروس. وقد أسفوا لانتهاء الحرب!

لم أرد، عندما كنت طفلاً، شيئاً سوى رفقة والدي ورضاه. لكن تلك السنوات ولّت منذ زمن. وبرغم أنني لا أزال أُجلّه وأرغب في رضاه، فإنني لم أعد في حاجة إلى رفقته. وصدمتني الحقيقة المرّة بعدما فكّرت في الأمر طويلاً. نطق أشقائي الأكبر سناً بالحقيقة التي لا يمكنني نكرانها: كانت الحياة أكثر لذّة لما كان والدي بعيداً، وبعيداً جداً.



أنجبت سهام، أحدث زوجات أسامة، ابنة أخرى سنة ١٩٨٨. وهكذا، أصبحت عائلتنا المتنامية دوماً، مؤلفة من أربع زوجات وتسعة أولاد. وبوركت في السنة التالية، بطفلين إضافيين. وحملت سهام ثانية سريعاً، وولدت مرتين في ستين، واستقبلت ابنها الأول، الطفل خالد. وسُرّت كثيراً لما بدأنا نطلق عليها اسم أم خالد.

لكن الأكثر إثارة بالنسبة إلي، أن صديقتي العزيزة خيرية، زوجة أسامة الثالثة، وضعت مولودها الأول، وهو صبي دُعي حمزة. وها إنها تتقلد الآن مركزاً كبيراً أصبحت تُعرف بموجبه بأم حمزة.

وفي وسعنا جميعاً أن نقول بفخر إننا أمهات لأبناء، وهذا تميّز مهم للمرأة في السعودية.

أصبحت سفرات أسامة إلى باكستان وأفغانستان قليلة. وشعرت بارتفاع معنوياتي لما قيل لي إن الحرب انتهت أخيراً في أفغانستان. وبحلول الخامس عشر من شباط/ فبراير ١٩٨٩، أصبح السوفيات خارجها، وهذا أيضاً طالع ميمون لأنه يصادف الذكرى الثانية والثلاثين لميلاد أسامة. وبرغم أن المسلمين لا يحتفلون بأعياد الميلاد، فإن أسامة قال إنه يشعر بذلك اليوم وكأنه امتلأ بأكثر الهدايا قيمة. تحقّق أخيراً الانتصار في الحرب التي خاضها لهذه الفترة الطويلة.

أما بالنسبة إلي، فإن أكثر الهدايا قيمة، هي فكرة أنه أصبح في إمكان زوجي الآن استئناف حياته كرجل أعمال سعودي مجتهد. لن يبقى محارباً بعد اليوم، ولن أستمر بعد الآن في قضاء ساعات وأنا قلقة من أنني قد أستلم رسالة بأن زوجي قُتل في ساحة القتال.

قيل لي إن زوجي بطل في عيون كثير من المسلمين. لكن أسامة بدا غير راغب في الحديث عن الموضوع، ولم يخبرني عن الجوائز الكثيرة التي تلقاها، والإجلال الواسع الذي وضع اسمه على شفاه وألسنة كثيرة.

وسرعان ما استقر أسامة في روتين الذهاب إلى العمل في الصباح والعودة إلى المنزل بعد الظهر، برغم أن لديه الآن أربع زوجات ويتقاسم أوقاته مع كل عائلة. وهذا يعني أن زوجي يأتيني مرة كل أربع ليال. وكنا لمّا نذهب جميعنا إلى المزرعة يقسّم وقته هناك أيضاً بيننا.

من المؤكد أنه يحقق هدفه في إنجاب الكثير من الأولاد من أجل الإسلام. جاءت سنة ١٩٩٠، بثلاثة أطفال إضافيين، دفعة واحدة، وأضفتهم إلى حياتنا المربكة. وكانت هذه سنة زوجة أسامة الثانية، خديجة، التي أنجبت مولودها الثاني، عامر. وحصلت في الموسم ذاته حالتا حمل أخريان في وقت واحد تقريباً، مع نهاية مسلّية.

حملت بطفلي الثامن في الوقت ذاته الذي حملت امرأة زوجي الرابعة، والأحدث، بطفلها الثالث، برغم أنه يُفترض بسهام أن تضع بعدي ببضعة أشهر.

وكان أسامة، كالعادة، ينتظر لما اقترب وقت ولادتي. لكن، بحسب مشيئة الله، في الوقت الذي بدأت فيه أشعر بآلام المخاض، اندفعت واحدة من الخادمات سريعاً من شقة سهام وهي تحمل الخبر بأن معلّمتها بدأت مخاضها قبل الأوان. اعتقدنا أولاً أن آلام سهام ليست مخاضاً حقيقياً، لأن طفلها ليس متوقعاً إلا بعد شهرين. لكننا سرعان ما أدركنا أن الحالة ليست كذلك.

كانت ظروف لا تُصدَّق. ولولا أنني لم أكن في حالة سيئة لضحكت وأنا

أراقب زوجي يكافح وهو يُجلس امرأتين حاملين في المقعد الخلفي لسيارته المرسيدس الجديدة.

فاقت الرحلة بالسيارة المعقول وأنا وسهام نجلس جنباً إلى جنب، لا نبغي شيئاً سوى الحصول على بعض الراحة من الألم. وكما يمكن توقعه، حصل بعض الاضطراب في المستشفى، بينما الفريق الطبي يتحرّك سريعاً لإدخال امرأتين إلى غرفتي الولادة في الوقت ذاته. وحصل بعض الهرج والمرج لأن الكثيرات من الممرضات لم يملكن أي فكرة عن أننا جميعاً معاً.

وجاءت اللحظة الأكثر طرافة عندما شهدت ممرضة ذات عينين مشعتين أسامة ينطلق مسرعاً من غرفتي إلى غرفة سهام. كانت المرأة فيليبينية لطيفة وصغيرة الحجم، لكنها جريئة جداً، فوبخت زوجي الأضخم منها جسماً، وطلبت منه البقاء في غرفة زوجته، وحذّرته قائلة: «ستقع في مشكلة جدية لاختلاسك النظر إلى امرأة أخرى!».

وأنا متأكدة من أن العجب تولاها عندما صاح أسامة المتحمس، «أنا لست أختلس نظراً غير شرعي! فالمرأتان كلتاهما زوجتي».

أما أنا فسُررت كثيراً لحصولي على ابنة ثانية، أسميناها إيمان. فقد حملتُ الهمّ، في منزل مليء بهذا القدر من الذكور، أن تشعر ابنتي الرقيقة الأولى، فاطمة، بأنها معزولة.

وأصبحت سهام أيضاً أمّاً لابنة اسمها مريم. لكن، بسبب وضعها قبل الأوان، احتاجت مريم الصغيرة إلى رعاية إضافية، وبقيت في المستشفى لأسبوع أكثر من أمها.

حملت نهايةُ ١٩٩٠ أخباراً سيئة، عندما اجتاح رئيس العراق جارته الكويت. خشيت يومها على الجميع في المنطقة، لكنه لم يكن أمامي ما أفعله سوى القلق، لكوني امرأة شغلها الوحيد المنزل والأولاد. وأنا أعرف بعض الوقائع الآن فقط لأن أولادي الذين يكبرون أخذوا يشاطرونني المعلومات. قالوا لي إن والدهم مقتنع كثيراً بأن الجيش العراقي سيسير عبر الحدود الكويتية إلى

السعودية فأخذ يلقي الخطب محذّراً من الخطر. إلا أن ما من أحد غيره اعتقد أن الرئيس العراقي سيكون على هذا القدر من الحماقة.

أرخت الحرب بظلالها على المنطقة، فدفنت رأسي في الرمل على غرار أولئك الجنود الذين وصفهم أسامة في أفغانستان. اهتممت بأولادي، ولم أشكّ في أن زوجي سيحمينا.

بعدما انتهت الحرب، وهرب العراقيون عبر الصحراء، افترضنا جميعنا أن الهدوء سيعود. ولم تكن هذه هي الحال، على الأقل بالنسبة إلى عائلتي. لاحظت أن مسلك زوجي يزداد جدّية مع كل شهر يمر. أجرى ترتيباً غير معتاد لأسافر وحدي مع أصغر أولادي إلى سورية، طالباً مني البقاء هناك في زيارة قصيرة قد تستمر طويلاً. ولمّا سألته عن سبب اعتقاده أن عليّ مغادرة السعودية في مثل هذا الوقت المشحون بالتوتّر، قال لي، «نجوى، ربما يمتد الزمن سنوات قبل أن تري أهلك وأخوتك من جديد».

وهذا ما حصل فعلاً. أخذنا، أنا وعبد الرحمن، الابنتين فاطمة وإيمان في عطلة إلى سورية. وقد استمتعت، برغم قلقي من الأحداث في السعودية، بوجود ابنتيّ مع أهلي وأشقائي وأقربائي الآخرين. ولم تكن زياراتي لسورية تتكرر كما أرغب، برغم زيارتي لها في الأعياد.

كان الوقت أثناءها حلواً كالسكر، ومع اقتراب اليوم الذي سأودع فيه حياتي فيها، راودني، بلا انقطاع، شعور غريب: كنت أبتهج لحظة، ثم تخيّم فجأة غيمة سوداء على قلبي، كما لو أن أحداً رمى «شبكة تعاسة» من فوقي. كنّا في الماضي، لدى مغادرتي بعد العطلة، نودّع بعضنا البعض وسط حديث فرح، نتذكر فيه الأوقات الحلوة التي تمتعنا فيها على الشاطئ أو في الجبال. لكنني وجدت صعوبة في العثور على ابتسامة في ذلك الوداع.

لم اشاطر أحداً همومي الغريبة. حدستُ وحسب بأن أمراً رهيباً سيحدث لي ولعائلتي. وبالفعل، قبل أن أرى أياً من أهلي من جديد في سورية، حصل أمر رهيب غير متوقع، ليس لي ولأولادي وحسب، بل لكثير من الناس

الآخرين في العالم أيضاً. إلا أنني امرأة أسيرة منزلي، وبالتالي لا يوجد ما يمكنني فعله لتغيير مستقبل أي كان، ولا حتى مستقبلي أنا نفسي.

ملاحظة عن نشاطات بن لادن السياسية

جين ساسون

خلال تلك السنوات ذاتها التي واصلت فيها نجوى إنجاب مزيد من الأولاد، وبلغ عُمر سنّاً أمكنه فيها إدراك أن حياته تختلف عن غيره من مجايليه، انخرط أسامة بن لادن كلّياً في الصراع الدائر في أفغانستان. وتغيّرت الحرب مع احتلال الروس المدن الرئيسية، وقيام المجاهدين المقاتلين (وأسامة واحد منهم) بشن حرب عصابات. وحصلت من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٥، تسع هجمات روسية رئيسية نتج عنها قتال شديد.

في سنة ١٩٨٥، أنشأ عبد الله عزّام وأسامة مكتباً رسمياً، أسمياه مكتب الخدمات، يُرسَل منه المتطوعون المسلمون إلى التدريب، ومن هناك إلى الوحدات المقاتلة في أفغانستان. لم يعد أسامة يكتفي بحصر نشاطاته في جمع المال وتنظيم تسليم الإمدادات، بل وسّع مشاركته في الجهاد إلى المساعدة في إقامة معسكرات التدريب، وشق الطرق، وإنشاء وحدته المقاتلة الخاصة المؤلفة من مقاتلين عرب. وأخذ عند هذا الحد، يشارك في المعارك، مخاطراً بحياته إلى جانب رجاله، ويتعرض للإصابات الواحدة تلو الأخرى.

التقى أسامة أيضاً الجهاديين المصريين الأساسيين الذين وفّروا له المزيد من الإلهام. وجميعهم أصحاب فكر واحد، ويريدون إعادة تكوين العالم الإسلامي ما إن تتم هزيمة السوفيات. وسيصبح هؤلاء الرجال لاحقاً من أكثر أتباعه إخلاصاً، بمن فيهم محمد عاطف، الدكتور أيمن الظواهري، أبو عبيدة البنشيري، عبد الله أحمد عبد الله، وعمر عبد الرحمن رجل الدين المصري الضرير.

كان أسامة يمضي وقتاً في باكستان وأفغانستان أكثر مما يمكث في السعودية، لذلك، كان لا بدّ من أن يتدبر منزلاً للعائلة في بيشاور، الباكستانية، بحيث يمكن لزوجاته وأولاده الانضمام إليه في زيارات صيفية. عرّف أسامة ابنه البكر، عبد الله، إلى الصراع الدائر في أفغانستان، فجاء به إلى معسكر القتال في جاجي، حيث تعرض الفتى لخطر كبير. وتلقّى أسامة انتقاداً غير متوقع من كثير من الزعماء الجهاديين، بمن فيهم عبد الله عزام نفسه، على مخاطرته تلك. وبرغم ذلك، فقد شكّلت تلك واحدة من مرات كثيرة سيدفع فيها أسامة بابنه غير المتحمس أصلاً إلى واجهة ولعه الشخصي الكبير بالجهاد.

بعد تسع سنوات وأربعة أشهر على الغزو السوفياتي لأفغانستان، اجتمع في نيسان/أبريل ١٩٨٨، ممثلون عن أفغانستان، والاتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة، وباكستان، لتوقيع اتفاق يدعو الجيش الروسي إلى سحب قواته منها، وافقت بموجبها الحكومتان الأفغانية والباكستانية على وقف التدخل في شؤون بعضهما البعض السياسية والعسكرية، ووافقت الولايات المتحدة على وقف مساندتها المجموعات الأفغانية المناهضة للسوفيات.

طرح عبد الله عزّام، المرشد الروحي لأسامة، فكرة إنشاء مؤسسة واسعة يمكن للمؤمنين من خلالها إطلاق كفاحهم في سبيل عالم إسلامي مثالي. وافقه أسامة كلّياً الرأي، ودعا إلى اجتماع تخطيط سيطلق عليه اسم القاعدة العسكرية، واختُصر في ما بعد بتنظيم القاعدة. وأقيم الاجتماع الأول في منزله العائلي في بيشاور في آب/أغسطس ١٩٨٨.

قرر الأعضاء المؤسسون أن تنظيم القاعدة التابع لأسامة، كناية عن حملة جهادية ذات ذراع إسلامية وأخرى عسكرية، بحيث يمكنه مساندة الحركات الإسلامية بالوسائل العنفية واللاعنفية. ومن بين الأهداف تخليص العالم الإسلامي من النفوذ الغربي، وقلب الأنظمة الملكية والحكومات العلمانية، وجعل الإسلام الديانة الوحيدة في العالم. ومع انتهاء الحرب في أفغانستان، وجد أسامة المزيد من الوقت لتكريس نفسه لأهداف القاعدة الإسلامية.

بعدما تولّى أسامة دور الزعامة في الحركة، حصلت توترات بين بعض أتباعه، وبالأخص بين عبد الله عزام والدكتور أيمن الظواهري، حيث تنافس الرجلان على نيل دعم أسامة المالي وغيره. وفي حين لم يؤيد عزام العنف ضد الأخوة المسلمين، لم يمتلك الظواهري مثل هذه الروادع. ومع مرور الوقت، تزايدت التوترات بين الرجلين لتخلق مشكلة للحركة.

في ١٥ شباط/فبراير، غادر آخر جندي روسي أفغانستان، وادعى أسامة ومقاتلوه تحقيق نصر عظيم. والشيء المؤسف أنه مع رحيل السوفيات، شرع أمراء الحرب الأفغان في التخاصم، وكل فئة مصممة على الفوز بزعامة البلاد التي أنهكتها الصراعات. وبذل أسامة بعض الجهود لمصالحتهم، لكن جهوده لم تنجح.

بعد انتهاء الحرب، شرعت القاعدة تبحث في نشر حركتها في العالم، وجرت محاولات لاغتيال عبد الله عزام. نجحت إحداها في ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩، حيث قُتل مع ابنيه عندما انفجرت ثلاثة ألغام أرضية في قافلته السيّارة التي تنقلهم إلى الجامع في بيشاور للصلاة. وأثيرت تكهنات كثيرة حول الطرف الضالع في التفجير، لكن معظمها يعتقد أن الظواهري هو العقل المدبّر للاغتيال.

بوفاة عبد الله عزام وهو في سن التاسعة والأربعين، مات الرجل الوحيد الذي ربما كان حذّر أسامة من القيام بهجمات مستقبلية ضد الحكام السعوديين والأميركيين.

عاد أسامة بعد ذلك إلى جدة، رجلاً استفاقت فيه كلّياً رؤاه السياسية والدينية والعسكرية. ومن ذلك الوقت وهو يدفع في اتجاه نمو القاعدة، ويعقد اجتماعات نشيطة مع عرب آخرين يشاركونه أفكاره ومعتقداته ذاتها.



الفصل التاسع

بداية الكابوس

عمر بن لادن

لم يستمر الهدوء الإقليمي الذي حلّ مع انتهاء الحرب السوفياتية - الأفغانية في الخامس عشر من شباط/فبراير ١٩٨٩. وأصبح والدي، كما هو مُتوقَّع، واحداً من أوائل قارعي ناقوس الخطر، لأن ذهنه أشبه بالهوائي الذي يلتقط إشارات الأحداث الإقليمية، ويتوافق مع كل ما هو إسلامي. إن ويلات أفغانستان شغلته لأكثر من عشر سنوات، لكنه بقي متيقّظاً وتابع بانتباه الأحداث المتعلقة بالحرب العراقية - الإيرانية. اندلعت هذه الحرب، التي استمرت عشر سنوات، في ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠، في العام الذي سبق ولادتي، وبلغت نهايتها المُنهِكة في ٢٠ آب/أغسطس ١٩٨٨، قبل ستة أشهر على وقف الأعمال العدائية في أفغانستان. ولم يحقق أي من العراق أو إيران انتصاراً واضحاً، وشرع والدي في متابعة شؤون العراق، اعتقاداً منه أن صدّام غير راضٍ عن نتيجة تلك الحرب، ولن يظلّ ساكتاً.

لم يؤيّد أبي أبداً صدام حسين، نظراً إلى حكمه «الديكتاتوري» العلماني على أرض إسلامية. ولطالما ازدراه «لأنه غير مؤمن». وما من إهانة أكبر من هذه في الإسلام. واحتقر كذلك طباعه العدائية، مؤكداً أنه «لن يتوقف زعيم مثل هذا الجيش الكبير، عن التفتيش عن الحرب».

بلغ قلق والدي الكبير من أن صدّام، الذي أثقلته الديون، قد يطمع بثروات

جاراته الغنية، فبدأ في الكشف علناً عن أفكاره الخاصة، واتّبع عادةً خطرة استخدم فيها المساجد وأشرطة التسجيل لتعميم مشاعره هذه. وقد وُزّعت على نطاق واسع على السكان السعوديين، ما أحدث موجات خفيفة من الامتعاض لدى العائلة المالكة التي احتفظت باستنكارها لنفسها.

صحّت تحذيرات والدي، لسوء الحظ. وبدأ الكلام العراقي الحاد يتطاير منذ شباط/فبراير ١٩٩٠، صوب العاصمة الكويتية والرياض، فطالب صدام الذي يسعى يائساً إلى المال، الكويتيين والسعوديين، بإعفائه من ديون تبلغ ٤٠ مليار دولار أميركي قُدّمت له لمحاربة الخميني والإيرانيين. فخلال حربه ضد إيران، سخت جارتا صدام في دعمه ضد الإيرانيين، لأن حكومتيهما اخذتا تشعران بعدم ارتياح متزايد حيال الموقف العدائي المناوئ للحكومات السنية في المنطقة. فإيران دولة فارسية شيعية، في حين أن معظم دول الخليج عربية سنّية. والخلاف موجود بين هذين المذهبين الإسلاميين وهاتين القوميتين منذ بدايات التاريخ الإسلامي. رفضت الحكومتان الكويتية والسعودية طلب صدّام الذي أصبح عدائياً، وطالب بثلاثين مليار دولار إضافية قروضاً على أن تُعفى من الضرائب، وقد حذرهما صراحة بالقول «لتعرف أنظمة الخليج أنها إذا لم تعطني المال، فسأعرف كيف أحصل عليه». وعند هذا الحد، حرّك الديكتاتور العراقي جيشه الجرّار، حاشداً مئة ألف جندي مُدرّب على الحدود الكويتية. ولمّا سئل عن ذلك زعم أنه يقوم بمناورات تدريبية.

مدّ الملك فهد يده ليجمع جميع الأطراف، بمن فيهم صدام حسين، في لقاء طارئ في جدة في ٣١ تموز/يوليو ١٩٩٠. لكن الاجتماع انتهى، لسوء الحظ، بالمزيد من الإهانات بدلاً من الوصول إلى الحلول. وفي تلك الليلة تنبأ والدي بأن الحرب وشيكة.

اجتاح جيش صدام حسين الكويت فجر الثاني من آب/أغسطس ١٩٩٠، واحتل البلد الصغير بسهولة. وكرّر والدي القول: «سيهاجم صدام السعودية للاستيلاء على حقول النفط في المحافظة الشرقية. وسيحصل ذلك ما إن يوطّد جيشه سيطرته على الكويت».

كنت في العاشرة من عمري، وهي المرة الأولى التي أتمكن فيها من إدراك مفهوم الحرب، وأنه يمكنها أن تحل كالصاعقة على أي دولة. وهي المرة الأولى أيضاً التي أقررتُ فيها بموقع والدي كبطل حرب يتمتع بإجلال كبير، بحيث لا يتم التشكيك في أفعاله. وهو المدني الوحيد في السعودية الذي يُسمح له بقيادة سيارة ذات زجاج معتم، أو أن يتمنطق برشاش ظاهر ويسير في شوارع جدة. ومن يومها، أخذتُ أنتبه إلى ما يحصل في منطقتنا من العالم وإلى ردود فعل والدي على الأحداث.

أخذ ذهنه يتحضّر لاحتمال اندلاع الحرب داخل المملكة. وعاد في أحد الأيام ومعه كمية من الشرائط اللاصقة المتينة، وأوعز إلى أخوتي بإلصاقها على نحو متعارض على النوافذ لحمايتها من التحطّم في حال قصف صدام المدينة بالقنابل. وتدبّر مخزوناً إضافياً من الطعام، والشموع، والقناديل العاملة على الغاز، وأجهزة اتصالات لاسلكية يدوية، وراديوهات تعمل على البطارية. حتى بلغ به الأمر، أن اشترى أقنعة عسكرية واقية من الغاز، للعائلة كلها. تعاملنا، نحن الأولاد، مع دروس استعمال أقنعة الغاز هذه، على أنها لعبة، إلا أنه لم يسبق لوالدنا أن كان بهذا القدر من الجدّية، متوقعاً أن صدام لن يتردد في استخدام الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية، وهو ما سبق له أن فعله في حربه مع الإيرانيين.

أصبح منزلنا وعائلتنا في حالة استنفار وجهوز، فحول انتباهه إلى المزرعة. مخزّناً فيها البنزين، والطعام، والآليات الكبيرة. وقد وصل إلى استنتاج ان مزرعتنا ستشكّل أفضل قاعدة عسكرية، معتقداً أن العائلة المالكة ستستنجد بمهاراته العسكرية في حالة هجوم صدام.

حتى أنه اشترى زورقا سريعاً يستخدمه إذا اضطر إلى نقل عائلته إلى برّ الأمان. وأزال محرّك الزورق واستبدله بمحرك أقوى، ثم أُدخل حوض يخوت بن لادن في مرفأ جدة. أخذتني الدهشة عندما أشار أبي إلى أنه سمّى الزورق على شرف شفيق المدني، وهو بطل حرب مات في الحرب الأفغانية - الروسية.

وشفيق المدني بطل بالتأكيد في عينيّ الفتيّين. وقد التقيت الرجل عندما أخذ والدي عائلته إلى باكستان لقضاء الصيف. كنت يومذاك في الثامنة فقط، وأنطلّع، كالعادة، إلى القيام بنشاط ما. عمل بعض من رجال أبي على تنظيم تعبئة شاحنة بحمولة من الغذاء وغير ذلك من الضروريات لمعسكرات التدريب في أفغانستان. اهتززنا أنا وأشقائي، حماسة، لما طلبَ منا الرجال مساعدتهم في التحميل. اعترتني اختلاجة خفيفة عندما وقع نظري على كرة قدم في كومة البضائع. أردت الحصول عليها، فاستجمعت شجاعتي لأسأل أحد الرجال، «هل سيلعبون كرة القدم في معسكر الجنود؟».

أجاب الرجل: «نعم، سيفعلون».

قلت: «لا أعتقد أنهم سيفعلون»، ثم رفعت الكرة بين يدي، آملاً أن أبتعد سريعاً قبل أن يتمكن من رد فعله.

جاء صوت الرجل قاسياً: «نعم، سيفعلون». قال ذلك، وخطف الطابة من يديّ، والقى بها من جديد في الشاحنة.

تقدّم في هذه اللحظة رجل في حوالى العشرين من العمر، وسحب الكرة وألقى بها إليّ قائلاً: «التقطها!».

أمسكت بها، وأنا على درجة كبيرة من الإثارة، بحيث لم يمكنني كبح سروري.

ابتسم وقال: «احتفظ بها، إنها لك».

لم أستطع تصديق حظّي. سألته عن اسمه، فقال: شفيق المدني. لم أنسَ دماثته ولطفه أبداً، وفي وسعي اليوم رؤية وجهه إذا فكّرت فيه. لم يكن طويلاً كثيراً، بل بدا مفتول الجسم وصلباً، ذا شعر أسود قصير ولحية خفيفة وسالفين طويلين. إلا أنه امتلك وميضاً في عينيه، وقد استحصل على لذّة حقيقية من سروري.

أصابني الحزن بعد ذلك ببضعة أسابيع، عندما أخبرني والدي أن رجلاً

اسمه شفيق المدني قُتل في الحرب. غامر شفيق ورجلان آخران، خلال إحدى المعارك، في الدخول إلى منطقة خطرة بين الروس والأفغان، وساروا مباشرة إلى موقع من الدبابات والأسلحة الثقيلة. تراجع الرجال سريعاً، لكن الروس لاحقوهم.

عرف شفيق أن العدو يفوقهم عدداً والهرب مستحيل، فتطوع لتغطية الرجلين وهما يهربان قائلاً إنهم سيُقتلون جميعهم ما لم يبق أحد في الخلف. احتج الرجلان، لكن شفيقاً أصر. وسمعا، وهما يبتعدان سريعاً، طلقات عدّة، واستدارا عند رأس الجرف لرؤية شفيق ممدداً وقد مات وهو لا يزال ممسكاً ببندقيته بذراعيه.

حزن والدي كثيراً، لأنه تذكّر حديثاً شديد الغم والكرب أجراه مع الشاب قبل أسبوع على موته. قال شفيق، «آه يا شيخ، صلاتي الوحيدة إلى الله هي ألا يحفر لي قبراً في أفغانستان. في وسعي الموت، أجل، لكن لا أريد أن أُدفن في التراب الأفغاني».

تذكّر والدي الشاب عندما اشترى الزورق، متمنياً لو كُتبت الحياة لشفيق ليركب الأمواج بدلا من أن يدفن في حفرة ترابية في أفغانستان. وأعترفُ بأنني حلمت بأن عائلتي تقوم بعملية فرار جسورة من القوات العراقية الغازية، بالانطلاق في زورق اسمه شفيق المدني.

ربما لا تتعرض السعودية لهجوم، ويمكن لأبي أن يأخذني على متن «شفيق المدني» في رحلة من الاستمتاع بدلاً من الهروب الأهوج.

كان والدي، في تلك الأيام، وطنياً مخلصاً لبلده ومَلِكه. وقد عرف بالفعل أنه أثار استياء العائلة المالكة بتعليقاته المعلنة حول صدام. لذا، نبّه موظفيه: «إذا هاجمت الشرطة أو الجنود أياً منكم أو أوقفوه، فلا تحتجوا. ارفعوا أيديكم استسلاماً، وامضوا معهم بسلام. لا تهربوا. لا تدافعوا عن أنفسكم، وسأعمل على إطلاقكم».

وكرّر والدي المرة تلو المرّة أن «عائلة بن لادن تساند العائلة المالكة.

فوالدي كان صديقاً مُؤتَمناً لملكنا الأول عبد العزيز. واليوم يساند أبناء والدنا أبناء عبد العزيز».

حافظ أبي، بوصفه ابن محمد بن لادن وبطل حرب، على علاقة متقلقلة مع أفراد الأسرة المالكة. وطرح أفكاره عليهم لاقتناعه بأن العراق سيعبر الحدود الكويتية لغزو السعودية. والتقى في تلك الأزمنة المضطربة، عدداً من الأمراء، والأهم من ذلك كله أنه ذهب لزيارة وزير الداخلية القوي، الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود، وهو شقيق من الأب والأم نفسيهما للملك فهد بن عبد العزيز آل سعود. لم يتردد لحظة في عرض خدماته على العائلة المالكة، وتطوّع لجلب ١٢ ألفاً من قدامى الحرب الأفغانية المدجَّجين بالسلاح ممّن لا يزالون تحت إمرته. وأكد للأمير نايف أن في وسعه تجهيز جنوده بسرعة البرق للدفاع عن أقدس أراضي المسلمين، وأن كل ما يريده هو الموافقة المَلَكية على ذلك، لا غير.

وبحسب الطريقة السعودية التي لا يتم فيها اتخاذ أي قرارات مهمة على عجل، لم تقل العائلة المالكة «نعم»، كما أنها لم تجزم بـ «لا»، بل أبلغت أبي أنها ستبلغه قرارها لاحقاً.

ضاعف صدام، في غضون ذلك، من أجواء التوتّر بإصداره تصريحات علنية حاقدة في حق الحكّام السعوديين، مهدداً حدودنا بجيشه الجرّار. ووصل، في الوقت ذاته، الأميركيون إلى المملكة مصحوبين بضجة كبيرة، محاولين إقناع العائلة المالكة بالسماح للجيش الأميركي بغزو صدام عبر أرضنا. وسرعان ما اكتشف والدي، لصدمته، أنه تم تجاهل عرضه الدفاع عن المملكة.

وعَلِمَ من وسائل الإعلام العربية، بأنه سيتم إنشاء ائتلاف ضخم من القوى العسكرية، بقيادة الولايات المتحدة، للدفاع عن السعودية. وهو لطالما آمن بأنه في وسع قوته المحاربة إيقاع هزيمة منكرة بصدام. وسمِعْتُه يسأل بغضب شديد: «هل جيوش صدّام أقوى من الروس الجبابرة؟ لا!». ودمدم: «نحن لا نحتاج إلى الأميركيين!».

عبّر والدي عن مشاعره المريرة للعائلة والأصدقاء المقرّبين، لكنه، لم يفصح عنها علناً، لأنه بقي مؤيداً مخلصاً للعائلة المالكة السعودية. فعائلتا بن لادن وآل سعود عملتا عن كثب، على مدى سنوات طويلة جداً، من أجل تقدم السعودية. لكن الرفض جاء مُستَكَرهاً، لأنه سبق وأبلغ العائلة والأصدقاء والمعارف، بأنه عرض خدماته العسكرية على الأسرة المالكة.

وثمة مسألة مهمة أخرى، غير الكبرياء. فالمملكة العربية السعودية هي كلها، في ذهن أبي، أرض إسلامية مقدّسة، لا يجب ان يلوّثها وجود جنود مسيحيين أو يهود من أميركا أو غيرها من الدول الأوروبية.

إن العرب الذين يعتبرون أميركا صديقة هم قلّة، وذلك منذ إنشاء الدولة اليهودية (إسرائيل) في ١٩٤٨. ويقتنع الكثيرون الآن، إلى جانب والدي، بأن الحكومة الأميركية تستخدم الأزمة مبرّراً لوضع قواتها في السعودية، فتتمكن من استخدام بلادنا قاعدة لإغراق المنطقة بوجهات نظرها العلمانية غير المرحّب بها.

وسرعان ما تبدّل ولاء أبي للعائلة المالكة.

كنت أستمتع بيوم جميل دعاني والدي فيه إلى مرافقته في مواعيده الروتينية في جدّة. وبينما نحن نسير من إحدى المؤسسات إلى أخرى، اقترب أحد الموظفين المُؤتَمنين من أبي، وقد بدا التوتر واضحاً عليه حتى بالنسبة إلى عينيَّ كحدث.

همس الرجل في أذن والدي، فامتقع وجهه سواداً.

وأنا متيقّن من أن وجهي امتقع أيضاً عندما سمعتُ أن قوات الحكومة داهمت مزرعتنا في جدة في وقت سابق من ذلك الصباح. علمنا بأن قوات سعودية مدججة بالسلاح طوّقت المزرعة، ثم أوقفت العمال وقدامى المحاربين فيها.

تدبّر والدي، منذ عودته من أفغانستان، لنحو مئة من مقاتليه المجاهدين السابقين، الحصول على تأشيرات إقامة في السعودية، وجَعَلهم يستقرون في مزرعتنا في جدة. وقد مُنع كثير من هؤلاء الرجال، لسبب أو لآخر، من

الدخول إلى بلدانهم، وهو ما جعل والدي، على ما أعتقد، يأتي بهم إلى السعودية.

اتّبع موظفونا وقدامى المحاربين تعليمات أبي برفع أيديهم والانصياع للأوامر. وقيل لنا إنهم اقتيدوا إلى السجن برغم تصرفهم الهادئ والمسالم. وصودرت جميع المؤن التي اعتنى والدي في جمعها. ولم يبقَ أي شيء من حصيلة أشهرٍ من العمل وملايين الريالات السعودية.

بلغ الحنق بوالدي حدّاً عجز معه عن الكلام. لكنه بقي قادراً على التحرّك بسرعة. ركضتُ لمجاراة خطواته الكبيرة وهو يهرع مسرعاً إلى مكتبه في جدة. ومن هناك أجرى اتصالاً هاتفياً بولي العهد الأمير عبد الله، الأخ غير الشقيق للملك فهد، والرجل الذي سيصبح لاحقاً ملكاً. استمعت بهدوء وهو يروي للأمير تفاصيل المداهمة.

جاءت محادثتهما مختصرة. قال والدي إن ولي العهد الأمير عبد الله لم يعرف شيئاً عن المداهمة، لكنه وعد بالتحقيق في المسألة وتفسير ما حصل. كان ينظر بإشادة إلى ولي العهد، وشعر في قلبه بأنه استمع منه إلى الحقيقة. لكن مغبة الحادثة غيّرت مشاعر أبي إلى الأبد، وأدخلته في طريق مأسوية ستدمّر حياة الكثيرين.

أصبح أكثر غضباً في غياب المزيد من التفسير، برغم المحادثات المستمرة التي أجراها مع العديد من الأمراء رفيعي المقام، قالوا إنهم يمثلون ولي العهد الأمير عبد الله أو الملك فهد. وارتحنا بعدما أعطت العائلة المالكة الأوامر بإطلاق عمال مزرعتنا ومحاربي والدي القدامى.

في خريف سنة ١٩٩٠، تدفق عناصر من الجيش الأميركي إلى السعودية. صحيح أن سعوديين كثيرين شعروا بالإهانة لمرأى جيش غربي، بمعظمه من المسيحيين، يدافع عن شرفهم، لكنهم أصيبوا بالخيبة مرّتين من جراء إدراكهم التام ما يعنيه أن تحميهم أميركا وغيرها من الحلفاء الغربيين: فقد فاضت المملكة العربية السعودية بالنساء المجنّدات.

ولما وقع نظر والدي للمرة الأولى على المجندات اللواتي تبدو عليهن المقدرة، أصبح أكثر المعارضين جهاراً للقرار الملكي بالسماح بدخول الجيوش الغربية أرض المملكة، وشرع يقول مرعداً، «نساء! يدافعن عن الرجال السعوديين!».

لا يمكن لإهانة أن تكون أشد سوءاً! أصبح والدي محبطاً إلى حد الإعلان أنه لم يعد يستطيع القبول بالتلوّث الذي ادعى أنه يحوم في الهواء من فوق المسلمين. وأفلت سيلاً من الانتقادات، مهاجماً بالكلام العائلة المالكة، والأميركيين، والبريطانيين، وأي شخص اعتُبر أنه يعمل ضد مصلحة الإسلام.

تحدّث والدي في الجامع المحلي، وأرسل منشورات، وسجّل شرائط، وكلها تنتقد الحكومة التي زعم أنها تجعل من السعودية مستعمرة لأميركا. ومع اتساع نشاط والدي المعارض، أخذ استياء العائلة المالكة يزداد، عن حق، لأنهم مسؤولون عن حسن حال جميع السعوديين، وقد اتخذوا القرار الحكيم بعدم وضع مصير البلاد في أيدي والدي ومجاهديه الاثني عشر ألفا، برغم واقع أن لا أحد ينكر على الرجال، كونهم مقاتلين، على قدر كبير من الشجاعة والبأس.

ويتوجّب عليّ القول، برغم أنني أحببت والدي، ووجدت صعوبة في انتقاده، إنني أعتقد أن العائلة المالكة تصرفت بمسؤولية ولمصلحة جميع السعوديين.

لم يهدأ والدي مع النجاح العظيم الذي حققه القتال لإخراج جيش صدام من الكويت، وانتهى سريعاً مع خسارة قليلة في الأرواح. وبدا أن الانتصار السهل أغضبه أكثر، الأمر الذي جعلني أعتقد أنه كان يفضّل الهزيمة بسيف المسلمين على الانتصار على أيدي الكفار. واشتد هياجه الشديد عندما اتضح أن بعض الجنود الأميركيين سيبقون في السعودية. وتحدّث من الجامع قائلاً، «يشكل استمرار بقاء الجنود الأميركيين إثباتاً لتوقعي أن التلوث العلماني بدأ بصورة جدية».

لا أعرف التفاصيل كلّها، لأنني كنت فتيّاً ولم يعتبرني والدي مؤتمَنا على أسراره. لكنني شعرت من سخطه، بأن تغييراً غير مرغوب فيه سيحل بعائلتنا.

وأنا أعرف الآن أن والدي هو الذي شرع في الخلاف مع العائلة المالكة. فبرغم أنهم حاولوا بهدوء وحكمة نزع فتيل الشجار، ردّ أبي العنيد بجفاء على دعواتهم إلى الحوار العقلاني، وعظّم من شكاويه إلى أن تقيّحت «البثرة» الصغيرة لتصبح في النهاية «دمّلة» متقرّحة. وأضحت هجماته مخالفة للمنطق، إلى درجة أن العائلة المالكة استسلمت لغيظها، فأبلغ وزير الداخلية الأمير نايف والدي بأنه يُمنع من مغادرة المملكة. ومثل هذا العمل الحكومي في السعودية، هو في شكل عام، الخطوة الأولى لخسارة المرء حريته. فهل يدخل والدي السجن في الأيام القادمة؟

كافح أشقاء أبي الأكبر منه سناً، لإعادته إلى راحة البال، وذكّروه بالإخلاص الذي تدين به عائلتنا للأسرة المالكة، لكنه لم يتزحزح عن أفكاره رافضاً التخفيف من نشاطاته المعارضة.

ملأ التوتّر بيتنا، إذ إن كل جانب من جوانب حياتنا الخاصة يدور حول والدنا. عندما يكون مستاءً، ينتشر استياؤه عبر دائرة العائلة إلى جميع زوجاته وأولاده. وفي عزّ هذه الأزمة، أمر والدتي، بصورة غير متوقّعة، بأخذ عبد الرحمن وابنتيها الصغيرتين والسفر في عطلة طويلة إلى أهلها وأخوتها في سورية.

بقي جميع أخوتي في جدة ما عدا عبد الرحمن. ثم اختفى والدي في أحد الأيام بدون أن يخبرنا شيئاً. وأبلغَنا أحد موظفيه أنه غادر المملكة في عمل ما. وتساءلنا، أنا وأشقائي، كيف أمكنه تحقيق المستحيل. وأملتُ، وأنا أتذكّر زورقه القوي «شفيق المدني»، أنه لم يقم بعملية هروب جريئة بدوني.

وارتحت عندما علمت بأن الحال ليست كذلك. فقد أقنع والدي أحد الأمراء بالسماح له بمغادرة المملكة لمتابعة أعمال مهمة في باكستان، قاطعاً لهذا الأمير اللطيف وعداً بأنه سيعود إلى المملكة قبل أن يتم افتقاده.

انتظرنا عودته عبثاً. ولما رجعت والدتي من سورية، تم إبلاغ العائلة لاحقاً أن والدنا لن يعود أبداً وبأننا سنغادر أيضاً، وسنعيش من الآن وصاعداً في أفريقيا.

بحثت في أرجاء المنزل. لم أهتم كثيراً بالأغراض الشخصية، ولم أفكّر في شيء أكثر من أحصنتي المفضلة الموجودة في اسطبل المزرعة. ما الذي سيحل بفرسي المفضلة بيضا؟ أو بحصانينا الشموسين العزيزين: لزّاز، وهو جواد عربي كستنائي اللون مع غرّة بيضاء؛ وأدهم، وهو أيضاً أبيض مع عفرة وذيل أسودين؟ كان أدهم جواد والدي المفضل، وهو حصان محارب يليق بملك.

وسرعان ما تم إطلاعي على الخبر الذي يقطع القلب حزناً، وهو أننا سنترك بيضا وراءنا بسبب قانون سعودي يمنع على الأفراس العربية مغادرة البلاد. وجاءت تعزيتي الوحيدة لدى سماعي أنه سيسمح لنا بأخذ لزّاز وأدهم. فما من قانون يمنع تصدير الأحصنة.

لكنني لو عرفت ما يخبئه المستقبل لهذين الجوادين العزيزين، لقمت بكل ما هو ضروري لإبقائهما في أمان في رمال المملكة.

السودان

دارفور
الخرطوم
النيل الأزرق
النيل الأبيض
شمال

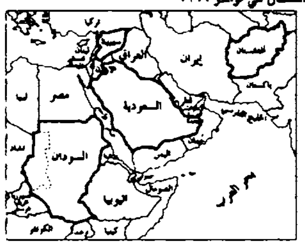
<u>السودان:</u>

وصل أسامة بن لادن مع عائلته إلى السودان في أواخر ١٩٩١

طرد أسامة بن لادن من السودان منتصف ١٩٩٦

رافق عمر بن لادن والده في رحلة الخروج

نقل أسامة بن لادن زوجاته الثلاث وأولاده إلى أفغانستان في أواخر ١٩٩٦



<u>وقائع عن السودان:</u>

الاسم الكامل: الجمهورية السودانية

جمهورية تحكمها: حكومة موقتة

رئيس الدولة: عمر حسن أحمد البشير

العاصمة: الخرطوم

المساحة: ٢,٥٠٥,٨١٣ كيلومتراً مربعاً

الديانتان الرئيسيتان: الإسلام والمسيحية

اللغة الأساسية: العربية، النوبية، وغيرهما

السكان: ٣٨,٦ مليوناً

الوحدة النقدية: الدينار السوداني

القسم الثاني

حياتنا في الخرطوم



الفصل العاشر

إلى افريقيا

نجوى بن لادن

أؤمن بأن الله يقرر كل شيء، وقد ساندني إيماني حتى وأنا أصعد إلى الطائرة التي تغادر السعودية، البلد الذي تعلّمت حبه بالقوة ذاتها التي أحببت فيها سورية، أرض مولدي.

ارتبط انقطاعي الراسخ إلى الله بثقتي بزوجي. وثقت به كثيراً، ولطالما أكّد عقلي لقلبي أن جميع أفكاره وخططه هي لفائدة زوجاته وأولاده. فخلال السنوات السبع عشرة الماضية، اتخذ أسامة كل قرار مهم لعائلته، وليس لدي من سبب للحذر من أي شيء يقوله زوجي أو يختاره.

وكان لثقتي التي لا حدود لها، ولا تشكيك فيها، تأثير معزٍّ، أنا واثقة بأنه انعكس على وجهي، لأنني أعجز، مذ كنت طفلة، عن تصنّع انفعال لا أشعر به. وصاغ طبعي الوادعُ مسلكَ أولادي أيضاً. وقد عبّروا عن الفضول والسعادة، إذ رأى أغلبهم في طيراننا ورحلتنا مغامرة سوف تغيّر من روتين المدرسة والمنزل.

شُحنت أغراضنا الشخصية في سفينة نقل إلى مكان بعيد عن شاطئ جدة الكبير، بينما أصبحت عائلة زوجي في الجو تنطلق إلى سماء جدّة النيليّة اللون لتحلّق فوق الصحراء المكشوفة.

كنا ثمانية عشر شخصاً. وقد خُصّص لكل زوجة وأولادها مقاعد في أماكن

مختلفة من الطائرة. لم نهتم بأي من الركاب الموجودين بين أقسامنا. فتبادلنا الكثير من النظرات، ونحن ننظر حيناً إلى الأمام، وحيناً إلى الخلف، ونختلس النظر من خلال حُجُبنا، ونستخبر بصمت إذا كان كل شيء على ما يرام عند الآخرين. أصبحت زوجات أسامة، على مر السنين، عزيزات في شكل نادر على بعضهن البعض، وزاد من إحساسهن هذا أنهن متزوجات بالرجل نفسه.

تشكّلت عائلة أسامة الأولى منّي أنا وأولادنا الثمانية. فعبد الله، الصبي العزيز الذي اعتنى كثيراً بأخوته الأصغر منه، كان يومذاك في الخامسة عشرة. وعبد الرحمن، المعروف عنه أنه يبذل جهده في كل ما قد تلتقطه مخيّلته، كان في الثالثة عشرة. وكان الابنان الأكبران هادئين جداً، ويتصرفان بمسؤولية.

أما سعد الثرثار، الذي غالباً ما يطلق عليه أخوته اسم «الجوكر»، فكان في الحادية عشرة. وبدا سعد السريع الانفعال مسروراً كثيراً لحصوله على حضورٍ أسري، ومتحدثاً مع كل من يريد أن يستمع.

وكان أكثر أبنائي رهافة، عُمر، الطري العود، الذي بدأ وهو في سن العاشرة يثبت نفسه على أنه مُرشد صادق ومخلص لأشقائه، وقد جلس متصلّباً وعلى وجهه تعبير متوتّر. حدستُ بغريزتي كأم أن عمر لا يزال قلقاً على مصير خيلنا في المزرعة. فابني الرابع يحب الحيوانات، وكان دائم التفكر في شأن هذه المخلوقات المحببة إلى قلبه.

وكان عثمان، ابن الثامنة، ومحمد ابن السادسة، يمرحان بهمّة فتيّة عالية، ويضحكان على أي شيء.

أما ابنتي فاطمة، وكانت في الرابعة، فجثمت برِقّة إلى جانب والدتها. في حين أن قرّة عيني، ابنتي إيمان ذات العام الواحد، تقلّد كل حركة تقوم بها شقيقتها الأكبر منها. وقد شكّلت ابنتاي الصغيرتان سعادة كبيرة لي.

تألفت عائلة أسامة الثانية من خديجة وولديها. وقد استقرّت على بعد أجنحة عدة مني مع ابنيها المحبوبين: علي ذي الأعوام السبعة، وهو صبي جدّي وطيّب؛ وعامر ذي العامين.

وتألفت عائلة زوجي الثالثة من خيرية، أقرب صديقاتي إليّ في «عائلة الزوجات»، وقد بقيت تراقب عن كثب ابنها حمزة، وهو في الثالثة، كثير الحركة ومليء بالخدع الساحرة.

أما عائلة أسامة الرابعة فتألفت من الأم سهام وأولادها الثلاثة: ابنتها خديجة الجميلة ذات الأربع سنوات؛ وخالد، الدائم السعادة وهو في الثالثة؛ ومريم الصغيرة التي وُلدت في اليوم ذاته الذي وُلدت فيه غاليتي إيمان، وقد أصبحت، بحمد الله، صحيحة البنية اليوم.

وها إن أربع زوجات وأربعة عشر ولداً في طريقهم إلى الأب الواحد والزوج الواحد.

كان وجه زوجي ماثلاً في ذهني. واشتدّت بي الرغبة إلى رؤيته وقد مضت أسابيع عدة على رحيله الغامض عن السعودية. لم اطّلع من بين التفاصيل القليلة عنه منذ ذلك الوقت، سوى على تعليماته المريعة: «نجوى، لا تتركي ولو صحناً واحداً في السعودية».

عرفت أن أسامة سيكون في الانتظار لاستقبالنا عندما نبلغ وجهتنا. وصلّيت إلى الله ليسخّر الحلول لجميع المشاكل التي يواجهها زوجي، ويوجد مخرجاً مناسباً يسلّمه من خلاله مفاتيح أبواب السعودية التي أُغلقت في وجوهنا حديثاً، فنعود حينها إلى المنزل الذي غادرناه للتو.

أبقاني استغراقي في التفكير، إلى جانب طفلتيّ الكثيرتي الحركة، مشغولة إلى درجة أن الساعتين مرّتا بسرعة. وسرعان ما أعلن صوت القبطان أن علينا إعداد أنفسنا للهبوط.

حدّقت النظر من الكوّة الصغيرة للطائرة ونحن نقترب من مقرنا الجديد، الخرطوم. وقد اعتراني الفضول لأنه لم يسبق لي أبداً أن زرت هذا البلد الذي سأدعوه منذ الآن موطني.

ألصقت وجهي بالنافذة، وأمكنني أن أرى بصورة مشوّشة من وراء حجابي. لاحظت الأرض الجرداء ترتفع من تحتنا، وأخذ حجم الأبنية الصغيرة والطرق

الأشبه بالخيطان يكبر، ورأت عيناي سريعاً أن الخرطوم مختلفة اختلافاً كبيراً عن جدّة.

أصبحت جدة، التي كانت قبل عشرة أعوام بلدة صغيرة، مدينة حديثة متقنة، تتفاخر بمبانيها المعاصرة العالية وطرقها الأكثر حداثة. وفي المقابل، بدت الخرطوم كناية عن أسطح لوّحتها الشمس، ومبانٍ مشادة من القرميد الطيني لا تعلو أكثر من بضعة طوابق. وبدا معظم الطرق غير معبّد، برغم أنه لم يمكنني تأكيد ذلك من الموقع الذي أنظر منه، وأخذ التراب والغبار في الازدياد.

صحيح أن الصحراء تزحف دوماً على جدة، لكن السعوديين جعلوا من ردّ الرمل الزاحف على أعقابه هدفاً لهم، معترضين دبيبه الخفي إلى شوارع المدينة. ولا تبدو هكذا الحال في الخرطوم. وأعتقد أن السبب يعود ربما إلى أن السودانيين لا يملكون الموارد المالية المُنعم بها على جدّة.

سبق وعرفت بعض الوقائع عن السودان. فهو البلد الأكبر مساحة في القارة الأفريقية، وحكومته إسلامية. تجاوره مصر، وكذلك إثيوبيا وأريتريا، وهما بلدان عرفتُ بعض الشيء عنهما من جراء المحادثات مع بعض فتيات إعداد الشاي عندنا، وهن شابات فطنات تركناهن في السعودية للعمل عند عائلات محظوظة. وللسودان الواسع المساحة جداً، حدود مشتركة مع طائفة من الدول: مصر، أريتريا، إثيوبيا، كينيا، أوغندا، الكونغو، جمهورية أفريقيا الوسطى، تشاد، وليبيا. وكما في السعودية، فإن البحر الأحمر يحد جانباً واحداً من السودان.

والخرطوم، المدينة التي سنحط فيها بالطائرة، هي عاصمة السودان، بالرغم من أنها مدينة حديثة نسبياً، وقد تأسست سنة ١٨٢١. يمرّ النيل الأبيض، الذي ينساب نزولاً من بحيرة فيكتوريا، والنيل الأزرق، الذي يتدفق من غرب إثيوبيا، معاً في الخرطوم كتوأمين، لكنهما يغادران المدينة نهراً واحداً يجري شمالاً إلى مصر، حيث يصبح معروفاً للعالم.

قفزت ابنتاي قفزة خفيفة وقهقهتا بالضحك عندما حطّت عجلات الطائرة

على المدرج الكثير النتوءات. وانضمت فاطمة إليّ وأنا أحدّد النظر من النافذة، متأمّلة في المشهد المكوّن من حقول محاطة بالتراب وحبق الراعي. وثمة بعض الأشجار المثقلة بالغبار التي تبدو في غير مكانها إلى درجة يتساءل معها المرء إذا كانت قد برزت فجأة من الأرض. وراقبنا رجالاً ونساء يسيرون مسرعين حول منازل بسيطة في قرى صغيرة. ارتدت النساء السودانيات أثواباً فضفاضة ذات ألوان زاهية مع لفاعات رأس متناسقة معها. وتزيّا معظم الرجال بالجلابية التقليدية، وهي أشبه بالثوب وتصل إلى الكاحل، ووضعوا الطواقي على رؤوسهم. وارتدى غيرهم السراويل والعراقيات، وهي كناية عن سراويل فضفاضة وقمصان تصل إلى الفخذين، هي في الغالب من اللون ذاته.

فكّرت لفترة وجيزة في هؤلاء الناس ونوع الحياة التي يعيشونها، لكنهم سرعان ما اختفوا عن ناظري ونحن نقترب أكثر من المحطّة، وكانت كناية عن مبنى اسمنتي من ثلاث طبقات. واضطررت، عند الهبوط، إلى التركيز على أولادي.

حملت إيمان بين ذراعي وشجّعت فاطمة على البقاء إلى جانبي، وأشرت إلى أبنائي الستة بالبقاء قريبين. حصل تزاحم عندما اندفع الجميع نحو باب الطائرة، ونزولاً على أدراج السلم الذي دفعه عاملو المطار إلى الباب.

وفي اللحظة التي خطوت فيها خارج الباب، تعرّفت إلى قامة زوجي الطويلة وهو يقف إلى جانب سيارة سوداء طويلة يقرنها المرء عادة بالزائرين المهمين جداً. وأحاط حرّاس أمنيون مدجّجون بالسلاح بالمنطقة، وقد عُتمت نوافذ السيارة للحفاظ على الخصوصية، وهي عادة من عادات عائلة أسامة. واصطفت سيارات مماثلة أخرى تنتظر كلها لنقل عائلة زوجي الكبيرة إلى منازلنا الخاصة.

سرت حتى وصلت إلى قرب زوجي. وأنا أعرفه جيداً جداً، وأمكنني أن أرى، بدون أن ينطق بكلمة، أنه مرتاح إلى وصولنا سالمين. لم نتبادل أكثر من هزّة رأس وبعض إيماءات السلام العابرة، فالرجال والنساء المسلمون لا يعبرون عن العواطف ولا يتلامسون في العلن، حتى بعد مضي سنوات طويلة على زواجهم وإنجابهم العديد من الأولاد.

تم تدبير كل شيء مسبقاً. وبفضل نفوذ زوجي، انتفت الحاجة إلى أن تعاني العائلة شكليات التدقيق في الجوازات والجمارك.

في اللحظة التي استقرّ فيها الجميع في السيارات السوداء الطويلة، أحاطت عربات الأمن بقافلتنا، وأسرع سائقونا مبتعدين عن المطار. أخذت فتاتاي الصغيرتان تقفزان وقد استثارهما تخلصهما من قيود أحزمة مقاعد الطائرة، في حين ألقيتُ نظرات سريعة من النوافذ المعتمة، لأتعرّف عن قرب إلى الخرطوم.

دخلنا فجأة منطقة فارهة المباني، شاهدت فيها الكثير من المنازل الجذابة التي شُيدت حديثاً. وأُبلغتُ بأننا سنعيش في هذا المركز، وهي ضاحية موسرة من الخرطوم تُعرف باسم «قرية الرياض». والمنازل كلها ذات حجم كبير، ومبنية قريبة من بعضها البعض.

تدبّر أسامة أربعة منازل في «قرية الرياض» لعائلته ورجاله الذين يحموننا ويضمنون سلامتنا. وكان المنزل الذي ستعيش فيه عائلته مؤلفاً من ثلاث طبقات. فأقمت كالعادة في الطابق العلوي، في حين سكنت صديقاتي الزوجات في الشقق الأخرى تحتي.

سارع كبار أبنائي إلى اختيار مكان سكنهم، بينما اتخذتُ القرار عن الأصغر سناً بينهم. شعرت بالراحة والسرور وأنا أعرف أننا سنكون بخير ما دمنا جميعنا معاً. وبات زوجي في تلك الليلة في شقتي الخاصة، وقد استمتعت بحضوره.

بدأنا نعيش، بعد أسبوعين، في روتين يشبه في أوجه عدة منه، حياتنا في السعودية. تدبّر زوجي فتاتين سودانيتين للمساعدة في المنزل ولرعاية الأولاد، برغم أن أسامة أخذ يلمّح أخيراً إلى أنه علي الاهتمام بالأولاد بنفسي. لطالما كان رجال العائلة، في ثقافتي، هم الذين يتخذون جميع القرارات المهمة. لكنني اقتنعت أنني أحتاج إلى من يساعدني بوجود ثمانية أطفال، بعضهم بالكاد يمشي. وقد استقررت بهدوء وسكون على هذا الأمر، إلى أن تدبّر أسامة في النهاية فتاتين قدّمتا مساعدة كبرى وكانتا ظريفتين جداً.

كنّا ننهض كل يوم باكراً لأداء أولى صلوات النهار، ثم نعود إلى النوم.

وبعد استراحة لبعض الوقت، نتأكد من عدم تأخر الأولاد عن المدرسة التي سيتناولون فيها الفطور على جري العادة في الخرطوم.

سعدتُ لمعرفتي أن أسامة تدبّر أن يرتاد الصِّبْية الكبار مدرسة خاصة جيدة جداً. فأنا أعلم تمام العلم أن أبنائي وصلوا إلى حافة اليأس من المدارس الرسمية التي ارتادوها في جدة والمدينة. وهم سيذهبون في الخرطوم إلى المجلس الأفريقي للتعليم الخاص، وهذه المدرسة تفتح ستة أيام في الأسبوع، أي كل يوم ما عدا الجمعة الذي هو طبعاً يوم عطلتنا الإسلامية الذي تتوقف فيه الحياة الروتينية طوال أربع وعشرين ساعة.

مَحَتْ رؤيتي أولادي الوسيمين في زيهم الدراسي الرسمي نحو جيل من الزمن. عادت بي أفكاري إلى الماضي، إلى السنوات السابقة التي بدت فجأة بعيدة جداً. تحرّقتُ شوقاً إلى الأيام التي كنت فيها زوجة شابة، أراقب باكتئاب زوجي الشاب في زيه الدراسي المكويّ بعناية، يتركني لأشتاق إليه وهو يتابع عمله ودراسته.

وها إن أبناءنا الوسيمين يسيرون على خطى والدهم. فهناك عبد الله، وعبد الرحمن، وسعد، وعمر، وعثمان، وحتى أصغر أبنائنا محمد الصغير، يُحْدثون في كل صباح جلبة وهم يقفزون للبس سراويلهم الخضراء الداكنة وقمصانهم الخضراء الفاتحة. ويُسمَح لهم، في حال لم يبق أبوهم معي، بإحداث الكثير من الضجيج. فأبتسمُ، وأراقبهم وهم يصبحون كثيري الصخب، ويتقافزون فوق بعضهم البعض وهم يهرعون للقاء علي ابن خديجة البكر. وسيركض الصِّبْية السبعة معاً مهرولين سيراً إلى منعطف منطقة المجمّع لانتظار باص المدرسة.

أما في بقية ساعات النهار، فتصبح شقتي هادئة جداً بعدما يُخليها أبنائي الستة، ويتركونني مع ابنتيّ، فاطمة وإيمان، الهادئتين هدوء سماء زرقاء بعد عاصفة رملية عابرة. فأتناول بصحبتهما، فطوراً لذيذاً على مهل، ثم أستغرق وقتاً كبيراً في اللعب معهما لأنهما لا تزالان أصغر من أن تتعلما تلاوة القرآن، أو مساعدتي في أعمال البيت. وقد نلعب «الغمّيضة» إذا شعرتُ بالرغبة في ذلك.

تواصل خادمتانا بعد ذلك اللعب مع ابنتيّ، بحيث أتمكن من تليين جسمي وممارسة الرياضة. اكتشفتُ، وقد أصبحت أكبر سناً وأصلب عوداً، أهمية القيام بمزيد من النشاط الجسماني. وقد أقوم، بعد التمارين، ببعض الرسوم التخطيطية لأنني لا أزال أجد متعة في رسم الوجوه، وبالأخص العيون المُعبّرة. وأقرأ لفترة، بعد أن أضع الأقلام والورق جانباً، مركّزة بصفة رئيسية على القرآن. وأخذنا، نساء زوجي الأربع، نزور بعضنا البعض في كل صباح، فنتحادث لبعض الوقت ثم نقرأ معاً بعض النصوص الدينية.

امتلكنا حديقة خاصة كبيرة وواسعة نما فيها العشب والأزهار وأشجار قصيرة ذات جذوع سميكة. وكنت في كل يوم تقريباً، في حال خلوّ الجوار، واعتدال الطقس، آخذ أولادي الصغار إلى الحديقة وأراقبهم هناك. وتأتي الأمهات الأخريات أحياناً بصغارهن إليها، نراقبهم ونرعاهم عن بُعد وهم يلعبون ويلهون.

يمر الصباح سريعاً، مع الكثير من الأعمال التي يجب القيام بها، ويأتي موعد قدوم الصِّبْية من المدرسة بعد ساعة من حلول الظهر، وبطونهم خاوية بعد جهودهم الذهنية والجسمانية، فأتأكد من أن الطباخة حضّرت غداء جيداً، وربما أستمتع بعد ذلك بقيلولة. وغالباً ما تغفو الفتاتان معي، ويُترك الصبية وشأنهم لكونهم يكبرون في العمر.

لم يكن زوجي مهتماً باللُّعَب الحديثة للأولاد، لكن الصِّبْية وجدوا، بدون لُعَب، الكثير من النشاطات ليمارسوها. أذكر مرة عندما استيقظت من القيلولة ونظرت من نافذة شقتي، أنني رأيت أبنائي منهمكين في نشاط في بناء «عرزالات» في تلك الأشجار القصيرة في الحديقة، انتهت إلى أن تصبح أبنية اعتُني بتفصيلها مع ممرات تربط بين العرزال والآخر. ولا أدري من أين عثروا على ألواح الخشب الكبيرة، وربما أن بعضاً من موظفي زوجي وفّروا لهم مواد البناء.

أقاموا، بعد «تشييد» هذه العرزالات، في هذه المنازل الوهمية لساعات

طويلة. وكنت في أحيان كثيرة، أراقب كل ولد وهو جاثم في «منزله» في الشجرة، مثل طائر كبير، ويحدّق في السماء الزرقاء أو في ما وراء السور الكبير المحيط بمنزلنا. وكان الأولاد يكرّسون أحياناً أياماً بكاملها من وقت الفراغ ولا شيء يفعلونه سوى الجلوس والتحديق. ولن أعرف أبداً ماهية الأحلام التي كانوا يغزلونها.

مكثت أراقبهم في مشروع آخر طوال أسابيع وهم يبنون فرناً تحت الأرض، ويركّبون أنابيب لتمرير الهواء. وشرعوا بعد ذلك في زراعة الفاصولياء العريضة، ولما أينعت قطفوها طازجة وطبخوها وسكبوها في أطباق متنوعة.

أصبح لدى أسامة، منذ انتقالنا إلى الخرطوم، المزيد من الوقت لرعاية الأولاد. وكرّس ساعات يشرح فيها لهم أهمية زراعة خُضَر وغيرها وشكّل لهم قدوة بمزارعه الكثيرة التي يزرع فيها الذرة وحبوب الصويا، وحتى دوّار الشمس. وربما من هذه الدروس جاء الصبية بفكرة زرع تلك الفاصولياء.

سُررت، بغض النظر عن الأسباب، لرؤيتهم يسلّون أنفسهم. فقد عاشوا في السعودية حياة متوحّدة جداً. لذا، فإن ألعابهم الصبيانية ونشاطاتهم تثير الآن السعادة في قلبي. وازدادوا جرأة، وأخذوا يهربون أحياناً من مجمّع الرياض لاستكشاف الجوار. وأعتقد أن أسامة لم يكن يدري، على الأغلب، بمغامراتهم الجريئة. عرفتُ أنهم صبية جيّدون يحتاجون إلى بعض من الحرية، فاخترت التزام الصمت بالرغم من أنني لن أكذب أبداً على زوجي لو أنه وجّه إليّ سؤالاً مباشراً عنهم.

عايشتُ أموراً جيدة أخرى خلال إقامتنا في السودان. فقد سُعدت لأن زوجي لم يسافر كثيراً، ويبدو أكثر ارتياحاً بالاهتمام بمشاريعه المهمّة الكثيرة. فقد أجرى ترتيبات مع مسؤولين كبار في الحكومة السودانية لبناء طرق ومصانع وأعمال متنوعة، بما فيها المزارع التي أتيت على ذكرها. أما التزام أسامة المفضّل، فهو العمل في الأرض لإنتاج أفضل ذرة وأكبر أزهار دوّار الشمس.

وأجهد ذهنه جدّياً في ابتكار وسائل جديدة لإنتاج أكبر أزهار دوار الشمس في العالم. ولم يسعد بشيء أكثر من التباهي بأزهاره الضخمة.

أبتسمُ كلما تذكرت تلك الأيام المُجدية. وأحبُّ الذكريات إلى قلبي كانت الأوقات التي يحين فيها قطاف الذرة أو أزهار دوار الشمس، فنذهب خلالها إلى واحدة من تلك المزارع، وفي العادة إلى الدمازين، جنوبي الخرطوم. وذكّرتني تلك النزهات بالأيام التي اعتدنا فيها شحن العائلة ونقلها لزيارة مزرعتنا في جدة.

كان حصاد دوار الشمس الأكثر متعة. فأختارُ مقصّاً، وأسعدُ بالجلوس ضمن قافلة من السيارات الكبيرة السوداء. وما إن نصبح في المزرعة، حتى يحدّد أسامة التوقيت لتصبح لنا ساعاتنا الخاصة، فتعمل زوجاته وأولاده في الحصاد بدون القلق من الاختلاط عَرَضاً بالغرباء. وبرغم أننا، نحن الزوجات، نرتدي حُجُبنا التقليدية، فإن الوشاحات قد تنزلق عن وجوهنا ونحن نركّز على قطف الأزهار. وكنا نعمد سريعاً بالطبع، لحظتها، عند سماع أي أصوات غير مألوفة إلى آذاننا، إلى إخفاء وجوهنا المكشوفة.

بلغ حجم بعض أزهار دوّار الشمس الضخمة هذه بضعة أضعاف حجوم رؤوسنا. وغالباً ما تفحّصتُ هذه النباتات الهائلة بإعجاب، وأنا أعرف أن أسامة هو سبب مثل هذا الجمال. تلك أفضل الذكريات، أن أنشغل وأكون جزءاً من رسالة لها قيمتها، أشغل نفسي فيها في ملء وقتي بأمور منتجة وعملية.

سافرنا، في مرات أخرى، إلى مكان يدعى القطينة، والرحلة إلى هناك طويلة جداً، والطرقات غير معبّدة. وبرغم ذلك كان مشوار الطريق يجلب إلينا الكثير من الإثارة. إذ نحرّك، في زمن الجفاف، عواصف من الغبار، وعندما تمطر يتحوّل الغبار إلى وحل، وغالباً ما تغوص السيارات في لزوجته، ويُهَمْهِمُ الجميع إحباطاً من التأخير. ونحن في الحقيقة غير مستائين كما يبدو علينا، لأن حياتنا على درجة كبيرة من الهدوء، بحيث لا نمانع كثيراً في أن تصادفنا بعض العقبات «المحبّبة» في الطريق. ويكافح عمر وأشقاؤه في الدفع لتحرير

الإطارات، ونتمكن أخيراً من مواصلة رحلتنا. كان المشهد، لسبب ما، مسلّياً كثيراً لي وللزوجات الأخريات، ونحن نشاهد أبناءنا الأقوياء يرفعون، ويدفعون، ويجهدون. وأحياناً يضغط السائق المتحمّس على دوّاسة الوقود بقوة، فيتطاير الوحل في كل اتجاه. ونضحك من تحت حُجُبنا ونحن نراقب الصِّبْية يقفزون محاولين عبثاً تفادي الوحل المتناثر من حولنا.

يطلب الصبية أحياناً من القافلة، ونحن في طريقنا إلى المزرعة جنوباً، التوقف في بقعة معينة يعرفون وحدهم أنها مناسبة للصيد. فيتركون النساء والأولاد الصغار في السيارات، وينسلّون مبتعدين لتأمين الطعام. وثمة نوع خاص من ديك الحبش الكبير المميّز جداً، يحبّه جميع أفراد العائلة. وأبناؤنا صيادون ماهرون لا يفشلون أبداً في اصطياد البعض منه. وما إن نصل إلى البيت الريفي، حتى نعدّ الماء لغلي الحبش، ثم ننتف ريشه. وكان الحزن يداهمنا قليلاً ونحن نعدّه لطعامنا، لأنه جذّاب بريشه ذي البقع البيضاء.

وفي أحيان أخرى، يطلب منا عمر التوقف لأن عينيه الثاقبتين لمحتا شجرة خاصة غصونها مثقلة بفاكهة لذيذة. وقد ضاع اسم الشجرة من ذاكرتي. لكننا كنا نراقب عمر بتشوّق وهو يتسلقها غصناً غصناً، ويختار أفضل الثمار يقدّمها ابني اللطيف إلي فاحتفظ بها لنأكلها عند وصولنا إلى المزرعة.

في المزرعة أكواخ رائعة، أشبه بالبيوت الريفية الصغيرة. وهي صغيرة ومستديرة، مع أسقف من القش الطويل، ذات شكل يشبه قرن مثلجات كبيراً. وقد بُنيت وسط غابة من الأشجار الكبيرة تعيش فيها مجموعات من القرود، كانت تبدو أكثر متعة من قرود السيرك. يدب النشاط، لدى وصولنا، في كل عائلة هذه المخلوقات الذكية، فنستمتع بأغانيها ورقصها. وبعد مشاهدتها المسلّية لبعض الوقت، ندخل الأكواخ لتمضية العطلة التي طال انتظارها وتستمر في العادة أربعة أيام، أو إلى حين يقول أسامة إنه قد آن الأوان للمغادرة.

بُنيت الأكواخ بمهارة من أخشاب قاسية، تعلوها القضبان والأوراق والأغصان الصغيرة. وتدبّر أسامة وضع عدد كبير من الأسرّة الخفيفة فيها،

ليحصل كل واحد منا على السرير المخصص له. ولم ينسَ تجهيزها بناموسيات لتردّ «كيد» الحشرات عن أجسامنا، وقد حذّرنا من الملاريا التي تُعَد مرضاً قاتلاً في هذا الجزء من أفريقيا، وبالأخص إذا أصابت الأولاد الصغار. وأخذتُ على محمل الجدّ مسألة إحاطة أولادي الأصغر سناً بهذه الناموسيات.

أحببت كثيراً ثمار المانغا التي تنمو على الشجر خارج الكوخ. ولديّ ذكريات سعيدة عن جلوسي عند باب الكوخ وأنا أراقب أولادي يلعبون تحت النجوم المتلألئة، وأنا أتناول بعضاً من حبّاتها الريانة.

وغالباً ما قمنا برحلات إلى مزرعة الخيول الصغيرة الخاصة بأسامة، وكانت على مسافة قصيرة من منزله في «قرية الرياض». فيشغل رجال العائلة أنفسهم بالاهتمام بالخيول، بينما نستمتع نحن النساء بحوض السباحة الخاص. وما إن يذهب الرجال في جولاتهم على الأحصنة ونتأكد من عزلتنا، حتى نغطس في المياه الباردة. لم نملك، طبعاً، أثواب سباحة، بل كنّا نترشّش في المياه ونحن مرتديات أثوابنا الطويلة.

تعلّم أولادي الأكبر سناً، الكثير وهم في الخرطوم، لأن والدهم بدأ يعامل الكبار فيهم بوصفهم شبّاناً، بل كان يأخذ الصِّبْية الستة الكبار معه عندما يذهب إلى العمل. وأذكر المرة التي رافقوه فيها لمراقبة بناء خط للسكة الحديد. تحمّس حينها أبنائي ليخبروني أنه شرح لهم، بأدق التفاصيل، طريقة بنائها والخطوات التي يقوم بها المهندسون، فازدادوا اقتناعاً بأن والدهم يعرف كل شيء، بينما كان حلم زوجي أن يتولى أبناؤه الكثر، يوماً ما، أعماله الكثيرة في السودان.

عشنا في السودان تجارب غير مألوفة. فقد ركّز أسامة، منذ كان أكبر أولادنا صبياناً صغاراً في السعودية، على تدريبهم على تحمّل البقاء فترات طويلة في الصحراء بدون مساعدة خارجية. وأبلغنا في أحد الأيام، أن حالة العالم دفعته إلى الاستنتاج بأنه يجب أيضاً تدريب زوجاته وبناته ليصبحن صبورات وشجاعات.

وطلع بخطط لمساعدة جميع أفراد العائلة على أن تصبح لكل منهم شخصية قوية ومرنة. أما كيف جاءته تلك الأفكار الفريدة من نوعها، فسرٌّ. لكنه، ما إن أحدثت الفكرة وقعها، حتى تدبَّر وسيلة نقل تقلُّ عائلته خارج الخرطوم إلى تخوم منطقة خالية من النمو العمراني. لم يُسمح لنا بأخذ مؤونتنا المعتادة لرحلة ليلية، برغم أننا لاحظنا وجود رفوش وغيرها من أدوات الحفر مكدّسة في صناديق السيارات الخلفية.

ما إن بلغنا المكان المعزول في الصحراء حتى قيل لنا إننا سنمضي الليل تحت النجوم. وقال أسامة، «على الجميع، ونحن في هذه المهمة التدريبية، الحد من تناول السوائل والمغذّيات الأخرى». ولن تتوفّر لنا، أيضاً، بعض الأغراض الضرورية مثل الأسرة أو الأغطية. وفوجئنا أكثر ما يكون، عندما قال لنا، «لم أحضر ناموسيات، لكن لا تقلقوا، فنادراً ما يأتي البعوض إلى الصحراء».

وقفت الزوجات والبنات مراقبات بينما طلب أسامة من أكبر أبنائه وأشدّهم قوة، استخدام أدوات الحفر لنبش فجوات كبيرة كفاية ليتمدد فيها إنسان على طوله وهو نائم. وخلال ذلك كان يعظنا: «عليكم أن تكونوا بواسل. لا تفكّروا في الثعالب أو الأفاعي. تذكّروا أنكم تخضعون لتدريب. فالمحن التي ستختبرونها آتية إلينا. وسيأتي يوم لن تجدوا فيه مأوى فوق رؤوسكم، ولن تملكوا غطاءً تلفّون به أجسامكم».

طرفت عيناي وأنا أتساءل إذا كانت الأفاعي منتشرة في المنطقة.

وأشار أسامة إلى الحفر التي أخذت تظهر في الأرض، وقال «سينام كل منكم، وحده، في واحدة من هذه الحفر الترابية».

لم يحتجّ أحد، ولا حتى الأطفال بيننا. وقام كل منا بما طُلب منه، وأنزلنا أجسامنا على مهل في تلك الحفر الترابية، ونحن ننتظر انقضاء الليل الطويل. . . والطويل جداً.

تذكّروا أن بلداناً مثل السودان تتلظى بحرّ الشمس نهاراً، لكن ما إن تسقط الشمس من السماء حتى تصبح الصحراء باردة.

سمعت صوتاً خافتاً يشتكي من برد الليل، فنصح أسامة المشتكي: «غطّ نفسك بالتراب أو بالعشب». وتوقّف لبرهة، ثم نادى من حفرته، «ستصبحون أكثر دفئاً تحت كل ما توفّره الطبيعة».

لم أرتح إلى الفكرة، فمن يعرف ما هي الحشرات التي تستخدم الرمل منزلاً لها؟ إلا أنني ازددت في النهاية برداً إلى حد أنني غطّيت جسمي حتى خصري بالتراب والعشب. وبرغم معرفتي أن الطبيعة توفّر الدفء، كما قال أسامة تماماً، فإنني فضّلت سريري ولحافي في شقتي في الخرطوم.

ذكّرت نفسي، وأنا مستلقية في تلك الحفرة ومغطاة بالتراب محدّقة في السماء التي تنيرها النجوم من فوق، بأن زوجي يعرف أكثر من أيّ منّا بكثير عن العالم الكبير. فنحن جميعنا لآلئ بالنسبة إليه، وهو يريد أن يحمينا.

ومن يدري؟ فلربما جاء ذلك الزمن المخيف الذي سنجد فيه أنا وأولادي أنفسنا نهرب فيه من محاربين معادين بفضل الدروس التي تعلّمناها من أسامة. أولن يُفاجأ الجميع عندما نقفز أنا وإياهم أحياء لأننا عرفنا كيف نتحمل مناخ الصحراء القاسي بدون زادنا من الماء وبدون الاستفادة من وسائل الحياة العصرية؟

لم أشأ لأولادي الصغار مثل هذه المعاناة، فتلوت صلوات كثيرة إلى الله، طالبة منه ألا يمرّ علينا مثل هذا الأمر.



أصبح كبار أبنائنا شباناً خلال سنوات إقامتنا في الخرطوم. تميّزوا في الرياضات التي يستمتع بها الرجال، من كرة قدم وفنون قتالية أو هوايات مشابهة أخرى. وكانوا جميعاً سبّاحين ماهرين، وجدوا متعة فعلية في السباحة في نهر النيل. وهذا ليس بالأمر السهل، فالنيل قد يكون مجراه ضيّقاً، لكن مياهه خادعة ومليئة بالتيارات غير المُتوقّعة. ويقع النيل على مقربة من «قرية الرياض»، لذا غالباً ما كانوا يذهبون مع والدهم إلى هناك للسباحة، ويخرجون أحياناً أخرى إلى الصحراء للتسابق بسيارات والدهم. فجميع أبنائنا تعلّموا القيادة، وهم في الثامنة، على جاري العادة في السعودية. كما أنهم أصبحوا صيادين ماهرين، يسهل عليهم اصطياد الحيوانات بالأفخاخ، أو قتلها بطلقة واحدة.

أذكر مرة أقاموا فيها فخّاً لالتقاط صقر يُعرف بالشاهين. وأنا أعرف عن صقور الشاهين منذ كنت طفلة صغيرة، لأن العرب يفضّلون هذه الطيور الكاسرة على غيرها من الطيور. ويتم اصطيادها في الأفخاخ في الصحراء المكشوفة، ومن ثم تدريبها على الانقضاض على الأرانب، والإمساك بها هي وغيرها من المخلوقات الصغيرة. وقيل لي إنها تتميز كثيراً بطريقة التقاط طرائدها وتقديمها إلى أسيادها بدون أن تقضم منها أي قضمة، أو حتى إصابتها بخدش. ولا أعرف غير ذلك لأنني لست صيّادة.

خلال إقامتنا في السودان، تغيّر كل ما سبق أن تعوّدنا عليه، وبالأخص بالنسبة إلى الصِّبْية. أما نحن، نساء العائلة، فبقينا داخل منازلنا وركّزنا على نشاطاتنا النسائية على غرار ما فعلنا دائماً، وما سنفعل. واكتفت ابنتاي فاطمة وإيمان، وهما لا تزالان صغيرتين، بالهرولة في منزلنا الكبير، وهما تقلّدان والدتهما في عملها اليومي. ووفّرت كلتا الفتاتين الكثير من التسلية لمنزلنا، لكونهما في السن التي تقومان فيها بالكثير من الخدع الطفولية الظريفة. واستمدّ أسامة سعادة كبيرة منهما، وتركهما تدبّان على طول جسمه، بل حتى شدّه من لحيته. وتلك كانت أوقاتاً سعيدة جداً، ولحظات نادرة لم أشهدها منذ سنوات طويلة. وفكّرت، وأنا أشاهد زوجي وابنتينا، في أن كل شيء قد يسير على ما يرام لعائلة بن لادن في أفريقيا.

حلّت بنا أيضاً أوقات مُفزعة. فللمرة الأولى منذ زواجنا، بلغ المرض بأسامة حداً خشيت فيه على حياته. فقد التقط الملاريا بطريقة غامضة لم نعرف من أين، لأنه لم يداوم على استخدام الناموسية في المناطق التي يعرف أن البعوض يسكنها.

أصابني مرضه الفجائي بذعر كبير، لأن زوجي اشتهر بأنه الأفضل صحّة في العالم. وأنا، في الواقع، لا أذكر حتى ذلك الوقت، أنه اشتكى مرّة، ولو من ألم خفيف، أو حتى من وجع بسيط في الرأس أو الأسنان.

سافر في عمل، واشتكى بعد عودته من الحمّى والغثيان وآلام في المفاصل. واعتقدَ في اليومين الأول والثاني، أنه التقط أحد أعراض الإنفلونزا. لكنه اعتلّ كثيراً، وأخذ يرتجف من البرد مرّة، ويتعرّق حيناً من الحرارة. وسرعان ما وجد أسامة صعوبة في الوقوف، بل امتقع لونه إلى أصفر غير معهود. وبرغم ذلك رفض اللجوء إلى الطبيب حتى بعدما اصفرّ لونه. إلا أنه سرعان ما استنتج أنه تعرّض لـ «عقصة» بعوضة تحمل جرثومة الملاريا.

خفق قلبي بشدّة لهذا التشخيص، لمعرفتي كيف ينتهي كثير من ضحايا الملاريا. وقد بلغ، بعد عودته إلى المنزل، حداً من الحمّى والمرض لم يفكّر

معه في الاستمرار في حماية نفسه. وأعتقدُ أنه تعرّض للعقصِ من جديد. ونقلت تلك البعوضات المعدية المرض إلى أفراد آخرين في العائلة، ولم يسلم منها أبنائي الأربعة الكبار، عبد الله وعبد الرحمن وسعد وعمر، وأصيبوا بأعراض والدهم المخيفة ذاتها.

بدأ المساكين يشعرون بالدوار وضيق في التنفّس، مع آلام في المفاصل وأوجاع في الرأس. ولم يخفف أي شيء من انزعاجهم، حتى من الطعام والماء اللذين قدمتهما إليهم. وبلغ عبد الرحمن المسكين حدّ الخطر، فدفع المنظر البائس لوجه عبد الرحمن بأسامة إلى الاستنتاج أخيراً أن عليه طلب العلاج الطبي لنفسه ولأبنائنا الأربعة. وأيقظ، برغم وهنه، كل المرضى وعمل على نقلهم إلى العيادة المحلّية.

شاهدتهم يذهبون من المنزل، وأنا لا أنفكّ أدعو لهم بالشفاء، وزدت من وتيرة ابتهالاتي في الوقت الوجيز الذي غابوا فيه. والحمد لله أنهم عادوا جميعهم، واهنين لكن أحياء، بعدما تلقوا العلاج الخاص، بما في ذلك حقن الأمصال في عروقهم. وأبلغني أسامة أن الطبيب قال إنه لا ضمانة في تفادي الملاريا برغم استخدام الناموسيات الليلية. فأحياناً يلسع البعوض «ضحاياه» حتى قبل الغسق. وما من سبيل للسلامة التامة إلا إذا لفّ المرء جسمه بالناموسية طوال اليوم.

ربما هذا هو السبب في أننا نحن النساء أقل عرضة للّسع، لأننا لا نغادر منازلنا أبداً بدون أن نغطي أنفسنا بأزيائنا التقليدية من الرأس إلى أخمص القدمين.

وحلّ يوم طيّب في نهاية سنتنا الأولى في الخرطوم، لما سافر والدي إلى السودان في عطلة. كان وجههُ الطيّبُ المنظرَ الأجملَ الذي أستمتع به منذ أشهر كثيرة. بقيت في المنزل مع ابنتيّ، بينما واكب أسامة والدي إلى أكثر المواقع متعة في الخرطوم التي قيل لي إن مركز مدينتها حديث البنيان برغم البساطة الشديدة لضواحيها. والأكثر متعة من ذلك كلّه هو الساعات المريحة التي جلس فيها والدي معي، ونقاسمت وإياه الأخبار عن والدتي، وأخوتي، والأقرباء الآخرين المقيمين في سورية.

أملتُ أن يتمكن والدي من العودة، على الأقل مرّة واحدة في السنة، في عطلة مماثلة. لكنني في غضون فترة قصيرة على زيارته الخرطوم، تلقيت أكثر الاتصالات الهاتفية هولاً من إحدى قريباتي في سورية، هَمَسَتْ فيه بأن أبي طريح الفراش بسبب التهاب في الرئة. ونحن العرب نوصل الخبر السيّئ بوتيرة شديدة البطء حتى لا نصدم أحباءنا، استغرقت معها نسيبتي بعض الوقت للاعتراف بأن الالتهاب على درجة كبيرة من الخطورة. وقد كان في الواقع، سرطاناً في الرئة.

أحب والدي التدخين منذ شبابه. فانقلبت هذه السجائر في النهاية عليه. وعجز عن مقاومة المرض الخبيث، وعلاجه، وسرعان ما فقد القدرة على أن يعيش حياة طبيعية. وقد عانى ألماً طَرَحَهُ في الفراش.

ارتعتُ لمّا علمت بأنه لم يتمكن من كبح رغبته في التدخين حتى بعدما تم تشخيص سرطان الرئة. وقيل لي إنه فقد الكثير من وزنه، وبات جلداً وعظماً، ويعاني الألم الشديد ويكابر فوق قدرته حتى لا يصرخ. وبرغم ذلك، ها هو مريض في حالة الخطر، مضطجع في سريره والسيجارة تتدلّى من شفتيه. وتمسّك بهذه العادة حتى لحظة مماته، وحشر السيجارة بعناد بين أسنانه إلى أن استدعاه الله.

لم أقدر على السفر من السودان إلى سورية، فمات والدي الحبيب بدون أن تكون ابنته نجوى قربه. وهذا جرح كبير في قلبي لأن كل فتاة تشعر بالقرب من الأب الذي يهتم بها. كنت عاجزة، وبعيدة جداً في أفريقيا. ولم يمكنني سوى أن أصلّي إلى الله ليرحم أبي ويجعل الجنة مثواه.

لم أمحُ الحزن أبداً من قلبي، برغم إدراكي أن الله يعرف ما هو الأفضل لنا جميعاً، ولطالما ذكّرني أسامة بأن الله يقرر كل الأمور، وأن علينا أن نرضى بما يقرره الله، أياً يكن.

راودني أيضاً الحدس الذي عانيته لدى زيارتي الأخيرة سورية عندما لم تكن عائلتي قد غادرت السعودية بعد. وتذكّرت التوجس المظلم الذي أحاط بي،

والمشاعر القوية بأن شيئاً رهيباً سيحصل لأحد ما. وأنا أتساءل الآن إذا كان الله هو الذي حذّرني مسبقاً من موت والدي.

جاءنا ضيوف آخرون من العائلة، فزارنا بعض أخوة أسامة مع زوجاتهم، وكانت تلك مناسبة سعيدة لنا جميعاً. حتى أن عمّتي عليا سافرت مع زوجها محمد العطاس إلى الخرطوم في زيارتين رائعتين. وكان أسامة في مزاج منشرح، وأمه على مرأى منه. أحب كثيراً أن يُريها المدينة التي أصبحت الآن موطننا، وأن يعرّفها إلى مزارعه لتنظر بأم عينها ماذا ينتج ابنها للسودان وللعالم. وبرغم أن عليا أرادت، على غراري، زوال جميع المشاكل، بحيث يتمكن ابنها وزوجاته وأولادهم من العودة إلى السعودية، فهي لم تشتكِ لي أو لأسامة لأنها عرفت أنها لا تملك وسيلة لتغيير الوضع.

لم تحصل حالات حمل كثيرة بين نساء زوجي في خلال السنوات الأربع التي عشناها في الخرطوم. حدثت ثلاث حالات فقط، وحلّت سهام، زوجة أسامة الرابعة، الأولى، وقد أنجبت ولدها الرابع وابنتها الثالثة سميّة. ثم حملت زوجة أسامة الثانية، خديجة، بُعَيْدَ وصولنا إلى السودان، وأنجبت ابنتها الأولى عائشة، وهي آخر طفل لها مع زوجي.

وأصيبت العائلة بصدمة. فلم يمضِ وقت طويل على انضمام عائشة إلى عائلتنا المتزايدة، حتى اختارت خديجة العودة إلى السعودية، ووافق زوجي على مخططها. وقد تكهّن كثير من الناس بطلاقهما، إلا أنه توجد أسرار خاصة في كل عائلة، وهي أسرار لن أجلب العار إلى نفسي وإلى عائلتي أبداً بالكشف عنها. وسأكتفي بقول ما هو معروف بالفعل، بأن خديجة عادت إلى السعودية مع أولادها الثلاثة، وهي لا تزال تقيم هناك حتى اليوم. وقد افتقدناها كثيراً، وأنا متيقّنة من أن أبنائي يشتاقون إلى علي وعامر، لأن الصبية كانوا رفاق لعب منذ نعومة أظفارهم. وغاب أولاد خديجة كلّياً عن حياتنا ما عدا علياً الذي عاد إلى زيارة الخرطوم، وهو في الحادية عشرة من العمر.

وبرحيل خديجة، أصبحنا فجأة ثلاث زوجات وثلاثة عشر ولداً.

ومن حسن الحظ أنني حملت في مطلع سنة ١٩٩٣ بطفلي السابع. وطلب مني أسامة السفر لأكون مع أمه عليا في جدة للولادة في المستشفى الذي يستخدم طبيبات ماهرات. وأنا كلّما أُعطيتُ الفرصة، أختار طبيبة أنثى بسبب خجلي.

علمت، قبل وقت قليل على الموعد المقدّر للولادة، بأن أسامة لن يتمكن من السفر معي إلى السعودية. لم أُفاجَأ، برغم خيبتي، لأنني أعرف أن مشاكل سابقة أبقت زوجي خارج المملكة. وكان من الضروري إذاً لأسامة أن يختار ابننا البكر عبد الله وصيّاً عليّ، وهو سيصبح في السابعة عشرة خلال السنة، ويتعاطى مع الأمور بنظرة مسؤولة.

قد تعرفون، وقد لا تعرفون، أنه يُمنع على المرأة المسلمة السفر وحدها. ولا يمكن لرفيق السفر أن يكون أي شخص بل يجب أن يكون وصيّاً مناسباً، يُدعى المَحْرَم، ولا يمكنه إلا أن يكون ذكراً من العائلة ممن تحرّم القوانين الدينية على المرأة الزواج به. ويتضمن محرم الدم جدّ المرأة، ووالدها، وشقيقها، وزوجها، وابنها، وحفيدها أو ابن اختها أو أخيها؛ وثمة محارم الأحماء مثل الحمي، والصهر، وزوج الوالدة، أو ابن الزوج. وتوجد أيضاً مجموعة أخيرة من الرجال يمكن لأحدهم أن يصبح محرماً لها. فإذا عملت أي سيدة كمرضعة، تصبح والدة الطفل بالرضاع. وينطبق محرم الدم على هذه المجموعة من الناس المرتبطة بالمُرضعة، بمن في ذلك زوجها، ووالدها، وأشقاؤها، وأبناؤها، وأعمامها.

سُررت بالعودة إلى جدّة، لكن فكرة ترك عائلتي في الخرطوم روّعتني. عشت أوقاتاً فرحة كثيرة في جدة برغم مسحة الحزن تلك. فقد ابتهجت لرؤية تلك المدينة الجميلة من جديد. وزارتني صديقات لم أرهن منذ زمن بعيد. وامتلكت عليا وأولادها، كالعادة، أحن القلوب، وكانوا يهتمون بكل شيء أحتاج إليه، بل كانت صديقاتي وعائلتي تتنزّه معي بعد ظهر كل يوم في حديقة العائلة، وهو أمر يتحاشاه كثير من السعوديين بسبب الحر الشديد الذي تولّده شمس الصحراء.

قرر أسامة، قبل مغادرتي الخرطوم إلى جدة، أن أسمي طفلنا لادن إذا كان صبياً. وما إن أصبحت في وضع يسمح لي بالسفر، حتى أوصلني ابني البكر عبد الله وشقيقه الطفل، لادن، بسلام عائدين إلى الخرطوم.

أحب الجميع لادن لأنه على قدر كبير من الجمال ويتميز بحركاته الظريفة. وبعد عودتنا إلى الخرطوم، بدّل زوجي، لسبب ما، رأيه وقرر أن لادن يجب أن يُدعى بكر. وبرغم أن بكر هو الاسم الرسمي الذي يظهر في كل وثائقه، فإن اسم لادن بقي عالقاً ومتداولاً لدى الأولاد ولديّ. وبالطبع، خلق مثل هذا الوضع إرباكاً لصبينا الصغير، لكنني قلت له إنه مميّز كثيراً، إلى درجة أنه عليه أن يحمل اسمين، ويبدو أن هذا أرضاه.

ثم عرفت أن امرأة إضافية ستنضم إلى عائلة نساء زوجي أسامة. فبعد سنة أو ما يقاربها على طلاق خديجة، اتخذ زوجي لنفسه امرأة أخرى. لكن هذا الزواج انتهى سريعاً بسبب سرّ ما. ولكونه الزواج على الورق فقط (أي أنه لم يتم فعلياً)، فإنها لم تنضم إلى مجموعتنا العائلية المقرّبة. وبقيت بالتالي، خليتنا العائلية لفترة، على ما هي عليه، مع ثلاث زوجات وأولادهن الثلاثة عشر.

الحياة تتغير وتتبدّل، ومثل هذه الأمور خارجة عن إرادتي. إلا أنني كنت في سلام، لأنني، كمؤمنة، أترك كل شيء لله.



من كان يعرف أن السعادة التي سعيت إليها، ستكون في انتظاري في السودان الأفريقي؟ كنت ولداً في العاشرة، وعلى وشك الدخول في عامي الحادي عشر، عندما لامست قدماي أرض الخرطوم المغبّرة. استقبلنا والدي في المطار مع حاشية هائلة، وهو أمر ليس بالغريب. لاحظت أن كثيراً من الرجال المرافقين له هم من الجنود المجاهدين من أيام أفغانستان، بينما كان الآخرون من الأتباع المتحمسين لمعتقداته، ويكنّون جميعهم الإجلال له.

ومن حسن حظنا، نحن أبناءه، أن إجلالهم هذا قد انطبق علينا. فهو الأمير، أو هكذا وصفوه. وفي الواقع، تدرك قلّة من الناس من خارج عالمنا، الدرجة العالية من المحبة التي تكنها الشعوب العربية لوالدي. وبرغم أنه اضطر إلى مغادرة السعودية، فإن نفيه حصل بسبب خلافاته مع العائلة المالكة، وليس مع المواطنين السعوديين العاديين.

أقمنا في ضاحية تدعى الرياض. وكان منزلنا الخاص بناءً عاجيّ اللون يربض خلف سور من اللون ذاته، والسياجات المؤلفة من حجارة الإسمنت، هي من النوع ذاته الذي خلّفناه في السعودية. وتوجد بوابة معدنية كبرى عاجية اللون هرع بضعة من رجال والدي إلى فتحها لتتمكن عائلتنا الكبيرة من دخول الفناء.

تبادلت بضع نظرات مع أشقائي، وعرفت أننا قد تقاذفتنا موجة التفكير

ذاتها. فنحن ننظر إلى سجن أمي الجديد، لأنها عاشت في الأساس في الخِدْر، وهي حالة من شبه العزلة التامة التي لا تقيم الإناث فيها علاقات اجتماعية سوى مع أفراد العائلة، ويندر أن يغادرن مكان إقامتهن الخاص. ولم يُسمح لأمي، طوال حياتها الزوجية، بمغادرة منزلها إلا عندما نسافر لزيارة أنسباء، أو ننتقل إلى منزل آخر للعائلة، مثل مزرعتنا في ضواحي جدّة. واعتقدتُ أن المنزل الكبير سيكون سجناً لي أيضاً، إذ لا يتمتع أولاد أسامة بن لادن إلا بالقليل جداً من الحريات، برغم أننا، بالمقارنة مع نساء المنزل، أحرار كالعصافير.

أمعنت النظر في المظهر الخارجي لمسكننا، وأدركت أن عائلة أسامة بن لادن آخذة في السقوط في العالم. فمنزلنا الجديد هو قطعاً أصغر، وأكثر تواضعاً من القصور الرحبة التي خلّفناها في السعودية، إلا أنه برغم ذلك أكبر من أي منزل شاهدته في الرحلة من المطار. كان مؤلفاً من ثلاث طبقات منفصلة، وأمِلتُ بالتالي أن يكون على ما يكفي من الاتساع لأربع زوجات وعدد كبير من الأولاد.

سار والدي في الأمام. وتبعنا، أنا وأشقائي الأكبر مني، خطاه بهدوء، لأننا نعرف أنه لا يحتمل الأولاد الذين يفشلون في التصرف كراشدين. حتى أن أصغر الأبناء ساروا بصمت. وتبعتنا أمنا المحجّبة وخالاتنا، لأن النساء، في عاداتنا، يسرن خلف الرجال.

سار والدي، إثر دخولنا الفناء، عبر الباب المزدوج المطلي باللون البني الباهت. وقد سبق طبعاً اتخاذ كلّ قرار متعلق بمكان إقامة كل واحد منّا. وقيل لنا إن الغرفة اليمنى مخصصة لضيوف العائلة، إن جاءنا أقرباء للزيارة، وإلى اليسار شقة الخالة خيرية، والدة حمزة الذي هو في أول مشيه. وقد حصلتْ على الشقة الأصغر، لأن لها ولداً واحداً فقط. لكنها، برغم ذلك، شقة فسيحة مع غرفة للجلوس وأخريين للنوم، وحمام ومطبخ. وخُصّص ما بقي من مكان في ذلك الطابق مكتباً خاصاً بوالدي.

قادتنا أدراج رخامية إلى الطابق الثاني. وحصلت كلّ من الخالة خديجة

والخالة سهام على شقة ذات حجم كبير جداً في الطابق الثاني، وهو الطابق الأوسط.

بتسلُّقنا إلى الطابق التالي، وهو الثالث والأعلى، والمكان المفضّل دوماً لوالدتي في أي منزل، بلغنا جناح إقامة عائلتنا. وجدنا فيه أربع غرف للنوم، وواحدة للمعيشة، وحمامات، ومطبخاً ثالثاً ودرجاً يقود إلى السطح. وتُبنى المنازل السودانية، على غرار البيوت في السعودية، بأسقف مسطّحة، وهي مساحة تُستخدم بمثابة غرفة جلوس مكشوفة.

المنزل مخيّب بعض الشيء بالنسبة إلى أذواقنا، لكن لا يسعنا سوى الاستقرار والأمل بالأفضل. ولا شك في أننا صبية عفاريت، ففي اللحظة التي أقفل فيها والدانا الباب المؤدي إلى جناحهما الخاص، اندفعنا في التحرّك وأخذنا نستكشف بشوق مختلف الغرف، ونتشاجر بمرح حول ترتيبات النوم، برغم أننا حرصنا على إبقاء أصواتنا خفيضة حتى لا نثير غضب والدنا الأسطوري.

فُرش البيت بغير تزويق، وهذا ليس بمفاجئ. فلطالما ازدرى والدي، متى تعلّق الأمر بعائلته، بكلّ ما هو مُفصّل، وهو يعلن تكراراً أنه لا يجب أن نُرفّه أنفسنا، وهو ما لم يحصل. افترشت سجادات فارسية رخيصة الأرض، وغطت الستائر العاجية اللَون النوافذ، ووُضعت وسائد زرقاء بشكل أرائك على طول الجدران، بالطريقة الشائعة في الكثير من البيوت العربية. غابت التزويقات. فلا وجود حتى لصورة واحدة معلقة على جدار، بالرغم من أننا لاحظنا دلائل على أعمال والدنا المسمّرة على جدران مكتبه في الطابق الأسفل. حاولنا فهم ماهية بعض الخرائط ومخططات الطرق والمصانع التي يقوم ببنائها، لكن هيهات لنا ذلك. وكالعادة، تكدّست مئات الكتب في مكتبه باللغتين الإنكليزية والعربية تتعلق بالدين والشؤون العسكرية. فأبي يتحدث الإنكليزية بطلاقة ويكتبها بحرفية ومهارة كبيرتين، لأن والده قرر تلقين أولاده تعليماً عالياً.

اكتشفنا، عندما أوينا أخيراً إلى النوم، أن المجال لا يكفي لنا جميعاً

بالحصول على الأسرّة التقليدية، فنمنا على فرشات ملأت أرضية غرفة النوم من الجدار إلى الجدار. واضطررنا في الصباح إلى لفها وتوضيبها لنتمكن من التجوال في الغرفة.

كانت الحديقة الخارجية المرتبطة بالمنزل مرتَّبة بعناية، فيها الكثير من المجال للعب مجموعة من الصبية. وعلى عكس السعودية التي لا يتوفّر فيها الكثير من نباتات الحدائق، ازدانت ببعض الأشجار، والعليقات الكثيفة، وأحواض من الأزهار تنتشر عند أطرافها. كل شيء على الأرض المحسوسة في «قرية الرياض»، كان على ذوقنا، بما في ذلك بقعة فارغة واسعة على مسافة قريبة من منزلنا، أمِلْنا استخدامها ملعباً، فالأمور، على ما يبدو، آخذة في التحسّن.

لكن القلق راح ينهش ذهني برغم هذه الإشارات الإيجابية. ما هو مصير الجياد التي خلّفناها؟ متى تصل جيادنا الشُّمُس إلى الخرطوم؟ هل يشتري والدنا خيولاً إضافية في السودان؟ هل سأحصل على أصدقاء في هذه البيئة الجديدة التي وفدنا إليها؟ هل سيُطلب إليّ ارتياد مدرسة رسمية؟

شكّلت المدرسة همّي الأساسي. ماذا لو تدهورت تجربتي الدراسية السودانية إلى أمر أكثر بشاعة حتى مما تحمّلته في السعودية؟ وقد صلّيت كي ينشغل والدنا كثيراً في أعماله فلا يجد لنا مدرسة.

تلقّينا، أنا وأشقائي، في غضون بضعة أيام من أحد سائقي أبينا، الخبر الذي شغل بالنا وأرّقنا منذ لحظة وصولنا إلى السودان: تم تسجيلنا في المدرسة بالفعل. إلا أن معنوياتنا ارتفعت عندما عرفنا أننا سنرتاد أفضل مدرسة خاصة في جميع البلاد، تُسمَّى «مدرسة المجلس الأفريقي للتعليم الخاص».

لاحظت، لما ارتدينا أزياءنا الدراسية، أنها من طراز البزات التي يرتديها الجيش السوداني نفسه. وقيل لي لاحقاً إن الحكومة السودانية تعتمد سياسة تدريب الفتيان ليصبحوا جنوداً.

طرنا فرحاً حين علمنا بأن باص المدرسة سيقلنا من أمام المجمّع.

والمحظوظون الستة في ارتياد المدرسة هم أنا وأشقائي من أمي وأبي: عبد الله وعبد الرحمن وسعد وعثمان ومحمد الأصغر سناً الذي تسجّل وهو في السابعة. وتسجّل في المدرسة ذاتها أيضاً علي ابن الثامنة، وهو أخي غير الشقيق والمولود البكر للخالة خديجة.

شعرنا في يومنا الدراسي الأول بالقلق، مصحوباً بالإثارة. هرعنا بعد الصلاة إلى المنزل لخلع أثوابنا وارتداء بزاتنا. وما إن وضعنا ثيابنا كما يجب، حتى انطلقنا مسرعين إلى موقف الباص الذي طُلب منّا انتظاره. ظهر باص طويل أبيض في السادسة والنصف تماماً. فالمدارس في المناخات الحارة تبدأ باكراً وتنتهي كذلك أيضاً، وساعات الدراسة فيها من السابعة صباحاً إلى الواحدة بعد الظهر. اندفعنا صاعدين لنحصل على أكبر صدمة في حياتنا: توجد فتيات على متنه!!

اعتقدنا، أنا وأشقائي، أنه لا بد من أننا صعدنا إلى الباص الخطأ. ورأينا فوراً أنه يوجد صِبْية أيضاً، وجميعهم يرتدون أزياء مطابقة لتلك التي نرتديها. لم نعرف ماذا نفعل سوى التقدّم ونحن نتعثّر، وقد لاحظنا أن البنات والصبيان لا يجلسون معاً.

ما كان مثل هذا الأمر ليُسمح به أبداً في السعودية، حيث يتم في كل مرافق الحياة العامة، الفصل بين الجنسين، بما في ذلك الزيجات، والحفلات، والجلوس في المطعم، والمدارس. ففي السعودية، لكل من البنات والصبيان، مدارسهم الخاصة، ولا يسمح بالاختلاط أبداً. وإذا طلبت الفتاة مقرراً لا يُدرّسه إلا رجل، فلن يُسمح لها بأخذه إلا عبر الأقمار الصناعية أو شريط فيديو مسجل سابقاً. وأُخبرت عن طالبات شديدات المحافظة، يرتدين حُجُبهن حتى وهن يشاهدن أستاذاً على الشريط المسجل.

يعتقد كثير من المسلمين أنه إذا وُجد ذكر وأنثى، من غير ذوي القربى، في غرفة واحدة، فثمة في الواقع ثلاثة مخلوقات في المكان، لكون الثالث هو الشيطان ذاته. وما من شيء مفيد يمكن أن ينتج عن مثل هذا الاختلاط، أو هكذا يتم تعليمنا نحن السعوديين.

وفي السودان، على الطالبات الجلوس في الجانب الأيسر من الباص، والصبيان في الجانب الأيمن. سارعنا أنا وأشقائي إلى إيجاد مقاعد، ولم نتحدّث سوى بالقليل ونحن نمرّر أنظارنا في شتى أنحاء الباص. وأعترف بأنني ألقيت نظري أكثر من مرة على قسم البنات، لكنني لاحظت أن معظمهن حرصن على النأي بأنظارهن بعفّة عن الصبيان. وقد ترفع بين الحين والآخر فتاة جريئة عينيها ويفتر ثغرها عن ابتسامة خجولة، إلا أنهن في الغالب يتحدّثن ويتضاحكن معاً. ولم أجد الشجاعة لمحاولة الشروع في حديث. وسرعان ما أدركت أن للسائق عينين خلف رأسه، لأنه يسارع إلى توبيخ أي تلميذ يتحدث مع الجنس الآخر. وراودت صورة والدي الصارمة مخيلتي في زيارة طارئة وسريعة. واعتقدت أنه سيسحبنا بدون رعاية من المدرسة ما إن يكتشف أن أبناءه سيكونون في جوار مباشر مع بنات من غير عائلتنا.

فهل يكون يومنا الأول هو الأخير؟

قطّب والدي وجهه في شأن التعليم الرسمي للبنات. لم يسمح لبناته بارتياد المدرسة، بل تم بدلاً من ذلك تعليمهن بعض الأسس في المنزل على يدي الخالة خيرية، وهي امرأة متعلّمة.

تساءلت إذا كنا سنتشارك صفوفنا مع الجنس الآخر، فقد أيقنت أنه، في هذه الحال، يصبح خروجنا من المدرسة في حكم المنتهي. ومن حسن الحظ أنها لم تكن كذلك، برغم أننا التقطنا بعض النظرات العابرة للفتيات وهن يبدلّن صفوفهن. والأمور كانت أقل تشدداً في الملعب، تشجعت معها بعض الفتيات على الانسلال من المنطقة المخصصة لهن والمغامرة في دخول منطقتنا. والمفاجئ أن أياً من الأساتذة لم يرسلهن عائدات إلى حيث يجدر بهن أن يكنّ. لكن إذا حاول أي من الصبية التوغل إلى ملعب الفتيات، فإنه يتعرّض للتوبيخ ولإعادته إلى منطقتنا من الملعب. كان عالمنا الجديد غريباً بالفعل.

أراحنا كثيراً أن الطلاب والأساتذة ودودون ولبقون. كان نظام مدرستنا السودانية بسيطاً، لكنه ممتع. فيُقدّم الفطور إلى جميع التلامذة عند وصولهم،

بسبب مجيئهم في ساعة مبكرة. وبعد وجبتنا البسيطة المؤلفة من البيض المسلوق، والجبن، والخبز العربي، نشارك مرّة أخرى في الصلاة، لأن النظام في السودان إسلامي ويتبع أصوله النظام التعليمي المقرّر للمدارس، التي تزوّد صفوفها الدراسية بمدرسين حازمين، وناعمي الكلام، ولطفاء. فما من معلّم يسخر لعدم حصولنا على علامات جيدة، حتى لو استحققنا عقابه. ولم يهددني أي معلّم، لا أنا ولا إخوتي، بالعصا. ولم يشجع أي مدرّس الصبية الآخرين على مكايدتنا.

يُعطى الطلاب بُعَيْدَ التاسعة من صباح كل يوم استراحة قصيرة، نكون فيها أحراراً في الالتقاء بصبية آخرين، أو شراء وجبة خفيفة من استراحة المدرسة. وبما أن والدنا يحظر المشروبات الغازية الأميركية، أخذنا نحرص، أنا وأشقائي، على شراء عبوة من البيبسي المبرّدة، وكيس من المقرمشات أو رقائق البطاطا.

كانت مدرستنا واحدة من أغلى المدارس الخاصة في المدينة، لذا، فإن معظم طلابها يتحدرون من عائلات ثريّة. لكن وُجدت حالات لآخرين، أسَرهم من طبقة أصحاب المهن، وحالات قليلة من الفئات العاملة الأكثر فقراً. فالسودانيون يحرصون على بذل أقصى الجهود لتوفير التعليم الجيد لأولادهم، ولو عنى ذلك أخذ كل قرش مما وفروه من طريق ميزانيات عائلاتهم الصغيرة. ويعني هذا وجود تشكيلة متنوعة من الصِّبْية في مدرستنا، فكانت تجربة أكثر مثاراً للاهتمام، على الأقل بالنسبة إليّ.

نمارس الرياضة والألعاب قبل نهاية النهار. وقد استمتعنا، أنا وأشقائي، معظم الأحيان باللعب مع التلاميذ السودانيين الذين كانوا ودودين. لكن ثمة مباراة في ملعب المدرسة لن أنساها أبداً، لأنها تتطلب عنفاً لم يظهر في الأنشطة الأخرى.

يتم اختيار فريقين من الصبية. وثمة منطقة آمنة محدّدة، ويصطف فيها كل من الفريقين على مسافة منها، وهدف مختلف اللاعبين بلوغها سابقين أعضاء

الفريق الآخر. وإذا شاء سوء حظ أحدهم أن يقبض عليه، فسيتلقى الضرب الجسدي. وهذا الضرب ليس هراء وعبثاً مدرسيين، بل إن الضربات الجسدية تكون متعمَّدة على نحو مؤلم. فالذين لا تتمتع أرجلهم بالرشاقة يخرجون بعيون سوداء، وأنوف مطعوجة، وشفاه متورمة جداً.

وأنا، منذ الأيام التي كان هدفي فيها هو سبق والدي ذي السيقان الطويلة في لعبة القبعة، كما في الأوقات التي طاردني فيها التلامذة في السعودية، تعلّمت أن أطير كالريح. وعلمت، وأنا أدرس وحشية هذه اللعبة الجديدة والمسافة التي عليّ أن أقطعها سريعاً لبلوغ الأمان، بأنه عليّ أن أركض بأسرع مما سبق لي أن ركضت من قبل. ولما حان دوري، أمكنني أن أتأهّل بسهولة إلى الألعاب الأولمبية. فقد طارت رجلاي عملياً فوق الملعب وسبقتهم جميعاً.

وغالباً ما سألت هؤلاء الصِّبْية عن سبب مشاركتهم في مثل هذه اللعبة العنيفة، وكانت أجوبتهم الوحيدة ابتسامات بشوشة عريضة وحديثاً مُقنعاً عن أن اللعبة متجذّرة في ثقافتهم. إذ يعتقد السودانيون أن الصبية لا يجب أن يتعلّموا وحسب، بل عليهم أيضاً أن يتمتعوا بالقوة والصلابة، وما من شيء يشدّ الجسم مثل علقة جيّدة. ومن الواضح أن الراشدين يشاركون الصبية في آرائهم، لأن المدرّسين يراقبون بدون أن يتدخّلوا حتى عندما يتعرّض صبي للضرب الدامي. ولم يأت أي من الأهل إلى المدرسة للشكوى في شأن أولادهم الجرحى. ولما سمعت، بعد سنوات من ذلك، عن الحروب السودانية الوحشية والقتال بين مختلف القبائل، أدركت أن الصبية السودانيين يحتاجون حقّاً إلى أن يتعلّموا قوّة الاحتمال الجسدية. ففي الحياة الواقعية، فرق المقاتلون الراشدون السودانيون الذكور بعضهم البعض بضراوة الأسود الجائعة.

كنّا، بعد هذا النشاط المنهك، نصعد جميعنا إلى الباص في الواحدة من بعد الظهر، في رحلة العودة الممتعة إلى «قرية الرياض». ويحافظ الصبية أنفسهم الذين ضربوا بعضهم البعض ضرباً مبرحاً في الملعب، على مسلك ممتاز. وقد ذُهلت، لأنه لا يتم في عالمي العربي التغاضي عن مثل هذا الضرب

الذي من شأنه أن يؤدي إلى سنوات من الانتقامات العنيفة بين عائلات بأكملها، بل حتى بين القبائل مجتمعة. وقد اندلعت، في أرض مولدي، حروب قبلية وحشية لأقل من سبب كهذا.

ساحر هو البلد الجديد الذي بتّ أدعوه الآن موطني. فقد استمتعت بالتحديق من الباص إلى مشاهد الشوارع الصاخبة، حيث يبدو السودانيون بلباسهم الملوّن كأنهم يحتفلون. فلا يختلط الرجال والنساء وحسب، بل إن مثل هذه التجمعات العامة الصاخبة، ليست معروفة حتى بين الرجال في السعودية. ففي البلد الذي وُلدتُ فيه، تختبئ أمور الحياة كلها وراء خصوصية الأسوار العالية.

خضعنا، نحن الصّبية الكبار، لدروس خصوصية في المنزل، إضافة إلى ما نتعلمه في المدرسة. فقد استخدم والدنا ثلاثة مدرّسين لتعليم أبنائه، وكل منهم مؤهّل كثيراً في مواضيع، مثل الشؤون الدولية، والحساب، والجغرافيا، والتاريخ، والعربية. وكان واحد من هؤلاء الثلاثة مغربيّاً، ومجال اختصاصه هو التثقيف الديني. والرجال الثلاثة جميعهم صبورون ولطفاء، ونحن الصبية احترمناهم كثيراً.

أعطيت الدروس في منزل الضيوف، وهو إحدى فيلات والدي الكثيرة، ومخصص لإيواء زواره الكثيرين من العالم الإسلامي ومن أوروبا. ويرتفع إلى ثلاث طبقات فسيحة، مع اثنتين وعشرين غرفة كبيرة ومساحة أكبر من منزلنا العائلي. وقد طُلي المنزل باللون الزهري الفاتح وله بوابة مميزة لمّاعة سوداء.

توجد في داخل منزل الضيوف غرفة خاصة كُرّست للتعليم، حيث أخذنا، أنا وأشقائي، نمضي فيها ثلاث ساعات بعد ظهر كل يوم. لم أحفظ الكثير مما قرأته، وأنا المتعب من كثرة الدراسة، وأخذت أحلم بالحرية في مراقبة غروب الشمس، أو في لعب كرة القدم.

امتلك والدي، إضافة إلى بيتنا الخاص وبيت الضيوف، منزلين في منطقة «قرية الرياض»، كانا قريبين من مقرنا العائلي. وكانت هاتان الفيلتان كبيرتين

أيضاً، وخُصّصتا لإقامة بعض من موظفي والدي الكثيرين، وبخاصة الإداريين منهم والسائقين أو الحراس الأمنيين، ومعظمهم من قدامى مجاهدي الحرب الروسية - الأفغانية. لم يوظّف أبي قدامى الحرب أنفسهم الذين عاشوا في مزرعتنا في جدة، بل جاء بغيرهم. ومن لم يُقِم منهم في منطقتنا، انتشر في منازل أخرى في مختلف أنحاء البلاد.

نادراً ما التقينا جنود والدنا في ما عدا القلة من الرجال الذين عملوا في مزرعتنا خارج جدة. ثم إنني كنت في سنوات وجودي في السعودية، أصغر بكثير من أن أستوعب تماماً كل ما شاهدته. وأخذت أدرك فجأة المزيد عن عالم والدي، بأعماله الواسعة واهتماماته السياسية، والأناس الوافدين من بلدان كثيرة لمبايعته. وأعتقد أن والدي شرع في السودان يفكّر في أبنائه بوصفهم شركاءه المستقبليين المحتملين، وقد دُعينا، هناك أيضاً، إلى إلقاء نظرة على عالمه السياسي المعقد وأعماله التجارية.

وبعدما قضينا المزيد من الوقت مع والدي في مكاتبه، أخذنا نلتقي المجاهدين، وبدأنا نعرف رويداً رويداً عن تاريخ حياتهم. وعندها، اكتشفنا أن قلة من هؤلاء الجنود السابقين سُمح لهم بالعودة إلى بلدانهم.

ولكل جندي منهم قصة تستأثر بالاهتمام.

ففي الوقت الذي احتدمت فيه الحرب الأفغانية - الروسية، ساندت حكومات في المنطقة والدي بإرسال مجموعات من الشبان للقتال على الجبهة. امتلأ الجنود الفتيان بالمُثل العليا، وقد توفّر لهم كلُّ سبب للاعتقاد أنهم سيُكافَأون لتخلّيهم عن الدراسة، وحياتهم المهنية، وزيجاتهم المحتملة، ليلبوا جميعهم النداء إلى الجهاد المسلّح من أجل مساندة أخوانهم المسلمين عند الضّيق. وقد أُمطرت عليهم، خلال سنواتهم في القتال، الأحاديث عن المجد. لكن، بعدما انتصروا في حرب قال الجميع إنه يستحيل الفوز بها، نبذتهم حكوماتهم. لم يتم تجديد جوازات سفر بعض الجنود، في حين أُبعد الآخرون عن الحدود وهم يحاولون العودة إلى الديار.

بدا أن زعماء بلدانهم قد أخافهم أن المجاهدين اكتسبوا الكثير من المعرفة لفنون المقاومة والحرب، وربما إذا عادوا سيشكلون خطراً على أنظمتهم القمعية.

وسرعان ما اكتشف هؤلاء المقاتلون الشجعان أنهم رجال لا بلد لهم. فلجأوا إلى والدي بسبب حاجتهم اليائسة إلى العمل. حصلوا جميعهم على عمل، برغم أن حياته كانت في حالة اضطراب، إلى درجة أنه اضطر إلى الهرب من بلاده. وحازوا جميعهم مرتبات جيدة وأمكنة للإقامة. وأبلغَنا الكثيرون منهم أن والدنا هو الوحيد الذي لم ينسَ أمرهم، ولم ينكث مطلقاً بأي وعد.

أصبح كثير من الجنود الشديدي المراس حراساً أمنيين لوالدي يحمونه هو وعائلته. وبدا أولئك الجنود ذوو البنية الضخمة كأن في وسعهم قتل والدي الهزيل بأيديهم المجرّدة، وهم برغم ذلك يعاملونه بمهابة واحترام. يقفون خلفه بتواضع، ولا يتكلمون أبداً إلا إذا تكلّم. وبالرغم من أن أبي لم يطلب إجلالهم له، فقد أحبوه من كل قلوبهم إلى حد العبادة، ولم يعرفوا كيف يرضونه.

واستفدنا، بوصفنا أبناء أسامة بن لادن، من هذه الهالة من الإجلال، لأن كل رجل منهم على استعداد لبذل نفسه لحماية عائلتنا.

أخذنا، في البداية، حَذَرنا من أولئك الحراس، لأن إخلاصهم لوالدي جعلنا نعتقد أن في رؤوسهم أعيناً له. كنّا أصغر من أن ندرك أننا نحتاج إلى الحماية، وأن هناك أناساً في العالم يريدون الموت له، ولا بأس إذا قُتلنا في العملية. اعتقدنا أن جميع من في العالم - ما عدا أولئك الأساتذة في السعودية - يبجّلون والدنا، لأن معظم من التقيناهم أحبوه إلى حد العبادة. وسمعنا مراراً وتكراراً أن «والدكم أمير».

سهّل علينا العيشُ في حيّ مكتظ، عمليةَ التملّص من الحراس بالرغم من أن لأبي عدداً كبيراً من الرجال الذين يحرسون أبناءه. فالحركة حول منزلنا نشطة

في العادة، لذا تعلّمنا على مهل أساليب للاندماج في الحشد، أو التسلل خارجين عندما ينشغل الحرّاس في أمر ما.

اكتسبنا المزيد من الحرّية مع الوقت. فالقيود السودانية التي سبق أن خشيناها كثيراً، أخذت في التفلّت ببطء. فهل أخذ والدنا يثق أخيراً بنا؟ أم أنه انشغل كثيراً في مشاريعه المختلفة إلى درجة أننا تهنا عن ذهنه؟ لم أعرف أبداً الجواب عن ذلك السؤال.

الأكيد أنه انغمس في الكثير من الأعمال ذات المصالح خلال تلك السنوات في السودان. وقد ذُهلنا مرّة لقوله، «أصبحت السودان موطننا الآن. وسأعيش حياتي في هذه الأرض». وأذكر مدى الغرابة التي شعرت بها وأنا أسمع هذه الكلمات، متسائلاً كيف يمكنه أن يتحمّل الانفصال الدائم عن الأرض التي وُلد فيها.

لكن والدي، وقد تعلّقت ولاءاته الآن بالسودان، أصبح مفتوناً بهدف الارتقاء بهذا البلد الفقير إلى المعايير الحديثة. فهو قد شهد، منذ أيامه في السعودية، بحبوحة اقتصادية حقّة، وأراد مثل هذا النجاح للسودان. وقدّر، في غياب الثروة النفطية السعودية، أن مناطق السودان الخصبة هي الحل لانتشال هذه الدولة الأفريقية من الفقر. وفي الواقع، فإن منطقة الأراضي الممتدة من جنوب الخرطوم إلى الحدود مع إثيوبيا، تُعرف شعبياً بأهراءات السودان. وكانت لأبي فيها مزارع عدّة تُزرع بأنواع مختلفة كثيرة من الخضر ودوار الشمس. وانصرف أيضاً إلى أعمال البناء، وتربية الحيوانات، واستيلاد الخيول.

أبلغنا والدنا، بُعَيْدَ وصولنا إلى الخرطوم، أنه قد اشترى مزرعة للخيل. لم يكن لدينا شيء من تفصيل مزرعتنا القريبة من جدة سوى أنها تقع على بعد ١٥ دقيقة بالسيارة من قرية الرياض، وصرنا بالتالي نذهب إلى الاسطبلات، على الأقل مرة في الأسبوع. سبق له أن اشترى بضعة أفراس قبل أن نصل، ورفع الجوادان اللذان جيء بهما من السعودية، العدد إلى سبعة. سُررت سروراً عظيماً بكل فرس، إلا أن المفضل عندي هو «المهر» لزاز، وهو أحد الحصانين اللذين

أمكن لأبي جلبهما من السعودية. وقد وصل أدهم الجميل أيضاً في وقت لاحق إلى الخرطوم.

كان لزاز، الذي يعرف به معظم المسلمين اسم جواد النبي محمّد، جواداً عربياً أصيلاً، وله عرف كستنائي وذيل ذو غرّة مغايرة بيضاء وثلاثة أرسغ بيضاء، واحد على قائمته الأمامية اليسرى، واثنان على قائمتيه الخلفيتين. ولزاز حصان أبيّ، ليس من النوع الذي يشجّع على اللعب. وتتمثّل سعادته الكبرى بالعَدْو مع الجياد، وأيّ مقاطعة له تشكّل تحدّياً لسائسه.

أذكر اليوم الذي أوشك أن يُقتل فيه لزاز لتهديده والدي.

كان قد وصل حديثاً من جدّة، وشعر بالتوثّب لأنه لم يمتطَ منذ أشهر عدة وأخذ يتبختر داخل الحلبة الدائرية متشوّقاً إلى التخلص من عمله كحصان. فكّر أبي في أنه آن الأوان لامتطائه في رحلة سريعة. إلا أن لزاز كان له تصرّف آخر. ولمّا حاول والدي وضع السرج عليه، وقف على قائمتيه الخلفيتين، وتراقص، وجهّز نفسه للهجوم. إلا أن والدي، الخيّال الماهر، لم يتراجع عن هدفه بإعادة السيطرة عليه.

وها هنا خيّال عاقد العزم وجواد عاقد العزم مثله، يتصارعان. علق قلبي في حلقي، لأن لزاز ووالدي تمتعا بأيام طويلة من الصحبة بين الحصان والفارس، وها هما يصبحان فجأة خصمين، غير متكافئين في القوة البدنية، لكنهما متكافئان في قوة الشكيمة.

لم يمكن لأي شيء فعله والدي أن يهدئ لزاز الذي هاجمه تكراراً والحدّة في عينيه تومضُ تهديدات بالعنف. لاحظت فجأة أن واحداً من أصدقاء أبي، جهّز سلاحه ورفعه مصوباً مباشرة إلى رأس الحصان. فالرجل المخلص لا يريد أن يخاطر باحتمال أن يسحق حصانٌ أسامة بن لادن، مهما يكن لزاز قيّماً أو جميلاً. ومن حسن الحظ أن والدي رأى من طرف عينه حركة الرجل، حتى وهو منشغل في البقاء بعيداً عن حوافر لزاز الضاربة، فصاح به، وهو الذي يحب الأحصنة أكثر من أي انسان: «لا! اذهب! أحضِر المزيد من الرجال!».

قام الرجل بما طُلب إليه، وسرعان ما امتلأت الحلبة بخمسة أو ستة رجال لم يتعوّد أي منهم، ما عدا والدي، على ترويض الخيل.

حُشر لزاز المسكين أخيراً وتمت السيطرة عليه. وأمر والدي في ذلك اليوم بشد أذن جواده، تمهيداً لربط عقدة حبل صغيرة بقطعة من الخشب توضع حول خطم الحصان وتُشدّ إلى أن تؤلمه. ويعتقد العرب أن الشدّ يفرز مادة كيميائية تُخضع الحصان الحَرِن.

ولمّا يمض وقت طويل حتى أعاد والدي لزاز إلى المرحلة التي يمكن فيها امتطاؤه. ومنذ ذلك اليوم، وطوال الفترة التي عشناها في الخرطوم، بات لزاز هادئاً نسبياً.

أنا آسف اليوم لأن والدي بقي، مع متابعة أعماله الصالحة، متورّطاً في أنشطة حربية، برغم أنني، نظراً إلى سنّي الصغيرة، لم أكن عالماً بتفاصيلها الخفيّة.

بقي والدي، في غضون ذلك، مقتنعاً بأن علينا كمسلمين أن نعيش بأكبر قدر من البساطة، ونزدري أسباب الراحة المعاصرة. لم يُسمح لنا إلا باستخدام الإنارة الكهربائية في فيلّتنا، بينما مُنع علينا استعمال الثلاجات، والأفران الكهربائية، أو أنظمة التبريد والتدفئة. ومرّة أخرى، اضطرّت أمّي وخالاتي إلى طبخ الطعام على مواقد محمولة تعمل على الغاز. وعانينا جميعنا، في غياب أجهزة التبريد، من مناخ السودان الحار.

لم يتفق أحد من الأولاد مع والدنا في أفكاره هذه، لكن الزوجات رفضن التعبير عن آرائهن. وأخذنا نتسلل، أنا وإخوتي، لتشغيل البرّاد وضغط أزرار مكيفات الهواء عندما نعرف أن والدنا سافر إلى خارج الخرطوم. إلا أن ارتعاب أمنا من احتمال اكتشاف الوالد تمردنا، يصل إلى حد نضطر معه إلى العودة سريعاً إلى تطبيق قواعده.

تناهت إلى سمعي أيضاً شكوى المجاهدين المخلصين الخافتة، لأنه لا

يُسمح لهم أيضاً باستخدام أسباب الراحة المعاصرة. وسبق لهؤلاء الرجال أن عاشوا حياة المحاربين القاسية لسنوات طويلة جداً، ولم يروا من داعٍ لمعاناة لا ضرورة لها، وهم محاطون بأسباب الراحة المعاصرة.

ولا يخفف والدي من أوامره وقوانينه أبداً، حتى عندما يصل ضيوف من بلدان خليجية غنية للإقامة في بيت الضيافة. ورأيت مراراً كثيرة رجال أعمال أثرياء وأمراء من العائلة المالكة وهم يتعرّقون بشدّة، وقد تقلّب مزاج البعض منهم بسبب درجات الحرارة المرتفعة إلى حد لا يُطاق. استمع والدي إلى كثير من الشكاوى، واستعان في النهاية بمراوح يدوية صغيرة مصنوعة من الأعشاب المحاكة، يبيعها السودانيون في السوق المفتوحة. واضطررت إلى خنق ضحكتي مراراً وأنا أشاهد هؤلاء الزوار المرموقين، يحرّكون كالمسعورين الهواء الساخن حول رؤوسهم وأجسامهم.

أمضيت وأشقائي وقتاً طويلاً نخطط لكيفية الهروب من حي الرياض والتخلّص من العالم المجنون لوالدنا. وشرعنا، كوننا صبية نشيطين سبق أن تعوّدنا عيش حياة السجناء، في اختبار حدود حرّيتنا المُكتشفة حديثاً، وأخذنا نتلكّأ خارج فيلا العائلة لفترات تطول أكثر فأكثر كل يوم.

تمتعنا في البداية بما يكفي من الشجاعة للتسكّع في حديقة العائلة. وطلبنا، في بحثنا عن أي شيء يملأ فراغنا، من بعض عمّال والدنا، مواد بناء لنشيّد بيوتاً في قلب أشجار الحديقة. وعثر لنا هؤلاء الرجال الطيبون على ما نحتاج إليه. وأصبحت بيوت أشجارنا كثيرة التفصيل، بحيث حصل كل صبي على الحيّز الخاص به.

كان طعم تحررنا غير المتوقع حلواً. أصبحت لدينا فجأة الحرية في اللعب أو في التسكّع في الجوار، تماماً كما تعوّد الأولاد في جدّة والمدينة أن يفعلوا: «أطفال الحرية» هؤلاء الذين تعوّدنا مراقبتهم بقدر كبير من الحسد.

ولطالما حصلنا على المال للصرف، وهو أمر جديد ومطمع، سوى أننا لم

نَحُزْه بطريقة شريفة تماماً. يرى والدي أنه لا يُفترض بأولاده الحصول على المال أبداً، ولا حتى لشراء وجبة طعام مدرسية خفيفة. وقد احتجنا إلى المصروف للحاجات الأساسية، لكنه قال «لا، عليكم أن تعانوا. لن تؤذيكم عضّات الجوع». لقد اختلف بصورة قليلة الاحتمال، عن كثير من الآباء الذين لا يريدون إلا الأفضل لأولادهم. بدا أنه يستمرئ رؤيتنا نعاني، وهو يذكّرنا بأنه خير لنا أن نعرف ما هو الجوع أو العطش، وأن نُحرم مما لدى الآخرين فائض منه. أما لماذا؟ فلأنه قال إن ذلك سينتهي بنا إلى أن نصبح أقوى. فالذين لديهم الكثير سينتهون رجالاً ضعفاء غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم.

هذا رأي له لا يوافقه عليه أبناؤه. إلا أنه لم يكن مسموحاً لنا، طبعاً، بمعارضته. فلا مجال، إذا احتججنا، لنقاش هادئ بين والد وابنه، بل إنه يأمرنا بدلاً من ذلك، بهدوء، بأن نقف لنتلقّى الضرب. وشكّلت عصاه الخشبية سلاحه المفضّل، لكن حصلت أوقات بلغت حماسته في ضربنا، حداً انكسرت معه عصاه الغليظة إلى نصفين، فهرع إلى التقاط واحد من أخفافنا عند الباب، وقذفنا به.

أصبح شيئاً عادياً أن تغطّي آثار الضرب الحمراء الظاهرة، ظهور أبناء أسامة بن لادن وسيقانهم.

في الماضي كان سائقونا في السعودية يشفقون على وضعنا، وقد اكتشفوا بطش والدنا. وحاول هؤلاء المساكين التعويض علينا بعطفهم ولطفهم، فدسّوا لنا كميات قليلة من الفكّة، وهي نقود لا يمكنهم تحمّل التخلّي عنها. إلا أننا لم نحظ بمثل هذا الحظ في السودان. فالعاملون لدى والدي لم يعيشوا على هذا القرب من عائلتنا ولا يدركون أوضاعنا الشخصية.

كنا صبية نتمتّع بالحنكة، ووجدنا سبلاً إلى الحصول على بعض منها.

حصلت أمنا في تلك الأيام على مصروف من أبينا، فامتلكت مالاً توفّره. واكتسبت، منذ أول أيام زواجها، عادة تخبئة المال في غرفة نومها. فتدس الأوراق المالية تحت المجلات، وفي الكتب، أو في الأدراج. عرفنا كل

مخابئها، وأخذنا، أنا وأشقائي، نتبادل الأدوار في ترصدها، في حين يقوم أحد الصبية الشجعان بالدخول مسرعاً إلى غرفتها للقيام بعملية تفتيش سريعة.

واستنتجنا، بما أن والدتنا لم تشر مرّة واحدة إلى مال ضاع منها، أنها أدركت حاجاتنا، لكنها لن تقف ضد إرادة والدنا وتعطينا النقود يوماً. وأخذت، بدلاً من أن تعصي أبانا، تترك النقود حيث يمكننا إيجادها بسهولة. وأنا متأكد من أنها تعمّدت ذلك، وإلا لأطلقت الإنذار بأن مالها يُسرق.

أخذنا، بعد العثور على الأموال المخبّأة، نتسلّ من المنزل ونهرع إلى واحد من المحال الصغيرة المنتشرة في مختلف أنحاء حيّنا، وننفق هناك كل المال على الوجبات الخفيفة والمشروبات الغازية. وارتحنا لأنه لم يتم كشفنا أبداً، لكوننا نعرف جزاء العصيان الصريح.

اتخذنا لنا هواية مع التمويل المُكتشف حديثاً. أصبحنا نهتم بالحمام لكونها إحدى التسالي الشعبية في السودان. سمعنا بتلك القرية المجاورة لمجمّعنا، ونُمي إلينا أنها المكان الأفضل لشراء النوعية الفضلى من الحمام. ومن حسن حظّنا أننا امتلكنا وسيلة نقل شخصية لأن والدنا أفتى بأنه يمكن لأبنائه الأكبر سنّاً اقتناء دراجات هوائية. حدث هذا قبل وقت قليل على مغادرتنا السعودية حين كنت في حوالى التاسعة. ولم يمكننا قبل ذلك الحصول على دراجات أو أي وسيلة أخرى من وسائل النقل الميكانيكية. أذكر أنني توسّلت والدي للحصول على دراجة هوائية أو نارية، قائلاً إن عليّ أن أملك واحدة للرحلات القصيرة. ولن أنسى أبداً كلماته، «إذا أردتَ السفر يا عمر، فامتطِ الماعز».

لكنه، في أحد الأيام، غيّر رأيه لسبب غير معروف، وأمر أحد سائقي العائلة بشراء دراجة نارية، من النوع الذي يسير على أربعة إطارات، لعبد الله، على أن يحصل الصِّبْية الآخرون على دراجات هوائية هي أغلى ما يمكن للمال أن يشتريه. كان ذلك واحداً من أسعد أيام حياتنا. وقد أحببنا دراجاتنا كثيراً إلى درجة أننا جلبناها معنا من السعودية. وقد أثبتت أنها مفيدة جداً في الخرطوم. ونحن في الواقع سنستخدمها للمغامرة بالخروج والبحث عن حمام للبيع.

تشاورنا، أنا وأشقائي، حول طريقة الشروع في تكوين عائلة من الحمام.

وخططنا للأمر بعنايةٍ من يذهب في حملة عسكرية. عرفنا أن علينا الانتظار إلى أن يكون والدنا خارج المدينة لأنه لا يحبّ أن نغادر الحيّ، وأخذنا نلاحظ الأوقات التي يأخذ فيها الحراس استراحة. وسرعان ما أدركنا أنهم يستريحون طويلاً أثناء الساعات الأشدّ حرّاً في النهار. وانتظرنا إلى أن سافر والدنا في رحلة قبل أن نجمع دراجاتنا وننتظر إلى أن تصبح الشمس كاللظى في وقت الظهر. وهكذا كان، فقد أخذ الحراس يتفرّقون، الواحد تلو الآخر، ويمضون إلى فيلاتهم للحصول على شراب بارد أو قيلولة. قفزنا عند ذاك على دراجاتنا واندفعنا مسرعين عبر المدخل غير المحروس من قرية الرياض.

انطلقنا سريعاً، وقطعنا الطريق العام، والريح تلفح وجوهنا وشعر كل منا يتطاير، فلم يسبق لطعم الحرّية أن كان بمثل هذه العذوبة. نجحت مهمتنا لأننا عثرنا عمّا نبحث عنه في القرية المجاورة. يشتهر المكان بالحمام وقد نظرنا إليها جميعها بإمعان قبل أن نشتري أول زوج منها للتناسل، وكان غالي الثمن كثيراً، فكلّفنا خمسة آلاف جنيه سوداني. إلا أننا، بمرور الوقت، صرنا أكثر جرأة، وأخذنا مبالغ أكبر من مخابئ والدتنا. وبرغم ذلك، لم تسأل عن المال المفقود، فعرفنا أنها تعلم، وتخفي.

انعزلت أمي في حياتها إلى أقصى الحدود، وهي الزوجة التي تطيع زوجها في جميع رغباته. لكنها وجدت، إن تعلّق الأمر بأولادها، أساليب بديعة لمساعدتنا على تجاوز قواعد أبينا الصارمة جداً. ولم تتلفظ لحظة بكلمة معارضة في شأن هذه المسائل، لأنها لن تقف مباشرة ضده، إلا أنها ساعدتنا على تخطي حياتنا الكئيبة. كانت أمي امرأة حكيمة جداً في أوضاع كهذه.

توسّعت هوايتنا في جمع الحمام. وسرعان ما نما قفص صغير فيه حمامتان ليصبح أقفاصاً أكبر حجماً، يحتوي كل منها على زوج. ولسبب ما، لا نعرفه، لم يهتم شقيقنا الأكبر عبد الله بهذه الطيور الجميلة، لكنها خلبت عقلي، واستحوذت علينا تماماً أنا وأشقائي عبد الرحمن وسعد وعثمان. قمنا شخصياً ببناء أقفاصنا، ثم ساعدنا محمداً على بناء أقفاصه لأنه كان صغيراً جداً في

ذلك الوقت. ولمّا يمض وقت طويل حتى امتلأت الحديقة كلها بالحمام. أحببناها كثيراً، وقضينا ساعات نلبي حاجاتها ونحتفل عندما يفقّس زغلول منها. وتخلّينا عن قلقنا في شأن كيفية رد فعل والدنا على هوايتنا، برغم شعورنا بأنه لن يمنعنا من ذلك، لأن المسلمين يحبون الحمام كثيراً. ثم إننا، في المراحل الأولى لهوايتنا، لاحظناه مرّة لدى وصوله إلى المنزل لزيارة أمنا. نظر في ذلك اليوم عَرَضاً إلى القفص الوحيد الصغير الذي يحتوي على أول حمامتين متناسلتين. لم تتغيّر تعابيره، وواصل السير، فتخلّينا عن حذرنا.

ثم دخل في أحد الأيام إلى الحديقة وتوقّف. لم يصدّق ما شاهدته عيناه. احمرّ وجهه وهو يتفحّص الأقفاص الكبيرة المليئة بالحمام، وظهرت على وجهه الصدمة.

حاولنا، أنا وأشقائي، الاختباء وقد عرفنا أننا نواجه مشكلة كبرى، لكنه لمح ذواتنا الخجلة تتلطّى في الخلف.

قال، وشرارة الغضب كالبرق في عينيه: «تعالوا إلى هنا».

تحرّكنا ببطء، ونحن نعتقد أننا سنشعر بمفاعيل عصاه الغليظة.

لم يصرخ، لكن الحدّة في صوته كانت مرعبة. «ما هذا؟»، قال وهو يشير بيده. اختنق صوتي في حلقي، فأمَرَنا جازماً قبل أن يعطينا الوقت للرد: «تخلّصوا من أي حمامة. وإذا لم تخرج من الحديقة مع حلول الليل، فسأنحر بنفسي عنق كل واحدة منها».

واستدار على عقبيه، بعدما وجه نظرة غاضبة حادة إلى كل منّا، ومضى بعيداً وقامته الطويلة متصلّبة من الحنق.

عرفنا، أنا وأشقائي، أنه قادر على قتلها جميعها، فتهافتنا لإيجاد مأوى لها. ووافق أحد سائقي العائلة، بعد توسّلنا إليه، أن ينقل حماماتنا الأليفة إلى واحدة من مزارع والدي الكثيرة. ولم نعرف ما حلّ بها بعد ذلك.

حُرّم علينا بعض الناس كما حُرّم علينا الحمام. لم نكن نعرف أن لديه

قاعدة تحظر علينا العلاقات الاجتماعية مع مسيحيين، إلى أن أدخلتنا محاولة لقائهم في مشكلة.

لاحظنا الأولاد المسيحيين بُعَيْدَ وصولنا إلى الخرطوم. عاشت العائلة المؤلفة من الأم والأب والعديد من الأبناء والبنات في منزل يقع في الجهة المقابلة لمنزلنا في الشارع. ويصعب عدم ملاحظتهم بسبب بشرتهم البيضاء. كما أنهم تصرّفوا أيضاً بطريقة مغايرة. فالأولاد يمشون على مهل في بيئة آمنة، أما نحن الأبناء المسلمين فنعيش حياتنا في خوف من أننا قد نرتكب، عرضاً، عملاً محظوراً.

راقبنا هؤلاء المسيحيين لبعض الوقت، لكنني افتقرت إلى شجاعة التعريف بأنفسنا. وفي إحدى الأمسيات، ارتعنا أنا وأشقائي لمّا وقع نظرنا على الأولاد المسيحيين وهم يغادرون منزلهم. ارتدوا أزياء غريبة جعلتهم يبدون كالأشباح والمسوخ وغيرها من الكائنات الغريبة. وحمل الأولاد الغريبو الملابس قضيباً أُدخلت فيه قرعات برتقالية وقد قطعت كل قرعة لتبدو كأن لها وجهاً، ووُضع في داخل كل منها شمعة. ولاحظنا أنه سُمح لبعض الأولاد المسلمين المقيمين في المجمّع، بالانضمام إليهم والذهاب إلى ملعب كرة القدم حيث أقاموا حفلة.

لم يسبق لنا قط أن شاهدنا مثل هذا المنظر. فكل من يظهر في السعودية مرتدياً ثياباً كالأشباح والعفاريت، يُعتقل ويحاكَم ويُسجَن بتهمة السحر، وقد يُحكم عليه بالموت. راقبنا والحسد يتآكلنا، ماذا يفعلون بأزيائهم المضحكة، وهم يتحركون عبر الشوارع حاملين قرعات مضاءة. وأخذوا يضحكون ويلعبون في الجوار ويضجون (أصبحتُ راشداً قبل أن أكتشف أن ما فعله الأولاد المسيحيون الصغار يُسمَّى الاحتفال بعيد البربارة). تشوقت وأشقائي إلى الانضمام إلى حفلة المرح هذه، لكن والدنا لا يوافق، طبعاً، على أن نتسكّع في الشارع ونبدو كالقرود أو المسوخ ومُنعنا بالتالي من الاختلاط بهم، لكننا فكّرنا في التسلل إلى الخارج لاحقاً للقاء هؤلاء الأولاد المثيرين للاهتمام، ونحن لا نعرف أن والدنا قد طلب إلى حراسه الأمنيين إبعادنا عنهم.

إثر ذلك ببضعة أسابيع، عدنا ورأيناهم أنفسهم يخرجون بعد الظهر للعب. اعتقدنا أن فرصتنا حانت، فركضنا إلى الخارج على أمل أن نلتقي. وكنا على وشك تقديم أنفسنا، حين جاءنا أحد حرّاس والدي المسلحين راكضاً بعدائية شديدة دفعتنا إلى الانسحاب خائفين. وأخذ الرجل يصيح بصوتٍ غاضب لم يسبق لنا أن سمعناه: «اذهبوا إلى المنزل! هذا غير مسموح لكم! اذهبوا الى المنزل الآن!».

استبد به الحنق إلى درجة أنني اعتقدت أنه قد يطلق علينا النار. فرجال والدي مصابون بوسواس إرضاء «أميرهم»، ولا شيء سيفاجئني.

لم نخاطر. ركضنا إلى منزلنا وركض المسيحيون إلى منزلهم. وقيل لنا لاحقاً إننا كدنا نرتكب محرّماً مزدوجاً، لأنه من غير المسموح لنا أبداً اللعب مع الفتيات، أو مع المسيحيين. وقُضي الأمر!

أُصبنا بعد وقت ليس بالطويل على وصولنا إلى السودان، بنوع من الصدمة العائلية، فقد غادرت خالتي خديجة الخرطوم عائدة إلى السعودية. وهي التي كانت دائمة اللطف مع جميع أولاد زوجها. وكانت خيبة الأمل الأكبر لي أن عليّاً غادر معها. وفوجئت بذلك، لأنني أعرف معتقدات والدي التقليدية، فالكثير من المسلمين يصرّون على الاحتفاظ بالسيطرة على جميع أولادهم، بغض النظر عن عمر الولد. وكانت الخالة خديجة محظوظة باحتفاظها بالوصاية على أولادها الثلاثة، وبالأخص على ابنيها علي وعامر.

كنت ولداً، فلم أعرف أسباب الطلاق، بالرغم من أنني تكهّنت بالدافع. ربما أصبح والدي راديكالياً جداً بالنسبة إلى الخالة خديجة. فأنا، وإنْ كنت صغيراً جداً وقتها لأدرك تماماً المخاطر المتعلّقة بمسلكه الجهادي الذي لا يلين، بتُّ متأكداً من أن زوجاته الراشدات أكثر معرفة مني بكثير، وبخاصة الخالة خديجة وهي امرأة متعلّمة.

وربما غادرت لأنها لم تجد متعة أو سبباً لرحلة إلى أرض قفراء، وقضاء الليل في جحر في الأرض. أو قد تكون شعرت بالتعب المتزايد من إبقائها

سجينة المنزل لا تستطيع الذهاب إلى متجر أو زيارة نساء أخريات، فرفيقاتها الوحيدات هن أمّي وخالتاي الأخريان. وكثيرة هي الأسباب التي قد تكون دفعتها إلى طلب الطلاق ومغادرة السودان.

تصرّف أبي بعد رحيلها كما لو أنها لم تكن جزءاً من عائلتنا. وبرغم ذلك، لم تعد الأمور إلى حالها بعد مغادرتها. وقد افتقدنا نحن الصغار علياً برغم أننا تأقلمنا مع غياب الخالة خديجة. فقد كنّا نحن وإياه، رفاق لعب لسنوات طويلة، وتعلّمنا أن نكون مخلصين لجميع أخواننا غير الأشقاء.

عليّ أكبر أولاد الخالة خديجة، ويُعتبر في سن تسمح له بالعودة لزيارة والده. وكانت زيارته الوحيدة للسودان، بعد ذلك بسنة، مُربكة ووجيزة، ولم يعد بعدها أبداً. كما أنه لم يزرنا في أفغانستان.

كنا صبية نشيطين نتمتع بطاقة لا حدود لها، وتعافينا سريعاً فتجاوزنا حرقة الفقد، من تأثير التغيير. وبعدما منع عنا والدنا الحمام، فتشنا عن نشاطات أخرى نملأ فيها وقتنا. لم يبعد النيل سوى بضع دقائق عن منزلنا، وقد أردنا يائسين الذهاب والسباحة هناك. ولدهشتنا الممتعة الكبرى، وافق أبي على الفكرة، بل قام بمرافقتنا. ومن كان ليحدس بأنه أراد السباحة أيضاً؟

يعبر النيلُ السودانَ والخرطومَ متعرّجاً كالدودة، وهو خادع لعيني السابح. ولطالما حفّزنا، أنا وأشقائي، بعضنا البعض، وتداعينا إلى أن نقفز جميعنا في المياه الداكنة، ونسبح إلى الضفة الأخرى.

والمياه غزيرة، والمسافة أطول مما تبدو عليه.

وبرغم ذلك، لا يعترف أي منّا بالخوف للآخرين، وهكذا حولتنا تلك العملية إلى سباحين ماهرين، وتفادينا أي مشاكل خطرة. لكن واحداً من أصدقاء والدي كاد يموت غرقاً. شرعنا في ذلك اليوم في السباحة عندما قفز ذلك الرجل الأحمق المتحمّس في الماء فجأة كالمراهق. وقبل أن نعرف، أخذَ التيارُ القويُّ يجره بعيداً. أخذنا جميعنا في الصراخ منذرين والدنا، ولم يكن في وسع أي منا اللحاق بالرجل. وآخر ما شهدناه أن رأسه كان يعلو وينخفض،

وذراعاه تخبطان بيأس. وافترضنا، لما غاب عن أنظارنا، أن النيل سيصبح قبره. لكن حصلت مفاجأة سعيدة عندما وجد بعض الصيادين السودانيين الرجل المسكين وهو يتقلّب في الماء ويصرخ طالباً النجدة على مسافة قصيرة في اتجاه مجرى النهر. وكانوا على درجة كبيرة من اللطف بحيث أرجعوه إلينا. افترّت ثغورنا جميعاً بالابتسامات لنجاته. وقال له والدي الصارم إنه تصرّف كالأحمق، ونصحه «ابقَ بعيداً عن النيل»، وهو ما أعتقدُ أنه فعله.

سمح لنا والدنا لاحقاً باصطحاب أفراسنا العزيزة معنا للسباحة في النيل لتخليصها من الحرّ. وأحب أصدقاء والدي، لسبب مُستغرب، التعلّق بأذيالها وشدّها. وأمر أبي، في أوقات أخرى، بقيادة أبقاره إلى النيل، حيث استمتعنا بالركوب على ظهورها وبرشّها بالمياه الباردة. وبدا أن تلك الأبقار تحب النيل بقدر ما نحبه نحن.

وحصل فصل مضحك عندما طلب والدي إلى أحد موظفيه المصريين أن يبني قارباً. لكن مهارات الرجل كانت أقل مما توقعه أبي من بانٍ للقوارب. فالقارب شكّل، بعد الانتهاء منه، خيبة أمل كبيرة. وزعم باني القوارب أنه طلاه بمادة خاصة تجعله ينطلق بسرعة كبيرة جداً، وقد صدق بالفعل، لأنه بدت في يوم التدشين الكبير استحالة السيطرة عليه، حيث كان يدور في اتجاه، ثم في آخر، قبل أن ينطلق إلى الأمام بمعدل سرعة مرتفع.

وحصل أن والدنا طالب بحقه في قيادة القارب. ووقفنا مندهشين في حين كان القارب يتحرّك بسرعة عالية، بحيث ألقى بوالدنا في مجرى النيل. وشرع الرجال الموالون لأبي، وقد تولّاهم الذعر، يضربون الماء ببواطن أيديهم، ويصرخون بصوت مرتفع، «الأمير في مشكلة! الأمير في مشكلة!».

ركض رجال أبي إلى جار اسمه أسامة داود يملك قارباً سريعاً جداً. ومن حسن الحظ أن الرجل كان في المنزل وشرع في مطاردة سريعة ولحق بقارب والدي وربطه إلى زورقه ليتمكن من جرّه عائداً. وأذكر وقوفي على ضفة النيل وأنا أشاهد رحلة العودة. وذُهلت لرؤية أن الخجل من فقدان السيطرة بلغ

بوالدي حداً أنه انزلق خارجاً من الزورق إلى الماء للاختباء. تعلّق بمؤخرة قاربه، وأخفى وجهه لأنه لم يُرد لأحد أن يشهد على ذلّه. كان أبي حساساً للغاية بالنسبة إلى شخص يتمتع بهذا القدر من السطوة.

لقد تعوّد أن يكون الأول في كل ما يفعله. فهو أكثر الفرسان مهارة، وأفضل السائقين، وأعظم مستخدمي القوارب، وأسرع عدّاء، وأوّل القنّاصة. ولا يمكنه أن يتحمّل فكرة الظهور بمظهر الأبله. ومنذ ذلك اليوم، مُنعت على أبنائه وموظفيه الإشارة إلى ذلك الزورق الذي يعمل بالمحرّك. وقيل لي إنه وهبه لسوداني مدهوش صادف وقوفه في الجوار. وأخشى أن يكون قد ذهب بالرجل في جولات مجنونة كثيرة.

أخذنا، أحياناً، نعود إلى النيل بعد حلول الظلام، وقد وجدنا السباحة في النهر تحت السماء المرصَّعة بالنجوم، تجربة ساحرة. فنستلقي، بعد إنهاك أنفسنا، على ظهورنا، ونحدّق مدهوشين في القمر الساطع وهو يشق طريقه عبر السماء الواسعة. وشكّل انعكاس القمر على النيل القديم واحداً من أجمل المناظر التي سبق لي رؤيتها.

بدا أن عبد الله يستمتع بالنيل أكثر من معظمنا. وقد شاهدت، في مرات كثيرة، شقيقي يجلس على ضفته وينظر كالحالم إلى البعيد.

يكبرني عبد الله بخمس سنوات، ولا يشبهني كثيراً. يبلغ طوله نحو خمسة أقدام وإنش واحد، وهو نحيل، وشعره أسود مجعّد، وبشرته سمراء. وعبد الله دائم الجدّية، على غرار أشقائه. ولا يمكن لأحد مضاهاته في قوة الاحتمال والصبر إذا ما توفّرت له أي فرصة للعمل. وتولى، في بداية عهدنا بالسكن في الخرطوم، المسؤولية عن سلوك أخوته الصغار وسلامتهم، الإناث منهم والذكور، لكونه البكر. وهذا روتين في العالم الإسلامي، حيث يحظى البكر باحترام الجميع، ويعتبرونه رب المنزل في غياب الوالد. ولم تكن هي الحال، طبعاً، عندما كان عبد الله صغيراً، خلال سنواتنا في السعودية، لأن سائقي والدنا وموظفيه هم الذين كانوا يتولّون المسؤولية عندما أخذ والدي يحارب في

أفغانستان. إلا أن عبد الله، بوصولنا إلى السودان، بلغ الخامسة عشرة، وسرعان ما سيصبح رجلاً، فطلب والدنا ووالدتنا إليه الإشراف علينا بالرغم من أن لوالدنا حرّاساً أمنيين يراقبون منزلنا إضافة إلى مجمّع «قرية الرياض». ولو أن أبانا توقّع من عبد الله أن يقلّد تصرفاته، فأنا متأكّد من أنه أصيب بخيبة. فبالرغم من أن والدي شخصية هادئة وحديثه هادىء، فإن صبره معلّق بخيط رفيع. وهو يغضب بسرعة، ويمكنه أن يبلغ مرحلة العنف في لحظة.

إلا أن عبد الله كان صبوراً ولطيفاً، وشجّع بهدوء جميع أخوته على التشبّه به. وأنا متأكّد من أننا غالباً ما سببنا الحنق له، لكنني لا أذكر أبداً أنه عبّر عن استيائه منا. نحن الصغار المطلوبين منه، مهما ارتكبنا من الحماقات.

وغالباً ما فكّرت كم أن حياتنا كانت لتختلف لو أن والدنا أخذ أمثولات في تربية الأولاد من بكره عبد الله، لأنني متيقّن من أن شقيقي يمتلك الطبع والشخصية ليصبح والداً لطيفاً ومتفهّماً.



بدأ يوم الرعب عادياً مثل أي يوم آخر. أدينا صلوات الصباح، وارتدينا لباسنا المعهود. ذهبنا إلى المدرسة، وما لبثنا أن عدنا إلى المنزل لتناول الطعام، ثم لعبنا في الجوار حتى صلاة العصر. وتوجهنا بعدها إلى بيت الضيافة من أجل متابعة دروسنا الدينية. كان أساتذتنا الثلاثة في انتظارنا، وقد تقدّم مدرّسنا المغربي الجميع في ذلك اليوم.

بعد قراءة موجزة لنصوص قرآنية، تجمّعنا في حلقة وأخذنا ندرس بهدوء عندما أزّت رصاصة دخلت من النافذة المفتوحة وسقطت عند قدمي سعد، فسارع إلى إبلاغ الأستاذ خائفاً، «ثمّة من يهاجمنا، يا سيّدي».

يعرف الأستاذ سعداً الخالي البال تمام المعرفة، وكان لديه سبب للاعتقاد أنه يقوم بدعابة صغيرة. وطلب بلطف منه ألاّ يشغل باله، لأنه ظن أن شرارة كهربائية هي مصدر الصوت، وطمأنه قائلاً «واصل درسك يا سعد، وسأتحقق من المسألة».

شنّفت أذنيّ لأتسقّط مصدر الصوت، فمنذ سنين وأنا أتصيّد، ولم يترك تآلفي مع الأسلحة أي شك لديّ في أن سعداً على حق. أحدهم يُطلق النار، ومن المؤكّد أن رصاصة أزّت عبر النافذة، واستقرت داخل الغرفة.

كنت مشغولاً في تحليلاتي عندما رأيت سعداً يرفع الرصاصة من الأرض،

ويمسك بها بإصبعيه عالياً، ويعلن بافتخار، وقد أُخذ لمرّة على محمل الجد، «أنها رصاصة، يا أستاذ. انظر، إنها هنا معي».

خرجت عينا أستاذنا من محجريهما وهو يتبادل النظرات مع المعلمين الآخرين، اللذين قفزا منتصبين كرمحين. وأنا واثق بأنهم أدركوا جميعهم، في وقت واحد، أننا عرضة لهجوم، وأنهم ثلاثة مدرّسين غير مسلّحين، وهم مسؤولون عن سلامة أبناء أسامة بن لادن. وقبل أن يتمكّنوا من قول أي شيء، لعلع رشق من نيران الأسلحة في أنحاء بيت الضيافة، وأخذ الرصاص يئزّ عبر النافذة. وشرع الصبية الأصغر سنّاً في الصراخ والبكاء.

عرفت أن علينا الابتعاد عن النافذة المفتوحة، وهو ما فعله معلّمنا المغربي، الذي صاح بنا «تعالوا أيها الصبية! تعالوا!».

هرع بنا أساتذتنا من غرفة التعليم إلى الممشى. وفي تلك اللحظة بالذات، أفلت أستاذنا المغربي شهقة. لقد أصيب! تعثّر من جرّاء القوّة الهائلة التي ضربت كتفه، لكنه بقي واقفاً، وهو يسرع بنا الخُطى إلى خارج الفيلا، حيث يوجد مبنى صغير جداً يكاد يتصل بالمبنى الأساسي. جذب الباب بسرعة وفتحه، وشرع الأساتذة، ثلاثتهم، في دفع الصبي تلو الآخر إلى الداخل. والمبنى في حد ذاته صغير جداً يتسع لأربعة أو خمسة أشخاص فقط، لكن أمكن لأساتذتنا، بطريقة ما، حشر عشرة كائنات بشرية في الداخل. وتبعنا الأساتذة وهم يدفعون بأجسادهم عبر باب غير مأمون بدون قفل. أشار علينا معلّمونا أن نبقى ساكتين، وبذل الصبية الأكبر سنّاً جهدهم لمواساة أشقائهم الصغار حتى لا يكشف صراخهم عن مخبئنا.

كنّا مكتظين مثل سمك السردين في علبة، لمّا سمعنا صدى إطلاق النار يقترب. لمعت خاطرة في ذهني: لو تم اكتشافنا فسنصبح هدفاً سهلاً للقاتل. ويمكن لرصاصة واحدة، ونحن مكوّمون كالحطب إلى جانب بعضنا البعض، أن تخرق بسهولة أجساماً عدة. ويمكن لأي مسلّح أن يقتل اثنين أو ثلاثة منّا في الوقت ذاته.

واضح أن هؤلاء المسلحين يريدون قتل أحد ما، وربّما طُلب منهم اغتيال عائلة أسامة بن لادن جميعها. وازداد هولي عندما أخذ أحدهم من الخارج في دفع جسمه على الباب غير المقفل، إلا أننا كنّا محشورين كثيراً، بحيث أصبحنا أشبه بكتلة واحدة لا تتحرك.

ثبت الأساتذة في مواقعهم، بدون أن يهمسوا ولو بتنهيدة، فهم يعرفون أنهم سيموتون أوّلاً في حال أطلق المسلح النار عبر الباب. لكننا، بعد بضع لحظات، لم نعد نسمع القاتل، ربما لأن حرّاس والدنا داروا من حول الزاوية وشرعوا بالمطاردة. استمر إطلاق النار لثلاثين دقيقة أخرى، أو ما يقاربها، ثم أخذ يتراجع إلى أن هدأ كل شيء.

أردنا الاندفاع مسرعين إلى الخارج، والانطلاق إلى المنزل لتفقد أهلنا وأخوتنا الصغار، لكن أساتذتنا رفضوا التحرّك عن الباب. تخدّرت سيقاننا وأذرعنا، لأننا لا يمكننا التحرك ولو إنشاً واحداً في أي اتجاه. وسرعان ما سمعنا، لحسن الحظ، عنصراً من دورية أمن والدنا يفتّش عن أبناء الشيخ، صارخاً بأن خروجنا بات مأموناً.

تعرّفنا إلى صوت الرجل، فأخذنا في الخروج بالصف، ثم فكّرنا في تفقّد أستاذنا الذي أصيب ونحن نجدّ في الهرب من غرفة التدريس. وتنفسنا الصعداء لما وجدنا أن الرصاصة التي أصابته أوقفتها حشوة الكتف السميكة في سترته. وضحكنا ضحكتنا الأولى، وقد سعدنا لأن مدرسنا ظلّ أنيق الملبس، ولأن الرصاصة لم تفعل سوى خدش كتفه.

ركضنا، أنا وأشقائي، للعثور على والدنا الذي علمنا بأنه نجا من الموت لأنه توقّف للحديث مع عبد الله في طريقه إلى مدرستنا.

شعر والدي بأمان كبير في الخرطوم إلى درجة أنه أوقف إجراءاته الوقائية القاضية بتغيير مواعيده، وأصبح يتبع عادات محددة. ومن الواضح أن أعداءه اكتشفوا هذا الواقع. أخذ والدي يسير، بعد ظهر كل يوم، إلى بيت الضيافة

لإقناع نفسه بأن أبناءه منشغلون بدروسهم الدينية. لكن، كان لشقيقنا عبد الله في ذلك اليوم بالذات بعض المسائل ألتي أراد مناقشتها مع أبي.

فمع تقدّم أخي في العمر، ازداد استياؤه من وضعنا. وقد انزعج بصفة خاصة لأنه لا يمكن لعائلتنا استخدام الثلاجة الموجودة في فيلّتنا، ويصبح الإبقاء على مؤننا من الأطعمة الطازجة صعباً للغاية.

وبالرغم من أن عبد الله شرع في حملته منذ بعض الوقت، فقد رفض والدي التزحزح عن موقفه من الأدوات المنزلية المعاصرة. وصدف أن عبد الله قرر في ذلك اليوم بالذات الضغط في هذه المسألة، فأخر نقاشهما الحاد والدي.

أنقذ عبد الله حياة أبي مع أنه لم يتمكن من إقناعه بحاجتنا إلى الثلاجات وغيرها من الأدوات المنزلية.

واكتشفنا في خلال الأسابيع القليلة التالية، كيف تمّت محاولة الاغتيال. تمكن أربعة مسلحين من دخول منطقتنا في وقت سابق من النهار، وجلسوا متأهّبين في سيارة «بيك - آب» تحت شجرة كبيرة في مواجهة بيت الضيافة. ولم أتأكّد أبداً من سبب عدم اكتشاف وجودهم، مع أن كثيراً من المقيمين في حيّنا هم من الدبلوماسيين ومسؤولي الحكومة ممن يحتفظون بحراس أمنيين خاصين بهم. فقرية الرياض هي، في الأساس، بمثابة معسكر مسلّح مع رجال متعددي الجنسيات والقوميات يتولّون حراسة من تؤول إليهم مسؤوليتهم. وأفترِضُ أنه يصعب ملاحظة أربعة وجوه جديدة.

أُبلغ هؤلاء الرجال أن أسامة قد يصل باكراً، لكنه لا يتأخر أبداً. وبعد انتظارهم اللجوج أكثر من ساعة بعد الموعد المحدد للهجوم، ازداد اضطرابهم من أن هدفهم قد يكون وصل إلى بيت الضيافة في وقت أبكر بكثير من المعتاد. وشرعوا، بدون خطّة حقيقية، في إطلاق النار عشوائياً على الفيلا التي ندرس فيها، وقد ركّزوا على النوافذ المفتوحة أملاً منهم في إصابة أسامة بن لادن بمحض الصدفة.

سمع والدي الجلبة، وأمسك فوراً بكلاشينكوفه الروسي الصنع من طراز AK-47، وهو أحد أول الأسلحة الهجومية. وسبق لأبي أن أصدر قراراً يقضي بأن يحمل مقاتلوه كلاشينكوفاتهم على الدوام. وأسرع، لدى سماعه الطلقات، إلى سطح فيلاّ العائلة وأطلق منه النار على القتلة.

ما إن بدأ إطلاق النار حتى ردّت جميع القوى الأمنية في المنطقة بزخّات عنيفة من النار ألهبت الجو. وفاق عددها كثيراً عدد القتلة الذين تبخّر مخططهم الموضوع بعناية لملء جسم أسامة بن لادن بالرصاص، ومن ثم الانسحاب بسرعة.

هرب أحد الرجال من الحي. واختبأ آخر في الجامع. وقفز الثالث وراء مقود «البيك - آب» وأدار المحرّك. ورمى الرابع بنفسه في مؤخرة الآلية ذاتها. انطلق السائق متمايلاً عبر الشوارع، وهو يسعى يائساً إلى الهرب عبر المنطقة الدبلوماسية.

لكنه لم يمتلك أي حظ في ذلك، وقد طوّقه جيش صغير من الرجال.

أطلقت النار على السائق، خلال محاولة الهروب، وقتل.

وأصيب القاتل المأجور في مؤخرة «البيك - آب» بجراح.

أما المختبئ في الجامع، فأطلقت عليه النار وقُتل.

نُقل القاتل العتيد الجريح إلى المستشفى حيث تعافى تماماً، فأعدمته الحكومة بعد ذلك شنقاً حتى الموت.

لم أشاهد أبداً أيّاً من الرجال الجرحى أو القتلى، برغم أنني رغبت في ذلك. فوالدي لن يسمح لي بإشباع فضولي. وسمعت الكثير من الروايات عن ذلك اليوم، لأن بعضاً من حراسه أصيبوا بجروح.

وأذكر جيّداً، رواية أحد الرجال الذي ما فتئ يكرّرها على آذان من يريد أن يستمع، ولو أن كلماته بالذات وصمته بالجبن. ما إن بدأ إطلاق النار، حتى أقفل على نفسه في إحدى غرف بيت الضيافة. لكن تفكيره الوحيد، كما قال لنا

ذلك بكل فخر، تركّز على والدنا، فتوسّل الله تكراراً: «ربِّ احفظ الشيخ! ربِّ، احفظ الشيخ!». ولم يكن أيّ منّا على درجة كافية من الفظاظة لإظهار تذمرنا منه، الذي كان واضحاً وظاهراً في تعابير وجوهنا. إلا أنني لطالما تساءلت لماذا اختبأ إذا كان قلقاً على والدي إلى هذا الحد؟ وجب عليه أن يخرج مسرعاً ويطلق النار على القتلة الذين جاؤوا لقتل والدي.

سرت تكهّنات كثيرة عمّن يقف وراء محاولة الاغتيال. اعتقد البعض أنه هجوم قام به الروس انتقاماً لأعمال والدي في أفغانستان. واعتقد آخرون أن إحدى الفئات الأفغانية المقاتلة أرسلت الرجال لقتل والدي.

أعلنت الحكومة الأفغانية بعد التحقيق، أن السعودية هي التي استأجرت القتلة. اقتنع والدي بذلك، مع أنني لم أعرف ماذا أصدّق. من المؤكّد أنه أغضب كثيراً الحكام السعوديين. إلا أنني وصلت لاحقاً إلى استنتاج أن الحكومة السعودية ليست متورّطة لأنها ما انفكّت عن بذل الجهود لإقناعه بالعودة إلى المملكة. ولماذا يحاولون قتله عندما يكونون أكثر اهتماماً بإعادته إلى الحظيرة؟

بل إن والدي أسرّ بأن العائلة المالكة عرضت عليه مناصب حكومية رفيعة عدة. ولم تطلب في مقابل ذلك سوى أن يخفّف من انتقاداته للعائلة المالكة، والتخلي عن نشاطاته العسكرية، والعودة للعيش بسلام في البلد الذي وُلد فيه.

ازدرى والدي العرض السخي لكونه عنيداً بصورة فائقة الحد.

وزاره لاحقاً عدد من الأمراء من ذوي المراتب العالية، ليحثّوه على العودة إلى السلام الذي يمكنه إيجاده في السعودية. وتم إرسال أفراد من عائلة بن لادن لإقناعه بأنه يسلك طريقاً خطراً. وقد أحبّ أبي عائلته ولم يغضب من أي من أفرادها، قائلاً إنه لا خيار أمامهم سوى مجاراة العائلة المالكة، لكن جوابه جاء رفضاً مخيّباً وقاطعاً.

وبعث الملك فهد، في إجراء أخير، بخبر إلى والدي يطلب منه فيه توقّع

اتصال هاتفي شخصي من الملك ذاته. رفض تلقّي المكالمة، وهذه إهانة كبرى في عالمنا. فلا أحد يرفض أمراً من الملك!

قُطعت بعد ذلك كلّياً كل علاقة بين والدي والعائلة المالكة السعودية. وفكّرتُ، بعد سماعي هذه الروايات، في أن أبي انشغل في تغطية نفسه بأشواك غليظة إلى حدّ لن يمكن معه لأحد شق طريقه عبرها لمساعدته، أو مساعدة عائلته البريئة التي لا رأي لها في أي من قراراته.

لم نستوعب تماماً، أنا وأشقائي حتى ذلك اليوم، وجود أناس في العالم يريدون موت والدنا. فهو، بالنسبة إلى أذهاننا الفتيّة، بطل مشهور كثيراً. وأخذتُ أشاهد، فجأة، المزيد من الصورة الكاملة، وأصبحت أدرك أن الجميع لا يتفقون مع رسالة والدي العنيفة بأن العالم الإسلامي يواجه خطراً تاماً، وعلى جميع المسلمين أن يُهاجِموا قبل أن يُهاجَموا. وشعرت للمرة الأولى بأن والدي مدمن على نمط عدائي من التفكير، سيعرّضنا جميعنا للخطر.

تغيّرت حياتنا فوراً بعد الهجوم. وأصبحت «قرية الرياض»، منذ ذلك اليوم، مُطوّقة بسور من رجال الأمن والشرطة السودانيين. ومُنعنا، بسبب الخطر المتزايد، من مغادرة القرية. فلا مزيد من ركوب الدراجات إلى القرى المجاورة. ولن نجول أبداً بعد اليوم على المحال والاحياء. والأكثر مأساوية من ذلك كلّه، أننا لن نعود إلى المدرسة من جديد. وهكذا حصل. فقد أنهيت دراستي العامة وأنا في الثانية عشرة. وسيتلقّى أبناء أسامة بن لادن التعليم الديني والدروس المنزلية وحسب.

وها نحن مرّة أخرى سجناء ومحاصَرون ومحشورون في زاوية صغيرة جداً ومملّة من الخرطوم.

كان عبد الله قائدنا، ما دام معنا. إلا أننا لطالما عرفنا أنه سيكون أول من يتزوّج، وقد تناقشنا بسهولة على مدار سنيّ فتوّتنا في شأن الزوجات المحتملات. لذا، لم يُكشف أي سرّ، حين بدأنا نلاحظ أنه ببلوغه السابعة عشرة، بدأت على قدم وساق الترتيبات لتزويجه بابنة طيّبة محمد بن لادن، وهي الأخت غير الشقيقة لوالدنا من والده محمّد.

ما إن عُيّن الموعد حتى غادر عبد الله بدون لحظة صخب واحدة. لا حفل وداع ولا احتفال يسبق الزواج. ودّع شقيقي أهله بسرعة وهدوء، فلم يتحدّث والدي بالكثير، واكتفت والدتي بأنه ودّعته بنصيحة مقتضبة، «انتبه إلى نفسك يا عبد الله. اذهب على بركة الله». وضّب حاجات قليلة في حقيبة واحدة، وقام بوداع بسيط لأخوته، قبل أن يوصله أحد سائقي والدي إلى المطار.

لم ألاحظ الكثير في ذلك الوقت، لأنني اعتقدت أن عبد الله سيعود إلينا. إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى أبلغنا أنه سيبقى مع زوجته في السعودية. أصيب والدي بخيبة أمل لأنه امتلك في مخيلته صورة عن تولّي أبنائه امبراطوريته، لكنه لم يتفوّه بالكثير عن المسألة. فقد أخفى عنّا، كالعادة، جروح نفسه، وخيباته.

أدركت، حتى في حينه، أن شقيقي محظوظ لتخلّصه من الحياة المعقّدة لعائلة أسامة بن لادن. وأملت، لو أنني عرفت أن سنوات طويلة ستمرّ قبل أن أتمكن من رؤيته، أن أقول له كم يهمني أمره.

ارتقى عبد الرحمن، بعد رحيل عبد الله، مرتبة الابن الأكبر، فقد قرر والدي أن هذا ما يجب أن تكون عليه الحال. لكن شقيقي الأكبر لم يملك الخصال الضرورية لإدارة هذا العدد الكبير من الأخوة الحيويين، كما أنه، إضافة إلى حداثته، لم يعِ أي شيء، ما عدا جياده. وبقي سعد، المولود الثالث، ذلك «الجوكر» الخالي البال الذي لا يمكن لأحد أن يأخذه على محمل الجد، ولا حتى أصغر أولاد العائلة. وسرعان ما وُضعت عباءة الابن الأكثر مسؤولية على كتفي الابن الرابع: أي أنا. ولم تكن كتفاي عريضتين كفاية لمثل هذه المهمّة، لأنني لم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة عندما رحل عبد الله. وبرغم ذلك، بذلت ما في وسعي لاستجماع الحكم الصائب على الأمور حتى أتبوأ الدور المطلوب مني «بجدارة».

لقد فقدنا أولاً الخالة خديجة، ثم جاء دور علي، وعامر وعائشة الصغيرة. وها إن عبد الله الآن بعيد جداً. فمن سيكون التالي؟

عرفت فجأة، وقد أدركت أن الراشدين وحدهم يطرحون مثل هذه الأسئلة، أن طفولتي قد انتهت.

حلّت علينا أزمنة العُسر، وتبخّرت، من الآن وصاعداً، أي حظوظ بالسعادة. وسرعان ما عرفنا أن الحكومة السعودية سحبت منّا جنسيتنا السعودية، وجمّدت موجودات والدي. امتلك بعض المال في السودان وفي أماكن قليلة أخرى، إلا أنه لم يعد يستطيع الوصول إلى حساباته المصرفية الضخمة في المملكة. وستتغير أمور كثيرة بوجود الرصيد المحدود من المال. فقد صودرت منازلنا في جدة والمدينة ومزرعة جدّة، بما في ذلك ممتلكاتنا الشخصية، ووصل الدور حتى إلى جيادنا وأنعامنا.

لم تعد لدينا روابط رسمية بالسعودية.

حلّ الذعر، وتساءلت: من نحن، إذا لم نعد سعوديين؟ تحدّر جدّانا من اليمن، فهل يعني ذلك أننا الآن يمنيّون؟ وقد وُلدت أمي في سورية، فهل أنا سوري؟

جمع والدي العائلة ليبلغنا أننا أصبحنا، منذ الآن، سودانيين! قال «تلطّفت الحكومة ومنحتنا جميعنا الجنسية السودانية».

شعرت بالإعياء. فأنا سعودي، وأعرف ذلك برغم أنني أحببت أموراً كثيرة عند السودانيين. ولطالما بقيت سعودياً في القلب بالرغم من أن الوثائق الرسمية تقول العكس. رأيت، لهولي الكبير لما تفحّصت جواز سفري السوداني، أنه تم تغيير الاسم الذي أُعطي لي في الولادة. أصبحت الآن عمر محمّد عوض عبّود! لم تعد شهرتي بن لادن! بل تم حتى تغيير تاريخ ميلادي من ١٩٨١ إلى ١٩٧٩ بدون أن أعرف السبب.

أخذ عالمنا الصغير يتقلّص يوماً بعد يوم. ازداد والدي توتّراً بعد محاولة الاغتيال، وتصرّف كما لو أن كلّ حكومة في الأرض، غير الحكومة السودانية، هي عدوّته اللدودة. أصبحت في ذلك الوقت في الرابعة عشرة، وأخذت أدرك بانزعاج أن والدي متورّط كثيراً في مسائل سياسية أكثر خطورة مما سبق لي أن

تخيّلته. كم تمنّيت لو أنه حصر نشاطاته في إنتاج أكبر أزهار دوّار الشمس التي عرفها العالم! لكنني عرفت أنني أحلم، وأنه لن يتغيّر أبداً، بل إن شغفه بالجهاد أخذ يتوسّع بالفعل.

بدا كثير من الإشارات المزعجة. أخذ والدي يجتمع جهارة مع مجاهدين عرفهم في أفغانستان، وآمن بعض التنظيمات بالدعوة إلى الجهاد ضد حكومات شرق أوسطية وغربية مختلفة. وكان تنظيم أبي هو «القاعدة» الذي اهتمّ أساساً في ذلك الوقت، بتخليص الدول الإسلامية من التأثيرات الخارجية.

وثمة أيضاً تنظيم الجهاد برئاسة الدكتور أيمن الظواهري الذي ركّز على قلب النظام المصري. ولم ألتقِ كثيراً الدكتور الظواهري، وأنا مسرور لذلك. فقد تركني الرجل، منذ اللحظة الأولى التي التقيته فيها، وأنا أشعر بالاضطراب مع أن والدي يحترمه.

أعترف بأن الدكتور الظواهري رجل ذو فكر متوقّد. وقد وُلد سنة ١٩٥١ في مصر من عائلة ميسورة. وكان والده أستاذاً وصيدلانياً مرموقاً، بينما تحدّرت والدته من عائلة فاحشة الثراء. أخبرني والدي أنه كانت لأيمن الصغير ملكة نادرة في التعلّم. وأصبح وهو شاب إنساناً حالماً، يهوى الشعر ويكره القتال وسفك الدماء. وقلة هم من يعتقدون أن مثل هذا الطالب الشاب المسالم، سيعتنق الإسلام العنفي. تأثّر بعم له من أتباع المذاهب الإسلامية الأكثر جذرية، وتعاون مع غيره من الطلاب لإنشاء خلايا سرّية تدعو إلى إقامة الدولة الإسلامية، فوجد غايته في الحياة، وهي الكفاح ضد السلطة العلمانية.

عاش الطلاب المصريون وسط حقبة مضطربة، واندمجت مختلف الخلايا المحظورة مع بعضها البعض لتشكل مجموعة أكبر تدعى الجهاد الإسلامي في مصر، أو الجهاد. وكان الظواهري عضواً فيها، لكنه واصل دراسته، حتى وهو يخطط لقلب الحكومة المصرية. وتميز وبرع في دروسه، برغم نشاطاته السياسية، وتخرّج طبيباً متخصصاً في الجراحة.

تزوّج الظواهري بامرأة توازيه تقوى وتساند مُثُل زوجها العليا، اسمها عزّة النواري.

ترسّخ الظواهري عميقاً في الحركة الإسلامية، واعتُقل بُعَيْدَ اغتيال الرئيس أنور السادات في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٨١، وحوكم وصدرت في حقه عقوبة بالسجن ثلاث سنوات. سافر بعد إطلاق سراحه سنة ١٩٨٤ إلى جدّة حيث مكث لمدة سنة، ثم غادر إلى بيشاور بعدما شعر بولادة حركة إسلامية مهمّة في باكستان. واستخدم شهادته الطبية للعمل في أحد المراكز الكثيرة التابعة للهلال الأحمر، حيث عالج اللاجئين الأفغان الجرحى.

عاود في هذا الوقت الاتصال بعناصر أخرى في حركة الجهاد الإسلامي في مصر، ما زاد في حميته الثورية، وسرعان ما تم إعلانه زعيماً لها. وتحالف، وهو في بيشاور، مع صديق والدي ومرشده الناشط الفلسطيني عبد الله عزام. ومن خلاله التقى والدي.

أعتقد أن الظواهري شرع في ذلك الوقت في التخطيط للتعيُّش من ثروة والدي، وسمعت أنه اصبح منافساً لعزّام في مساهمات والدي المالية، من أجل قضية الإسلام.

ولما رجع أبي، في نهاية الحرب، إلى السعودية، عاد الظواهري إلى مصر. لكنه لم يتمكن من البقاء بعيداً عن المشاكل، واستأنف بعد عودته جهوده للإطاحة بالحكومة المصرية بقيادة الرئيس حسني مبارك، وقامت مجموعته بمحاولات اغتيال عدّة فاشلة لمسؤولين حكوميين مختلفين، إلا أن محاولاتهم ارتدّت عليهم عندما قُتل عدد من المدنيين المصريين الأبرياء في محاولات الاغتيال. فانقلب سواد الشعب المصري على الراديكاليين الإسلاميين الذين سبق أن تمتعوا بشعبية كبيرة في أوساطهم.

لم يعد الظواهري موضع ترحيب في مصر، فسافر إلى الولايات المتحدة حيث أصبح واحداً من راديكاليين مسلمين كثر، يحاولون، في حلقات خطابات شعبية، جمع الأموال لتنظيماتهم. ويُقال إنه ادعى كذباً أن الأموال المجموعة

ستذهب إلى الأطفال الأفغان الجرحى. وتحدث كثير من الراديكاليين المسلمين عن هذه الأموال، وقالوا إن الظواهري لم يجمع المبالغ الكبيرة التي تصوّر أنه سيجمعها. وعند ذاك، سمع أن والدي هرب من السعودية إلى السودان، البلد الذي تحكمه حكومة إسلامية صديقة للمجموعات الراديكالية.

أسفتُ لأن الظواهري اقتفى أثر أبي إلى الخرطوم، وربط مرّة أخرى نفسه ومنظمته بتنظيم «القاعدة»، وشعرت بأن لا شيء جيّد يمكن أن ينتج عن هذه الشراكة.

ولا يمكن نسيان تنظيم الجماعة الإسلامية بقيادة عمر عبد الرحمن، رجل الدين المصري الضرير. ولأنه كان في السجن في الولايات المتحدة، فقد أصبح ابنه المنظّم المحلّي في الخرطوم. لكن روح الرجل العجوز بقيت تُلهم أتباعه.

سمعت عنه كل شيء. فقد وُلد عبد الرحمن سنة ١٩٣٨ في مصر. أصيب بمرض السكري وهو طفل، وفقد النظر وهو ولد صغير. أُعطي نسخة من القرآن بأبجدية «براي» للعميان، ونشأ لديه اهتمام شديد بالتعاليم الإسلامية. تخرّج، برغم إصابته بالعمى، من جامعة الأزهر الشهيرة في القاهرة، وحصل على شهادة في الدراسات القرآنية.

اهتمّ عبد الرحمن، وهو في الجامعة، بالجماعة الإسلامية، وأصبح عضواً فيها. وسرعان ما برز كقائد لها. ونددّ بالحكومة المصرية، داعياً إلى تشكيل حكومة إسلامية خالصة. ووصل به الأمر إلى حدّ إصدار فتوى تدعو إلى الإطاحة بالرئيس أنور السادات. وقد أُوقف بعد اغتيال السادات لإصداره الفتوى الشهيرة تلك، وأمضى ثلاث سنوات في السجون المصرية ينتظر محاكمته، وتعرّض أثناءها للتعذيب في انتظار المحاكمة. وقد طردته الحكومة المصرية برغم إعلان براءته فسافر إلى أفغانستان، حيث بدا أن جميع الراديكاليين يتجمعون فيها. والتقى هناك أستاذه السابق في المدرسة عبد الله عزام، وتعرّف من خلاله إلى والدي.

شكّل اغتيال عبد الله عزّام سنة ١٩٨٩ مأساة، لأنه غالباً ما كان يهدئ العنف المتخمّر في نفوس المؤمنين الراديكاليين.

بعد الاغتيال، سافر الضرير عبد الرحمن إلى نيويورك حيث ثبّت نفسه زعيماً لتنظيم عبد الله عزّام. وقد مُنح تأشيرة وسُمح له بدخول البلاد، بالرغم من أنه مُدْرَجٌ على لائحة الإرهاب التي وضعتها الإدارة الأميركية.

سافر الشيخ الضرير عبر الولايات المتحدة وكندا، حاشداً الدعم للقضية الإسلامية الهادفة إلى إسقاط الحكومات العلمانية. كان خطيباً صفيقاً، ودعا مؤيديه إلى تجاهل القوانين الأميركية وقتل الأميركيين اليهود. وأمر المسلمين، بعدوانية، بمهاجمة الغرب، وتمزيقه، وتدمير اقتصاده، وإحراق شركاته، والقضاء على مصالحه، وإسقاط طائراته، وقتله أينما وُجد في البر والبحر والجو.

ويقف أتباعه، في الواقع، وراء تفجير مركز التجارة العالمي في ١٩٩٣. وقد اعتُقِل في حزيران/يونيو ١٩٩٣ بعد سنة تقريباً على وصولنا إلى السودان. ولهذا، كان ابنه يدير منظمته. لكن سجن رجل الدين الضرير أصبح صيحة التجمّع للمجاهدين الإسلاميين في شتى أنحاء العالم.

بعبارات مبسّطة، ركّزت هذه المجموعات الثلاث كلّها على الجوانب المختلفة للعودة إلى الجهاد الإسلامي، بالرغم من أن التنظيمين المصريين كانا شديدي التصلّب في ما يتعلّق بهدفهما قلب الحكومة المصرية ليمكن إحلال حكومة إسلامية محلّها.

وجاءت مجموعتا الجهاد والجماعة الإسلامية بعائلاتهما أيضاً للإقامة في السودان. في البداية، أبقانا والدنا معزولين عن أيّ كان، ما عدا أفراد عائلتنا، لكنه سمح لنا باطّراد بالاختلاط مع الأبناء المراهقين لهؤلاء الزعماء. وثمة صبي معيّن، في مثل عمري، ويستمتع بالنوع ذاته من الأنشطة التي استمتع بها. وهو ابن محمّد شرف، الرجل ذي المكانة الكبيرة في تنظيم الجماعة الإسلامية.

حصلت حادثة مُقزّزة عندما استهدف أحدهم صديقي ابن محمد شرف. فقد

اختُطف ذلك الفتى، وتناوبت مجموعة من الرجال على اغتصابه. وزاد في الطين بلّة، أن المغتصبين التقطوا صوراً له أثناء الاغتصاب وبعده.

تمكّن صديقي المسكين من النجاة بحياته وعاد إلى والده، محمّد. والمريع في الأمر أن تلك الصور انتهت بين يدي الدكتور الظواهري زعيم تنظيم الجهاد. احتدم الدكتور الظواهري غضباً، معتقداً، لسبب ما، أن الفتى مخطئ. وتوجد صور تثبت ذلك! وفي عالمنا، يُعاقَب من يمارس اللواط بالموت. وهكذا انتظر صديقيَ رعبٌ من نوع آخر لمّا اعتقله قادة التنظيم، وحاكموه، وحكموا عليه بالإعدام.

لم يتورّط أبي في أي شيء له علاقة بهذه الحادثة، لكنه استخدمها ليذكّرنا بأنه لطالما أبقى أولاده تحت الحراسة وعلى مقربة من المنزل حتى لا تحصل مثل هذه الأمور. وذكّرنا بوجود أناس كثر يودّون الإساءة إليه من خلال أبنائه الصغار.

حزنت كثيراً لأن أبي رفض التحدّث مع الدكتور الظواهري عن الحادثة، وإنقاذ حياة صديقي، لأنني اعتقدت في تلك الأيام أنه في مقدوره إنجاز كل ما يريده.

عرف محمّد شرف الحقيقة. ودافع ذلك الوالد الصالح بقوّة عن ابنه، قائلاً للظواهري إنه ضحية بريئة. لكن لم يرد أحد الاقتناع بأنهم حكموا خطأً على صبي بريء. وهكذا حصل، حيث أمر الدكتور الظواهري بجلب صديقي المقضي عليه إلى مكتبه، وجُرّ إلى إحدى الغرف مع الدكتور الظواهري الذي أطلق عليه النار في الرأس.

جمدتُ لأيام من وقع الصدمة والحزن لإمكان قتل شخص بريء على أيدي أولئك الذين اعتقدَ أنهم يوفّرون له الحماية. امتقعتُ غضباً من الأهوال التي عاناها المسكين في أيام حياته الفتية الأخيرة، من تعرّضه أوّلاً لاغتصاب جماعي، واتهامه من ثمّ زُوراً بممارسة اللواط، ثم تلك الصورة الأخيرة التي راودتني عنه والمسدس مصوّب إلى رأسه، قبل أن يتحوّل عالمه إلى ظلام، وتنتهي حياته على هذه الأرض.

ذكّرتني تلك الأهوال التي يقشعرّ لها البدن، بأنه كان يمكنني أن أعاني المصير ذاته. فالتهديدات بالاغتصاب شكّلت الطريقة المفضّلة للتخويف التي استخدمها المتنمّرون في مدارسي السابقة في جدّة والمدينة. لم أخبر أحداً عن تلك التهديدات، لأنني خجلت من تعرّضي لها، إلا أنه لا يسعني الآن إلا أن أتساءل لو أن أمراً كهذا حصل، فهل كنت أخسر حياتي عقاباً على جريمة ارتكبها غيري؟

أدركت للمرة الأولى أيضاً أن بعض الرجال المحيطين بوالدي، قد يشكّلون خطراً حتى على أبناء أسامة بن لادن. فمثل هؤلاء الرجال رقصوا مع العنف مذ كانوا يافعين، وها إن دماءهم مجبولة الآن بسوء النيّة. وأنا لطالما أدركت هذا، إلا أنني شعرت بأنني محصّن ضد حوافزهم القاسية. لكن محمّد شرف واحد من أكثر القادة بروزاً. وإذا تعرّض ابنه للاغتصاب والقتل، فيمكن إذاً أن نُستهدف أنا وأخوتي أيضاً. ومنذ ذلك الوقت، أخذنا نتيقّظ حيال من يجب أن نثق به، وكانت لنا، للمرة الأولى، ومضة تفهّم للسبب الذي دفع بوالدنا إلى الشعور بأنه يجب إبقاء أبنائه الصغار في أمان.

بقي سؤال واحد يقضّ مضجعي: لماذا يمكث والدي المثقف جداً والناعم الكلام، مع مثل هؤلاء العرابيد، حتى لو كانوا مخلصين لقضيته؟ لم يمكنني أبداً فهم الأمر.

ثمة قلّة من قدامى المحاربين الذين تبعوه منذ أيام الحرب الأفغانية - الروسية ممن تجدر مراقبتهم بالرغم من أن أغلبهم لم يُظهر قط أي مسلك إجرامي. فأحدهم قتل جرو كلب، بينما دفن الآخر كلباً وهو حيّ. أما الثالث فدهس قرداً أليفاً عزيزاً علينا.

إن المسلمين المولعين بالكلاب قلّة، وذلك بسبب تعاليمنا الإسلامية. فنبيّنا أوصى بأنه من الأفضل تفاديها. وطلب والدي، برغم هذا الإيعاز الديني، بعض كلاب الحراسة من ألمانيا، لكنه غالباً ما أبقاها في الجوار. وتصادقنا، أنا وأشقائي، مع بعض حيوانات الجيران الأليفة، إضافة إلى كلاب شاردة

تتسكّع حول «قرية الرياض»، وكنا نحتفظ ببعض الفضلات التي نطعمها إياها. نبعت أفعالنا في البداية من الضجر، لكن جمال الجراء شدّها إلى قلوبنا. وسرعان ما أصبح لكل منا الجراء المحبّبة إلى فؤاده.

كان الكلب المفضّل لديّ يُسمّى بوبي، لونه زنجبيلي وأبيض، وحجمه متوسط وأذناه متهدّلتان وغريبتان. وكان لبوبي شريكة اسمها شامي. أحب هذان الكلبان بعضهما البعض، وبدا أن كلاً منهما مخلص جنسياً للآخر. وكان ثمة كلبة أخرى اسمها لاسي حاولت إغواء بوبي، لكنه لم يهتم في البداية. إلا أنها كانت أجمل من شامي، ويبدو أن تأثيرها فعل فعله. فما كدنا نحاول تشجيع بوبي ولاسي على التناسل، لأننا أردنا جراءً من هذين الحيوانين الجميلين، حتى نجح سحر الإغواء، وأصبحت لاسي أمّاً لبعض الجراء الجميلة. وفي اليوم ذاته، أخذ الزبد يخرج من فم جروي المفضّل. ناديت على أحد المحاربين القدامى الذين كانوا مع والدي أملاً مني أن نتمكن من نقله إلى الطبيب البيطري المحلّي، لكن المحارب قرر فوراً أن الكلب مصاب بداء الكلب. وقال إنه لا يمكنه إطلاق النار عليه، وإلا أثار حفيظة الحيّ كلّه، واستغرابه أيضاً. ولكن عليه أن يقتله. وقبل أن أعرف ماذا يحصل، أحضر حبلاً، وتسلّق إحدى الأشجار، وربط طرفه بأحد الأغصان، والآخر حول عنق جروي، ودعا شقيقي عبد الرحمن إلى الإمساك بطرف الحبل وأمره بألا يفلته. لم يعرف عبد الرحمن المسكين ما العمل، فقام بما طُلب منه. وأنا كنت مجرّد ولد، وقفت هناك أحتج سُدىً في حين تدلّى جروي من عنقه إلى أن نفق.

بلغ الانزعاج من العدد الكبير من الكلاب الضالة المتسكعة في الحي، بأحد قدامى المحاربين، أن حفر حفرة في الأرض ونصب فخّاً. وما إن وقعت كلبة فيه، حتى سارع إلى ضربها على رأسها بقضيب حديدي، ثم سحبها ورماها في سيارته ومضى بجثتها إلى طرف الصحراء حيث تخلّص منها.

حزنّا، لكننا لم نعرف ماذا نفعل. وعرفنا أن والدنا سيأخذ جانب قدامى حربه. كنا شهوداً عاجزين عن أي أمر يقرر أحد الراشدين القيام به.

وتخيلوا مفاجأتنا بعد ذلك ببضعة أسابيع، عندما عادت كلبتنا وهي تعرج، وتمدّدت عند باب الجامع، مثيرة الشفقة، وقد فقدت إحدى عينيها، وتحمل جروحاً وكدمات أخرى ظاهرة. لكن المهم أنها حيّة. واستمررنا، بعد تلك النجاة بشق النفس، في تزويدها بالطعام، إلى أن غادرنا الخرطوم.

ولكن لا شيء أكثر خروجاً من المألوف من المصير الذي لقيه قردنا الأليف العزيز على قلوبنا.

استحصل والدي على المزيد من الأراضي في أنحاء مختلفة من البلاد. وكانت إحدى مزارعه في الدمازين، جنوب الخرطوم على مقربة من الحدود الإثيوبية. أقيمت في المزرعة الأكواخ الشبيهة بقرن المثلجات، وزرناها أحياناً. على مقربة من أحد الأدغال حيث تعيش أنواع مختلفة من القرود بدا أنها تستمتع بتسلية الزوّار. وكان ثمة قردة تحمل قرداً صغيراً متمسّكاً بعنقها. أراد أحد العمال السودانيين القرد الصغير، فنصب فخّاً لأمه بأن وضع لها مخدّراً في الماء، وحصل عليه بهذه الطريقة. وقد أحب الجميع ذلك القرد الصغير، حتى البالغين. ودجّنه الأطفال وهم يطعمونه ويلاعبونه.

لما وصلنا في أحد الأيام إلى المزرعة لم نعثر عليه في أي مكان. فتشنا، أنا وإخوتي كل زاوية فيها، إلى أن جاء طبّاخ أبي وهمس في أذني بأنه مات، وأن واحداً من رجال والدي ممن أُرسلوا إلى المزرعة للعمل، استاء كثيراً لمنظر القرد الأليف، فطارده إلى أن دهسه بصهريج الماء.

استشطنا غضباً، ولم نستطع أن نفهم كيف يمكن لأي شخص أن يتعمّد قتل مثل ذلك المخلوق الجميل الذي لم يفعل شيئاً سوى جلب الفرح الذي نحتاج إليه كثيراً في حياتنا. تخيّلوا صدمتنا عندما علمنا بأن المحارب السابق أبلغ الجميع بفرح شديد، أن القرد المسكين ليس قرداً على الإطلاق، بل شخص يهودي مسخه الله قرداً. فهو لم يقتل، بنظره، إلا يهودياً!

اهتز بدني كلّه لسماعي مثل هذا الحديث السخيف. لا أنكر أنني كنت صغيراً ولا أعرف أمور الدنيا، لكنني أفكر بعقلي، وأعرف أن القرود ليست يهوداً، وأن اليهود ليسوا من فصيلة القرود.

أدركت، على غرار كثير من الأولاد العرب، الكره العظيم، بل الحقد في بعض الحالات، بين المسلمين واليهود وبين المسلمين والمسيحيين. لكن التعصّب لا يولد مع الأطفال. وبالرغم من أنني عرفت أن كثيراً من المسلمين يعتبرون اليهود أعداء، فإن أفكاري لم تذهب في ذلك الاتجاه.

وأذكر أنني ارتعت أكثر لما أُخبِرتُ لاحقاً بأن والدي هو الذي أقنع الجندي القديم بنظرية «اليهودي - القرد» السخيفة تلك. آلمني وأغضبني أن أبي هو من سبّب حصول مثل هذا الأمر.

أخذت الحياة التي أعيشها تزداد غرابة، وأضحت أكثر فأكثر لا تُطاق، لكن لا حول لي ولا قوة لكوني طفلاً، وقد جرفني تيار من الحقد بلغ من القوة درجة أخذتُ معها أكافح لأنقذ نفسي. وزاد من همومي، منذ فشل عبد الله في العودة إلى حضن العائلة، أن عيني والدي أخذتا تركُزان دائماً عليّ. فهل أنا الابن المختار؟

سرعان ما دار الحديث عن أننا قد لا نتمكن من البقاء في السودان، وأن السعودية وحكومات إقليمية أخرى لا تريد وجود أسامة بن لادن في هذا البلد. وقيل لنا إن الرئيس الأميركي بيل كلينتون وحكومته يريدان طردنا من البلاد. لماذا؟ لم يمكنني أن أعرف لماذا يجلس الرئيس الأميركي في مكتبه في واشنطن، وهو يفكّر في والدي.

لم أملك، طبعاً، أي معرفة بالخطط المتواصلة التي تغذّيها «القاعدة»، أو أحد التنظيمين الراديكاليين الآخرين المنحازين إلى تنظيم والدي.

والغريب أن أبي نفسه لم يهتم في البداية بالدعوات إلى طرده. فهو على ارتباط وثيق بالحكومة، وأكبر أحزابها، ويُدعى الجبهة الوطنية الإسلامية، وكذلك بالرئيس، الفريق عمر حسن أحمد البشير. بل إنه هَنِيءٌ أكثر بالعلاقة مع حسن الترابي، الرجل القوي جداً في السودان. ووفّرت أعمال والدي منافع كبيرة جداً، إلى درجة أنه أعتقد أن الحكومة السودانية لن تطرده أبداً، بغض النظر عن مدى الضغوط التي قد تمارسها السعودية أو مصر، أو حتى الولايات المتحدة.

لكن والدي كان مخطئاً. فثمة حدود للضغوط التي يمكن حتى لحكومة شرعية أن تتحملها. بل إن حادثة حصلت في السنة السابقة هي التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى وضع حد للأيام السعيدة في السودان. ففي ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٩٥، توجه الرئيس المصري حسني مبارك في موكب سيّار للمشاركة في إحدى القمم الأفريقية. كان متجهاً من المطار إلى العاصمة الإثيوبية أديس أبابا لمّا قطع مسلحون الطريق على الموكب، وأطلقوا النار على سيارة الرئيس المصري الليموزين. قُتل اثنان من حرّاس مبارك، لكن سائق الرئيس كان ماهراً إلى درجة أنه دار بالسيارة في أرضها، وأسرع يطلب الأمان في المطار منقذاً راكبه الأكثر شهرة.

قُتل اثنان من المهاجمين الستة في تبادل إطلاق النار. واستغرق التحقيق الذي تلى ذلك بعض الوقت، لكن المحققين تحروا أمر القَتَلَة، وعرفوا أنهم يتبعون منظمة الجماعة الإسلامية التابعة لعمر عبد الرحمن، وهم الرجال أنفسهم الذين يقيمون الآن في السودان، ويرتبطون ارتباطاً وثيقاً بتنظيم القاعدة التابع لوالدي. وقد عمل هذا التنظيم، على مدى سنين، على قلب نظام الحكم في مصر. بل إنه كان مسؤولاً أيضاً عن اغتيال الرئيس السادات سنة ١٩٨١. وفي الواقع، فإن شوقي الإسلامبولي، وهو أحد القَتَلَة في الفريق المكلف اغتيال مبارك، هو شقيق خالد الإسلامبولي الذي اغتال السادات. وقد حوكم خالد لاحقاً وأعدم رمياً بالرصاص. أما شوقي فلم يتم اعتقاله.

بعد محاولة الاغتيال هذه، انضمت جميع حكومات المنطقة تقريباً إلى جوقة «القيام بأمر ما في شأن أسامة بن لادن». لكن الأمر استغرق عاماً، فتراكمت الضغوطات إلى أن أصبحت الحكومة السودانية وحدها في مواجهة جاراتها.

وشعرنا نحن أنفسنا بالضغوط، برغم أننا لم نعلم بالتفاصيل الخفية كلها. وبدا واضحاً، على مدى بضعة أشهر قبل انتهاء فترة إقامتنا في السودان، أن والدنا مغلوب على أمره. لم يتحدّث مع أبنائه عن مشاكله، إلا أننا شاهدنا مسؤولين حكوميين سودانيين، منقبضي الوجوه، يأتون ويذهبون. ولا يتطلّب الأمر عبقرية لمعرفة أن أمراً جللاً يجري على قدم وساق.

واستنتجنا، أنا وأشقائي، أنه يُحتمل أن نغادر السودان. وقد أجفل والدنا، قبل ذلك ببضعة أشهر، أكبر أبنائه بعرضه وثائق قانونية تفيد أن عبد الله، وعبد الرحمن، وسعد، هم الموقّعون عنه، أي أنهم الأبناء الذين سيُخوّلون سلطة العمل نيابة عنه في حال العجز.

استشطت غضباً لعدم إدراج اسمي، وسألت والدي، «لماذا لا يحق لي التوقيع؟» فرمقني بنظرة حادة، ولم يجب. هكذا أصبح ثمة أمر آخر للقلق.

جاءت النهاية في يوم تعيس في أواخر ربيع ١٩٩٦، عندما جلسنا جميعنا بحزن في حجرة أمي. أذكر ذلك اليوم لأنه كان مضجراً كثيراً. شعرت بسلاسل السجن تلفّني بإحكام، حتى يصعب عليّ أخذ نفس بسيط. وأصبحت أكثر غضباً حيال كل وجه من أوجه حياتي. تحوّل حرّاسنا الأمنيّون إلى صقور، تتبع أعينهم الجاحظة كل حركة من حركاتنا، كما لو أننا عصافير صغار على وشك أن نُلتهم. شعرت في مثل تلك الأوقات بأن حياتنا كعائلة بن لادن ستكون أقل تعاسة لو أننا لم نذق طعم الحرّية. ويمكنني أن أؤكد بأن اشتياقنا إلى الحرية المفقودة صار أكثر حدّة.

جلسنا هناك نفور يأساً لمّا دخل علينا والدي. بلغ الوجوم على وجهه حدّاً شعرت معه، للمرة الأولى في حياتي، بالأسى عليه. أشار إلينا لنفسح له في المجال ليجلس بيننا. وها نحن نجلس وأعيننا إلى الأرض، لأن عدم التحديق مباشرة في أعين الأكبر سنّاً، هو من إشارات الاحترام في مجتمعاتنا.

تردّد، ثم قال بصوته الهادئ: «الديّ ما أقوله لكم. أنا مسافر في الغد». ألقيت، موقتاً، نظرة سريعة لأراه يتطلع ناحيتي. فأبعدت عينيّ سريعاً. وأعلن: «سآخذ ابني عمر معي».

نظرنا جميعنا إليه بصدمة من التبس عليه الأمر، والأسئلة ذاتها تتسارع في ذهننا: السفر؟ إلى أين؟ لماذا تأخذ عمر؟

احتج أشقائي: «لكن لماذا يذهب عمر؟ لماذا لا يمكننا الذهاب؟».

استجمعتُ قواي لتلقي العنف من أبي الذين لم يتعوّد على الاعتراض على قراراته، لكنه، لأول مرة، لم يرفع عصاه. بقي قاسياً ومتباعداً، وأجاب بجفاء «تعرفون أنه يجب ألا تعارضوني».

لم أعرف حقّا بماذا أفكّر. بالرغم من أن العزلة التي عشناها قد أوصلتني إلى حدّ لم أهتم معه كثيراً بالوجهة التي يأخذني إليها والدي. فالرحلة هي الشيء المطلوب، وليست الوجهة.

احتفظ أشقائي بالصمت وهو يصدر تعليماته: «لا توضّب أغراضك يا عمر. لا تأخذ فرشاة أسنان. لا تأخذ مشطاً. ستذهب أنت وحدك». وقف واستدار مشيراً إلى والدتنا لتلحق به إلى غرفة نومهما.

جفّ حلقي، ودار رأسي، فجلست كالمشلول. لقد تم اختياري! سأذهب بعيداً مع والدي!

وجّه إليّ أشقائي نظرات حادة، لكنني تجاهلت سلوكهم الفظّ.

حضّرت فراشي وحاولت الاسترخاء. من يدري كيف نسافر؟ فمن خلال معرفتي بوالدي، لا أستغرب أن نغادر الخرطوم على صهوة جواد! هجرني النوم وأنا أفكّر بما قد يأتي به الصباح: إلى أين وجهتي؟ هل سنعود إلى الخرطوم؟ ورغبت، في حال عدم تمكننا من البقاء فيها، في العودة إلى جدة، إلى زمن كان فيه والدي بطلاً في أعين العالم. ربما أنه والعائلة المالكة قد وضعا خلافاتهما جانباً. نعم، جدّة ستكون جميلة. ثم إن عائلاتنا الأساسية تعيش هناك. وهناك برغم تعاستي كتلميذ، رابط لا ينكسر بين عائلتنا والسعودية.

سارعت إلى تنحية هذه الفكرة لأنني لست غبيّاً، ولم يفتني التوتّر المتصاعد بين والدي والعائلة المالكة السعودية. وسيستحيل علينا العودة إلى ماضينا، لأن أبي مقتنع بأنه سيُسجن في أرض مولدنا.

استعرضت أماكن أخرى قد ينتقيها والدي لإقامتنا الجديدة. هل سننتقل إلى اليمن؟ عرفت أن لوالدي اتصالات عدة هناك، وهي موطن جدود كل من

عائلتي أبي وأمي. لم يسبق لي أن ذهبت إلى اليمن، ولن أمانع بالتالي في رؤيتها، أو ربما نحن عائدون إلى باكستان؟ فقد أنشأ والدي شبكة ضخمة من الشركاء في ذلك البلد، وأعرف أن بيشاور أصبحت ملجأ غريباً وآمناً للمقاتلين المسلمين الساخطين. وأنا لست حريصاً على الإقامة في باكستان، لأنني أذكر جيّداً الفقر والعزلة اللذين اختبرتهما هناك. ولم يمكنني أن أتخيّل، فيما عدا اليمن وباكستان، أين يمكننا أن نستقر.

أصبحت، بعد صلوات الفجر، حاضراً ذهنياً لمغادرة السودان، مع أنني عانيت وخزات متقطّعة أسفاً على أتخلّى عنه. ماذا سيحصل لجيادنا؟ هل يتم التخلي عنها مثل جيادنا في السعودية؟ كم سيمر من الوقت قبل أن أتمكن من رؤية أمي؟ لم يسبق أن افترقنا أبداً لأي فترة. أحببتها أكثر من أي شخص في حياتي. واضطربت معدتي لفكرة افتقاد حضورها اليومي، ومسلكها الهادئ الذي جلب السلام إلى عائلتنا بأكملها. ولما ودّعتها، احتضنتُ يدها الصغيرة في يدي ولامستها بقبلة حنونة.

تغضّن وجهها الجميل بابتسامة بطيئة عذبة. «انتبه إلى نفسك يا عمر. اذهب على بركة الله». نظرتُ نظرة طويلة أخيرة إلى وجه أمي قبل أن أستدير إلى أخوتي الواقفين إلى جانبنا. وفي عجلتي للرحيل، تمتمت بوداعٍ سريع لكل منهم.

الفصل الرابع عشر

رحلة في المجهول

عمر بن لادن

تبعت والدي في كل خطوة من خطواته، وأنا لا أعرف وجهتي أو الفترة التي سأبقى فيها بعيداً. علّق كلّ منّا سلاحه الكلاشينكوف التقليدي في كتفه، بالرغم من أننا محاطان بقوة أمنية كبيرة، مع حرّاس اصطفّوا كتفاً إلى كتف إلى أن أصبحنا في أمان داخل سيارة الدفع الرباعي ذات النوافذ المعتمة. وما إن جلس الجميع، كلٌّ في السيارة المخصصة له، حتى انطلق موكب السيارات في وقت واحد، وزاد من سرعته لما اجتاز «قرية الرياض»، وربما كانت معجزة أن لم تصدم سيارة الطليعة العمّال السودانيين الغافلين الذين يعبرون الطرق الضيقة.

انغمس والدي في تفكير عميق، ولم يحادثني ولو بكلمة واحدة في المشوار القصير إلى المطار، وبوصولنا إليه نُقلنا سريعاً إلى طائرة «ليرجت» مستأجرة. عومل والدي وجماعته كالشخصيات السياسية والدبلوماسية بدون أي حاجة إلى الإجراءات المتعلقة بجوازات السفر والجمارك. كان على متن الرحلة، بالإضافة إليّ أنا وأبي، ثمانية ركّاب، سبعة منهم يعملون لوالدي، وهم الرفاق الثابتون على العهد في ساعة الضيق. وغالباً ما شاهدت بعضهم حول بيت ضيافته. وقد سافر معنا الأخ سيف العدل، رئيس جهاز الأمن الخاص بأبي، ومحمد عاطف، أفضل أصدقائه وقائده الأعلى. أما المسافر غير المُتوقّع فهو أحد الأعيان السودانيين، الرجل الذي دعاه أبي محمد إبراهيم.

شعرت بنفسي حارساً لوالدي، بالرغم من أنني صبي في الخامسة عشرة، ولا أزال صغيراً وغير مكتمل جسمانياً ولم تنبت لي حتى شعرة واحدة في وجهي الناعم. لكنني كنت مستعداً للموت، برغم حداثتي، من أجل الرجل الذي سعيت وراء حبه مذ أخذت أتعلّم المشي. شعرت بحماسة لوضعي كابن مفضّل، ووقفت جانباً باحترام معايناً المنطقة المباشرة، في حين كان أبي يتسلّق الدرجات الخمس قبل الدخول إلى ما أمِلْتُ أنه الأمان في داخل الطائرة.

تبعته، وتوقّفت للحظة عند الباب لإلقاء نظرة على المحيط. وقد انبعثت من كل شيء في الطائرة رائحة الجلد الجديد. لا بد من أن مسؤولاً في الحكومة السودانية بذل جهداً كبيراً لإظهار الاحترام لوالدي من خلال استئجار مثل هذه الطائرة الغالية. اختار والدي مقعداً في الممر الأول من مقدمة الطائرة محتفظاً بسلاحه في حضنه، وجلس الأخ سيف العدل في المكان الأقرب إليه، بينما جلست وراءه في المقعد القريب من النافذة. وتكوّم محمد عاطف وصديق آخر من أصدقاء أبي المخلصين في مقعدين مجاورين. وفي الجوار جلس رجل ثالث عرفته باسم حاتم، ويداه تمسكان بخارطة وبوصلة. وسار الرجال الأربعة الآخرون الذي اختيروا لمرافقتنا على مهل، إلى مؤخرة الطائرة.

أخذ ذهني يعمل بسرعة وأنا أتكهن بالوجهة التي نذهب إليها، والتزمت الصمت غير راغب في أن يعرف من هم على متن الطائرة أنني أسعى إلى معرفة المعلومات السرّية. وغابت علامات الانفعال عن وجهي، برغم الإثارة التي أخذت تعتمل في داخلي. فنحن، بلا شكّ، نبدأ في مغامرة.

وخزتني ذكرى أشقائي الذين تركناهم وراءنا، وأدركت على الفور السبب في عدم قيام والدي بتخويلي التوقيع رسمياً عنه. فهو ليس متأكداً من أن أياً منّا سينجو من رحلة اليوم! ولو أن فاجعة وقعت، فسيتحمّل أشقائي المسؤولية عن شبكة أعماله الواسعة.

هل نحن متوجهون إلى المشاكل، بل ربما إلى الموت؟ شكّل الموت في الخامسة عشرة هاجساً مخيفاً، بالرغم من أننا، نحن المسلمين، نُلقَّن منذ

صغرنا أن الحياة على الأرض، بالنسبة إلى المؤمن الحقيقي، ليست سوى الخطوة الأولى إلى الجنة.

لكنني لم أكن بعدُ حريصاً على الذهاب إلى الجنة. واستذكرت الرجال المسلحين الذين حاولوا اغتيال والدي، وتساءلت إذا كان ثمة فريق ضارب جديد سيقوم بتطويق الطائرة ونحن ما زلنا متوقفين على المدرج. ولم أتنفس الصعداء إلا والطيّار يرتفع بالطائرة إلى السماء. رفعت رأسي وحدّقت في ما أنا مغادره. حلّ بي حزن موقت، وهمست في سرّي صامتاً، «وداعاً يا خرطوم... الوداع».

سرعان ما اختفى من الكوّة منظر المدينة الأفريقية التي تعجّ بالحركة، ولم أعد أرى شيئاً من ذاك المكان الذي أصبحت أحبه الآن. انجرفت الحياة التي عرفتها في الأعوام الخمسة الماضية فجأة كما المدّ الذي يندفع مسرعاً فوق الشاطئ جارفاً سنوات حداثتي الفريدة تلك. وأنا الذي ذقت، للمرة الأولى، طعم شيء شبيه بالسعادة الحقيقية. لكن ثمة ما يقول لي إن عمر بن لادن لن يعرف أبداً من جديد مثل هذا الفرح.

تنهّدت بقوّة، وأنا أحكّ ذقني بيدي متمنّياً لو أمكن أن تنبت لي على الفور لحية كبيرة. ولو حصل ذلك لاعتُبرت رجلاً بالغاً يمكنه أن يتخذ خياراته الخاصة، كما فعل شقيقي الأكبر عبد الله. وعرفت أنني لو خُيّرتُ لهربتُ بعيداً من جنون حياة عائلة بن لادن. إلا أنني، على غرار أمي وإخوتي الأصغر مني، لم أمتلك من خيار سوى أن أتبع أبي أينما أدت بنا أعماله إليه.

أخذ التوتّر على متن الطائرة يزداد مع مرور كل دقيقة. أحببت أن أسأل عمّا سيحصل، لكن صمت والدي المعدي امتدّ إلى جميع من على متنها بين الأرض والسماء، فلم أجرؤ على الكلام.

لم يسبق لأبي أبداً أن فاتح أحداً، حتى أفراد عائلته، بأفكاره، وعرفت برغم ذلك أن مزاجه عصيب على غير العادة، بل ربما كان غاضباً. لم يعتقد أبداً أنه سيُطرد من السودان، لكن هذا ما حصل.

سمعت حفيف ورق خفيفاً، في وقت أخذ فيه حاتم يقلب خارطته الإقليمية، ثم يعيد تقليبها، مرة تلو الأخرى. وكان يبدو مربكاً من حركات يديه وعينيه، ينظر بإمعان إلى البوصلة، ثم إلى الخارطة، ويضع الإشارات العاجلة في الهامش. تعمّد حاتم أن يعرّفنا بطريقة مخيفة أنه لا يثق بإخلاص الطيّارَيْن، ولا بد من أن هذا يعني أن والدي يشكّ في أنه قد يكون عرضة لخداع الحكومة السودانية.

لقد صُعق أبي لمّا استسلم مضيفوه المُرَحِّبون السابقون، لمطالب السعوديين والمصريين والأميركيين. ولمّا أدرك أن ليس أمامه من خيار، تحوّل تركيزه سريعاً إلى المكان الذي يمكن أن ينقل إليه عملياته، وإلى الأموال والبضائع التي سيُسمح له بأخذها معه.

وها إن تلك الأسئلة تزعجني أيضاً. إلى أين سنذهب؟ هل سنخسر كل ممتلكاتنا؟ تذكّرت أنني أُمرت بمغادرة الخرطوم بدون أن أحمل فرشاة أسنان في يدي، فأخذت أرتاب في أن كل شيء قد ضاع. لم أتمكن حتى من تمرير جهاز الاستنشاق، وأدويتي المضادة للربو، إلى الطائرة. وأملت أنه يمكنني العثور على جهاز استنشاق وبعض الفانتولين، ما إن نبلغ وجهتنا التي لا أزال أجهلها.

كنا نواجه في الأساس أسئلة أكثر إلحاحاً من مصير ممتلكاتنا: هل باع المسؤولون السودانيون والدي؟ هل أُعطيت الأوامر للطيارين بنقلنا إلى الرياض، أو حتى إلى أميركا، لنواجه الاعتقال والسجن؟ أم ثمة من يخطط لإسقاط طائرتنا من السماء؟

بحثت عن الطمأنينة، فغيّرت من وضعيتي لألقي نظرة في أرجاء الطائرة. لم يكشف والدي عن الكثير، لكن الدبلوماسي السوداني، إبراهيم، شكّل حضوراً مسكّناً للجأش. فسلوكه ينمّ عن اهتمام، وأحياناً عن خضوع، بدون أي إشارة إلى وجود خطط لإسقاطنا. فمن المؤكد أنه كان سيرفض مواكبتنا لو أنه ارتاب في وجود أي غدر. وقررت أن وجوده في الرحلة إشارة مطمئنة.

تمتم حاتم لوالدي بهدوء بأننا اجتزنا البحر الأحمر، ذلك الرابط المائي بين

أفريقيا والعرب. نحن سالمون، حتى الآن! والخبر الطيّب إذاً، أنه ما من طائرات حربية اعترضت رحلتنا، أما الفأل السيئ فهو أننا قد دخلنا المجال الجوي السعودي. عند هذا الحد، تحدّث والدي بصوت فيه ما يكفي من القوة ليسمعه جميع من في الطائرة: «فلنصمت عن مزيد من الكلام! صلّوا إلى الله بصمت إلى أن نغادر الأجواء السعودية».

ازداد التوجّس، وتصلّب كل رجل في مقعده. صلّى بعضهم بصمت، في حين ثبّت آخرون أنظارهم عبر كوّات النوافذ. ألقيت نظرة سريعة أخرى على والدي، ورأيت أنه يصلّي بخشوع، واضعاً كل شيء في عهدة الله.

صلّيتُ أنا أيضاً، برغم استمرار أفكاري في التسارع. فقد حُلّت إحدى المسائل بإخباري أننا في المجال الجوي السعودي. ونحن لا نتوجّه إلى اليمن الذي يقع جنوب السعودية. فلو كان هدفنا هناك، لما اضطررنا إلى دخول سماء السعودية، بل لطرنا كلّياً فوق البحر الأحمر.

اتجه تفكيري التالي إلى باكستان، وهو ما يتطلّب منّا اجتياز أجواء كل من السعودية وإيران وأفغانستان. وبما أن السعودية بلد ضخم مؤلف من الرمال الفارغة، بمساحة تبلغ ثلث حجم الولايات المتحدة، بقي جميع الركاب في حالة من القلق الشديد لفترة طويلة جداً من الزمن.

صلّى والدي طويلاً قبل أن يسأل حاتماً أخيراً، «هل تعرف إلى أين نحن متجهون؟».

هزّ حاتم برأسه، «لا».

توقّف قلبي للحظة. ألا يعرف حاتم حقّاً وجهتنا؟ أم أن والدي يسأل لأنه هو لا يعرف؟ هذا ليس أمراً جيداً. أردت أن أفشي أسئلتي، لكنني أرغمت نفسي على البقاء صامتاً.

استرقتُ النظر إلى محمد عاطف (ويدعوه من يعرفه تمام المعرفة، بأبي حفص)، لأجد وجهه خالياً من الهموم. ويطمئن والدي كلّياً إلى أبي حفص الذي لا بد من أنه ائتُمن على «سر» وجهتنا.

بدا رئيس جهاز أمن والدي، سيف العدل، متوتّراً، وينسلّ من وقت إلى آخر من مقعده للدخول إلى الكابينة والتشاور مع الطيّارَين. حاولت رؤية الطيارَين، لكنني لم أحظَ إلا بنظرة سريعة. كان أحدهما زيتوني البشرة، أسود الشعر. جعلني لونه أفترض أنه عربي، لكنني لم أكن متأكداً.

استمر حاتم في دراسة خارطته والبوصلة، وبدت الدقائق أشبه بالساعات إلى أن أعلن أخيراً: «لقد خرجنا من السعودية».

أخذ والدي نَفَساً عميقاً قبل أن يستدير ويتوجه إلي مباشرة بالكلام، «يا بُني، صلّيتُ كي لا يعرف السعوديون أنني على متن هذه الطائرة. ولو عرفوا أنني أعبر سماءهم لأمروا طائراتهم الحربية بإسقاطنا. ربما اعتقدوا بوجود دبلوماسي سوداني على متنها».

أصيب جسمي كلّه بهزّات فرح. ربما أن الوقت الأكثر خطورة قد مرّ، وسينتهي النهار في النهاية بسلام.

في اللحظة التي غادرنا فيها السعودية، مررنا فوق مساحة أخرى من الماء، تُدعى الخليج العربي، أو الخليج الفارسي، بحسب ما إذا كان المرء من السعودية أو من إيران. وفوجئت لما أخذت طائرتنا بالهبوط في مطار شيراز، في إيران، لأنني لم افكّر أبداً أن إيران موطن جديد ممكن. لكنني سرعان ما علمت بأننا نعيد التزوّد بالوقود وحسب، وأن توقفنا سيكون وجيزاً. ما إن لمست إطاراتنا المدرج حتى أوصاني أبي، «عمر، لا يعرف الإيرانيون بوجود أحد من آل بن لادن على هذه الطائرة. فلا تتفوه بكلمة».

وبلا شكّ، جاء المسؤولون الإيرانيون مسرعين إلى الطائرة، وطلبوا الصعود إلى متنها. قفز، مُواكبنا، إبراهيم، على قدميه، والتقى الرجال قاطعاً عليهم طريق الدخول. أمكنني رؤية أحد المسؤولين وهو يشرئبّ بعنقه ويحدّق من حول إبراهيم الذي أخذ يتحدّث بأسلوبه الناعم كالحرير. ولم يطأ الطياران أبداً خارج حجرتهما.

تصلبت كتفا والدي. حملقت من فوق مقعده لأرى أن سلاحه جاهز لإطلاق

النار. وكان سيف العدل وأبو حفص، كلاهما، في الحالة ذاتها من الاستعداد. نظرتُ صوب مؤخرة الطائرة لأرى أن جميع رجال والدي متوترون وجاهزون للمعركة. ولو صعد أولئك المسؤولون إلينا لما تردد أحد في قتل كلّ من يشعر بأنه يشكّل خطراً على رحلتنا. حتى إنني حرّكت سلاحي إلى وضعية أفضل، وأنا أقول لنفسي بوجود احتمال لتبادل إطلاق النار.

انتفت، من حسن الحظ، الحاجة إلى نيران الأسلحة، وأزيزها، لأن إبراهيم أقنع المسؤولين الإيرانيين بأننا مجرّد رجال أعمال مهمّين يمرّون عبر بلادهم. وقال لهم إن التفتيش الرسمي غير ضروري بما أن أقدامنا لن تطأ أرض بلادهم. وأنا متأكد من أن إبراهيم دسّ مبلغاً كبيراً من المال في أيدي أولئك الرجال، لأنني سرعان ما سمعتهم يتبادلون وإيّاه الحديث ويضحكون كما لو أنهم أصدقاء منذ الطفولة.

اضطربت، بعد إعادة التزوّد بالوقود، لمعرفتي أن إبراهيم لن يكمل الرحلة معنا. لم يتبادل أي كلام معي، لكن وداعه والدي استغرق بعض الوقت، ثم خرج ما إن شدّد الطياران من دَوَران المحركات. وأبلغني والدي أنه سيصعد إلى متن رحلة تجارية إلى الخرطوم.

احتفظتُ، شأني دائماً، بالصمت.

عدنا إلى الجو بسرعة كبيرة قبل أن يتمكن أي من المسافرين معنا سيعود على حتى من الوقوف وتليين رجليه بالمشي. ومن إيران واصلت طائرتنا مسارها الغامض.

سرعان ما ظهرت، من خلال كوّتي، سلسلة من الجبال. وتوجّه والدي للمرة الأخيرة إلى حاتم بالكلام، «هل أصبحتَ تعرف وجهتنا الآن؟».

حبستُ أنفاسي وأنا مدرك أنني سرعان ما سأعرف موطني المستقبلي.

قال حاتم: «لقد عبرنا إيران، ونحن فوق أفغانستان». وقال بثقة: «أعتقد أن وجهتنا هي أفغانستان».

هزّ والدي برأسه، لكنه لم يؤكّد بكلمة نعم.

وهزّ أبو حفص برأسه هو الآخر.

شرعنا بعد ذلك بلحظات في نزولنا الثاني في ذلك اليوم. وأكّد والدي في النهاية، «أنت محق يا حاتم. وجهتنا هي أفغانستان. سنهبط في جلال أباد».

همهمتُ مدهوشاً، وألقيت نظرة سريعة على وجوه مقاتلي والدي، وكانت كلّها عديمة الانفعال لأنهم لا يشككون أبداً في قراراته.

حاولت استيعاب الفكرة. هكذا إذاً! سنعيش الآن في أفغانستان. لم أعرف بماذا أفكّر، لكن معدتي تحركت مسبقاً. فأفغانستان موطن مقاتلي أبي لسنوات عدة. ومنذ طفولتي ومخيلّتي تتغذى على أخبار مصارعة الموت في معارك جاجي وجلال أباد التاريخية. وها إن الفرصة تتوفر لي أخيراً لرؤية ساحات المعارك تلك بنفسي.

لم أستطع، لكوني صغيراً وعلى غير اطلاع، تخيُّل ملابسات الحياة في بلد مرّ منذ فترة وشيكة جداً في حرب منهكة استمرت عشر سنوات مع قوة عظمى، وأعقبتها حرب أهلية شرسة ستحوّل آخر بقايا أفغانستان القديمة إلى شتات. لم أعش أبداً في السابق في منطقة حرب، وكنت بالتالي غير مدرك تحدّيات البقاء اليومية في بلاد أرجعتها الحرب المستمرة إلى العصور البدائية. واعتقدتُ بغباء أن حياتي ستستمر في معظمها على غرار ما كانته في الخرطوم.

ملاحظة عن نشاطات بن لادن السياسية والعسكرية

جين ساسون

ازدادت كثيراً نشاطات أسامة العسكرية، في وقت أخذت نجوى تربّي أولادها في السودان، وانتقل عمر وأشقاؤه إلى سنوات المراهقة. وقد أغاظه اضطراره إلى مغادرة السعودية نهائياً، فألقى بالملامة على كل من الأميركيين والعائلة المالكة السعودية. وضاعف غضبه العنيف من تصميمه على توجيه ضربات إرهابية إلى الولايات المتحدة، والسعودية أيضاً.

واعترفَ بجميل البلد الذي وفّر له الملجأ، فطوّر خططاً لتحسين الوضع الاقتصادي في السودان. وسرعان ما بدأ في إنشاء المصانع، وافتتاح الأعمال، وشقّ الطرق.

وبلغ به الغضب من الأميركيين والسعوديين بسبب منفاه، حدّاً أصبح معه مستعجلاً في تحريك الذراع العسكرية لتنظيمه «القاعدة». أقام، بموافقة من مضيفيه السودانيين، أول معسكراته التدريبية العسكرية في مناطق مختلفة من البلاد، وشرع في تجنيد المجاهدين. وشكل اشتهار اسمه قطباً جالباً لهم، ولمّا يمض وقت طويل حتى عجزت معسكرات التدريب عن الاستيعاب.

تبع المصريّون أسامة بعدما نقل قاعدة عملياته إلى السودان. عاود الدكتور أيمن الظواهري وتنظيم الجهاد التابع له، إلى جانب الجماعة الإسلامية التابع لعمر عبد الرحمن، العلاقات مع أسامة بعدما نقلوا رجالهم المقاتلين إلى الخرطوم. وشكّلت تركيبة المجموعات الثلاث أرضاً خصبة للراديكالية.

ولم يمضِ وقت طويل على وجود أسامة في السودان، حتى ظهرت إشارات واضحة إلى الشروع في الهجمات على الأميركيين. وقع الهجوم الأول في عدن، في اليمن. فقد استخدم الجيش الأميركي المدينة قاعدة في طريقه إلى الصومال، حيث انخرط في مهمّة إنسانية. وانفجرت، في ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٢، قنابل في فندقين في عدن. لم يُقتل أي من الجنود الأميركيين بالرغم من أنهم مستهدَفون، بل قضى سائحان نمساويان بريئان.

بعد ذلك بأقل من سنة، في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٣، حصل تنسيق مع الميليشيا الصومالية التي أسقطت طائرتا هيليكوبتر من طراز «بلاك هوك»، قاتلة ثمانية جنود أميركيين، وهو الحادث المأساوي الذي شكّل أساساً لكتاب وفيلم سينمائي بعنوان «سقوط البلاك هوك» Black Hawk Down.

لم تكتفِ الحكومة السعودية بسحب الجنسية من بن لادن وعائلته، بل جمّدت أرصدته، مصادِرة بذلك إرث أولاده. والأرقام الحقيقية غير معروفة، لكن من المُعتقد أن بن لادن خسر ملايين كثيرة من الدولارات دفعة واحدة.

ازدادت مع كل ضربة شخصية تُوجّه إليه رغبته في مهاجمة السعودية وأميركا. وأمكن للقوى الأمنية الأوروبية الحؤول دون تنفيذ بعض المخططات التي وُضعت في مراكز قاعدة أسامة، لكن خططاً أخرى نجحت. إلا أن الخطة الهجومية التي ذهبت هباءً في ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٩٥، هي التي سببت طرد أسامة و«القاعدة» من السودان. ومن سخرية القدَر أن أسامة لم يكن متورّطاً في ذلك الهجوم بالتحديد.

وبعدما حاول تنظيم الجماعة الإسلامية التابع لعبد الرحمن، اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك، ضاعفت حكومات في المنطقة، إلى جانب الولايات المتحدة، الضغط على الحكومة السودانية لطرد المجموعات الراديكالية الثلاث السيئة السمعة.

عرض المسؤولون السودانيون في البداية تسليم أسامة بن لادن إلى الحكومة السعودية، لكن حكّام المملكة عرفوا أن أسامة لا يزال يُحتفى به على نطاق واسع في بلدهم بوصفه بطل حرب، وهم ليسوا مجانين حتى يحاكموا بطل حرب.

ثم عرض السودانيون أسامة على الولايات المتحدة، لكن بما أنه لم يصدر، في ذلك الوقت، أي حكم قضائي ضده، افتقرت الحكومة الأميركية إلى الأساس القانوني لتوقيف الرجل.

عند ذلك الحد، أبلغ المسؤولون السودانيون أسامة بأن عليه أن يغادر بلادهم. لم يكن أسامة متأكداً من المكان الذي يحظى فيه بالترحيب، فسعى وحصل على دعوة من بعض الأحزاب القوية في أفغانستان.

وهكذا، غادر أسامة الخرطوم في أيار/مايو ١٩٩٦، وبرفقته ابنه عمر وبعض المستشارين الموثوق بهم، طائرين إلى أكثر أرض عرضة للفوضى في العالم: أفغانستان، المكان الذي لن يتقيّد فيه لا بالقوانين المحلية، ولا بالقوانين الدولية. سيكون أسامة بن لادن حرّاً في القيام بما يحلو له.

أفغانستان

هندو كوش

هرات

كابول

جلال أباد

تورا بورا

خوست

قندهار

شمال

أفغانستان:

نقل أسامة بن لادن عائلته إلى أفغانستان في ١٩٩٦

هرب عمر بن لادن من أفغانستان في ٢٠٠١

هربت نجوى غانم من أفغانستان في ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١



وقائع عن أفغانستان:

الاسم الكامل: جمهورية أفغانستان الإسلامية

تحكمها: إدارة مؤقتة

رئيس الدولة: حميد كرزاي

العاصمة: كابول

المساحة: ٦٥٢,٢٢٥ كيلومترا مربعاً

الديانة الرئيسية: الإسلام

اللغتان الأساسيتان: البشتو، والداري(فارسي)

عدد السكان: ٢٧,١ مليوناً

الوحدة النقدية: الأفغانية = ١٠٠ فلس

القسم الثالث

أفغانستان



الفصل الخامس عشر

اللجوء إلى أفغانستان

عمر بن لادن

انتظر صديق قديم عودة والدي ونحن ننزل تباعاً من الطائرة، ونليّن بالمشي أطرافنا المتشنجّة. هرع الملاّ نور الله إلى والدي مُرحّباً به بحماسة، كما لو أنه ابن له انقطعت أخباره منذ فترة طويلة. وعاودتني ذكرى قول أبي لي إن البشتون هم أكثر شعب مضياف في العالم. ولو كان الملاّ نور الله مثال على الضيافة البشتونية الروتينية، لشعرت بحال أفضل بالفعل.

بدا الملاّ نور الله أشبه بالمحارب، بجسمه القوي وخطواته الواثقة. لحيته سوداء طويلة تلوّنت بمسحة من شيب. وبقيتُ، كالعادة، أقف جانباً وأراقب. ولم يعرّف بي والدي أبداً وأنا ألتصق به وأتبعه.

سرعان ما عرفت أن الملاّ روح الله واحد من أقدم أصدقاء أبي وأفضلهم منذ أيام الحرب الروسية، وغالباً ما حاربا جنباً إلى جنب. وقد أصبح، بعد الحرب، واحداً من القادة الرئيسيين لجلال أباد، عاصمة مقاطعة ناننغهار، موطن قبيلة البشتون، وأهم مدينة فيها. وهي تشكّل منطقة كبيرة من أفغانستان، تبلغ أطرافها ممر خيبر، وهو المعبر الفائق الأهمية إلى باكستان.

والبشتون هم أكبر مجتمع قبلي في العالم، يضم نحو ستين قبيلة بشتونية رئيسية. وفي حين تحتوي باكستان على أكبر عدد منهم في العالم، ويبلغ عددهم ٢٨ مليوناً، فإن أفغانستان هي المقر الثاني الأكبر لهؤلاء السكان، ويقطن فيها

منهم ١٣ مليوناً. ويتحدّث البشتون لغة البشتو، ويتبعون قواعد سلوك وشرف قديمة العهد، تدعى البشتونوالي.

كان الملاّ نور الله مسؤولاً، في السنة الفائتة، عن جلب قاطع طرق وحشي أمام العدالة، والحكم على المجرم بالموت. وارتفع منذ ذلك الوقت إلى مرتبة عالية، لكن حياته كانت في خطر مستمر لأن أشقاء قاطع الطريق أقسموا على الانتقام. فالقول القديم المأثور، «العين بالعين والسن بالسن» يشكّل قاسماً مشتركاً في الأرض القبلية. وقد تجاهل الملاّ نور الله كل التحذيرات له بالانتباه، مرتضياً، بوصفه مؤمناً حقيقياً، أن حياته بين يدي الله فحسب. وإذا ما قدّر الله له أن يموت على أيدي أشقاء قاطع الطرق، فليكن.

أمكننا أن ننسلّ بسهولة متجاوزين جميع مسؤولي المطار، والملاّ نور الله يندفع بثقة بين الحشود. مشينا بسرعة إلى مجموعة من الشاحنات المزدوجة الكابينات، وسائقوها ينتظرون أن يقلّونا من المطار. وكانت آلية الملاّ نور الله ذات لون أحمر داكن، وهي في ذهني أشبه بمنارة مضيئة لقطّاع الطرق الذين يلاحقونه.

ولا يبدو أن أحداً فكّر في مخاطر أن يكون على هذا القدر من الظهور، لأن الملاّ نور الله جلس في المقعد الأمامي، وكان سائقه مرتاحاً كثيراً إلى درجة أنه كان يدندن لحناً ويدخّن سيجارة. جلس والدي وراء الملاّ نور الله؛ بينما أخذت مكاني في الوسط بين والدي وأبي حفص.

وما إن استقررنا كما يجب، حتى بدا أن الملاّ نور الله يلاحظني للمرة الأولى، فحدّق في وجهي وهو يسأل والدي، «من هو هذا الصبي؟ أهو ابنك؟».

«نعم، هذا ابني عمر، الصبي الرابع».

هزّ الملاّ نور الله برأسه وابتسم، ومدّ يده ليلامس جسر أنفي باستحسان. «هذا أنف جيّد، طويل وبارز». وأعلن بابتسامة عريضة، «أنت، يا عمر، تمتلك أنف رجل قوي».

لم أستطع التفكير في أمر أقوله. وأنا في الحقيقة لم أفكّر أبداً في طول أنفي، ولم أكن متأكداً إذا كنت أحببت الفكرة ام لا.

أبقيت أذناً على الحديث، وأدرت عيني إلى محيطي الجديد. حوّمت جبال صفد فوق سهل جلال أباد. وقد توقعت أن تكون المدينة بنّية اللون. وقد ابتهجت لأن مدينة البشتون كانت واحة خضراء، ترويها مياه نهر كابول.

وكل ما عدا ذلك مخيّب للأمل. بدا الناس متعبين، كأنهم جاؤوا من عصور غابرة، والمباني متهالكة. وصعقتُ، ونحن نقطع المدينة، لعلامات الفقر من حولي. وقد آلت الحال بكثير منهم إلى ركوب عربات مسطّحة يجرّها حصان أو حمار، بدلاً من ركوب السيارات. وشاهدت شبّاناً يرتدون ملابس فضفاضة يمتطون، بدون سرج، خيولاً هزيلة، أو بغالاً حزينة. وشعرت بنفسي مسافراً عبر الزمن. وفكّرت بأنني عدت، في غضون ساعات، مئة سنة إلى الوراء.

بلغني، من خلال تشوش الأفكار، صوت الملاّ نور الله وهو يقول لوالدي: «ستبقى طبعاً في أحد منازلي. وأنت مرحّب بك، بعدما تستقرّ، في القصر». وشرح: «القصر القديم في جلال أباد ملك للحكومة، وكان في يوم من الأيام منزلاً للعائلة المالكة السابقة».

بدا القصر مهيباً.

وبعدما لاحظت بيوتاً أخرى ومتاجر في جلال أباد، حلّت مفاجأة سارة عندما انحرف السائق بسيارتنا إلى مدخل إحدى الفيلات التي يملكها الملا نور الله. إنها جميلة. من كان يتوقّع مثل هذه الرفاهية في وسط جلال أباد المتآكلة؟ طُليت الفيلا بالأبيض المشبع، وكانت أكبر بكثير مما توقّعت. خرجنا تباعاً من الشاحنة ليواكبنا الملاّ نور الله إلى الداخل.

كان الداخل رحباً يضم خمساً وعشرين غرفة، جميعها نظيفة وجذابة. وقد أملت الحصول على حجرة خاصة بي، لأنني لطالما عشت منعزلاً ومتوحداً، ونادراً ما توفّرت لي، مع هذا العدد الكبير من الأشقاء، فرصة الحصول على الخصوصية. لكن هذه الآمال تبخّرت عندما اتفق والدي مع الملاّ نور الله على

أننا سننام جميعنا في القبو البارد والمظلم إلى أن يتضح إذا كان هناك من أخطار محتملة على والدي.

تدبّر رجال الملاّ نور الله وضع سريرين مفردين في الغرفة التي سأتقاسمها مع أبي، إلى جانب حمّام صغير. ونام رجال والدي في الغرف المجاورة في المنطقة المظلمة ذاتها. وتم تأمين طباخ ليعدّ لنا الوجبات. خاب أملي، لكنني لم أفاجأ، عندما سمعت أبي يعطي تعليماته بأن تكون الوجبات بسيطة وخفيفة.

تشوّقت إلى استكشاف المدينة، إلا أن المخاوف الأمنية تطلّبت من والدي ومنّي البقاء سجينين طوعيين طوال أسبوعين في الفيلا، أو في الحديقة المسوَّرة. وبرغم عزلتنا، مارس الملاّ نور الله الضيافة الأفغانية الشهيرة، فأخذ يتفقّدنا يومياً، ويحاول إقناع والدي بتناول الوجبات الفاخرة. لكن أبي لم يفعل ذلك أبداً، بالطبع.

لم يتوقّف الملاّ نور الله، لا قولاً ولا فعلاً، عن إظهار مودّته الكبيرة لوالدي. فأيامهما التي تقاسما سراءها وضراءها في الحرب، أوجدت روابط يستحيل كسرها. وأدت أحاديثهما أيضاً إلى خلق فهم أفضل لحياة والدي السابقة.

من الواضح أن أبي شعر بقرب استثنائي من الملاّ نور الله، كاشفاً مكنونات صدره كلّياً أكثر مما سبق لي أبداً أن رأيته يفعل. تحدّث بإيجاز عن رحيله القسري عن السودان، كاشفاً بنبرة منكسرة أنه وضع كل موارده وطاقته في مشاريع أفادت السودان والمواطن السوداني. وسمعته للمرة الأولى يعترف بهمومه، فأول مرة يقول أمامي «أنا، يا صديقي، متوجّس من مستقبلي. خسرت الكثير. ولدي عائلة كبيرة، وأتباع كثيرون، مع نساء وأطفال أيضاً. وكلهم يعتمدون عليّ».

لم يتطلّب الأمر عبقرياً لمعرفة أن والدي، بوجود ثلاث زوجات وأولاد كثيرين، بالإضافة إلى أنشطته الدينية والسياسية، تلزمه مبالغ كبيرة من المال.

وبرغم ذلك، لم يسبق لي أبداً التفكير كثيراً لأنني وجدت صعوبة في تخطّي صراعاتي الذاتية.

أقسم الملاّ نور الله على ولائه لوالدي. «أنت، يا أسامة، غير الأفغاني الوحيد الذي بقي مخلصاً لأفغانستان في خلال سنوات المشاكل الطويلة كلها». وتوقّف ليبتسم، «دع همومك تطِر مع الريح، يا أسامة. لديك موطن في أفغانستان طوال أيام حياتك. ويمكن لجميع أفراد عائلتك، بعد ذهابك إلى الجنة، اعتبار أفغانستان موطناً لهم. أنا أضمن سلامتك، وسلامة عائلتك وأتباعك. وأنت حرّ في البقاء ما شئت في القصر».

ولإظهار احترامه ومودته، قدّم الملاّ نور الله إلى والدي قطعة كبيرة من الأرض في جلال أباد، مقترحاً عليه «هاك الأرض التي أريدك أن تحصل عليها. شيّد لنفسك مجمّعاً. اجلب عائلتك وأصدقاءك إلى هذا المكان. فأنت بشتوني فخري».

حتى أنه، في بادرة أخيرة وكبيرة، أهدى والدي جبلاً بأكمله في تورا بورا!

سُرّ أبي كثيراً، وقدّم شكراً جزيلاً للرجل الذي لم ينسَ أبداً مساهماته في قضية حرّية الشعب الافغاني.

ما إن شعر الملاّ نور الله بمزيد من الطمأنينة حيال سلامتنا، حتى تم نقلنا إلى القصر القديم. حتى ذلك الوقت، كنت قد سئمت الفيلا الجميلة لأننا حُصرنا داخل أسوارها. وقد سُعدت لتجربة شيء جديد، ووجدت القصر ملائماً جداً. فقد شُيّد في الموقع المثالي على مقربة من نهر كابول، تحيط به أشجار كبيرة قديمة تظلّله بالفيء. ويحتوي الموقع على أراضٍ واسعة محاطة بحدائق بهيجة كثيرة زخرت بالأزهار ذات الألوان الزاهية وقد استكنّت في كل موقع متوفّر.

كان القصر القديم في حالة جيّدة، إلا أنه ليس بالقصر الذي يتوقّع المرء أن يكون له ارتباط بالعائلة المالكة. لكنني سعدت لأننا نعيش برفاه كبير بالمقارنة مع بيوت جلال أباد الأخرى.

والقصر كناية عن مبنى مستطيل الشكل، يرتفع طبقتين ويشير إلى زمن قديم مضى، وطُلي بالأبيض الناصع، وهو اللون المفضل لأكثر الفيلات فخامة في جلال أباد. والسطح منبسط، على غرار منازل السعودية والسودان، وهذا مفيد لأن والدي يحب مراقبة الأمكنة المحيطة بمسكنه.

عند المدخل ممر عريض مغطى بالسجاد الأحمر، وازدحم الممشى بالكراسي المزخرفة. وثمة عشر غرف موزعة على جانبيه، زُوقت تسع منها بأثاث كلاسيكي وأنيق بدا باهظ الثمن، لكنها كانت قديمة. افترضتُ أن العائلة المالكة استخدمتها فيما مضى. والمثير للاهتمام أن لكل واحدة من الغرف العشر حمّامها الخاص، وهذا أمر غير مألوف في الحقبة التي بُني فيها القصر.

بعد نظرة منهجية إلى الطابق الأول، تسلّقنا الدرج الداخلي إلى الثاني، وهو نسخة عن الأول، لكن بدون وجود مطبخ ثان. طُليت جميع الغرف الداخلية ببياض الكلس، وغُطّيت الأرضيات مثل الممشى الأحمر ذاته. أما الأكثر فائدة في نظري، فهو أن الكهرباء والماء تعملان، برغم أنني عرفت أن والدي يفضّل لنا أن نجرّ الماء من نهر كابول، ونتعثّر في المكان مع مصابيح متراقصة تعمل على الغاز. استحوذ عليه اطراد مفهوم أن كل شيء مريح أو حديث، سيئ للمسلم. وبالرغم من أنني عرفت منذ الوقت الذي غادرنا فيه السودان، أن والدتي وأخوتي والزوجات الأخريات وأبناءهن، سينضمون إلينا في أحد الأيام، وبرغم اشتياقي إلى حلول ذلك اليوم، فإنني انقبضت لفكرة أنهم سيعيشون في جبل تورا بورا في منازل دون المستوى المقبول.

وفي اللحظة التي أخذت أتخيّل فيها المتعة التي سنحظى بها أنا وأشقائي في اللعب في الحدائق أو السباحة في النهر، فقأ والدي تلك الفقّاعة. وأعلن أنه «على بقائنا هنا، يا عمر، أن يكون موقتاً. فسنسافر قريباً إلى تورا بورا لأطالب بجبلنا، لأننا سنعيش هناك».

أعياني كلامه. فبرغم أن جلال أباد آمنة الآن على نحو معقول، فإن بقية البلاد لا تزال متورطة في حرب أهلية يتزاحم فيها كل سيّد قبلي من أسياد

الحرب على حكم كامل البلاد. ولم أمتلك أي دليل حول ما إذا كانت الحرب استحوذت على جبل تورا بورا، أم أنه ينعم بالسلام.

وحتى لو أن المنطقة آمنة، فتورا بورا، مما سمعته عنه، ليس أكثر من جبل مليء بالكهوف. كيف يمكن لوالدي التفكير في أخذ عائلته إلى مكان كهذا؟ وإذا أمكننا، نحن الصبية الأكبر سناً، أن نحيا حياة قاسية إذا تطلّب الأمر ذلك، فماذا عن والدتي وخالاتي وأخوتي الأصغر سنّاً؟ فحياة الجبل لا تناسب النساء والأولاد.

نظرت إلى والدي وعلمت بأنه ليس في وسع أحد ردعه عن نقلنا جميعنا إلى سلسلة الجبال الموحشة تلك في أفغانستان. وهذه هي اللحظة بالتحديد التي أدركت فيها أن حياتنا كعائلة بن لادن، قد انحدرت إلى مستوى أدنى آخر.

أصابتني أخبار والدي باليأس، لكن ذلك لم يمنع أن الاسبوعين التاليين في جلال أباد بهراني بسحرهما ما إن قرر الملاّ نور الله ووالدي أن استكشاف المدينة آمن. وقد تحمّست كثيراً لمّا مضينا في ذلك. أدركت فوراً أن مشاهد الشارع في جلال اباد مشابهة لما أمكنني أن أتذكّره من الزيارات الصيفية إلى بيشاور، في باكستان.

كانت بيشاور، في تلك الأيام الخوالي، مسكونة بكثافة من الأفغان البشتون، وهي القبيلة الإثنية المسيطرة في شرق أفغانستان، حيث نحن الآن. وراقبت، مرة أخرى، بائعين متشابهين يبيعون أطعمة الشارع ذاتها، وشممت روائح مألوفة، ورأيت وسائل نقل قديمة مشابهة، وتأمّلت معجباً بأناقة البشتون. فبيشاور وجلال أباد متشابهتان في جوانب كثيرة، بالنسبة إلي، أكثر مما هما مختلفتان.

ركّزت انتباهي الشديد على والدي الذي أبقاني إلى جانبه أينما ذهب. وكان من عادته الإشاحة بعينيه عندما يكون خارج البيت. ولا أعرف هل ينبع ذلك من خجل، أم أنه يتخذ إجراءات قصوى لعدم النظر إلى امرأة من غير عائلته. فكّرت في أن أقول له إن في وسعه النظر كيفما شاء لأنه يستحيل رؤية وجه

امرأة في جلال أباد، حتى لو حاول ذلك. فالإناث الأفغانيات يتلحّفن بالبراقع ذات الألوان الباهتة، وهي رداء أشبه بالخيمة، ينتفخ كالشراع حول كل جزء من وجه المرأة وجسمها. وسعدتُ لرؤية القماش السميك للزيّ مزوّداً بحجاب أشبه بعوارض دقيقة فوق الجزء الأعلى من وجه المرأة، حتى لا ينزلق ويسقط. لم ترتد بعض النساء العجائز، اللواتي ظهرت فيهن التجعدات، البرقع، بل تزين بدلاً من ذلك بفساتين مطرّزة، منتفخة كالشراع، ذات أكمام طويلة وتصل إلى الكعب، مع أوشحة طويلة فوق شعورهن. وما إن ترى هؤلاء العجائز رجلاً غريباً، حتى يجذبن سريعاً طرف الوشاح فوق وجوههن.

حدّقت مبهوراً بالمناظر، إلى درجة لاحظت فيها أن بعض الناس يتوقفون عن السير لإعادة النظر. وبدا معظمهم مهتمّاً بوالدي الذي يجلب الانتباه بطوله غير المعتاد؛ وبوجهه، الذي يعتبره كثيرون وسيماً على نحو استثنائي؛ وبنوع من الهالة التي تحيط به. كانت أعينهم، بعد التحقق من أبي، تستدير صوب أبي حفص الذي تبلغ قامته من الطول ما يمكنه من التطلّع مباشرة في عيني والدي، وكذلك إلى سيف العدل الذي يراقب كل شيء من حولنا، وهو يبحث دوماً عن مثيري الاضطراب. واسترعيت القدر الأقل من الانتباه، أنا الصبي الأصغر الذي لم تنبت له لحية ويسير وسط مجموعة من الرجال الصارمين. وأنا متأكد من أن الأفغان تساءلوا عما يفعله هؤلاء العرب المتأنقون في لباسهم في جلال أباد، لأن معظم العرب تركوا بلادهم مع رحيل السوفيات منذ نحو عشرة أعوام.

تشوّق والدي إلى زيارة بعض أصدقائه القدامى منذ زمن الحرب مع السوفيات. وأحد الذين أتذكّرهم جيداً هو يونس خالص، وكان فيما سبق شيخاً مهمّاً في أفغانستان. وهو أكثرُ من سبق لي أبداً أن قابلتهم من الرجال غرابة في المظهر. بدا أولاً عجوزاً لعيني، وكان قد أصبح في السبعين لما التقيته، برغم أن له لحية حمراء تلفت النظر. وقد سهل القول إنه يستسلم شيئاً فشيئاً لتقدم العمر.

كان جنوده السابقون مخلصين جداً له. وبالرغم من أننا زرناه في أواخر

الربيع، فقد كانت الليالي شديدة البرودة. ولما اشتكى الرجل العجوز من البرد، بذل رجاله جهوداً كبيرة لإبقائه دافئاً. كان منزله من الطراز القديم، وقد بُني من حجارة الطين مع أرضية مرتفعة من الباطون. وتوجد حتى الأرضية مسافة مفتوحة، وخصوصاً أن رجاله عملوا جاهدين وهم يركضون جيئة وذهاباً لجرف الجمر الحار تحت الباطون، وإبقاء الغرفة ساخنة حتى درجة التحميص.

تساءلتُ إذا كان والدي يرضى بمثل طريقة التدفئة هذه لعائلتنا. فهو قد أعطى رأيه ضد التدفئة الكهربائية، وجعلني أرهب منذ الآن شتاء الجبل البارد.

والشيخ خالص رجل غير مألوف بالنسبة إلى أفغانستان القبلية. كان زعيماً أفغانياً يحظى باحترام كبير خلال الحرب الروسية. لكن، في اللحظة التي أنجز فيها اتفاق السلام، نفض يديه في الهواء، واعتبر الأمر منتهياً! فقد انتهى من القتال. وعشر سنوات من هدر الدم كافية بالنسبة إلى أي محارب. وليثبت أنه جاد في كلامه، حرص كثيراً على التخلص من جميع أسلحته، بما في ذلك عدد من الدبابات، وقدّمها في أغلبها إلى الحكومة الأفغانية المركزية. ويشعر الرجال الأفغان بحب عظيم لأسلحتهم، وقد أمل الشيخ خالص، بإفراغه خزنات أسلحته، أن يبتدع سابقة. اعتقدَ أن على جميع أمراء الحرب، وهب أسلحتهم إلى الحكومة، والعودة إلى أراضيهم، والعيش بسلام مع جيرانهم من القبائل.

لم يشاركه أي من أمراء الحرب في حصافة رأيه. وهكذا، استمر جميع الآخرين في المحاربة بدونه. وأمسكت الحرب الأهلية بخناق البلاد، جالبة زمناً آخر من القتال الوحشي بين رجال كانوا حتى الأمس القريب حلفاء ضد الروس. وأسرّ إلي والدي أنه حاول تشجيع التعاون بينهم. وقال «لكن يا بني، يمكن للزعماء الأفغان أن يكونوا أكثر الرجال عناداً. رفض أغلبهم التسوية على أي شيء، سواء الأرض، أو الحكومة، أو القانون. ومن سوء الحظ أنهم، عندما فشلوا في التوصل إلى اتفاق بعقولهم، لجأوا إلى السلاح».

قنط والدي من أن الأفغان لم يتوحدوا لإعادة جمع قطع بلادهم المتشظية

معاً. لقد عرف محاربين مشهورين آخرين، وناقش الشيخ خالص معه مكان وجودهم، لكنني لا أستطيع تذكّر الكثير لأن قلبيهما امتلأ بعدد كبير من الذكريات، بحيث يصعب على كل من لم يختبر الحرب معهما أن يتابع حديثهما. وأنا، بعد كل تلك السنين، لا أزال أذكر أسماء أحمد شاه مسعود، وعبد الرشيد دستم، والشيخ سيّاف.

وأحمد شاه مسعود هو المحارب الأفغاني الأكثر شهرة في العالم. كان والده شرطياً، وتلقى الفتى أحمد تعليماً جيّداً، وأصبح طليقاً يجيد خمس لغات. ونشأ لديه، بفضل موقع والده، اهتمام خاص بالسياسة. وقد رفض منذ سنوات دراسته تحرّك الشيوعية للتأثير في بلاده. لكنه عارض اللجوء إلى الأعمال الإرهابية، معلناً أنه ليس من شأن مثل هذا العنف سوى تدمير أفغانستان. وأصبح مسعود، بعدما اجتاح الجيش الروسي البلاد بكامل قوته، قائداً في مواجهة الغزاة، وصار أعظم أسود المقاومة ومقاتليها.

واصل مسعود مشاركته في الحياة السياسية الأفغانية بعد هزيمة الروس، واجتمع مع كثيرين من أمراء الحرب السابقين في جهد منه لإحلال سلام حقيقي في بلاده. في هذا الوقت، حظيت جماعة الطالبان بالدعم من باكستان، وكلتاهما تكره مسعوداً، لأنه قال إن الطالبان راديكاليون كثيراً، وطالب باكستان بالامتناع عن التدخل في شؤون أفغانستان. ودعا، بدلاً من ذلك، إلى إحلال الديموقراطية فيها.

شكّل مسعود جزءاً مهماً من التحالف الشمالي الذي حارب الطالبان. لكن الطالبان، بدعم من الباكستانيين الأقوياء، غزوا معظم أفغانستان. واعتقد معظم الناس، في الوقت الذي وصلنا فيه أنا ووالدي إلى هذه البلاد المنذورة للحرب، أنه ليس لدى مسعود أي حظ بالنصر. وتوقّع أبي عندها أن الطالبان سينتصرون في الحرب الأهلية في النهاية، ويسيطرون على كامل أفغانستان. وعرف حينها أن علينا احتضانهم وتأييدهم إذا أردنا العيش في أفغانستان بسلام.

يعني هذا طبعاً أن مسعوداً، الرجل الذي سانده والدي في السابق، سيصبح

عدوّه. إلا انني أعتقد، برغم ذلك، أن والدي كان يحترمه منتهى الاحترام، وقال مرّة، «لم يطأ أي روسي مرّة أراضي مسعود».

التقيتُ شخصياً قائداً سابقاً آخر، هو الشيخ سيّاف الرائع المنظر. لا بد من أنه فخور بلحيته التي بقيت سوداء كالليل لأنه تعمّد تركها طويلة وكثة، لتبدو، على الأقل بالنسبة إليّ، أطول لحية أراها حتى اليوم وأكثرها نفشاً. أردت أن أسأله عنها، لكنني لم أتمكن أبداً من استجماع شجاعتي. وشكّل حجمه الهائل المفاجأة الثانية، فهو طويل جداً، لكن ليس بطول والدي، إلا أنه ضخم الجثة، بما فيه الكفاية، ليكون صاحب الجسد الأضخم الذي مرَّ أمام ناظري، بالرغم من أن جسده الهائل ليس شحماً كان شكله غير معتاد كثيراً، إلى درجة أجد معها صعوبة في وصفه، وأتمنى لو أنني أمتلك صورة له. حاولت، وأنا في حضرته، ألا أحدّق فيه، لكنني وجدت الأمر مستحيلاً. واعتبرت بسبب لحيته وشكل جسمه الخارجي، أنه أكثر محاربي عصره مهابة، وهذا يعني الكثير، بما أن كل محارب أفغاني التقيته تقريباً بدا قوياً ورهيباً.

ثم جاء اليوم الذي قال فيه والدي: «كفانا زيارات. حان وقت تجهيز منزلنا الجديد في تورا بورا».

أملت أن هبة الأرض في جلال أباد ستدفع بأبي إلى نسيان أمر تورا بورا الذي يحمل المعنى الذي لا رجاء منه، وهو «الغبار الأسود». طلبت أن نبقى في القصر القديم إلى أن يتمكن من أن يبني لنا مجمّعاً في المدينة، لكن أبي بدا، لسبب غريب لا أعرفه، في عجلة مفرطة للعودة إلى الجبال. وأعلن بعد شهر فقط في جلال أباد، أننا مسافرون إلى تورا بورا لاستطلاع الجبل العائد إلينا نحن آل بن لادن.

عانيت عند ذلك الوقت الربو. ولسوء حظي، لم أجد أدوية ولا أجهزة استنشاق في جلال أباد. يا لحماقتي، لأنني لم أهرّب دوائي من أمام والدي، ولأن صعوبة التنفس أخذت تزداد سوءاً مع مرور كل يوم. لاحظ مكابدتي في التنفّس، فأمر أحد رجاله بأخذ أقراص العسل من بعض قفران النحل. راقبني

عن كثب وأنا أستنشق عبر القرص، لكن أدويته المنزلية لم تُشفني من الربو. ولا يستسلم والدي عندما يصمم رأيه على شيء ما. فبعدما رأى أن لا جدوى من العسل، جعل أحد رجاله يغلي بعض البصل ويعصره في وعاء للطبخ، طالباً مني أن أتنشّق بخاره. إلا أن ذلك بقي، على غرار قرص العسل، بدون تأثير. وأشار إليّ أخيراً بسكب بعض زيت الزيتون على جذوة نار حارقة، وأن أحني رأسي فوق الدخان وأستنشق بأعمق ما يمكنني. ولم يؤد ذلك الدخان كله إلا إلى مفاقمة الربو، وأصبح تنفسي على درجة كبيرة من الصعوبة، بحيث خشيت على نفسي. واعتقدت في إحدى المرات، وأنا أشهق، أنني التقطت رائحة «قبر ترابي». وبتُّ على استعداد لمبادلة حصتي في جبل بن لادن بنفخة واحدة من جهاز الاستنشاق.

تلك كانت حالتي لما شرعنا في الرحلة المغبّرة من جلال أباد إلى الجبال البيضاء، حيث تقع تورا بورا.

الفصل السادس عشر

جبل تورا بورا

عمر بن لادن

كانت الطرق إلى تورا بورا غير معبّدة، لذا أخذت غيوم الغبار تدور حول شاحناتنا التويوتا البيضاء، الآلية المفضّلة في أفغانستان. ويأمل المرء، نظراً إلى أن جلال أباد وجوارها يستكينان في سهل منبسط، أن توفّر الطريق، ولو كانت ترابية، رحلة سلسة، لكن الحال لم تكن كذلك. همهمتُ ساخطاً بصمت بأن طرقات أفغانستان لا بد من أنها الأقل صيانة في العالم. كل شيء ترابي، اللهم ما عدا شارعاً أو شارعين رئيسيين في مدينة ما. وعانى الركاب بالتالي رجرجات تصطك لها الأسنان في حين كانت الإطارات تعمل لتفادي الحفر، وتتدحرج على الحجارة الكبيرة. وبما أن الآلية أخذت تتقاذفني كالسجادة، شهقت بيؤس وندمت للمرة الأولى على أنني الابن الذي اختاره والدي لمرافقته في رحلته.

لم أستطع أن أصدّق أن حياتنا انقلبت إلى هذه الحال. فوالدي يتحدر من واحدة من أكثر العائلات ثراءً في السعودية، وأنسبائي يتنعّمون في منازل رائعة ويرتادون أفضل المدارس. وها أنا، ابن ثري من بن لادن، أعيش في أرض لا تخضع لقانون، أكافح طلباً للهواء في شاحنة تويوتا صغيرة محاطاً بمحاربين أفغان يحملون أسلحة جبّارة، وأنا في طريقي لأساعد والدي على المطالبة بكوخ جبلي سيصبح منزلاً لعائلتنا.

نظرت إلى والدي. لم يبدُ أنه يبالي بالظروف التي لا تُطاق، وبدا أنها تُدخل البهجة إلى نفسه. فهل مآثره الخطرة كمحارب في أفغانستان، خلقت لديه، على مدى الحياة، حاجة إلى الإثارة؟ أملتُ ألا يكون ذلك صحيحاً! ومهما يكن الأمر، فإن والدي رجل شديد وصلب.

ألقيت، عبر النافذة، نظرة على جبال تورا بورا، وهي تلوح بفخامة على بعد خمسة وثلاثين ميلاً. وبعدما صارت جلال أباد وراءنا، أصبحت الطريق أشد وعورة، وهي تتعرّج داخل قرى صغيرة. المناظر التي شاهدتها موحشة، ترافقها على طول الطريق أسواق هزيلة إلى جوانب شوارع القرى، وصبية مراهقون يرشّون الماء على الطرق للقضاء على الغبار، وآخرون صغار يجرّون، بمحاذاة الطريق، ألعاباً مصنوعة من قش الخشخاش. وعلى ما يمكن للمرء أن يخمّن، فإن الإناث اللواتي تجاوزن سنّ البلوغ، مُقفل عليهن في منازلهن، مستترات عن أعين أي غريب.

أبعدت حقول الخشخاش الواسعة ذهني عن مشاكلي، بل إنها حدت بوالدي إلى السؤال: «ما معنى هذا؟»، وهو يشير إلى حقول الخشخاش الخضراء التي لا نهاية لها. وعرفنا جميعنا أنها تُستخدم لصنع الأفيون الذي سيتم تحويله إلى هيرويين.

نفض السائق كتفيه: «يقول المزارعون هنا إن زعيم الطالبان الملاّ عمر أصدر فتوى تقول إن على الشعب الأفغاني زراعة نبتة الخشخاش بشرط بيعها للولايات المتحدة فقط. وقال إن هدفه هو بيع ما أمكنه من المخدرات لأميركا، بحيث تتدفق الأموال الأميركية إلى أفغانستان، بينما يُدمّر الشباب الأميركي من خلال إدمانه على مخدّر الهيرويين».

كشّر والدي، وبدا تعبيره متحيّراً. عرف من كل ما سمعه، أن الملاّ عمر، على غرار معظم المسلمين، يتفادى كل ما له علاقة بالمخدرات. ولما ذكر ذلك للسائق، قال الرجل: «نعم، لم يؤيد الملاّ عمر الطيّب تجارة المخدرات. وهو لم يُصدر فتواه إلا ضد الأميركيين».

لم يتفوّه والدي بأي شيء آخر، لكنه عرف أن هذا لا يروقه. وهو، بغض النظر عن كرهه المتزايد كل ما هو أميركي، يتبع الدين الإسلامي الذي يمنع على المؤمنين التجارة بالمخدرات، مهما تكن الاسباب.

تساءلتُ عن سبب كره زعيم الطالبان للأميركيين. وقد علمت بأن والدي يعتقد أنه لو أبقى الأميركيون أنوفهم بعيدة عن شؤون السعوديين، لأمكنه ومجاهديه المحاربين إنقاذ الكويت والسعودية، مثبتاً سمعته أكثر بوصفه أعظم بطل عربي في جميع الأزمان. وكان الأميركيون هم الذين وضعوه في موقف لا يمكن الدفاع عنه، وسببوا له الهرب من بلاده، وإجبار السودان في مآل الأمر على طرده.

تساءلت إذا كان الأميركيون استهدفوا الملاّ عمر أيضاً. فبالنسبة إلى البعض، عاش الملاّ حياة قاسية. فهو من الإثنية البشتونية من قبيلة هوتاك. وُلد سنة ١٩٥٩، بعد وفاة والده المبكرة، في كوخ من الطين في قرية صغيرة في مقاطعة قندهار. نشأ الفلاح الفتى في بلاد يصل فيها الزعماء إلى السلطة بفضل الثروة، والسلالة العائلية، أو الملكية، وبالتالي فهو ليس بمرشح محتمل لحكم البلاد في يوم من الأيام.

تلقى الملاّ عمر دروسه الإسلامية في مدرسة باكستانية، حيث تعلّم التفسير الأكثر تشدداً للقرآن. وكبر ليصبح مراهقاً طويل القامة، خشناً، وأمضى فتوته يعمل لإعالة عائلته المكافحة.

لمّا غزا الروس أفغانستان، انضم الملاّ عمر إلى المجاهدين، وقيل إنه حارب تحت إمرة نق محمد، أحد المحاربين الأفغان المشهورين. وكان عمر رامياً متفوقاً اكتسب سريعاً احترام المقاتلين من حوله. جُرح مرات كثيرة، وفقد إحدى عينيه، وأصيب وجهه بالندوب. وبعدما أصبح عاجزاً إلى حد كبير عن القتال، شرع يعلّم في مدرسة إحدى القرى على مقربة من قندهار.

بعد انسحاب السوفيات من أفغانستان، نحت البلاد شيئاً فشيئاً صوب الحرب الأهلية. وقيل إن الملاّ عمر رغب في البقاء خارج الصراع، لكنه، بعدما سمع عن الجرائم التي يرتكبها مقاتلون أفغان سابقون، والعنف الذي

تضمّن خطف صِبْية وبنات صغيرات، واغتصابهم، جمع الملاّ التقي مجموعة من الطلبة، وأوحى إلى هؤلاء الشبان بمقاتلة المجرمين.

ورافقت النجاحَ فكرةُ إقامة دولة إسلامية خالصة. واكتسب الملاّ عمر الدعم بسهولة بفضل تقواه ودعوته إلى التشدد في الحفاظ على القانون والنظام. ونتج عن ذلك جيش الطالبان، الذين دخلوا، بزعامة الملاّ عمر، الحرب الأهلية، وشرعوا في هزيمة جميع الفئات المناوئة، بما فيها التحالف الشمالي بقيادة أحمد شاه مسعود.

كان على كل من يريد العيش في أفغانستان، في الوقت الذي وصل فيه والدي إلى البلاد، أن يصل إلى تحالف مع الملاّ عمر. وبات أبي، مع هذا الواقع، حذراً في شأن الوجهة التي يسافر إليها، لأنه لم يجتمع مع الملاّ عمر يوماً، ولم يعرف إذا كان زعيم الطالبان سيرحّب به في البلاد. وقد حصلنا، في الوقت الراهن، على دعم الملاّ نور الله، وهو زعيم مقاطعته، لكن يمكن للملّا عمر أن يأمر في أي وقت بإخراج أبي من أفغانستان.

بعد ثلاث ساعات من تكسير العظام، أصبحت الطريق المحفّرة كالأثلام أكثر اهتزازاً، لكن رحلتنا المزعجة شارفت على نهايتها. لاحت من فوقنا على خلفية سماء لازوردية، قمم تورا بورا، وكانت كثيرة جداً، بحيث بدت كأنها تنثني واحدتها في الاخرى.

أين ستجد عائلتي منزلاً لها في هذه الكومة المرتفعة من الصخور؟

غادرنا الطريق العام لنتسلّق مسرباً شديد الانحدار، ملتوياً وضيقاً جداً، بالكاد يتسع لآليتنا الصغيرة. وبلغت إطارات شاحنتنا طرف الجرف الصخري. وتكفي دورة واحدة في غير مكانها، لتلقي بنا إلى حتفنا من فوق هذا الحرف الحاد.

كشفت ساعة أخرى من التسلق المنتظم، عن بعض المباني الجاثمة على حرف صخري آخر. أهذا هو الجبل الذي قدّمه الملاّ نور الله بسخاء كبير إلى والدي؟ من الواضح أنه هو، لأن سائقنا ناور لإيقاف سيارتنا إلى جانب الجبل

الصخري، ونزلنا لقطع المسافة المتبقية سيراً. مشى والدي في الطليعة، رجلاً فخوراً بجبله الجديد. وضرب على جري عادته، الأرض الصخرية بعصاه التي أمسكها بيده اليمنى وكلاشينكوفه معلّق فوق كتفه اليسرى.

غالباً ما أبتسم عندما أقرأ ما يفيد به الصحافيون من أن والدي أعسر، وهو يُظهر النقص في معرفتهم الشخصية في شأن أسامة بن لادن. وسأكشف للمرة الأولى، عن حقيقة حرص والدي وعائلته على كتمانها معظم حياته، لأننا نعتقد حسب ثقافتنا أن أي إعاقة جسدية تُضعف الرجل. فوالدي يستخدم يده اليمنى، لكنه يضطر إلى استخدام عينه اليسرى في أي عملية تتطلب رؤية ممتازة. والسبب بسيط. لمّا كان لا يزال صبيّاً صغيراً، كان يطرق بسرور على بعض المعدن، فتطايرت قطعة معدنية وأصابته في عينه. كان الجرح خطيراً، ونتجت عنه سفرة سريعة إلى لندن لطلب العلاج على يد اختصاصي.

كدّر التشخيص خاطر الجميع. لن يعود في وسع أبي الرؤية بوضوح بعينه اليمنى. وعلى مدى السنين، علّم والدي نفسه إخفاء المشكلة، ظنّاً منه أنه من الأفضل للناس أن يعتقدوا أنه أعسر، بدلاً من السماح لهم بمعرفة أن عينه اليمنى بالكاد تعمل. والسبب الوحيد الذي يجعل والدي يصوّب سلاحه من الجهة اليسرى، هو أنه يكاد يكون أعمى حينما يكتفي بالنظر من عينه اليمنى. وربما سيغضب والدي لكشفي هذا السرّ الذي اعتنى بإخفائه، لكنه ليس سوى مجرّد حقيقة لا يجب على المرء أن يخجل بها.

وهكذا كان. فعلى عكس والدي، تمكنت من النظر إلى تورا بورا بعينيَّ الاثنتين. فالحجم المطلق للمنظر وتعقّده أكثر مما قد يمكنني تخيّله. يمتد هذا المشهد البانورامي إلى ما لانهاية، ولا يفسد رؤيته الزاهرة إلا مظهر بعض البيوت الجبلية المتقادمة والمتهالكة، التي لا تصلح لشيء إلا لإيواء بعض الماشية. وأملت أن أسمع والدي يقول إنه سيهدمها، ويبني بدلاً منها منزلاً أكثر ملاءمة، تحس بالسكن فيه بأنه بيت جبلي مريح.

وبدلاً من ذلك، أشار والدي إلى البيوت البدائية وقال، «سنعيش هنا، على الأقل إلى حين تضع الحرب الأهلية أوزارها».

تنهّدت متكدراً، وأنا أفكر في أن الحرب في أفغانستان قد تستمر لسنوات. وربما تنبت لي لحية وتشيب على قمة هذا الجبل.

فجأة، أصابت تلك الأكواخ، التي ستخصص الآن لإيواء نساء وأولاد صغار، من والدي شعوراً بالحنين، وقد عبّر لي عن مكنونات صدره وذاكرته، حين همس لي «يا عمر، هذه الأبنية خدمت هدفاً عظيماً للمقاتلين الشجعان إبان الحرب».

لم أقل شيئاً، إلا إنني أخذت أتساءل كيف ستحتمل أمي العيش في مثل هذا المكان القاحل والموحش. فهو ليس بدائياً وحسب، بل إنه أيضاً بيئة غدّارة للأولاد الصغار. ففي الجهة المقابلة للمنازل، ثمة منحدر خطر يمتد لمسافة تقارب ثلاثمئة قدم. وأخذت أتخيل في ذهني، أطفال العائلة يهوون من على الجبل.

تبعت والدي، وأنا في حالة من الصدمة، إلى المبنى الأول الذي يحتوي على ما مجموعه ست غرف صغيرة جداً. «ستحظى أمك وخالاتك بغرفتين لكل منهن». همهمتُ وأنا أخشى أن أتكلّم، فلا أتمكّن من السيطرة على غضبي المتزايد. ولا يمكن لأبي أن يلجم دوماً طبعه الأسطوري، برغم أنه يهدئ روعه في الغالب من خلال ضرب أولاده بالعصا. ولربما إذا أهنته سيدفع بي إلى الهوة، ونحن نقف بهذا القرب منها.

التزمت الصمت، وادعيت أنني مهتم بالأكواخ. وقد بُنيتْ الغرف الست كلها من حجارة أُخذت من غرانيت الجبل، ونُحتت، وأُعطيت شكلاً غليظاً. وصُنعت الأسقف من الخشب والقش. والمفاجأة الأكبر أن النوافذ والأبواب مفتوحة على فراغ.

تآلف والدي مع تفكيري، مشيراً بعصاه قائلاً، «سنعلّق جلود حيوانات على الأبواب والنوافذ».

أهذا جِدّي؟

كانت المباني المهجورة مفروشة بركام الحرب. فثمة أجهزة، الفراش العفنة، وعبوات القذائف الفارغة، والصفائح الفارغة، والصحف المصفرّة، والملابس المتروكة، والعبوات البلاستيكية. ومن غير المفاجئ غياب الكهرباء في الجبل، بحيث علينا أن ننسى الحصول على الراحة التي يوفّرها وجود بعض المصابيح ذات الإنارة الضعيفة.

عرفت عند ذاك أن أوقاتاً رهيبة تنتظرنا.

وهكذا، ستصبح عائلة بن لادن أخيراً عائلة جبلية عن حق، بحيث نضيء على نشاطاتنا بالشموع أو بمصابيح الغاز. والأكثر إثارة للقلق أنه لم تُمد الأنابيب لجر المياه إلى المنطقة. فهل ستوازن أمي الرقيقة جرة الماء على رأسها، وهي تكافح لتسلق الجبل الصخري لتجلب ماء الشرب والطبخ إلى مطبخها؟ ثم أدركت بعد ثوان، أنه لا وجود لمطبخ أصلاً. فأين سيتم تحضير طعامنا؟ قطّبتُ وجهي. هذا لن يفي بالغرض، لأن أمي وخالاتي وشقيقاتي يحتجبن في الغالب، ولا يقدرن على مغادرة منازلهن إذا وُجد رجال من غير العائلة في المنطقة. يجب عليهن الحصول على مرحاض يمكن بلوغه من الداخل!

مرّة أخرى، بدا أن والدي يقرأ أفكاري. «سنبني مرحاضاً صغيراً لكل غرفتين».

انسحبت عليّ سوداوية منهكة. وكالسابق، لم أتمكن سوى من الهمهمة على سبيل الردّ والتأفف.

لا أدري لماذا يبدو والدي مغتبطاً في حين يجب عليه أن يشعر باليأس. يبدو أن ثمة أمراً له علاقة بأيام الحرب الخوالي قد أثار فيه حماسة غير متوقعة. ثم إنني أحببت مجادلته، والإشارة إلى أن المباني الآيلة إلى السقوط هذه، قد تكون حلوة على نفسه المحاربة، لكنها غير مناسبة للنساء والأولاد. لكنني لم أفعل لأنني لم أبلغ بعدُ السن التي تأتي فيها الشجاعة غريزياً. فأنا لا أزال

أشعر بنفسي ولداً في حضور أبي، عالقاً بعجز في الدوامة السريعة التحرّك التي تأخذ عائلته إلى خاتمة مُدمِّرة.

«نعم»، قال والدي بنبرة واثقة. «كل شيء سيكون على ما يرام».

ألقيت نظرة سريعة على أبي حفص وسيف العدل المتعوّدين على طريقة والدي في التفكير، ورأيت أنهما حافظا على سكينتهما المعتادة. إلا أن جنديين آخرين حكّا رأسيهما بحيرة، لكنهما، على غراري، لن يجرؤا أبداً على مجادلة أبي. بل إن كل رجل خدم معه، امتلك، في الواقع، عادة طلب الإذن منه قبل أن يفتح فمه: «هل يمكنني الكلام، أيها الأمير العزيز؟».

بناءً على أوامر من والدي، أمضينا، أنا ورجاله، الأسابيع القليلة التالية نرمي خارجاً نفايات عشر سنوات من الحرب، ونمسح الأرضيات المتسخة، ونعلّق جلود الحيوانات على الأبواب والنوافذ، ونسافر ذهاباً واياباً إلى جلال أباد لشراء المؤن العادية. اشترينا لزوجات والدي ثلاثة مواقد محمولة تعمل على الغاز، كل منها ببيت نار واحد. واحتجنا إلى جرار معدنية لسحب الماء من النبع المجاور، وبعض القدور المعدنية للطبخ. جمعنا كمية ضخمة من الأطباق البلاستيكية وفُرشاً قطنية بسيطة، إلى جانب بضعة أسرّة عسكرية خفيفة للراشدين. وسعدت لأن والدي أعاد إرسالنا إلى المتاجر لشراء مجموعة من السجّاد الرخيص لفرشها على الأرض.

لكن الأكواخ ظلت على حالها المزرية، وبدت، برغم جهودنا لترتيبها وفرشها، كالحة وغير صالحة للاستعمال.

وكان العمل الأصعب هو بناء ثلاثة مراحيض بسيطة، بيد أننا أنجزنا المهمة في النهاية. وتساءلت إذا كانت ستفي بالغرض في غياب التزوّد بالماء، لكن والدي قال إنه توجد شركة في قرية مجاورة قد يمكنها تسليم مستوعبات من الماء. وأملتُ ألا تقوم والدتي بنقل ماء الشرب والطبخ من نبع جبلي ما.

ما إن قمنا بكل ما أمكننا القيام به، حتى أعلن والدي أنه قرر عدم جلب زوجاته وأولاده لفترة ثلاثة أشهر إضافية. فلا تزال هناك جيوب تندلع فيها

الحرب، ولا يبدو أن أحداً يعرف ما يمكن توقّعه. وقد توجّس لأنه لم يتسلّم بعد رسالة ترحيب من الملاّ عمر المعتكف.

أخذني الشوق إلى أمي برغم شعوري بالاغتباط لأن والدي يتخذ جانب الحذر. ربما يجلب حضورها العذب الوضوح إليه، ويساعده على فهم عبثية عيش نساء وأطفال جاثمين على قمة جبل في مساكن موحشة، وباردة، ووضيعة. بقينا، أنا ووالدي ورجاله، أساساً في تورا بورا برغم قيامنا برحلات، ذهاباً وإياباً، إلى جلال أباد ومنها. التقى والدي هناك رجالاً عسكريين مختلفين، لكنه غالباً ما طلب مني البقاء خارجاً وهو يتحدّث إليهم.

أصبحت، مع مرور الوقت، أكثر تآلفاً مع الجنود الذين جاؤوا معنا في رحلة الطائرة من الخرطوم. كان محمد عاطف هو المفضّل عندي من بين جميع رجال والدي. فهو، على غرار كثير من الجنود، لم يعد موضع ترحيب في مسقط رأسه في مصر. سبق له أن كان رجل شرطة، لكنه استاء من الوضع السياسي، فأصبح عضواً في الجهاد الإسلامي في مصر. ولم يمضِ وقت طويل حتى عانى من المشاكل السياسية في بلاده، فهرب منها وسافر إلى أفغانستان حيث انضم إلى الجهاد. وهناك بنى هو ووالدي صداقة قوية.

يكبر محمد عاطف والدي بثلاث عشرة سنة. شعره بني غامق، وله لحية كاملة. رجل ضخم، أقصر من والدي بأقل من إنش واحد، لكنه أضخم جثة بعض الشيء. وأعتقدُ أن أبي أحبه بقدر ما يمكن لرجل أن يحب رجلاً آخر. وأصبح محمد، بفضل صداقته التي لا تنفصم، أشبه بالعم المفضّل لأخوتي. وهو، برغم ما سيصبح عليه لاحقا في الحياة، لطالما كان لطيفاً معي، ولاحقاً مع أشقائي.

ابتسم محمد وهو يقول لي، «ناديني أبا حفص».

سألته بتهذيب عن ابنه، وعرفت عند ذاك أنه ليس لديه ابن. قال أبو حفص إنه، على العكس من والدي، قانع بزوجة واحدة منحته العديد من البنات، برغم أنه يتشوق كثيراً إلى الحصول على ابن. وقال، «بما أن الله سينعم عليّ

في أحد الأيام بصبي، فإنني قد أقبل أيضاً بحمل اللقب المشرّف». وضحك، وضحكتُ معه بعدما التفتُ لأرى أن والدي ليس في الجوار. فبرغم أنني مراهق ويُتوقّع مني أن أحمل سلاحاً، يمكن لوالدي أن يوبّخني لكشفي عن عدد كبير من أسناني عندما أبتسم أو أضحك.

لهذا السبب أطلق الجميع على محمد عاطف اسم أبي حفص، لتشريفه بالابن الذي لم يحظَ به بعد.

تميّز والدي بالتزمت الشديد إلى درجة أنني غالباً ما استغربت صداقتهما، لأن محمّداً خالي البال وسريعاً في إطلاق النكات. أما والدي فنادراً ما يبتسم، وقلّما يسترسل في ثرثرة لا طائل منها، بحيث يمكنني تعداد مرّاتها على أصابع اليد الواحدة. لكن الرجلين ارتبطا بطريقة ما، مشكّلين أوثق صداقة في حياة أبي.

قال والدي إنني أحتاج إلى تحمّل بعض المسؤوليات وأنا في الجبل. لذا، سأخدمه بوصفي صبي الشاي. سأم الحياة في تورا بورا يفوق الوصف. وقد سعدت لحصولي على مسؤوليات جديدة. ووفّر لي كوني إلى جانبه في كل وقت تقريباً من أوقات النهار والليل، فهماً ثاقباً لطباعة الحقيقة. فهو بقي، طوال طفولتي كلّها، وجهاً بعيداً، منشغلاً جداً، فلا يبدّد وقته مع أولاده، لكنني كنت عضو العائلة الوحيد معه في أفغانستان، وفي الأغلب أمسيت واحداً من ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط، شعر بأنه يستطيع الثقة بهم كلّياً. وكانت ثقته في محلها، لأنه لا يزال والدي برغم أنني أكره ما قام به وما جَلَبَتْه أفعالُه على عائلته. ولم أكن لأخونه أبداً.

أخذ يسترخي مع الوقت ويشارك في عاداته. وأعترفُ بأنني وجدت، في تلك الأيام، بعض المتعة، وفعلتُ كل ما في وسعي لأرضيه.

أذكرُ بعد ظهر أحد الأيام لما غسلت له قدميه. لم نكن نعرف أن ملاّ يقيم في الجوار، في طريقه لزيارتنا، فوصل وشاهد شعائر أخذت تصبح روتيناً. فعلى المسلم أن يتوضّأ قبل كل صلاة، أي خمس مرات في اليوم. وكان والدي

في أحد الأيام تعباً كثيراً، فطلب مني غسل رجليه بالماء. وأخذتُ منذ تلك المرة الأولى، هذه المسألة على عاتقي لتصبح عادة.

أصاب غسل الرجلين الملاّ بالاستياء، فأثبت أن ما أفعله خطأ في عيني الله. فما من رجل أدنى مرتبة من رجل آخر. ولا يجب على أي رجل غسل رِجلَي رَجلٍ آخر، أو القيام بأعمال ذليلة مماثلة. وقال الملاّ «حتى لو جاء ملك السعودية زائراً، فلا يجب على هذا الصبي غسل رجليه».

استمع والدي بصمت، وقد احمرّ وجهه ارتباكاً، لأنه يكنّ احتراماً كبيراً لمعظم رجال الدين، ولأن آخر ما يريده هو الظهور بمظهر الجاهل تعاليم الله. استدار صوبي، وقال بصوت حاد: «سمعت، يا عمر، الملاّ. إنه محقّ». ولم يسمح لي من ذلك الوقت بغسل رجليه. شعرت بالغضب من الملاّ، لأن هذا العمل شكّل واحدة من مرات قليلة في حياتي أحس فيها بارتباط قوي مع والدي. تشوّقت إلى الاحتجاج، لكنني لم أفعل.

حصل عدد من الحوادث الكريهة المتعلقة بشعائر الوضوء. كنت، في أحد أيام تورا بورا، أقدّم الشاي إلى والدي وبعض من أصدقائه، عندما ذكّرني بواحد من الأوقات الأكثر خزياً في حياتي الفتية.

«أتذكر، يا عمر، زمن كنّا مع اللواء المصري من الحرب الروسية؟ لقد حاربت معه هنا في أفغانستان».

احمرّ وجهي للذكرى المذلّة. كنا مقيمين في الخرطوم في ذلك الوقت، وأمرني والدي بإحضار ماء للوضوء. وبما أن اللواء هو ضيفه المُكرّم، أوعز إليّ أبي أن «عليك أوّلاً أن تغسل يدي ضيفنا، يا عمر».

فركعت على ركبة واحدة كما أمر والدي، لكنْ، كانت للجنرال أفكار أخرى فرفض المجاملة. وابتعد قائلاً، «أريد الإبريق وحسب، سأتوضّأ بنفسي». كنت صغيراً ولم أعرف ما العمل سوى إطاعة أوامر أي شخص راشد، فناولته إياه.

وفي اللحظة التي استلم فيها الرجل إبريق الماء، شاهد والدي اللواء يأخذ الإبريق بيديه، فأساء كلّياً تفسير ما يحصل، وشرع في الصياح، بدون أن يتحقّق

مما جرى، وهدّد وأهان: «أتريدني أن أضربك بعصاي؟ لماذا تُحرجني؟ كيف تجرؤ على أن تتوقع من اللواء أن يغسل لك يديك! ولماذا يغسل يديك؟ فأنت نكرة!».

بلغ الغضب بوالدي حدّاً أخذ معه في قذف البصاق من فمه، وأمسك بالإبريق وغسل بنفسه يدي اللواء، الذي وقف حينها صامتاً لا يتفوه بكلمة.

توقّعت ضرباً مبرحاً مع رحيل اللواء، لكن والدي، هذه المرة، لم يتحوّل إلى العنف. وافترضت أنه انشغل كثيراً في شؤونه فنسي الحادثة.

وها إنني، بعد سنوات عدة، أتلوّى خزياً وهو يروي القصة لأصحابه بتفاصيلها كلها، ويُخجلني أمام رجال أصبحت أعرفهم. ونظر إليّ في النهاية باستحسان، وقال: «لقد تعلّمتَ الكثير من يومها، يا بني».

لم أعرف: هل أضحك أم أبكي. ولا يزال والدي جاهلاً ما حصل فعلاً في ذلك اليوم، وأن اللواء هو الذي أخذ الإبريق من يدي. لكنني لم أزعج نفسي في الشرح، لأنني أعرف منذ وقت طويل أن الوقائع لن تغيّر في شيء، ما إن يصمّم والدي رأيه. وإذا ما خالفه أحد، يشتعل مزاجه في لحظة واحدة فقط. فمن يريد ان يجرّ على نفسه فورة غضبه؟

بذلت ما في وسعي لجعل حياته أكثر سهولة. حضّرت شايه بالطريقة التي يفضّلها، مغليّاً وخفيفاً، مع ملعقتين من السكّر، ومسكوباً دائماً في كوب صغير. لم أذكر أن والدي طلب القهوة أبداً، فالشاي هو مشروبه المفضّل، أو أحياناً العسل في الماء الساخن الذي يزعم أنه يتضمن مزايا شافية للعقل والجسم. وهو في الواقع يكره المشروبات الباردة، وإذا قدم إليه شخص مشروباً بارداً، فإنه يتركه إلى أن يسخن طبيعياً.

واعترفَ بأنه يفتقد شرابه المفضّل الذي غالباً ما كان يحضّره وهو مقيم في السودان، فيضع زبيب العنب في إبريق كبير يعبئه بالماء، ويتركه طوال الليل ليندمجا معاً، منتجاً عصير عنب صحياً يشربه في اليوم التالي.

وكانت الفاكهة طعامه المفضّل، ويتطلّع بشوق إلى موسم المانغا. وهو يأكل الخبز، لكن ما يكفي منه لملء بطنه. وليس شغوفاً بأطباق اللحوم، لكنه يفضّل الخروف على الدجاج والعجل، على أن يقدَّم لحمه مع قدر من الأرز. وفي الحقيقة، لم يهتم أبي كثيراً بما يوضع أمامه، وغالباً ما قال إنه يأكل ما يكفي للحفاظ على قوته. ويمكنني القول إنه يقول الحقيقة.

وقد يحتفظ معه دائماً بغرضين: عصا المشي خاصته وكلاشينكوفه. وطالب بأن تبقى الأمور المفضّلة الأخرى في متناول يده: سبحة صلاته، ونسخة صغيرة من القرآن الكريم، وجهاز راديو يلتقط موجات من أوروبا، بما فيها محطته المفضلة «البي.بي.سي.»، وآلة تسجيل صغيرة من طراز «ديكتافون». وقد شرع وهو في الخرطوم، في عادة تسجيل الكثير من أفكاره ومخططاته. وتابع تلك العادة بعد وصوله إلى أفغانستان.

وغالباً ما يصرف، حتى وأنا في صحبته، ساعات وهو يتحدّث أمام «الديكتافون» مسجّلاً الكثير من الأفكار التي تتضمن وقائع تاريخية، وسياسات راهنة، وروايات من تاريخ الإسلام. وعندما يشعر بالإحباط من التغييرات الأخيرة في حياته، يرعد من ظلامات سابقة، أو يطرح أفكاراً جديدة يعتقد أنها ستغيّر مجرى العالم.

سمعته، وأنا أجدُّ في تعهّد حاجاته، يشتم العائلة المالكة السعودية، وحكّاماً آخرين في المنطقة، والأميركيين والبريطانيين. واحتدم غضباً على عدم الاحترام لإيماننا الاسلامي، الذي يبدو أنه الأساس في سخطه المتزايد. وغالباً ما أثارت أفكار والدي وكلماته عاصفة من الانفعالات، ترتفع معها نبرة صوته، ويمتقع وجهه غضباً، وهذا ليس أسلوبه المعتاد في الكلام.

بعد أسبوع، أو ما يقاربه، من سماع هذه الحفلة التي لا تنتهي من السُّباب، صَمَمْتُ أذنيَّ عن مثل هذه الجعجعة، إلا أنني نادم الآن على إهمالي رصدها. وتمنيت مرّات كثيرة لو احتفظت بهذه الشرائط بحيث يمكنني أن أفهم بطريقة أفضل ما الذي قاد أبي إلى كره هذا العدد الكبير من الحكومات، وهذا الكم الكبير من الأناس الابرياء.

في الحقيقة، عرفت عن حياة والدي خلال تلك الاشهر الثلاثة أو الأربعة، أكثر مما عرفته في سنوات حياتي السابقة مجتمعة. وبالرغم من أنه بلغ من الجدّية حدّاً، نادراً ما تحدّث معه عن أحداث شخصية، حصلت أوقات استرخى فيها فعلاً في أفغانستان، وأخذني معه في رحلة عبر ذاكرته، توقفنا فيها أمام الكثير من محطات حياته السابقة.

صحيح أنني أعرف حالياً، إلى حدّ اليقين، أنني لن أرى والدي بعد الآن أبداً، لأن خياراته، وقراراته التي طبعت حياته، قد فرّقتنا إلى الأبد، لكنني غالباً ما أفكّر في تلك الأوقات والروايات التي شاطرني إياها. وبدا أن بعضاً من أحب ذكرياته إلى قلبه، تعود إلى زيارات الطفولة التي قام بها إلى سورية، إلى منزل عائلة أمه، زمن لم يكن غاضباً فيه إلى هذا الحد من العالم، ولا كارهاً له.

لطالما سمعته يقول، بصوته الخفيض اللطيف: «تعال يا عمر». ويربّت على البساط القطني المنبسط إلى جانبه. «سأروي لك قصة. غالباً ما قمت، وأنا ما زلت مراهقاً ونحن نمضي عطلاتنا في سورية، بمسيرات طويلة مع خالك ناجي. ولطالما استمتع كلانا باستكشاف الأحراج، فأخذنا ندقق في كل انعطافة في تلك المسالك المتعرّجة الضيقة، وغالباً ما نقفز من فوق الجداول الفوّارة. كانت الأشجار في تلال سورية عذراء. وأعتقد أنني وخالك ناجي، أول من سار تحت ظلالها الكثيفة. وكنّا في أحد الأيام نسير في منطقة تحتوي على هشير كثيف، عندما سمعنا فجأة فحيح ثعبان، صادفناه في طريقنا مباشرة، لكنني لم أشأ قتله، فوقفنا لمراقبة ما قد يفعله. لم يتحرّك الثعبان وراقَبنا باهتمام لا يقل عن توجّسنا منه. وانسلّ بعض الشيء جانباً، مبتعداً عنا، فعبرتُ المكان سريعاً، لكن خالك كان فضولياً أكثر مما ينبغي، وقال إنه يريد أن يتفحص خطوط ألوان الثعبان. حذّرته، لكنه كان يتمتّع برباطة جأش قادته إلى أن يقترب أكثر من الكائن الطويل إلى أن اغتاظ الثعبان، فتكوّر وفحّ. اعتقد ناجي الأخرق أن سلوك الثعبان مثير للاهتمام، واقترب أكثر، إلى أن أخذ الثعبان ينساب متقدّما مرغماً ناجي على الهرب». توقّف والدي ليبتسم ويتذكّر. «ركض خالك بسرعة

كبيرة، حتى أنه لحق بي سريعاً وتجاوزني. ولما استدرت صدمتني المفاجأة. أعاد الثعبان تركيزه عليّ. فمضينا، نكافح ليسبق واحدنا الآخر، بحيث لا يبقى أي منّا قريباً من ذلك الثعبان الذي يتحرّك بسرعة».

ضحك والدي الجدّي كثيراً مرّة أخرى بصوت خفيض، وهو يتذكر ذلك اليوم، خاتماً: «وجدت نفسي مرّات عدة في مشكلة نتيجة إهمال الآخرين».

استمتعَ باستحضار ذكريات والدته، جدتي عليا، التي تشارك معها، منذ اليوم الذي وُلد فيه، في أطهر وأنبل علاقة بين ابن وأمه. وأدركت، حتى وأنا طفل صغير، علاقتهما الفريدة. وعرف، في الواقع، كل واحد في إطار عائلتنا الضيق، أنه أحب أمه أكثر من حبه زوجاته، وأخوته، وحتى أولاده، فوفّر لها كل ما رغبت فيه. وعندما يكون في الديار يزورها كل يوم. ويظهر بريق في عينيه في كل مرّة يتحدّث فيها عن أمه، أو يكون معها.

وكشف في أفغانستان عن بعض الروايات التي لم يسبق لي أن سمعتها أبداً. «عمر، هناك قصّة يجب أن تعرفها عن جدتك. أذكر مرة، عندما كانت عائلتنا تزور سورية، أن جدك محمد العطاس أخذنا، أنا وإياها، في رحلة قصيرة بالسيارة. لم يلحظ أن سرعتنا البطيئة قد أثارت استياء سائق إحدى الحافلات الصغيرة على الطريق وراءنا. وكان سيئ الخلق، وبلغ به الحنق حداً ضغط معه على دواسة الوقود، واجتازنا ليقطع الطريق على سيارتنا قبل أن يقفز من حافلته ويسرع نحونا بوجهه الأحمر اللئيم. بلغ الغضب بالرجل حداً كبيراً، فلما فتح محمد الباب لاستقباله بتهذيب في محاولة منه لاستيعاب الموقف، قام السائق المحتدّ بتهديده فعلاً، قبل أن يدفعه بخشونة.

«تَذْكُرُ يا عمر كم أن جدك محمداً كان لطيفاً طوال حياته، ولم يرفع إصبعاً أبداً للإضرار بأي كان. ولأنه من هذه الطينة الطيبة من البشر، انسلّ عائداً إلى مقعد القيادة رغبة منه في تفادي الشجار، وأقفل الباب تاركاً الرجل في الخارج مجعجعاً ينتظر خروجه. ومع أن جدك بقي محافظاً على هدوئه، فإن تصرف الرجل العدائي قد أحنق أمّي، اللطيفة في العادة، إلى حدّ أنها قفزت إلى خارج

السيارة، وتحركت بسرعة كبيرة بحيث لم يمكنه، لا هو ولا أنا اللحاق بها. وكلمح البصر، هَرَعَتْ إلى الرجل الفظّ وضربته على وجهه قبل أن تدفع به إلى الأرض. لم تكتف بما فعلته به، وقد أغضبها كثيراً أن مثل هذا الشخص حرّ في مضايقة السائقين الآخرين، فدوّنت رقم لوحة الحافلة الصغيرة وأسرعت لإفادة أخي غير الشقيق بالحادثة، وصدف أنه على معرفة بعائلة الأسد التي هي، كما تعرفون، الحاكم البعثي لسورية. والنتيجة أن اعتُقل الرجل في غضون ساعات قليلة».

هزّ برأسه مبتسماً: «والدتي قوية، سيدة شديدة الشكيمة».

والقصص التي أحببتها أكثر ما يكون هي تلك التي لها علاقة بوالده، محمد بن لادن، الذي قُتل وأبي لا يزال صبياً. فوالدي الذي لم يُشفَ عاطفياً أبداً من الخسارة، وضع بن لادن الجد، المتوفى منذ زمن بعيد، في مرتبة سامية جداً.

وثمة أمر غريب لاحظته منذ صغري. فأنا لم أسمع والدي مرّة يدعو أباه، بل يشير إليه، عوضاً عن ذلك، بـ «جدّك». وليس عندي من تفسير لهذا سوى أن استخدام كلمة «والدي» ربما كان يؤلمه.

ثمة الكثير من الروايات الخاطئة المرتبطة بعلاقة والدي مع أهله. قرأت مرّة، على سبيل المثال، أن الجدة عليا طلّقها جدي محمد بن لادن بُعَيْدَ ولادة أبي تقريباً. وهذا ليس صحيحاً، وفي الواقع فإن جدتي هي التي طلبت الطلاق، برغم أن ذلك لم يحصل إلا بعدما حملت للمرة الثانية.

وجدت جدتي عليا نفسها تنتظر مولوداً جديداً بعد وقت ليس بالطويل على ولادة أبي. لم تفصح أبداً عما إذا كانت سعيدة أم لا، إلا أن النساء اللواتي عشن في السعودية، في تلك الأيام الأولى، لم يتمتعن بالحياة الوثيرة التي جاءت لاحقاً. فهي، برغم زواجها برجل أخذ يصبح واحداً من أكبر أثرياء المملكة، لم تحظ بأي خادمات في المنزل، فأصبحت مسؤولة عن التنظيف والغسيل. واستحصلت أخيراً على أحدث أداة في السوق: غسّالة وعصّارة. ويُعتقد أنه لم يتم تركيب الآلة كما يجب، لأنها، بينما كانت تغسل، قفز جزء

النعصير في الآلة فالتاً من مكانه، وتأرجح وأصابها في صدرها وبطنها. وقعت على الأرض وهي تعاني ألماً مبرحاً. وفقدت في اليوم الثاني الطفل الذي تحمله، وفقد والدي شقيقاً، أو شقيقة.

أثارت هذه الخسارة الهائلة، رغبة في التغيير لدى جدتي. وطلبت بُعَيْدَ ذلك من زوجها الطلاق. ورأى جدي محمّد أنها ليست سعيدة، فاستجاب للأمر، وتلطّف ومنحها الطلاق بملء إرادته.

لم يكن مسموحاً في تلك الأيام، لامرأة مطلّقة أن تعيش وحدها، فسرعان ما تم تزويجها بمحمد العطاس، الذي أصبح رابَّ والدي، وهو رجل لطيف وحكيم اعتبر ربيبه ابناً من أبنائه.

وثمة شائعة أخرى تفيد بأن جدتي لم تأخذ أسامة معها لمّا غادرت مجمّع بن لادن. وكتب بعض الناس أن والدي لم ير والدته إلا في النادر، وهذا ليس صحيحاً. كان والدي مجرّد طفل يتعثّر في مشيته لما تطلّقت أمه وتزوجت من جديد. وقد حملت ابنها بين ذراعيها وهي تخرج من عشيرة بن لادن. ولم يغادر أبي قط منزل أمه إلا لبعض الزيارات التي قام بها لمجمّع بن لادن. فبرغم أن محمد العطاس عمل لدى بن لادن، فإن حياته الخاصة بقيت منفصلة عنه. ولم تعد جدتي أبداً من الحلقة الداخلية لآل بن لادن، وكذلك والدي، إلى أن أصبح مراهقاً، وعاد إلى العائلة على أساس أكثر روتينية.

«عمر، لدي بعض القصص عن جدك بن لادن، قد تحب أن تسمعها»، قال أبي واعداً، وهو يتربّع جالساً على الأرض ممسكاً بكوب الشاي.

انضممت إليه بشوق، وأنا أنصت إلى كل كلمة:

«كان جدك، يا عمر، عبقرياً، ساهم في بناء المملكة العربية السعودية، في حين أخذ بعض أفراد العائلة المالكة، وخصوصاً سعود، أحد أكبر الأبناء، يبددون بحماقة الثروة النفطية. وبلغ إخلاص والدي للملك الأول، عبد العزيز، الذي صدف أنه رجل رفيع القدر كثيراً، حدّاً لم يغره معه أي شيء في قول أي كلمة ضد سلوك ابن الملك».

توقّف والدي، وفي عينيه نظرة بعيدة، مفكّراً، ثم قال، «لكن هذه ليست روايتي بالتأكيد.

«كان جدك يا عمر رجلاً خشناً جداً لأن الدهر تطلّب ذلك. وكان أشد قساوة عندما يتعلّق الأمر بأولاده، ولديه قواعد لكل شيء.

«أذكر مرّة استدعى فيها أبناءه إلى المنزل لسبب ما. ولديه قاعدة متشددة كلما اجتمع بأبنائه، تقضي بأن نصطف في خط مستقيم جداً بحسب الطول بدلاً من العمر. فنجتمع من الأطول إلى الأقصر. وكان نادراً أن يلتقي أنصاف الأخوة، لذا صرفنا الكثير من الوقت نقيس بعضنا مقابل بعض، حريصين على ألا نقف في الموقع الخطأ، لأنه يسهل كثيراً على جدّك معرفة المقصّر. وأنا، قبل أن أصبح مراهقاً، لم أكن الأكثر طولاً، برغم أنني أدركت أشقائي في وقت لاحق من الحياة. وفي ذلك اليوم، حشرني اثنان من أخوتي الأكبر مني سناً بينهما، وكلاهما أطول مني. فوقفت صامتاً، آملا في ما هو أبعد من الأمل، ألا يلاحظ جدّك أنني حُشرت بين شقيقين أطول مني قامة.

«لكن جدّك لاحظ، فاستشاط غضباً ومشى ليقف في مواجهتي، وصفعني بدون أي كلمة إنذار بأشد ما أوتي من قوة على وجهي، حتى كدت أسقط أرضاً. لم أنسَ أبداً ألم تلك الصفعة، وما زالت مرارتها على وجهي وفي قلبي.

«لكن، يمكنك أن تتأكد من أنني لم أخرق ذلك القانون بعد هذا قط، بل كنت أتحرك مسرعاً إلى الأمام وإلى الوراء، إلى أن أجد مكاني المناسب في ترتيب الأطوال.

«كان جدك خشناً جدّاً مع أولاده، لكنه كان أكثر الرجال سخاءً عندما يتعلّق الأمر بالغرباء. أذكر المرة التي ملأ فيها كيساً من الخيش بالمال وشق طريقه إلى قرية عُرفت بفقرها. قرع كل باب فيها، ووزع النقود على القرويين، الذين كانوا متفاجئين وسعداء أيضاً. وهو نوع الجهد ذاته الذي غالباً ما قام به الملك نفسه. فمعظم الناس الذين عرفوهما، أفادوا أن الملك عبد العزيز وجدّك صاحبا ذهنيتين متشابهتين.

«وأذكر أن والدتي أخبرتني عن أحد أسباب عدم سعادتها في زواجها به. استذكرتُ أن خدمه كانوا في العادة من الفتيان والرجال، وامتلك تلك العادة المريعة في أن يطلب من زوجاته نزع حُجُبهن والوقوف في الصف، فيبعث وراء خدامه الذكور للنظر إلى وجوههن والإشارة إلى الزوجة الأكثر جمالاً. ويصاب الخدم الذكور، طبعاً، بالذعر من أن جوابهم قد يُغضب مستخدمهم، أو حتى يغيظ الزوجات اللواتي يمتلكن بعض السلطة داخل حرم المنزل. ومن غير المفاجئ أن زوجات جدّك شعرن بالفداحة لمعاملتهن هذه المعاملة، لأن النساء أردن، في تلك الأيام، أن يتحجّبن، ووجدن من المهين استعراضهن كالغانيات. لكن جدك كان ملِكاً في منزله، وفعل الجميع ما طلب منهم أن يفعلوه. وقد يشرح هذا قيامه، قبل بضع سنوات على وفاته، باعتراف نادر بأن الأمر الوحيد الذي يندم عليه في حياته، هو ظلم الإناث. وقد حزن لهذا الجانب من مسلكه، وقال إنه يأمل أن يغفر له الله».

سكت والدي عن الكلام المباح لأول مرة، لبضع دقائق، وهو هادئ، وعيناه تنظران من خلالي، يعيش ذكرى حصلت قبل وقت طويل على ولادتي.

«مرَّت معي، يا عمر، تجربة واحدة وجهاً لوجه مع جدك، قبل سنة أو ما حواليها من مقتله.

«انتابتني، وأنا في التاسعة من العمر، رغبة شديدة في الحصول على سيارتي الخاصة. أحببت السيارات في وقت مبكر، وتحدّثت بدون انقطاع عنها، دافعا بأمي العزيزة وبزوجها إلى حافة اليأس. ومحمد، كما تعرف، ليس بالرجل الثري، ولا يمكنه أن يجاريني. لكن، بعد أشهر من تنغيص الحياة على أمي، أعلن محمد أنه سيطلب موعداً للقاء مع والدي بحيث يمكنني الإعراب عن رغبتي للرجل الوحيد الذي في وسعه تحقيقها.

«أصابني التوتّر والإثارة لمّا علمت بالخطة. لم يسبق لي أبداً أن وقفت وحدي أمام جدك، ولم أكن أراه إلا عندما يستدعي أبناءه. ولم يتوفّر لي هذا النوع من العلاقة الذي من شأنه أن يسهّل الوضع. لكنني صممت على المتابعة.

«جاء أخيراً اليوم الموعود. وقادني محمد العطاس إلى مكتب جدك في جدة. وها هو يجلس وراء أكبر مكتب أراه في حياتي. نظر إلي، بدون أن يبتسم، ثم قال: «ما الذي تريده يا بني؟».

«شدّ محمد العطاس على كتفي مشجّعاً، وقد استرحنا، لأن جدّك تعرّف إليّ بسهولة، فقد اشتهر بأنه لا يعرف أولاده أبداً. وكان دائماً يطلب من أحدهم أن يعرّف عن نفسه بتسمية والدته. لكن والدي عرف في ذلك اليوم أنني من صلبه. وها أنا أدرك الآن أن السبب هو أن محمد العطاس كان يرافقني، وجدّك يعرف زوج أمي. إلا أنني لم أفكّر يومها في التفسير المنطقي للأمر، وشعرت بغبطة شديدة فقط لأنه عرف من أكون.

«أخذ جدّك ينظر بصرامة في عيني، فخفضت نظري لأنه لا يمكنني التحديق في عينيه مباشرة، وقد حرصت على ألا أُظهر عدم الاحترام. ركزت نظري على الأرض، وأنا أستمع إليه يسألني أن أطلعه على سبب وجودي هناك. طرح عليّ السؤال ذاته ثلاث مرات، قبل أن أتمكن أخيراً من إيجاد صوتي. وفاجأت نفسي بنبرتي الثابتة: أريد سيارة، يا أبي.

«بقي يطرح السؤال ذاته، وأنا أعطيه الجواب إياه.

«سألني أخيراً: لماذا تحتاج إلى سيارة، يا أسامة؟

- لأنني أريد أن أقودها إلى المدرسة.

- لماذا تعتقد أنك تستأهلها؟

- أحب السيارات. وسأكون جيداً في القيادة.

- هل أنت جيّد في المدرسة؟

- أنا جيّد.

- هل أنت ولد مطيع؟

«جلس صامتاً لبرهة، وهو يفكر في قراره.

وقفت هادئاً، وأنا ممسك بأنفاسي.

«خرق الصمت. لن أعطيك سيارة، سأمنحك دراجة هوائية.

«أحسست بالذهول، لكنني عرفت أنني سأتعرض للضرب لو اعترضت على قراره. وأعاد نظره إلى الوثائق الموضوعة على مكتبه، دلالة على ضيق وقته، فشكرته وخرجت. لم يودّعني، وأنا لم أنبس بكلمة وداع. وأعتقد أنها المرة الأخيرة التي شاهدت فيها جدّك، برغم أنني لم أعرف في ذلك الوقت طبعاً أن ذلك هو لقاؤنا الأخير. وحده الله أدرك كنه مستقبلنا، وأن جدك سيموت تلك السنة.

«اكتأبت إلى درجة أنني عجزت عن الكلام. كان محمد العطاس ألطف زوج أم، فقد بذل كل جهد لتطييب نفسي في طريق عودتنا بالسيارة إلى المنزل، محاولاً إرضائي وزرع الأمل فيّ بأنني سأحصل قريباً على دراجة جديدة.

«وتسلّمت بالفعل دراجة حمراء، لكنها فشلت في إشعال الفرح في قلبي. أعتقد أنني امتطيتها بضع مرات قبل أن أعطيها لواحد من أشقائي الأصغر مني. ثم إنني، في أحد الأيام بعد ذلك بأسابيع عدة، حصلت على أكبر صدمة في حياتي. فقد تم ركن سيارة لماعة جديدة أمام منزلنا في جدة! وكانت لي!

«كان ذلك أسعد يوم في حياتي كفتى. لم تسمح لي والدتي ومحمد العطاس بقيادتها وحدي لبضع سنوات إضافية، لكن سائقنا محمد كان يأخذني، لفرحتي الهائلة، لأقوم بجولة بها.

«وطبعاً، قُتل جدك وأنا في العاشرة، ولم أحظ قط بفرصة ثانية للقائه على انفراد».

شعرت، بعد سماعي مثل هذه الحكايات الطفولية، بالأسى على والدي، لكن الأمر التبس عليّ. فإذا كان قد تذكّر بعد كل هذه السنوات الطويلة، مدى ألمه عندما ضربه والده أو تجاهله، فلا يمكنني أن أفهم كيف يمكنه، بمثل هذه السهولة، وبمثل هذه الرغبة، ضرب أبنائه أو تجاهلهم. لم أمتلك الشجاعة أبداً لطرح ذلك السؤال على أبي، برغم أنني آسف الآن لأن أعصابي خانتني.

وفّر لي وجودي في تورا بورا الفرصة في قضاء الوقت مع والدي، لكن المكان فرض تحديات جمّة على الحياة الإنسانية. فنحن بعيدون جداً عن أي مساعدة طبية في حال أصيب أحدنا بالمرض. وشاء القدر أنني أُصبت في صباح أحد الأيام بالحمّى الشديدة. تأخّرْتُ في النوم اعتقاداً مني أنني مصاب بفيروس الزكام، لكن النوم لم يوفّر العلاج. أعياني التعب، واشتد مرضي مع صداع هائل في الرأس وتشنّجات في الجسم. جلّ ما أردته في تلك اللحظة هو أمي، لأنها كانت دائماً تعيد الطمأنينة إلى أي ولد من أولادها يصيبه المرض، فتدلّلنا بكلمات لطيفة، وتحضر الحساء الساخن. لكنها كانت على بعد آلاف الأميال في الخرطوم، لا تعرف أنني مريض جداً إلى درجة تمنعني من الصراخ طلباً للنجدة.

أصبحت ضَجِراً جداً إلى درجة أن رجال والدي تولاهم الذعر، فنادوا على أحد السائقين، وكان اسمه شير. ودفعه تقلّبي من جراء الألم المبرح إلى أخذ زمام المبادرة، وصاح بأنه سينقلني إلى جلال أباد.

لم أعد أذكر مكان وجود والدي في ذلك الصباح. ولمعرفتي به، فهو ربما قد قام برحلة طويلة. فما من رجل على الأرض يستمتع بالرحلات الطويلة في الجبال العالية، بقدر والدي.

وهكذا، بدون أن يدري شيئاً، حُمِلتُ في الشاحنة إلى جلال أباد. كانت الرحلة إلى هناك هي الأكثر بؤساً في حياتي. ازددت تعرُّقاً، وشرعت حرارتي ترتفع، واستمررت في التقيّؤ. تلوّيت وتقلّبت. والسائق المسكين شير يقود بسرعة كبيرة جداً في تلك الطرقات الضيقة الملتوية. للحظة كدت أنسى ما أنا فيه، وأنا متفاجئ لأننا لم نهوِ من فوق الجبل. ووصل في وقت قياسي إلى المستشفى في جلال أباد حيث اختبر تلميذ في الطب بالكاد يعرف كيفية سحب الدم، مهاراته الطبية الضعيفة عليّ. وتم في مآل الأمر التشخيص بأنني مصاب بحمى التيفوئيد والملاريا. وبالفعل، حذّر الاطباء الرجال من أنني قد أموت.

أمر الطبيب المعالج ببعض الحقن والأدوية. ورفض رجال أبي تركي وحدي في المستشفى، فتم إطلاقي لأخذي إلى القصر القديم. فوجئت لما أخبرت أنه لا مكان لي، فالمحاربون القدماء كانوا يتوافدون من باكستان واليمن وغيرهما من الدول إلى أفغانستان، وقد جاؤوا معهم بزوجاتهم وبناتهم. احتلت الإناث القصر القديم. وبسبب ثقافتنا التقليدية، لم يعد مسموحاً للرجال المكوث في الداخل مع النساء. وانتهى بي الأمر وأنا أتماثل إلى الشفاء من مرضين خطيرين جداً، على فرشة قطنية تحت فيء شجرة في الحديقة.

استلقيت هناك، أتنقَّل بين الإغماء والصحو على مدى ثلاثة أيام. وقد أسعفني صغر سني، فأخذت أتعافى ببطء برغم ما اعتراني من وهن شديد. وقبل أن أبرأ كلّياً، بعث والدي بأوامر تفيد أنه علي العودة إلى تورا بورا للتعافي. وما إن وصلت إلى هناك حتى انهرتُ على فرشة الأرض. وما هي إلا أربع وعشرون ساعة حتى اشتد مرضي. وتكرر السباق المحموم إلى مستشفى جلال أباد.

لا أذكر شيئاً عن الرحلة الثانية من الجبل، لكن لدي ذكرى ضعيفة عن معالجتي على يد الطبيب الشاب نفسه. فهو قصير وهزيل وله لحية خفيفة، لكنني كنت في حالة سيئة جداً، بحيث استُدعي طبيب أكبر سناً للنظر في حالتي. إلا أن كل ما فعله هو وصف المزيد من الأدوية. وأُعدت مرة أخرى إلى القصر لأنام تحت الشجرة ذاتها.

أعتقد أن الجميع دُهشوا لأنني لم أنته ملفوفاً بكفن ومدفوناً في رمال أفغانستان.

أما صحة والدي فموضوع آخر. سَرَى الكثير من التكهنات حول إصابته بخلل شديد في الكلى، وصلت إلى حد الزعم أن كليتيه توقفتا كلّياً عن العمل، بحيث اضطرّ إلى أن ينقل آلة لغسل الكلى على ظهر أحد البغال. وما من شيء يمكنه أن يكون أبعد عن الحقيقة من ذلك. والشرح الوحيد لهذه الشائعة أنه، كحال آخرين من عائلته الكبيرة، يعانون الحصى في الكلى، وكانت تسبب له ألماً هائلاً إلى أن تخرج من جسمه. وفي ما عدا ذلك فإن كليتيه سليمتان.

وبالرغم من أن الروس استخدموا الغاز الكيمائي ضد والدي وجنوده، فإن التأثيرات الدائمة ليست بأخطر من بعض نوبات السعال الظرفية. وقد أُصيب في وقت لاحق بالملاريا في السودان، وعانى، على غرار معظم ضحاياها، بعض الحالات الارتجاجية، لكنه كان يشفى منها سريعاً. وهو صحيح الجسم، برغم الملاريا والغازات الكيميائية التي استنشقها خلال حروبه ضد السوفيات. حتى أنه كان يفوق بسرعته وصبره في السير الطويل، شباناً أقوياء يبلغون نصف عمره.

وطوال فترة إقامتنا في تورا بورا، لم يفكّر والدي في أقل من رحلة طويلة عبر الحدود إلى باكستان. وقرر، لارتياعي الكبير، أنه عليّ أن أرافقه، قائلاً لي، «لن نعرف، يا عمر، متى تستعر الحرب. علينا أن نعرف طريقنا للخروج من هذه الجبال». وأصرّ، وهو الذي لا يرضى إلا إذا عرف كل شبر من الطريق، على أنه «علينا أن نحفظ كل صخرة ونحفر مكانها في ذاكرتنا. فما من شيء أهم من معرفة الطرق السرّية للفرار».

كان يوقظني، بدون إنذار، من نوم عميق، ليقول لي إننا سنقوم برحلة طويلة إلى باكستان. وبالرغم أن الحدود ليست بعيدة للغاية، لم يكن ثمة تحديد لوقت الرحلة، ولا طريق محددة لها. وكنت برفقة والدي عندما استغرقت الرحلة سبع ساعات، كما كنت شريك دربه في مرات أخرى عندما استغرقت منا أربع عشرة ساعة. وسرْتُ في إحدى المرات في الطليعة، مستكشفاً منطقة جديدة على حرف أعلى من طريق والدي. ولأنني كنت غير متآلف مع طبيعة الأرض، زلقت قدماي، وهويت على الأرض الخشنة وأنا أكاد أنقلب وأسقط من على جبل مرتفع. وكان والدي، شأنه دائماً، هادئاً أمام منظر كفاحي اليائس، وهو ينتظر بصبر أن أتسلّق بجهد عائداً إلى مساري ليستأنف سيره.

ولما سألته ماذا تفعل لو سقطتُ ولقيت حتفي، أجاب بهدوء: «أدفنك يا ولدي»!

كنا بعد وصولنا إلى باكستان، ننام على الأرض الصلبة. ومرت أوقات

خاطرت فيها بإثارة حنقه بحملي شرشفاً وحيداً أستخدمه كغطاء. وهو لم يتغيّر منذ أيام السودان عندما أمرنا بتغطية أجسامنا الباردة بالأغصان أو التراب.

قمت بتلك الرحلات الطويلة إلى باكستان مرّات كثيرة لا يمكنني حصرها، ولا تذكُّر أعدادها. ولما وصل أشقائي بعد ذلك ببضعة أشهر، أُخضعوا هم أيضاً لهذه المشقات القاسية. ولطالما نفرنا، أنا وإياهم، من هذه السفرات الطويلة المرهقة التي تبدو أكثر الرحلات متعة لوالدنا.

في أواخر حزيران/يونيو أو أوائل تموز/يوليو ١٩٩٦، أي بعد نحو شهرين من وصولنا إلى أفغانستان، جاء رسول مهرولاً يحمل خبراً قاسياً على النفس. أحنى رأسه بتواضع وقال: «أيها الأمير العزيز أسامة، أحمل إليك خبراً سيّئاً. هل تسمح لي بالحديث لأُطلعك عليه؟».

ابيضّ وجه أبي، لكنه أشار إلى الرجل ليتابع.

«أيها الأمير العزيز أسامة، لقد قُتل الملاّ نور الله».

زمّ والدي شفتيه، لكنه لم يتفوّه بكلمة، لأن أي تفجّع سيكون أشبه بانتقاد الله نفسه الذي قرّر أن الملاّ نور الله بات مستعداً لدخول الجنة.

أُصبنا جميعنا بصدمة حينما كان الرسول يزوّدنا بتفاصيل الموت غير المتوقع. «كنت معه، أيها الأمير العزيز. كنا مسافرين من جلال أباد إلى باكستان لبعض العمل هناك. أصبحنا في منتصف رحلتنا عندما اعترضنا أعداؤنا من مخبئهم مسلحين ببنادق الكلاشينكوف، وشرعوا في إطلاق النار على جميع من في الموكب. قُتل الملاّ نور الله على الفور بعدما أمكن التعرف إليه بسهولة في شاحنته الحمراء. وكنت معه في الجنة، لو لم يكن الله معي. أخذ الرصاص يئزّ فوق رأسي، فتعثرت ووقعت فوق صخرة كبيرة، وبقيت متمدداً هناك، بدون سلاح في يدي، إلى أن هرب المهاجمون. فقفزت لمساعدة من بقوا أحياء.

«اكتشفنا بعد ذلك أن القتلة هم أشقاء قاطع الطريق وأفراد آخرون من عائلتهم. إنه قاطع الطريق الذي أعدمه الملاّ نور الله في السنة الماضية». وهزّ برأسه، «أصبح الملاّ نور الله في قبره، أيها الأمير العزيز».

تذكّرت المرات الكثيرة التي سمعت فيها والدي وغيره ينبّهون الملاّ نور الله إلى حماية نفسه، لكنه ليس بالرجل الذي يقلق على ما لا يستطيع السيطرة عليه. وهو لربما افترض أن قدره هو في ترك الحياة على الأرض والموت بوابل من الرصاص، لأن ذلك هو مصير معظم المحاربين الأفغان. فالقتل في أفغانستان كناية عن باب دوّار لا تذهب فيه أصغر إهانة بدون دعوة إلى المبارزة، حتى لو عنى ذلك أن أي عمل انتقام سيمس كل رجل في القبيلة.

جلس والدي وقد اهتزّ إلى درجة لم يستطع معها الكلام.

تناهى إلى سمعي ما يكفي من الأحاديث لأدرك همومه. فالملاّ نور الله هو حامينا القوي في بلد تزداد فيه الفوضى كل يوم. وأثبطت حمايته لنا كل من يشعر بالإهانة حيال عربي يعيش في أفغانستان. وبات يمكن الآن لأي شيء أن يحدث في غياب شخصية الملاّ نور الله القوية التي تحمينا.

تجمّع رجال والدي، صامتين وحزينين، في انتظار كلمة منه. ولم يجد للمرة الأولى في حياته عبارة يقولها، أو خطة عمل في رأسه. جلس صامتاً مستغرباً، غير مبالٍ بمن حوله، محدّقاً في المدى.

لكنه في حياته على الأرض، غالباً ما تبع الخبرَ السيئ خبرٌ جيّد. فخلال بضع ساعات، مزّق الصمتَ جهازُ والدي اللاسلكي وهو يلعلع بتنبيه من رجال أمننا الذين يراقبون الممر إلى الجبل. «وصلت سيارة تقل ثلاثة رجال يرتدون ملابس الطالبان، فماذا نفعل؟».

والطالبان مميزون في لباسهم في بلد تنفع فيه معرفة القبيلة أو الفئة أو الرجل الذي أمامك. وإذا كانت القاعدة مؤلفة من مسلمين سنّة متشددين، فإن الطالبان أكثر تشدداً. فلا يسمحون بالموسيقى أو الغناء، ولا تطيير الطائرات الورقية، أو الاحتفاظ بالحمام، والتلفزيون، ويرفضون السينما، أو تعليم النساء. وقد حظرت حلاقة الذقن، وأمر جميع الرجال البالغين بترك لحاهم تنمو إلى أكثر مما يمكن لقبضته اليد أن تضمّه من أسفل الذقن.

وسياراتهم في العادة سوداء اللون وزجاجها معتم.

تتبع مجموعة «القاعدة»، التي أنشأها والدي، معتقدات المذهب الوهابي السنّي المسلم. وبالرغم من أن الوهابيين هم أيضاً محافظون ومتشددون للغاية، وتحكم العقيدة الإسلامية كل جانب من جوانب حياتهم، فإنهم يختلفون في أوجه عدة عن الطالبان. فالوهابيون سيدمّرون قبور الأولياء، لأنهم يعتبرون حقاً أن على المؤمنين أن يكرّموا الله وحده بدلاً من التفجّع على الموتى، بينما الطالبان لا يفعلون. ولا يعتقد مسلمو «القاعدة» بالأحلام، بينما يستند الطالبان إليها في الغالب لاتخاذ قراراتهم.

لم يتردّد والدي، وأمر: «دعوهم يمروا. رحّبوا بهم وأحضروهم إليّ».

وسرعان ما واكبت مجموعة والدي الأمنية الرجال القادمين إلينا. ارتدوا ثيابهم على طريقة الطالبان، مع عمامات بيضاء على رؤوسهم، حيث لُفَّت اثنتان معاً مع طرف مرخي يتدلى من فوق أكتافهم. وتألّف لباسهم البشتوني التقليدي من قمصان ذات أكمام طويلة منسوجة من القطن السميك وتكاد تبلغ ركابهم، لكنها مزنّرة عند الخصر. وعلت قمصانهم صدرات بألوان غامقة، واكتمل زيهم بسراويل فضفاضة وجزمات شعبية مصنوعة من جلد الخشقاء (الثور الآسيوي الطويل الشعر).

تخلينا، أنا وأبي، في الشهر الثاني على وصولنا إلى أفغانستان، عن أثوابنا السعودية التقليدية، وتزينا بثياب البشتون، لأن اللباس التقليدي مناسب أكثر لطبيعة الأرض، ولأن والدي قال إن حياتنا ستصبح أسهل إذا لم نبرز في وسط الحشود. ونادراً ما اعتمرنا عمامة الطالبان لأن لف زنار القماش الطويل يتطلّب الكثير من المهارة، إلا أننا لبسنا أحياناً القبعة المستديرة الزرقاء المنتشرة بين البشتون.

اقترب كبير الرسل من والدي الذي مدّ يده مرحّباً.

دخل ممثل الطالبان فوراً في صلب الموضوع، «أوفدنا الملاّ عمر إليك. طلب أن نبلغك بأنه سمع بموت الملاّ نور الله. والملّا عمر هو الذي يرحب

بك الآن، ويريدك أن تعلم بأنك وحاشيتك تحت حماية الطالبان. وهذه دعوة خاصة لك إلى زيارته في أي وقت في منزله في كابول».

ابتسم والدي ابتسامة من نجا. تم تقديم الشاي، ودردش الرجال في شأن مختلف المناطق الساخنة في البلاد، وما يمكن أن يحصل في المستقبل، لأن الطالبان استولوا على معظم أفغانستان تقريباً.

غادر الرسل بعد زيارتهم الوجيزة، وهم يحملون هذه الكلمات من أبي: «أبلغوا الملاّ عمر أنني مسرور جداً، وأشكره على هذا الترحيب. أودّ أن أزوره قريباً، لكن عليّ أولاً أن أرتب شؤون عائلتي التي ستأتي قريباً من السودان».

ما إن غادر زوارنا الجبل حتى تحول مزاج والدي إلى نشوة فرح، وانفرجت أساريره إلى حدّ أنني أعتقدت أنه قد يعانق كل من في الجبل. لكنه لم يفعل، واكتفى بالقول، «هذه الرسالة، يا عمر، مُرسلة من الله. هذا الترحيب من الملاّ عمر هو الجواب على كل مشاكلي في هذه الأوقات العصيبة».

لم يلتقِ والدي الملاّ عمر أبداً، مع أنه تابع عن كثب شديد تقدّم الطالبان. قال: «قريباً، سترى يا عمر. سرعان ما سيحكم الطالبان البلاد بأكملها. من المفيد لنا أن نحصل على هذه الدعوة من قائدهم».

استرخى والدي بعد ذلك اليوم استرخاءً واضحاً، وبات، للمرة الأولى بحسب ما أتذكّر، لا يرفع صوته على أي كان إلا في ما ندر، حتى على أولئك الذين يثيرون، عَرَضاً، استياءه. أصبح هادئاً، وهو يعرف أنه في وسعه الإتيان بعائلته إلى أفغانستان، وسيكون في منأى عن هجوم الطالبان. وأصدر، في غضون ساعة، أوامره بأننا سنغادر إلى جلال أباد بأسرع ما يمكن. فثمة الكثير مما يجب القيام به لجلب عائلتنا من السودان.

خيم الكدر على رحلة العودة، برغم ارتياح والدي الداخلي، لأننا رحنا نتذكّر الملاّ نور الله، ونتحسّر على أننا لن نرى وجهه البشوش بعد الآن أبداً. لم يسبق أن جئنا إلى جلال أباد بدون أن يأتي للترحيب بنا. وقد أحبّه جميع

من عرفوه. فهو أنيس دائماً ومسعف. حزنّا على رحيله، لكننا عرفنا أنه يحتفل في الجنة. ولا تعني سعادتنا بتلك الفكرة أننا لن نفتقده على هذه الأرض. فهو ألطف الرجال في كل أفغانستان، يحس مع من حوله، حتى مع شخص غير مهم مثل صبي صغير. ولن أنسى أبداً أنه، بعد زيارات عدة لتورا بورا، وصل مرة وهو يحمل تحت ذراعه جرواً بنّياً وأبيض، قائلاً لوالدي إن رأس الجبل مكان موحش لصبي صغير. وقال، «هذا الجرو، يا أسامة، هو لعمر».

لم يحتجّ والدي، برغم أنني متأكد، بعد تجاربنا مع الجراء في الخرطوم، من أنه لم يُسرّ كثيراً. لكن الجرو، الذي أسميته «بوبي» على اسم كلبنا السابق في الخرطوم، كان رفيقاً جيّداً. وأخذ يستكين إلى جانبي في ساعات وحدتي، يشاركني في مكاني المنعزل هذا في العالم.

لم أكشف لوالدي عن أفكاري الكئيبة لأنني خشيت اتهامه بأن حزني يعني أنني أشكك في قرار الله، لكن فكرة الحفلة في الجنة لم تتمكن حتى من مسح الصورة الرهيبة للملاّ نور الله المدمّى والميت.

شرع والدي يحدّثني عن «رسالته» في الحياة. وربما أراد من ذلك إبعاد ذهني عن الملاّ نور الله. «أعرف، يا عمر، أنك غالباً ما تتساءل عن سبب قيامي بالأمور التي أقوم بها. وأنت عندما تكبر ستفهم. لكن عليك الآن أن تتذكر هذا وحسب: وضعني الله على هذه الأرض لسبب محدد ووحيد وهو الجهاد للتأكد من تحقيق العدالة للمسلمين». وعلتْ وجهَه نظرةٌ قاسية وهو يقول، «تُساء معاملة المسلمين في العالم. ومهمتي هي التأكد من حمل الدول الأخرى على احترام الإسلام، وأخذه على محمل الجد».

فَسَّرَ صمتي، على ما أفترِض، بأنه اهتمام وموافقة لأنه انطلق في واحدة من خطبه عن شرور السياسة الأميركية. «يرى الرئيس الأميركي نفسه، يا بني، أنه مَلِك العالم. وتتبع الحكومة والشعب الأميركيان ملكهما في غزو البلدان المسلمة، حتى عندما تقول بقية العالم، لا. فلا شأن لهم في الكويت لأن الغزو العراقي لها مشكلة شرق أوسطية، وعلينا نحن أن نجد حلاً لها. يريد

الأميركيون النفط، طبعاً، لكن هدفهم الآخر هو استعباد المسلمين. هم يكرهون المسلمين لأنهم يحبون اليهود. وأميركا وإسرائيل هما، في الحقيقة، بلد واحد، وليس بلدين».

تذكّرت حينها أن رجال والدي يدمدمون أحياناً من وراء ظهره بأنه يتجاهل خطر إسرائيل. فالمقاتلون يكرهون إسرائيل أكثر من كرههم أميركا. ويتشوقون إلى مهاجمتها، ويتكهّنون حول السبب في عدم إعطائهم أبداً مثل هذا الأمر. لكن، ليس من بينهم من يمتلك القدر الكافي من الشجاعة لطرح السؤال في وجه أبي.

وتحرّك لساني بأسرع مما أمكن لعقلي أن يلجمه. «لماذا، يا أبي، لا تهاجم إسرائيل، بدلاً من أميركا؟».

فنظر إلي بدون أن يجيب.

فكرّرت عندها السؤال الذي سمعت الرجال يطرحونه، «إسرائيل دولة صغيرة قريبة منّا. وأميركا دولة هائلة بعيدة جداً عن شواطئنا».

توقّف أبي قبل أن يشرح الأمر على هذا النحو: «حاول يا عمر أن تتخيل دراجة من دولابين، دولاب مصنوع من الفولاذ، والآخر من الخشب. والآن، يا بني، إذا أردت ان تدمّر الدراجة، فهل تدمّر الدولاب الخشبي أم الفولاذي؟».

أجبت، «الدولاب الخشبي طبعاً».

«أنت على حق، يا بني. وتذكّر هذا: أميركا وإسرائيل دراجة واحدة بدولابين. والدولاب الخشبي يمثّل أميركا، والفولاذي يمثّل إسرائيل. إن اسرائيل، يا عمر، هي الأقوى بين الاثنتين. فهل يهاجم قائد الجيش الخط الأقوى في المعركة؟ كلا، بل يركّز على النقطة الأضعف أوّلاً. الأميركيون ضعفاء، ومن الأفضل مهاجمة النقطة الأضعف أوّلاً. وما إن نخلع الدولاب الخشبي الضعيف، حتى يقع الدولاب الفولاذي تلقائياً. ومن يستطيع ركوب دراجة بدولاب واحد؟».

ربّت بيده على ركبتي. «نمحو أميركا أوّلاً من الوجود، ولا أعني بذلك عسكريّاً. يمكننا تدميرها من الداخل بجعلها ضعيفة اقتصادياً إلى أن تنهار أسواقها. وعندما يحصل هذا، لن يعودوا مهتمين بتزويد إسرائيل بالأسلحة، إذ لن تتوفّر لهم الأموال الفائضة لذلك. وعند ذاك الحد يتآكل الدولاب الفولاذي ويندثر، بسبب النقص في الاهتمام.

«وهذا ما فعلناه بروسيا. استنزفنا دماءهم في أفغانستان. أنفق أولئك الروس ثروتهم كلها على الحرب في أفغانستان. ولما لم يعد في وسعهم تمويلها، هربوا. وبعد هروبهم انهارت منظومتهم بأسرها. فالمجاهدون المدافعون عن أفغانستان هم المسؤولون عن تركيع دولة عظمى. وفي وسعنا القيام بالأمر ذاته مع أميركا وإسرائيل. وما علينا إلا الصبر. وربما لن تتم هزيمتهما وانهيارهما وأنا على قيد الحياة. وربما لن يحصل ذلك وأنت حي يُرزَق، لكنه سيحصل. سيحكم المسلمون العالم يوماً». توقّف للحظة وأضاف «هذا هو مخطط الله، يا عمر، وهو أن يحكم المسلمون».

جلست صامتاً. لم أشعر ولو باختلاجة واحدة في حياة أبي. أردته وحسب أن يكون كالآباء الآخرين، يهتم بعمله وعائلته. لم أجرؤ على مصارحته بالحقيقة، وهي أنني لن أفهم أبداً لماذا مهمته في تغيير العالم أكثر حيوية من واجبه كزوج وأب.

جلست محدّقاً وشارد الذهن، وبدا عليّ أنني غير متحمّس لأفكاره، فنظر إلي حينذاك بخيبة أمل. فقد تعوّد على انفعال محاربيه، الرجال الذين يتعلّقون بكل كلمة منه. رجال ينامون، ويأكلون، ويشربون فقط في سبيل تدمير الآخرين.

لكن، لم يجد الانفعال ذاته مكاناً يقيم فيه في قلبي.

وأكملنا، أنا ووالدي، بقية الطريق الحجرية بصمت بارد.

عاد أبي إلى جلال أباد بمشاريع كبيرة. سيرسل الآن بعدما حصل على مباركة الملاّ عمر، في طلب جنوده السابقين. بعض هؤلاء الرجال كان معه في

السودان، وستكون عودتهم سهلة. وسيصلون على الطائرة ذاتها التي تقل أمي وأخوتي.

وبرغم أن حكومات المنطقة لم ترحب بإقامة والدي على أراضيها، لأن حماسته لمقاتلة العالم غير الإسلامي أثارت نقمة الزعماء الغربيين الأقوياء، فإن الأناس العاديين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، استمروا في الاحتفاء به باعتباره بطل حرب عظيماً. وفي حين أن الحكومات الإسلامية ترتاب به، بل حتى تكرهه، فإن مواطنيها أحبوه. وفي الواقع، ما إن انتشر الخبر بأن أسامة بن لادن يقيم معسكرات تدريب جديدة للمحاربين المسلمين، حتى وُجد مجنّدون شديدو الرغبة سارعوا جميعهم إلى الانضمام إلى الجهاد. وشهدتُ، والمجندون الجدد يتبعون القدامى، على بناء جيش جديد من المجاهدين المتحمّسين.

ولمّا يمض وقت طويل حتى حصل والدي أكثر من ذي قبل على رجال يذعنون لأفكاره، ومستعدين للموت من أجل قضيته. ومع وصول هؤلاء الجنود إلى أفغانستان، التقيت كثيراً منهم لأنني أُمرت بأن أبقى إلى جانب والدي. اكتشفتُ أن الجنود الناضجين الذين حاربوا معه ضد الروس، هم في أغلبهم من الرجال الطيبين. فقد تخلّوا عن أحلامهم الشخصية من أجل تحرير بلد إسلامي من قبضة قوة عالمية كبرى. لم يكن هدفهم أبداً قتل مدنيين أبرياء، إلا أنني لاحظت أنهم، في حين كانوا يستمتعون برفقة الأصدقاء من الجنود السابقين، لم يعودوا يملكون، على ما يبدو، جذوة القتال في داخلهم.

كان الجنود الأصغر سناً، مختلفين ومميزين في اختلافهم، وتوقهم إلى أن يَقتلوا ويُقتلوا كان حاداً، إلى درجة أنهم تبختروا في المخيمات بتصميم، وهم المحاربون قيد الإعداد. إلا أنه، ما إن ينظر إليهم المرء عن كثب، حتى يجد أن نوعية أطباعهم تدعو، على ما يبدو، إلى الحيرة. بدا أن عدداً كبيراً منهم يهربون من مشاكل في بلدانهم الأم. وقد لجأ بعضهم إلى أفغانستان لتفادي العقاب على جرائم عنيفة اقترفها. فواحد من هؤلاء الجنود الشبان، على سبيل المثال، تباهى بأنه نحر عنق شقيقه عندما اكتشف أنه أقام علاقة جنسية من خارج الزواج. وعاش آخرون في فقر مدقع، فلم يأكلوا اللحم في حياتهم سوى

مرات قليلة. ومعظمهم لا قدرة له على الزواج. وبما أن المجتمعات الشرق أوسطية تسوّق للزيجات المبكرة ولكثير من الأولاد، فقد شعر أولئك الرجال بأنهم فاشلون في تحقيق ما يعزّ كثيراً على ثقافتهم. وبلغ البؤس بكثير منهم حدّاً شعروا معه بأنهم يعيشون الجحيم على الأرض، فجنحت بهم رسالة الجهاد بسهولة إلى السعي إلى الموت لينطلقوا قريباً إلى الجنة.

شعرت بالأسى على أولئك الشبان. عرفت أنهم يعتقدون أن الموت مكافأة عظمى، لكنني لم أشعر أبداً بالرغبة الشديدة في الموت، بل بذلت في الواقع كل ما في وسعي للبقاء حيّاً. أردت، برغم تعاسة حياتي، أن أحيا وأتابع بركة الحياة التي أنعم بها الله عليّ في هذه الأرض.

جلست في أحد الأيام على حافة أحد الحروف الجبلية في تورا بورا، وقد شعرت بالارتياح لوضعي، إلا أن معنوياتي ارتفعت فجأة لمّا أعلن والدي أن أمي وأخوتي سيغادرون الخرطوم في الصباح التالي.

قفزت على قدمي، وأنا أعرف أنني سرعان ما سأرى وجه أمي اللطيف.

قال: «سأبقى هنا، في تورا بورا. سيؤخذون إلى القصر في جلال أباد. وستذهب إلى هناك في الصباح التالي لوصولهم، وتبقى لبضعة أيام قبل أن تتدبّر نقلهم مع رجالي والإتيان بهم جميعهم إلى هنا».

وهكذا، فإنه مصمم على جعل النساء والأولاد يعيشون الحياة الجبلية. وبرغم أنني تكدّرت لفكرة ما ستصبح عليه حياة أمي العزيزة اليومية، بقيت متحمّسا لأنني لم أرها منذ ما يقارب الشهور الأربعة. أردت أن أصيح بفرح عبر سلسلة الجبال، لكنني كتمت إثارتي لأن والدي لا يوافق على إظهار الانفعال.

لما قاد بي شير السيارة بعد يومين من جبل بن لادن، التفتّ لأرى والدي يحدّق فينا ونحن نرحل. بدا، وقد استقر على خلفية تلك الجبال الصخرية المكشوفة، شخصاً متقدماً في السن، ووحيداً. وأدركت للمرة الأولى في حياتي أنه من الماضي، وأنني من المستقبل. شعرت بنفسي رجلاً.

الفصل السابع عشر

بلاد نائية... نائية جداً

نجوى بن لادن

بلغ انتظارنا في الخرطوم أربعة أشهر من الترقّب والقلق، وقد تُركنا لأنفسنا المستوحشة، ونحن نتساءل عما سيحلّ بنا. ربما شعرتُ بالكآبة بعدما اكتشفت، بعد مغادرة أسامة، أنني حامل للمرة العاشرة، وزوجي لا يعرف ذلك. ولم أتمكن، في غيابه، من مغادرة المنزل ولو مرّة واحدة خلال تلك الأشهر الأربعة. وقد وفّر سائق العائلة المؤن للنساء والأولاد.

غاب زوجي لفترات طويلة خلال حياتنا الزوجية كلها، لكن هذه المرة تختلف. شعرت بتحوّل بسيط، كما لو أنه يتم تحذيري مسبقاً بأمر أشبه بالإنذار الذي تثيره الحيوانات الهائجة في حين تتحرك الأمواج السريعة بصمت تحت بحر هادئ. أنبأني شعوري الداخلي بأن حياتنا آخذة في التغيّر، ولكن ليس إلى الافضل. وحتى أصغر أولادي، إيمان ولادن، أصبحا حزينين وفاتري الهمّة.

لم يسبق لعمر أن غاب من قبل، وقد أصبح، على مر السنين، الابن الذي أعتمدُ عليه اعتماداً كبيراً. وبالرغم من أنه أصغر من ثلاثة من أخوته، فإنه ابني الأكثر إحساساً ونضجاً. ويبدا أن ولديّ الأكبر سناً، عبد الرحمن وسعد، اللذين بقيا معي في الخطوم، يفتقدانه أكثر من الأولاد الآخرين، ربما لأنهما أمضيا معظم وقتهما مع شقيقهما. فعبد الرحمن ولد هادئ، نادراً ما يعكّر الجو، بينما

لا يتمكن سعد من التوقف عن الثرثرة. وأدركت للمرة الأولى، منذ غياب عمر، تأثيره المهدّئ في أخوته.

فكّرت في زوجي وفي عمر، في كل يوم من أيام غيابهما. عملت جاهدة على التمسك بالصبر، إلى أن يئست من إمكان رؤيتهما من جديد بعد غيابهما عن ناظري حوالي مائة وعشرين يوماً. ثم، في أحد الأيام السعيدة، أبلغنا موظفو زوجي المخلصون، أننا سنغادر جميعنا الخرطوم في الصباح التالي لننضمّ إلى أسامة وعمر. لم يخبرني أحد إلى أين سنذهب، ولم أسأل. وفوجئت أكثر لما علمت بأن زوجي أمر بترك جميع أغراضنا الشخصية وراءنا. وأوعز إلينا بأنه يمكننا أن نجلب فقط بَدْلين من الملابس لكل شخص. وليس علينا أن نصطحب معنا أدوات منزلية، ولا حتى إبرة حياكة! ولم يمكنني إلا أن أفترض أن أغراضنا ستتبعنا لاحقاً. فزوجي ينظم الأمور دوماً على هذا النحو.

كان ثمة اعتبارات تستأهل انشغالاً أكثر: كيف سيؤثر الانتقال في أولادي؟ وانساقت أفكاري إلى عمر وحبه للخيل. وها إن خيول والده العزيزة ستُترك مرة أخرى لمصير مجهول. فمنذ رحيل زوجي، أخذ بعض رجاله عبد الرحمن، وسعداً، وعثمان، ومحمداً إلى الاسطبلات، وهكذا بقيت الجياد في حالة جيدة. لكن، ما الذي سيحل بهذه الجياد الجميلة عندما لا يعود في إمكان أبنائي الاعتناء بها؟ لا أعرف. أدركت أن مثل هذه الأخبار السيئة ستحزن عمر، فشعرت بالحزن على حزنه. وراودتني أسئلة كثيرة أخرى، لكنها بقيت خاصة بي، مخبأة في قلبي.

لم يكن الرحيل في اليوم التالي معقّداً بالقدر الذي كان عليه لمّا غادرنا السعودية، لأنه ليست لدينا أغراض شخصية نوضّبها. رحلنا كما لو أننا عائلة تذهب في عطلة وستعود في وقت قريب.

وصل عمّال زوجي إلى «قرية الرياض» في قافلة من الحافلات الصغيرة والسيارات. أرشدونا إلى الآليات المخصصة لنا ليتم نقلنا إلى المطار. تطلّعت

إلى الوراء مرّة واحدة فقط في حين كانت «قرية الرياض» تختفي عن النظر. أقفل فصل آخر من فصول حياتنا.

تم استئجار طائرة كبيرة لاستعمالنا الخاص. فعائلة أسامة لا تسافر وحدها، لأن رجاله وعائلاتهم يذهبون هم أيضاً.

خُصصت مقاعد لنساء زوجي وأولاده في مقدمة الطائرة، وامتلأت جميع المقاعد الأخرى برجال أسامة وأسرهم. جلست مع أولادي بدون التحدّث مع أحد. وجلست شقيقتاي الزوجتان مع أولادهما على مقربة منّا، قريبتين بما يكفي لنتحدث، برغم أن أيّاً منا لم تشعر بالرغبة في دردشة لا طائل منها.

غادرت الخرطوم مع سبعة أولاد فقط. فعبد الله موجود في السعودية، وعمر مع والده. وصعدت خيرية وحمزة ابن الأعوام الثمانية معنا على متن الطائرة، وكذلك سهام وأولادها الأربعة. وبلغ مجموعنا في الرحلة ١٤ شخصاً من عائلة بن لادن، أي أقل بأربعة من وقت سفرتنا الأولى من السعودية إلى السودان. كان ذهني أهدأ مما يمكن أن أتصور، لأنه ليس جيداً للمرء أن يتململ وهو لا يسيطر على الأمور، إلا أنني صلّيت ليعم السلام العالم بأسره، وتتمكن عائلتي الصغيرة من الاستقرار التام. وتمسّكت بهذه الفكرة في قلبي.

شكّلت رحلتنا لغزاً، فلم تصدر عن أيّ من على متنها أي إشارة إلى أين يمكنها أن تنتهي. ومما أُخبرنا به نحن النساء، فإن الرجال لم يعرفوا حتى هل أننا عائدون إلى السعودية، أو ربما ننتقل إلى اليمن أو باكستان.

وأعرف مما أذكره عن باكستان، أنني لن أكون تعيسة هناك. ولا أعلم الكثير عن اليمن سوى أن عائلتينا أنا وأسامة تتحدران من هناك، لكنني شعرت بأنه بلد عربي مسلم محافظ، سيتناسب كثيراً مع أسلوبنا التقليدي في الحياة.

بدت الرحلة كأنها مستمرّة إلى الأبد، ودفعتني إلى الاعتقاد أننا ربما سندور حول العالم. لكن الطيار أخذ في النهاية ينخفض بالطائرة تدريجاً. وعندها، لاحظت أوّلاً رؤوس الجبال الكبيرة إلى البعيد من تحتنا. مرّت دقائق إضافية، وأمكننا الشعور خلالها بأن ارتفاعنا ينخفض رويداً رويداً. ولما نظرت من

النافذة من جديد رأيت أننا على وشك الهبوط في مساحة منبسطة كالكف تحيط بها الجبال، ظهر منها بعض الأشجار. تشوّشت أفكاري، وأذكر أنني فكّرت: «ما هي هذه البلاد النائية، والنائية جداً؟».

فجأة، لاح مطار صغير للأنظار. والتقطتُ لمحة مغبشة لسكان البلاد الذين يقيمون على هذه الأرض. انتشر رجال يرتدون ما اعتقدت أنه أزياء أفغانية هنا وهناك حول منطقة المطار. وقد تعرّفت إلى لباس السكان من الصيفيات التي أمضيتها في باكستان. لكن، هل من أراهم هم أفغان يقطنون في باكستان، أم أن وجهتنا هي أفغانستان فعلاً؟

توقف قلبي للحظات قبل أن أهدّئ عدم يقيني كلّه بتذكير نفسي بأنه علي أن أفرح، وسأفرح. فعائلتنا سيلتئم شملها من جديد. ولا يهم المكان الذي يحدث ذلك فيه.

أصبح كل شيء فوضوياً بعض الشيء. لدى الهبوط أخذنا، جميعنا، سريعاً، إلى خط طويل من الحافلات الصغيرة وشاحنات التويوتا الصغيرة المركونة حول حرم المطار. لا أذكر الكثير غيره عن ذلك اليوم المنهك. أذكر أننا نُقلنا إلى منزل كبير أبيض يدعى القصر القديم، حيث رتّب أحدهم أفضل الغرف لنساء زوجي وأولاده. وشاهدنا سيّدات أخريات يعشن هناك، نساء متزوجات برجال يعملون لأسامة.

شعرت بالقلق لأنني لم أرَ بعد زوجي وابني اللذين توقّعت أن يحضرا لاستقبالنا. وقالت إحداهن إننا وصلنا إلى أفغانستان، إلا إنني أردت سماع ذلك منهما. استرحت، لكنني لم أغفُ بسبب عاصفة الأسئلة التي كانت تدور في رأسي.

لكن مفاجأة رائعة انتظرتني في الصباح التالي عندما جاء ابني الوسيم عمر للزيارة، وانتظرني بصبر في الفناء الخارجي للقصر.

ارتدى ابني ثياباً على طريقة البشتون الأفغان، ولم يشبه نفسه كثيراً. وأمكنني، برغم ملابسه الفضفاضة، أن أرى أن ابني الصغير أصلاً، فقد بعضاً من وزنه، وكان يتنفّس بصعوبة فذكّرني بربوه المزعج. وسأسأله عن تلك

المشاكل لاحقاً، لأنني في تلك اللحظة لم أقل شيئاً. فقد ملأ الأولاد الأصغر سناً الصمت بأساليبهم المكايدة، وهم يتضاحكون معاً على ثياب شقيقهم المضحكة.

ابتسم أخيراً ابتسامته العذبة المتردّدة. عرفت أنه «عُمَري». لم يكن بعد قد أصبح طويلاً جداً، لكن نضجاً جديداً بدا على وجهه. افترضتُ أن الأشهر التي أمضاها مع والده أدخلته عالم الرجال.

أخذ ابني اللطيف والرقيق كنسيم، يدي برفق، وقبّلها، وقال: «مرحباً يا أمي. كيف حالك؟».

أجبت: «كنت في خير، يا عمر. لكن مرأى وجهك هو أفضل الأمور على الإطلاق».

وقبّل ابني وجهي المحجّب أكثر من مرّة.

ازداد شوقي إلى أن أعرف المكان الذي بتنا فيه، فسألته أخيراً: «أين نحن، يا عمر؟».

«في أفغانستان، في مدينة جلال أباد، في مكان ليس بعيداً كثيراً عن الحدود الباكستانية».

الأمر صحيح، إذاً. جاء بنا أسامة إلى أفغانستان. لم يكن في استطاعتي فعل شيء سوى حمد الله على سلامتنا وتآزرنا. واكتفيت بأن طرحت عليه سؤالين: «ماذا عن مقتنياتنا؟ ومتى ستلحق بنا؟».

نظر عمر في كل اتجاه إلا في اتجاهي، ليقول أخيراً، «لا أعرف».

أصابني مس من القلق، لكنني لم أطرح أي سؤال آخر. سألتقي زوجي قريباً، وسيوضح لي كل شيء.

لم أرغب في البقاء في القصر الذي يغصّ بالكثير من النساء والأولاد الذين لا أعرفهم. لذا سألت عمر «ما هي التدابير الخاصة بنا؟». وافترضتُ أن زوجي ينتظرنا في مكان لطيف سيصبح بيتنا الخاص.

بدا ابني متردّداً بعض الشيء وهو يجيب، «ستأتون جميعكم معي إلى تورا بورا، حيث ينتظركم والدي».

تذكّرت اسم تورا بورا، فقد سبق لزوجي أن وصفه بضع مرات وهو يخبر أبناءه عن المعارك التي سبق وخاضها من ذلك الملجأ. لم أستطع تخيّل سبب ذهابنا إلى هناك، إلا أنني تعلّمت بعد سنوات كثيرة من الحياة مع أسامة، ألا أطرح الأسئلة، لأن كلّ شيء سيظهر متى رأى زوجي أنه التوقيت الأفضل لذلك.

وثقت بزوجي منذ لحظة زواجنا الأولى: لقد اعتنى على الدوام بعائلته، ولا سبب يدفعني إلى الاعتقاد أن هذه المرة ستكون مختلفة، برغم أنني لم أستطع تخيّل الحياة في مكان مرتفع جداً، إلى درجة أنه يمكنني منه لمس الغيوم. وأنا لطالما عشت براحة قرب الشاطئ، أو في السهول.

حافظت ما بقي من النهار على هدوئي: لا أقول شيئاً وأنا أعتني بأصغر أولادي.

جاءنا عمر في اليوم التالي مع قافلة من الشاحنات الصغيرة، وشارَكَنا في آليتنا، وزوّدنا، على طريقته، ببعض التفاصيل. دار بيننا حديث عام عن الأولاد الباقين وعمّا حصل في الخرطوم بعد رحيل عمر. لم أستقصِ مع أنني شعرت بأن لدى ابني إحساساً بالهلع لم يتضح سببه إلى أن رأيت ما يعرفه بالفعل. ارتحت لأن عمر لم يسألني عن جياده العزيزة، وأنا أعرف وحسب أنه تم التخلي عنها كما حصل مع جيادنا في السعودية.

كانت جغرافيا أفغانستان رائعة بالقدر الذي سمعته عنها. رأت عيناي أرضاً جميلة تحبس الأنفاس. وفكّرت في أنني سأحب رسم المنظر الطبيعي الذي يسحر الألباب، لكنني تذكّرت عندها أن أدوات الرسم بقيت في الخرطوم.

كنت مجهدة كثيراً فأغمضت عيني. لقد أثّرت أشهر حملي الأولى سلباً في طاقتي، لكن استحال عليّ النوم بسبب الالتواءات والحفر الكثيرة في الطريق التي سرعان ما أنهكت إيمان ولادن، فأخذا قيلولة متقطّعة.

بدأنا بتسلّق جبل كبير، وشاحنتنا تزلّ وتزحل على طريق ترابية ليست أوسع من مسرب صغير. من المؤكّد أننا سنهلك جميعاً! وسعدتُ لأنني أرتدي الحجاب حتى لا يرى أحد الذعر على وجهي، إلا أن عمر لاحظ يدي المعقودتين. «المرّة الأولى، يا أمي، مرعبة. لكن سائقينا هم الأفضل. ولم يخرج أي منهم عن مساره بعد».

لقد أرادني ابني أن أشعر بحالة أفضل.

ارتبطت الجبال ببعضها البعض كثيراً، بحيث بدت كأنها واحدة. وقال عمر، الحساس جداً إلى درجة أنني اتهمته بقراءة الأفكار: «ستعتادين على الأمر سريعاً»، قبل أن يُطلعني على الخبر المفاجئ بأن واحداً من هذه الجبال الهائلة أعطاه لوالدي الملاّ نور الله، وهو رجل قُتل أخيراً في نزاع قبلي. وأعترِفُ بأن هذا الخبر لم يجعلني أشعر بحال أفضل، لأنني لم أولع بفكرة أن يصبح زوجي متعلّقاً شخصياً كثيراً بمثل هذا الجبل المرتفع في مثل هذه المسافة البعيدة.

عبرنا حينها حاجزاً أمنياً، حيث يحرس المنطقة رجال زوجي المزودون بأسلحة ثقيلة. وكانوا في انتظارنا بالطبع، فتركونا نمرّ بحريّة. وما إن أركنت الشاحنات حتى صدمني عمر بكلامه، «علينا، يا أمي، أن نكمل ما بقي من الطريق سيراً».

ومن حسن الحظ أن الرحلة ليست طويلة. انتابتني هموم عدّة، فربّما أتعثّر وأؤذي طفلي الذي لم يُولد بعد، أو ربّما يهوي واحد من الأولاد الصغار من على الجبل المرتفع. نظرت إلى الوراء لأرى خيرية وسهام تتبعاننا عن قرب، وعرفت، بالرغم من أننا نرتدي جميعنا الحجاب، أن وجوههن ملؤها القلق. إلى أين يا تُرى يأخذنا زوجي؟

لمّا أدرت وجهي عالياً صوب السماء، شاهدت قامة أسامة الطويلة وهو يقف على حافة أحد الحروف الجبلية. نبّهه رجاله إلى وصولنا، وها هو يراقب بإمعان أثراً بشرياً من النساء والأولاد يتسلق جبله. بدا أنه يقف على منطقة مسطحة من الجبل، وتساءلت إذا كان قد أمر عمّاله بنحتها في الغرانيت.

وفوجئت لرؤيتي أن لعمر صحبة، فثمة كلب ضخم يقف قرب زوجي. قال لي عمر، «هذا هو بوبي، كلب حراستي. أعطاني الملاّ نور الله بوبي قبل أسابيع على موته».

أخذت أتساءل عن ذلك الرجل، الملاّ نور الله. فهو واهب كبير للهدايا، من الكلاب إلى الجبال. ويكرّم العربُ من هم على درجة كبيرة من العطاء والإحسان. وها قد قُتل رجل سخي جداً اعتنى بزوجي وبابني. شعرت بالأسى عليه، مع أنه يُرجّح أن الرجل في الجنة، وبرغم أننا، أنا وأولادي، في خطر بسبب سخائه، نتحدّى الجبل الشديد الانحدار الذي تفضّل ووهبه لزوجي.

تحرّكنا واقتربنا أكثر من أسامة. أمكنني أن أرى وراءه بعض المباني المتداعية المبنية في الصخور الرمادية الداكنة. وأعترفُ بأنها لم تثر مشاعري. وبرغم الكمد في قلبي لِما أخذت أراه على الجبل، اشتعلت في داخلي شرارة من السعادة الحقيقية لرؤية وجه زوجي بعد طول فراق.

رحّب أسامة بكل فرد من أفراد عائلته قبل أن يقودني إلى داخل أكبر المباني. وأخذ عمر أشقاءه لتعريفهم إلى الكلب ذي القوائم الطويلة. ووقف الباقون صامتين وانتظروا.

ليست المباني في الأساس إلا أكواخاً حجرية، بُنيت كيفما اتفق بحجارة من مختلف القياسات استُخرجت من الجبل مع محاولة غير متقنة لإعطائها شكلاً ما. ولمّا قال أسامة إنني أنظر إلى منزلي الجديد، لم يمكنني، حقاً، تصديقه.

لم يسبق لزوجي أن اعتذر عن أي شيء يحلّ بي، وذلك اليوم ليس مختلفاً. وأشار، بدلاً من ذلك، إلى أننا سنحصل، أنا وأولادي الثمانية، على غرفتين وحمّام: غرفة جلوس متحدة مع الطبخ؛ وغرفة نوم صغيرة زُوّدت بسرير خشبي صُنع خصّيصاً لي. وثمة حمّام صغير بُني حديثاً. ولم يسبق لي في حياتي أن شاهدت أبداً مكاناً كهذا، إلا إن الخدر من الصدمة بلغ بي حدّاً هززت معه برأسي، وادّعيت الاهتمام.

سأعيش مع أولادي في غرفتين مربعتين ضيّقتين للغاية، مبنيتين على قمة جبل خطير جداً. وأشرت، مدركة أن زوجي لن يحتمل الشكاوى، إلى الأمور التي عرفت أنها ليست طبيعية لأكواخ جبلية، مثل الجدران المطلية بالأبيض ومعظم الأرضية الوسطى التي غطّيت أخيراً بقشرة رقيقة من الباطون. فأطراف الأرضية بقيت تراباً، إلا أنه وُجد بعض السجاد الرخيص المصنوع من النايلون للتخفيف من منظرها الرديء. ولم أمتعض من عدم وجود كهرباء في الجبل، برغم أن أسامة سمح لي دوماً باستخدام الإنارة الكهربائية، في حين أن كل شيء آخر من تقنيات العالم المعاصر بقي محظوراً. وتكهّنتُ بأننا سنستخدم الفوانيس، وكنت محقّة لأن أسامة أشار إلى بعض قوارير الغاز التي يمكننا إعادة ملئها بعدما تفرغ.

لم أعثر على صنابير للمياه الجارية، إلا أنني لم أُثر الموضوع مع أسامة، ولم أشغل فكره به. ولاحظت موقداً محمولاً يعمل على الغاز ذا عينة واحدة فقط، من النوع الذي يستخدمه الناس في رحلات التخييم، وعرفت بالتالي كيف سأقوم بطبخ وجباتنا. وسينام أولادنا على الأرض الصلبة على فرش قطنية رقيقة ولن نحظى جميعنا بأي أثاث، سوى السرير الخشبي الوحيد، برغم أنني لمحت بعض الوسادات الرقيقة مكوّمة في زاوية الغرفة الأكبر.

نظرت من حولي، وأنا أفكّر في كيفية تدفئة الكوخ، فرأيت في إحدى الزوايا علبة فولاذية مع أنبوب موصول بها يمر عبر الجدار. وقد جُمعت قربها كومة من الحطب المقطّع.

تبعت عينا أسامة عينيّ وقال: «الجبال ملأى بالأشجار. وسيوفّر لك الصبية الكثير من الحطب.. وستدفئين».

شعرت ببرودة الجبل برغم وصولنا في الجزء الأول من أيلول/سبتمبر. وأنا، بالرغم من أنني عشت معظم حياتي منذ تزوجت في عزلة، أصبحت على ما يكفي من الاطلاع لأعرف أن جبال أفغانستان تشتهر بعواصفها الشتائية العاتية.

ارتعشت استباقاً لما هو قادم علينا.

انتظرت حتى وقت لاحق من تلك الليلة، لأقول لأسامة إننا سنحظى بطفل آخر. لا يمكنني أن أتذكّر ردّه، لكنه كان حينها قد أصبح والداً لسبعة عشر ولداً، ومن المرجّح أنه أصبح بالتالي مُحصّناً ضد الكثير من الحماسة.

وهكذا، انتهت بنا الحال، أنا وأولادي، بالعيش في تورا بورا في جبل مرتفع جداً يملكه زوجي. كانت تلك أزمنة صعبة جدّاً من أوجه عدّة، برغم أنني سعدت لكوننا جميعنا معاً.

ولم يمض وقت طويل حتى سئمنا من أنظمة غذائنا المحدودة. أخذنا نأكل البيض، والبيض، والبيض، أو البطاطا، والبطاطا، والبطاطا، أو الأرز، والأرز، والأرز.

تألف فطورنا من البيض المخفوق، والجبن الأبيض المالح، والخبز، والماء، والشاي الأخضر. أما بالنسبة إلى طعام الغداء، فنتناول أحياناً الأرز المطبوخ مع الخضار، أو البطاطا، وتعمر مائدتنا في بعض المناسبات، إذا أسعفنا الحظ، بالبامية والطماطم. ونادراً ما تناولنا اللحوم. وما كنت في العادة لأهتم بشأني. لكنني حامل وقلقة على طفلي الذي لم يُولد بعد. وشكّل أولادي الآخذون في النمو، مصدراً آخر للقلق الكبير، لأنني أعلم بأنهم في حاجة إلى البروتينات في غذائهم. وكنا، عند العشاء، نكرر وجبة الفطور مع البيض والخبز. وفي مناسبات نادرة، يحصل كل منا على علبة من التونا، وهو دلال تهتزّ له نفوس الأولاد الصغار الذين لا يحصلون أبداً على الحلوى، أو أي أطعمة خاصة يُعرف عنها أنها تولّد الإثارة لدى من هم في عمرهم.

أصبح أولادي دائمي الجوع، لكنني حاولت التخفيف من توتّرنا بقليل من المكايدة، فأخبرت أبنائي مرّة أنهم سينقّون قريباً كالدجاج، لأن البيض هو الطعام المتوافر بكميات كبيرة، ولأنهم يتناولون عدداً لا ينتهي من البيض المسلوق.

شكّل غياب شبكة المياه الداخلية إزعاجا لن أنساه أبداً. أُجبرنا في الأيام الأولى على جلب الماء من أحد الجداول الجبلية، إلا أن ذلك شبه مستحيل بالنسبة إلى مثل هذه المجموعة الكبيرة من الناس. وتدبّر أسامة، بعد بضعة أسابيع، أن تجلب شاحنة صغيرة الماء. ولأنه لا يجب رؤية النساء مع رجال من غير عائلتنا، ثقب أحدهم فتحة في جدار البناء ليمد من خلاله أنبوب الماء. وأخذت حينها أنا وابنتاي نقفز في المكان بطريقة مضحكة، لأنه من الضروري لنا أن نكون رشيقات للغاية للإمساك بمستوعبات الماء البلاستيكية الفارغة، ونعبئ أحدها ثم الآخر بدون أن نبلل أنفسنا برذاذ الماء.

لم أشتك ولو مرة واحدة إلى زوجي، حتى وأنا أغسل ثيابنا المتسخة بالماء البارد في دلو معدني كبير، وأطبخ الأرز على موقد بعين واحدة، أو أبرّد طعامنا القابل للفساد في جدول ماء جبلي. واجتهدت في كنس أرضية المنزل بفرشاة غريبة غطاها أحدهم بقطعة من النايلون. لم يسبق لي أبداً أن شاهدت مثلها، لكنها كانت تفي بالغرض.

ولم أشتكِ أبداً حتى وأنا أكبت صراخي عندما يركض أصغر أولادي بلا مبالاة على حافة الجبل.

لم أشتكِ أبداً برغم أن ممتلكاتي التي تركتها ورائي تخطر دائماً وتكراراً على بالي. لم أُشر أبداً إلى مدى اشتياقي إلى كنوزي الصغيرة: كتبي العزيزة علي، والقطع الذهبية الجميلة التي كانت تُقدّم إلي في كل مرة ألِد واحداً من أولادي. وافتقدت بألم، مخبئي السرّي لصور أولادي. فمنذ يوم زفافي، وقوانين زوجي في شأن الكاميرات والصور، تتأرجح بين القبول والرفض، فيقول مرة «لا» لالتقاط الصور، ثم يقول «نعم»، ثم «لا» من جديد. والتقاط الصور هو خطيئتي الصغيرة الوحيدة. وقد تدبّرت، منذ أيام زواجي الأولى، التقاط صور جميلة لأطفالي الرائعين. وتلك الصور هي بعض من الأمور الأحب إلى قلبي وقد ضاعت إلى الأبد. وتشوّقت إلى بعض الشامبو والصابون المعطّر، لكنني اضطررت إلى الاغتسال بأسوأ أنواع المنظّفات. وغالباً ما فكّرت في الفساتين الجميلة التي ارتديتها بفرح كبير في خلوة منزلي. حتى أنني افتقدت عباءتي

السوداء وحُجُبي السوداء ووشاحاتي، لأن أسامة قرر، ما إن تسلّقت أقدامنا جبال تورا بورا الصخرية، أنه على كل فرد من أفراد العائلة ارتداء ثياب السكان المحليين. وعلينا، نحن زوجاته، حتى التخلّي عن عباءاتنا التقليدية، بحيث لا يميّزنا أحد عن النساء المحليّات. وهكذا، أرسل سائقه إلى سوق أقرب قرية لشراء التشادري والبرقع الأفغانيين، ذينك الغطاءين الأشبه بالخيم مع شق يشبه الحاجب للعينين. وأنا فضّلت كثيراً العباءة المتهدّلة السوداء مع وشاح الرأس وحجاب الوجه على البرقع الزاهي اللون المنتفخ كالشراع. لكن أسامة قال إنه يجب عليّ أن أرتدي البرقع، ففعلت.

بات كل يوم مشابهاً للذي يسبقه بالنسبة إلي وإلى شقيقتيّ الزوجتين. صلّينا نحن النساء الثلاث المسكينات، خمس مرات في اليوم، وربما اجتمعنا بعد الانتهاء من أعمال البيت لتلاوة القرآن، أو الجلوس والنظر من فوق الجبال لمراقبة حيوانات الغابة من حولنا، ونحن نتساءل كيف هي حياتها. وأمضت ابنتاي الصغيرتان، فاطمة وإيمان، وقتاً طويلاً معي وقد سلّيتهما بأن رويت لهما روايات ممتعة عن طفولتي في سورية. لكن الوقت المفضّل لهما، كان الذي يخصصهما أشقاؤهما للجلوس في حلقة ووصف الحياة خارج أسوار منزلنا الصخرية. وشاركتني ابنتاي الصغيرتان، في معظم الوقت، في تقليدي في ارتداء البرقع، إلا إذا غاب أي وجود لغرباء عن الجبل، فتتحرران حينها للعب مع أشقائهما.

افتقدت الحياة التي عرفتها من قبل، ولم يكن في وسعي القيام بشيء سوى التعايش. فحياتي مُكرّسة لعائلتي، وقمت بالتالي بما عليّ فعله. لا يعني هذا أنني لمت زوجي، لأنني لم أفعل. فهو في وضع لا يسمح له بالدخول إلى معظم البلدان. وعليه أن يعيش أينما استطاع، وذلك المكان المتاح هو أفغانستان.

لطالما حاولت التركيز على النصف الملآن من «كوب» سكننا في هذه الجبال، والنظر إلى الجانب المشرق للوضع. فأولادي يتنشّقون هواء الجبل المنعش على الأقل. وبات الصبية، للمرة الأولى في حياتهم، أحراراً كالطيور،

يركضون في أنحاء قمة الجبل تلك مثل كائنات برّية. والحياة ليست مملة أبداً بوجود مثل هذا العدد الكبير من الأولاد. وأخذ كبار أبنائي، وقد استبد بهم الضجر، يجمعون مجموعة لطيفة من الكلاب، ويخططون لإنشاء مزرعة للأرانب.

من المعروف أن المسلمين ليسوا متولّعين بالكلاب، لكن زوجي سمح بوجودها في الجبل، لأنه شعر بأن عادتها الطبيعية في النباح ستوفّر نظام إنذار جيداً ضد الدخلاء. وقد اشترى، لمّا أقمنا في الخرطوم، كلبي حراسة كبيرين طلبهما على «الكاتالوغ»، وشُحنا من أوروبا. كانا من نوع كلاب الحراسة الألمانية، أطلق عليهما زوجي اسمي صفير وزئير. ولّما أخبرني أحد أبنائي أنه شاهد والده يدلّل هذين الكلبين، شكّل ذلك إحدى أكبر مفاجآت حياتي. لم أكن لأخمن أبداً أن نسيبي وزوجي، أسامة بن لادن، سيسمح لأصابعه بأن تداعب كلباً. فزوجي يتبع أقوال نبيّنا محمد الذي نبّه أتباعه إلى أن الكلاب نجسة ولا يجب لمسها. ومن سوء الحظ أن هذين الكلبين الغاليي الثمن، لم يتمتعا بنهاية سعيدة، إذ سُرق أحدهما، بينما عانى الثاني معاناةً رهيبة من مرضٍ قبل أن ينفق.

وآمل أن يكون الكلاب في أفغانستان أكثر حظّاً. وقد امتلك عمر كلبه الجميل، بوبي، الأبيض والبني ذا القوائم النحيلة والطويلة جداً إلى درجة أنه أصبح مدار الكثير من الأحاديث والضحك من القلب. وكان له شعر حريري طويل قد تحسده عليه كثيرات من النساء. وحصل عبد الرحمن على كلب متوسط الحجم طريف الهيئة. واستحصل سعد هو الآخر على كلب، لكن ذكرى وجهه بقيت في أفغانستان. وملك عثمان كلبين بنّيين صغيرين ممتعين جداً. وأنا متأكدة من أن كل تلك الكلاب كان لها أسماء. لكنني، مهما حاولت، لا أستطيع سوى تذكّر اسم بوبي، كلب عمر.

خلقت تلك الكلاب بعض الإثارة بين الحين والآخر. وكان زوجي، في أحد الأيام، في الغرفة الخاصة التي خصصها لاجتماعاته مع رجال آخرين، لأنه من غير اللائق، في مجتمعنا، أن يدخل الرجال الغرباء المنزل الذي تعيش فيه

النساء. ويقع مكتب أسامة عند الحرف تحت الجبل، على مسافة قريبة جداً، بحيث يمكننا، من موقعنا، رؤية السطح الملاصق للمساحة المسطحة التي يلعب فيها الأولاد. واستقبل زوجي في ذلك اليوم ثلاثة زوّار مهمّين، وهم رجال لم يسبق له أن التقاهم من قبل، وأنا متأكدة بالتالي من أنه أراد لهم أن يغادروا بانطباع جيّد.

وحصل أن أكبر أبنائنا، عبد الرحمن وسعد وعمر، عملوا في ذلك اليوم جاهدين على تدريب كلابهم على حماية منزلنا. وفعل عبد الرحمن أمراً أثار جنون هذه المخلوقات. وفكّر سعد في لعب مقلب على أخيه، فأفلت الكلاب من حبالها، فطاردت خمستها عبد الرحمن بكل ما أوتيت من قوّة. ذُعر عبد الرحمن المسكين لما شرعت تحاول عضه، فهرب، وراح يعدو كفرس سباق، بسرعة كبيرة وهو لا ينتبه إلى طريقه لأنه استمر في النظر إلى الوراء للتأكد من أن الكلاب بعيدة عنه. وشاء الحظ أن يركض مباشرة خارج الحافة فوق سطح الخشب والقش الذي يغطّي مكتب أسامة.

كان زوجي وزواره يناقشون أكثر أمور العالم جدّية، حين شرعت أغصان الشجر والقش اليابس تمطر عليهم فجأة. سقط ابني المرعوب من خلال السقف، ولم توقف سقوطه إلا الأرضية الصلبة. وتكوّر عبد الرحمن عند أقدام زوّار زوجي المدهوشين.

وما هي سوى لحظات، حتى شق عمر سريعاً طريقه نزولاً من الجبل، وأفاد بأن المنظر كان مسلّياً لكنه مرعب. لم يحرّك زوجي وزوّاره ساكناً، وبقوا جامدين كالحجارة، وهم يشاهدون عبد الرحمن يهوي بينهم. وقال عمر إنه نظر بعناية إلى وجه والده ليرى ما سيحصل، وهو على أهبة الاستعداد للهرب إلى بر الأمان إذا اقتضت الضرورة ذلك، لكن أسامة احتفظ بقسمات وجهه ذاتها كأن سقوط صبي من السقف أمر طبيعي.

بعد لحظات طويلة من الصمت، نفض أسامة بهدوء الغبار عن رأسه وجسمه، ونهض متوجهاً إلى ابننا المذهول. نفض أغصان السقف وشظاياه عن

ثياب عبد الرحمن وتفحّصه للتأكد من أنه نجا بدون أن ينكسر له عظم. وعلّق أحد الزوار بأن السقف خفّف سقوط عبد الرحمن.

قاد أسامة بلطف ابنه المرتعش إلى خارج الغرفة، وقال له بهدوء، «اذهب يا بني إلى المنزل، إلى أمك». ثم التفت زوجي الجاد إلى الحرف ليرى سعد وعمر الخائفين، يسترقان النظر من فوق. وأفاد عمر بأن والده قال بهدوء عظيم، «سعد، عمر، أبعدا الكلاب عن هذه المنطقة، وإلا قتلتها في نهاية اجتماعي».

جمع الصبية كلابهم وتفرّقوا. وراقب عمر والده يعود ببرودة إلى الاجتماع، واستأنف الرجال الأربعة عملهم وكأنه لم يحصل أي شيء خارج المعتاد.

كان عمر الصبي الذي شغل بالي أكثر ما يكون. رأيت أنه أصبح حزيناً جداً منذ مجيئنا إلى أفغانستان. تحرّكت في المكان بدون كلام، وأنا أراقب عن كثب عمر وهو يقضي ساعات طويلة كثيرة جالساً في منزلنا. ويدير أحياناً ظهره إلى العالم ويقبع لساعات وأذنه ملتصقة بالراديو، فأعتقد للحظة أنه غفا والراديو لا يزال يصدح في أذنه. لكن، ما إن أنسلّ إلى مقربة منه لرؤية وجهه، حتى يفتح عينيه على وسعهما كالجثة، لكنها جثة تتنفس. فأكثر أبنائي إحساساً غارق في مشكلة حتى أذنيه، وأمه لا تعرف ماذا تفعل لمساعدته. والنصيحة الوحيدة التي أمكنني تقديمها هي تذكيره بأن كل شيء بيد الله. لذا، فإن كل شيء سيكون على ما يرام.

احتفظ عمر بوالده لنفسه قبل أن تصل الزوجات والأولاد إلى أفغانستان. وأعتقد أن مثل هذا التقارب عاد بالخير على ابني. فعمر، من بين جميع أولادي، هو أكثر من شعر بالتوق الشديد إلى أبيه. ولكن بعد وصول العائلة بأسرها إلى أفغانستان، أصبح أسامة متباعداً، وأصبح مجيئه إلى زوجته وأولاده أقل تواتراً.

فوجئت، في أحد الأيام، بعبد الرحمن وسعد وعمر وعثمان ومحمد، يأتون إلي وعمر ينطق باسمهم، قائلاً: «إننا، يا أمنا العزيزة، لا نرى والدنا أبداً. هل يمكنك التحدّث معه وإخباره بأننا نحتاج إلى انتباهه؟».

أصبت بارتياع منعني عن الكلام. وتطلّب الأمر بعض التفكير، لأنني منذ بداية زواجنا لم أعترض على زوجي أبداً. فلطالما ركّز أسامة فكره على شؤون العالم، ولا يحبّذ أي نقاش في هذا الأمر من زوجاته. لكن أبنائي الذين يكادون يصبحون بالغين، يطلبون الآن خدمة صغيرة، هي أبسط حقوقهم، من والدتهم.

«نعم، سأفعل»، وعدتهم، متعهّدة استجماع القوة لفتح الموضوع مع زوجي.

وفي المرة التالية التي جاء فيها أسامة فيها إلى كوخي المتواضع لتناول طعام العشاء معنا وقضاء ساعات الليل، استجمعت شجاعتي لأقول له: «يحتاج إليك أبناؤك الآن يا أسامة وهم يصبحون رجالاً. أرجو أن تمضي بعض الوقت معهم».

بدا أسامة مصعوقاً، لأنه لم يسبق لي قط أن كنت بمثل هذه الجرأة. لكنه لم يوبخني، وقال: «سأتحدّث معهم».

بلغ الكوخ درجة كبيرة من الصغر بحيث لم يتوفّر لي مكان أذهب إليه ليتمكن زوجي والصبية من الحصول على أي خصوصية. وبالتالي شهدت ما حصل لما استدعاهم للحديث معهم.

اجتمع صبيتي وجلسوا في حلقة، وقبعوا كالأولاد الصالحين باحترام، وكل منهم وضع إحدى ساقيه تحت جسمه، والركبة الأخرى تلامس صدره. وجلسوا هناك بدون رفع نظرهم. ففي ثقافتنا لا ينظر الصبية في عيني والدهم بطريقة جريئة، بل يتحدثون وعيونهم منكّسة. وقد راعني سماع عمر يتحدث بمثل هذا الوضوح وبدون خوف: «نشعر، يا أبي، بأنك تتجاهلنا. أنت والدنا، وبرغم ذلك تصرف وقتك كله مع رجالك».

جلس أسامة بارتياح، يرتشف شايه، ويمعن النظر في أبنائه. ها قد تحدّث أخيراً، «ليس الأمر، يا أولادي، أنني لا أريد قضاء الوقت معكم. فسأكون مسروراً كثيراً لو أمكنني البقاء معكم وقتاً طويلاً كل يوم، لكنكم تعرفون وضعي ومدى الصعوبة التي آلت إليها حياتنا. وتعرفون كم أعمل من الوقت. يجب أن

تتعلموا أن تكونوا شاكرين للأوقات الوجيزة التي يمكننا فيها رؤية بعضنا البعض».

لم يقل أبنائي شيئاً. وعرفتُ أن جواب أسامة ليس الجواب الذي يسعون إليه. أما هو فشعر بالحاجة إلى مزيد من الكلام، فأخبرهم أمراً لا يعرفه إلا القليلون، لأن أسامة ليس من الرجال الذين يكشفون بسهولة ما يحزّ في نفوسهم. فلش أصابعه وأشار إليها بإبهام يده اليمنى كما لو أنه يعدّ، وقال «لم أرَ جدّكم، في حياتي كلها، سوى خمس مرّات. خمس مرّات! وحصلت هذه اللقاءات الوجيزة كلّها، ما عدا واحداً، بحضور عشيرة الأبناء الكبرى، وهي المرات الوحيدة التي نظرت فيها عيناي إلى جدّكم. ثم توفي». بلع ريقه، وأحدث صوتاً بلسانه، ثم أضاف: «علينا حقيقة أن نكون شاكرين للقَدْر الذي نرى فيه بعضنا البعض».

كرر الصبية فعلة والدهم، وأصدروا أصواتاً صغيرة بألسنتهم، وقد تعاطفوا مع علاقته شبه المعدومة مع والده.

أعطى أسامة الصبية أمراً مهماً يفكّرون فيه: «يجب أن تفهموا أنني أحمل شؤون العالم كلها في ذهني. ولا يمكنني أن أكون الأب المثالي الذي يمضي كل دقيقة من النهار والليل مع أبنائه. لكنني سأحاول، من الآن وصاعداً، قضاء المزيد من الوقت معكم يا أبنائي».

هزّ أبناؤنا برؤوسهم وهم يدركون أنه لا يمكن أي منّا القيام بالمزيد.

كم أملتُ أن ينفّذ أسامة ما قاله، إذا بدا أبناؤنا صبية ضائعين.

فكّرت في تلك الليلة كثيراً في زوجي وأولادي، وشعرت برغبة هائلة في الهرب من جدران كوخي الصخري لاستنشاق هواء الحرّية من حولي. أوى أولادي إلى فراشهم بعدما تناولوا البيض المسلوق والخبز، وتململوا وتقلّبوا إلى أن استسلم كلّ منهم ببطء إلى النوم. اختلست النظر للتأكد من أنني بقيت وحدي مستيقظة. وشعرت بالارتياح لأنه لن يتم الإمساك بي، فلبست سريعاً البرقع الذي لم أتآلف معه، خطوت بعض خطوات إلى حافة الحرف، وأنا

أجمع قماش العباءة الفضفاضة من تحتي ومن حولي، وأجلس بهدوء على الأرض الصخرية الباردة. قبعت هناك بصمت، امرأة مغطاة من الرأس إلى أخمص قدميها، هائمة وحدي مع أفكاري.

لا تُسمع إلا أصوات قليلة لأن كائنات الجبل استغرقت في نومها. وبرغم ذلك أمكنتني الرؤية على بعد أميال كثيرة لأن القمر المكتمل يشرق على العالم بتوقّد، وومضاته الصغيرة تلمع كالصدى الصامت من السلسلة اللامتناهية من الجبال الوعرة. جلست هناك أحدق وأمعن النظر من خلال فتحة البرقع الشبكية إلى سماوات أفغانستان المليئة بالنجوم. لم أعد جزءاً من حركة الحياة الأرضية وزحمتها، بل شعرت بأن العالم الذي يضج بالحركة يتجاوزني في مكان ما وراء جبال تورا بورا. أشعرتني مثل هذه الأفكار بأنني وحدي كلّياً في العالم، امرأة ترتدي البرقع ومنسية من الجميع. والحقيقة أن قلّة من الناس في العالم تعرف أن نجوى غانم موجودة. ولا يمكن لأحد، برغم ذلك، أن ينفي أنني امرأة وهبت الحياة لتسعة أولاد، مع طفل عاشر يوشك أن يولد.

وجلست بهدوء مع أفكاري، والبدر المكتمل يُبرز قامتي الجامدة والضئيلة. وشعرت بأنني لست إلا مجرّد حجر في جبل لا يعرفه إلا الله.



لم يَفِ والدي بوعده بتخصيص المزيد من الوقت لأبنائه. فالحياة، بعد اجتماعنا، استمرّت مثل قبل، وقد انخرط والدنا كلّياً في «أشغاله العالمية»، وأولاده يتسكّعون عند حافة حياته الجهادية.

حافظ، وهو في السودان، على اهتمامه بشؤون الحياة العادية، مثل أعماله الزراعية أو الصناعية، إلا أنه ما إن فقد الحق في الإقامة والعمل في ذلك البلد الأفريقي، حتى أشعل غضبُه العنيف فيه رغبةً هائلة في الانتقام. وأصبح الجهاد حياته كلّها بدلاً من كونه جزءاً منها.

شعر والدي، بعدما أذن الملاّ عمر بوجودنا، بما يكفي من الثقة للإرسال بطلب مقاتلين للجهاد. وأخذ الرجال يتدفقون على أفغانستان، أشبه بالنحلات العاملة الباحثة عن «ملكتها»، أو، في هذه الحال، عن «ملكها». ولِمَ لا؟ فقد شهدت عيناي التأثير الهائل الذي يفرضه حضور والدي، في الرجال المحاربين الأشداء.

شرعتُ عند هذا الحدّ، من مكتب عبد الله عزّام للخدمات الذي أنشئ بهدف تنظيم مقاومة الوجود السوفياتي في أفغانستان، في الاهتمام بعالم الجهاد وتطوّر «قاعدة» أبي. وقد دعت الحاجة الماسة إلى مثل هذا التنظيم في مكتب الخدمات. وأصبح ضرورياً، بوجود هذا العدد الكبير من المقاتلين الشبان الذين

يسيرون بخطى متثاقلة في أرض لا يعرفونها، إنشاء منظومة تسجيل لتتبع أمكنة وجودهم. كما أن ثمة احتياجات أخرى. فهؤلاء الجنود يحتاجون إلى مكان يقيمون فيه في باكستان خلال عملية التسجيل، وفي أفغانستان من أجل عملية التدريب. والتدريب مهم للغاية، لأن معظمهم يجهل ما يتطلّبه الأمر ليصبح المرء جندياً فعلياً. كما يجب انتقاء القادة الذين سيتولّون قيادة الجنود.

أثبت المشروع في إنشاء قوة عسكرية حسنة التنظيم، أنه على درجة هائلة من التعقيد، إذ لم ينطلق عبد الله عزّام ووالدي بأكثر من كميات كبيرة من المال ورغبة شديدة في خوض حرب مقدّسة.

تحوّل أبي، في تلك الأيام، إلى طالب متحمّس يتعلّم الكثير من عبد الله عزّام. وسرعان ما أنشأ بيت الضيافة الخاص به (بيت الأنصار) بهدف مساندة المقاتلين، وقام ببناء جيشه الخاص من المتطوعين العرب.

أخذ والدي يتطلّع إلى توسيع مهمته في الوقت الذي بدأت فيه الحرب تقترب من نهايتها. استهلك تخليص أفغانستان من السوفيات الكثير من طاقته لما يقارب عشر سنوات، إلا أنه ازداد برغم ذلك حماسة في سعيه إلى تغيير وجه الشرق الأوسط، وهو يريد تخليص المنطقة من التدخّل الغربي، إضافة إلى الإطاحة بالملوك العرب والديكتاتوريين، شرط استبدالهم بزعماء دينيين. وستنصبّ مهمته الثانية، بعد استكمال مهمة تغيير الشرق الأوسط، على تغيير وجه العالم. لأنه يجب على العالم بأسره أن يصبح إسلامياً.

وها إننا نعرف الآن أن «القاعدة» شُكّلت نتيجة لرؤية والدي العالمية. وقد وُجدت تنظيمات إسلامية أخرى لها الرؤية ذاتها، إلا أن تنظيم «القاعدة» أصبح، بفضل ثروة والدي وولعه بالجهاد، المظلّة الرئيسة للطموحات الإسلامية الجهادية. وأخذت، من ذلك الحين، أذرع القاعدة في الانتشار في العالم بمهمتها العنفية الجديدة.

بعد انتهاء حرب الخليج، صوّب والدي انتباهه على الأميركيين والبريطانيين.

وسرعان ما أدى حقده على الأميركيين إلى قطيعته المؤسفة مع العائلة المالكة السعودية. وما لبث موقفه أن ازداد تصلّباً بعد منفاه.

شرع والدي في إقامة معسكرات تدريب في جميع أنحاء أفغانستان. وأقيم الكثير منها في معسكرات روسية مهجورة، بينما بُنيت أخرى جديدة. وكلّما تقدّم بي العمر، كان يُسمح لي بالوصول إلى حدود أعمال والدي. وبدأت أسمع للمرة الأولى روايات مريعة حول شدة كره الأميركيين للإسلام، إلى درجة أنهم يرسلون جيوشهم الجرارة إلى جميع أنحاء العالم بهدف قتل المسلمين الأبرياء. وأذكر اطلاعي على خارطة تظهر كل بلد سُمح للجنود الأميركيين بالتمركز في أراضيه. وامتلك الأميركيون قواعد عسكرية في أكثر من خمسين دولة، وعناصر عسكرية في نحو مائة وخمسين بلداً.

راقبت وجوه جنود أبي وهم يشيرون إلى الخريطة، ويزيدون بالكلام على وجود الأميركيين في كل مكان. وتحدّث أبي فقال: «أميركا هي الدولة الوحيدة في العالم التي لها جيش قادر على أن يجوب العالم ويسيطر عليه. حصلوا على موطئ قدم في كل منطقة. ولأي هدف؟ لهدف تدمير مجتمعنا الإسلامي».

لم أعرف شيئاً عن العالم خارج محيطي المباشر، وسَهُلَ بالتالي على مثل هذه الخطابات أن تثير فيّ الذعر من المخاطر التي أواجهها كمسلم.

وقدّم الزعماء الجهاديون محاضرات كثيرة أبلغوا فيها الشبان المسلمين أن الأميركيين هم الذين فرضوا في الأساس دولة إسرائيل على الفلسطينيين. وسمعنا أن كل رصاصة أطلقها الإسرائيليون على الفلسطينيين، هي هديّة قيّمة من الأميركيين. فالقفّازات الإسرائيلية تغطي أيدي الأميركيين.

وأنا أعرف اليوم أن مثل وجهات النظر هذه، ليست حكراً على «القاعدة»، بل إنها عمّت كافة أنحاء العالم الإسلامي. ولأن حكومات عربية كثيرة تغذّي هذه المعتقدات ذاتها، كان جنود أبي مُستعدّين ذهنياً لمثل هذا الكلام. فحكومة أميركا مكروهة جداً في كل مكان تقريباً من العالم العربي، برغم النظر إلى الشعب الأميركي كأفراد بعين الرضا.

وفي لقاءات عُقدت في قندهار، دُفع بالمحاربين إلى الغضب الشديد من خلال أشرطة فيديو تُظهر جنوداً إسرائيليين يضربون بعنف وبحبور النساء الفلسطينيات؛ ويركلون بفجور صبية فلسطينيين صغاراً؛ ودبابات إسرائيلية تتعمّد تدمير منازل الفلسطينيين؛ ويطلقون النار بحقد لقتل أطفال فلسطينيين يرمون الحجارة.

ويندفع الشبان، في نهاية مثل تلك العروض، خارجين وقلوبهم تتفجّر غضباً. وها إن محاربي والدي أصبحوا جاهزين للحرب، مهما يكن شكل هذه الحرب. ومن يستطيع أن يلومهم؟ فهذه النظرة تشكّل واقعهم الوحيد. فعلى المسلمين التصرّف قبل أن يتعرّضوا للهجوم!

خرجت من مثل هذه الاجتماعات، وأنا فتى صغير وقابل للتكيّف، مقتنعاً بحقيقة الخطر الماحق المتربّص بجميع المسلمين، وبأن المسألة مسألة وقت قبل أن نضطر إلى القتال في سبيل حياتنا بالذات. وشرعت أدرك سبب قيام والدي بتدريب عائلته على النوم في حفر ترابية في الصحراء. فمن الأفضل أن نكون مستعدين لأننا ربما وجدنا أنفسنا، في يوم من الأيام، في مثل هذا الوضع.

لم أملك في الواقع أي فكرة عن أن أغلب الشعب الأميركي لا يفكّر كثيراً في المسلمين. فلطالما عاش الأميركيون في عزلة وقائية، حيث إن محيطاتهم تبقي مشاكل العالم، في معظمها، بعيدة. أما الإسرائيليون فمسألة أخرى، لأنهم جزء من محيطنا الإسلامي. ومن الواضح أنهم يفكّرون فينا في شكل أكثر تكراراً، وبعبارات أكثر خطورة.

وسرعان ما أصبحنا، أنا وأشقائي، جزءاً أكثر تعقيداً في رؤية والدي العالمية. فبعد وصول أمي وأخوتي إلى أفغانستان، أمر بأن نتدرّب على السلاح. سبق أن اصطدنا لسنين، وقُدّمت إلينا كلاشينكوفاتنا بعد محاولة الاغتيال في الخرطوم، لكن أبي قال هذه المرة إن الوقت قد حان للتدريب الجدّي.

اختار، في البداية، بعضاً من أكثر جنوده خبرة لتعليمنا كل شيء يتعلّق بالكلاشينكوف، وأبلغنا أنه يُمنع علينا أن نكون بدونه، حتى ونحن نرتاح في

المنزل. وأنا لا يمكنني، بالتأكيد، أن أتذكّر أنني رأيت سلاح والدي أبعد من متناول يده، حتى وهو يزور أمي.

لم أتكدّر لتعلّم المزيد في شأن الأسلحة، لكوننا نعيش في عالم خطر. ومن سوء الحظ أنني وأشقائي نستخف بالعواقب برغم تآلفنا مع السلاح. واستفظعنا، بسبب أعمارنا اليافعة، آداب حمل السلاح. وأذكر مناسبة أطلقنا فيها النار على أرجل بعضنا البعض، ونحن نأمر. «ارقص! ارقص! ارقص! ارقص!».

لم نتعرّض للتأديب لأننا أبناء والدنا، مع أنني متأكد من أن المقاتلين كانوا متشوّقين إلى ضربنا.

في ذلك الوقت بالذات، اقترح والدي أن نزور، أنا وإخوتي، إحدى قواعد التدريب التابعة لـ «قاعدته». واقتراحات والدي هي في الحقيقة أوامر، فذهبنا. وفوجئت لرؤية ان أجنحة الإقامة المعطاة للمقاتلين هي أشد سوءاً من مساكننا نحن المتقشّفة. فالمباني مشيّدة من حجارة الطين، وتضم بعض حاجات الحياة القليلة. وتأكد والدي طبعاً من غياب أي وسائل للتدفئة شتاء، والتبريد صيفاً.

كان المتدربون رجالاً أشداء، بعضهم كبار في السن، لكن أغلبهم من الشبان، وجميعهم غير حليقي الذقون. فأغلبهم أطلق لحية طويلة. غاب الزي الموحد للمعسكر، فارتدى بعضهم لباس الطالبان، وآخرون البشتون، كما شاهدت جنوداً، وهو ما فاجأني، يرتدون الزي العسكري لكل من الجيشين الأميركي والروسي. وقيل لي إن الروس لم يزعجوا أنفسهم في أخذ إمداداتهم معهم وهم راحلون. وتم اكتشاف مستودعات تحتوي على البزّات، والأسلحة، والطعام الخاصة بهم. وقد استخدمها والدي أفضل استخدام. لكنني لم أكتشف أبداً من أين حصل محاربوه على البزات العسكرية الأميركية.

واقتضى أن يقسم الرجال يمين الولاء لوالدي قبل أن يبدأوا في تدريبهم. وتميّز تمارينهم الروتينية بالقسوة، فينهض الرجال باكراً لأداء صلوات يومهم الأولى قبل أن يُقدَّم إليهم فطور متقشف، من بيضة مسلوقة وخبز وشاي. ويستمر

التدريب حتى الواحدة بعد الظهر، ويتضمن تمارين خاصة تُنظم لإيصالهم سريعاً إلى ذروة اللياقة، كالعدو على الأرض المنبسطة والركض بأقصى سرعة على الجبال الشديدة الانحدار. وكان عليهم الركض إلى جانب السيارات وتعلُّم كيفية قتل ركّابها، والقفز من فوق العوائق والانتهاء بالشقلبة، وكيفية الهرب في حال فشل المهمّة.

دُرِّسوا أيضاً على كيفية أخذ الاسرى وما العمل بهم ما إن يصبحوا تحت السيطرة. أما الجنود الذين أظهروا معدلات ذكاء أعلى من المعتاد، فدُرّبوا على وسائل التحقيق الخاصة.

يتفرّق الجنود، بعد فترة التمارين الصباحية، لأخذ ساعتين من الراحة، ثم يعاودون التدريب حتى السادسة مساءً عندما يتناولون وجبتهم المسائية. ويكون الأرز والخضار الحصّة العادية للعشاء، برغم أنهم قد يحصلون، من حين إلى آخر، على علبة من سمك التونا هدية. وثمة متطلبات أخرى بعد انتهاء يوم التدريب، لأن على المتدربين حضور محاضرات حول أهمية الجهاد، محورها الأساس هجمات كلامية على الولايات المتحدة.

ويصبح الجنود، بعد المحاضرة الأخيرة، أحراراً في الحديث مع بعضهم البعض، أو في تلاوة القرآن. ويلعبون، في مناسبات نادرة، كرة القدم، مثيرين فيّ عقدة الذنب لذكرى ذلك الوقت في بيشاور، حيث انتهى بي الأمر وكرة المقاتلين بين يديّ. عموماً، يصبح الجنود، في نهاية النهار، منهكين جسدياً، بحيث يغفون ما إن تلامس أجسامهم الفرش الرقيقة. ولطالما عزّيت نفسي بالتفكير في أن قلّة منهم يحلمون بأن يلعبوا كرة القدم، أو أي رياضة أخرى.

لم تشكّل النظافة الشخصية أولوية، إذ لم يبدّل أي من الجنود ملابسه وأنا هناك، بل إنهم يتدرّبون وينامون بالملابس ذاتها. وقد يسيرون طويلاً، عندما يكون الطقس ملائماً، إلى جدول أو نهر لغسل أنفسهم بلوح من الصابون الرخيص، ويحاولون غسل ملابسهم وهي لا تزال على أجسامهم. ولاحظت أن جميع الجنود هزيلون، لكن عضلاتهم بارزة.

شكّل التدريب على السلاح جزءاً مهماً من برنامجهم. وثمة أسلحة كثيرة حول المعسكرات، بحيث لا يستطيع الذهن احتواءها، وخاصة صواريخ ستينغر التي زوّد الأميركيون بها في السابق المحاربين المجاهدين. ويُعلّم المتدربون كيفية زرع القنابل. إلا أن ما أدهشني، هو أنهم يتعلمون قيادة الدبابات. وسبق لي، منذ أيام السودان، أن تعلّمت تشغيل المعدات الثقيلة التي يملكها والدي، وأصبحت متآلفاً مع الهائلة الحجم منها. وتطوّعت، لمتعتي، في أن أتعلّم تلك المهارة، بالرغم من أنه لم تتح لي الفرصة لأشارك في معركة بالدبابات. ولمّا سئمت من المعسكر القاسي، عدت وحدي إلى تورا بورا، وأنا شاكر أن والدي انشغل كثيراً فلم يطرح الأسئلة، ومتأكد من أنه ادعى ذلك لأنني ابنه الذي ورث عنه حبّه القتال.

وسأكشف عن روايات أخرى تتعلّق بمقاتلي والدي، مع أنني لن أتذكّر، مهما حاولت، التواريخ الدقيقة التي شهدت فيها على الأحداث. عمّت الفوضى حياتنا كثيراً إلى حد لم يحتفظ فيه أي منا بمفكرة، أو يعود إلى روزنامة. ويستحيل، في واقع الأمر، النظر إلى الوراء وإعطاء تواريخ دقيقة للحياة اليومية، أو للأحداث.

وفي حين رغب كثير من المقاتلين رغبة حقيقية في مساندة الإسلام من خلال القتال ضد الغرب، وُجد اشخاص آخرون غريبو الأطوار، ظهروا في جيش والدي. وأذكر بالذات رجلاً باكستانياً جاء للانضمام إلى الجهاد. وقد بلغ حداً كبيراً من التديّن، بحيث اشتهر بأنه لا يفعل شيئاً سوى التدرّب، والأكل، وتلاوة القرآن بصوت مرتفع. وشرع في أحد الأيام في حملة عناق، وجعل شغله الشاغل معانقة كل واحد من المقاتلين الأشدّاء برغم أنه يجب عليّ أن أعترف بأنه لم يجد الكثير من الاستجابة. ورفض النوم إلى أن عانق كل مقاتل على حدة.

حاول المقاتلون تحديد ما الذي يحصل مع الباكستاني. وليس غريباً في ثقافتي أن يمسك الرجال بأيدي بعضهم البعض، أو أن يطبعوا قبلة ترحيب، لكنه من غير المعتاد أن يعانق المرء طويلاً وبلا انقطاع. وكانت الثكنة غير

مدفأة، وتصبح شديدة البرودة خلال أشهر الشتاء، بحيث تقتضي الضرورة أن ينام المقاتلون جنباً إلى جنب، وأحياناً كانوا يلفون سيقانهم حول أقرب رفيق نوم لهم من أجل توليد الحرارة. ولا يعني هذا أن أياً من الرجال يعاني شذوذاً جنسياً، بل إنهم ببساطة يفعلون ما يمكن أن يقيهم التجمد من البرد.

وفي إحدى الليالي، بعدما أوى الباكستاني إلى النوم، جاء شاب لا يتحدث العربية هارباً من الغرفة التي ينام فيها صاحبنا هذا، وأخذ يصرخ بملء فمه بأن الرجل مصاب. هرع الجميع ليروا ما يحصل بأم العين، ووجدوا ثقباً كبيراً في عنقه. فقد أُطلقت عليه النار ومات على الفور.

وزعم الشاب المصاب بالهستيريا أنه حادث، وأنه كان «يلعب بسلاحه». ولم يعرف أحد، بالطبع، حقيقة ما جرى في تلك الليلة. ومهما حصل، فالنتيجة أن رجلين فقدا حياتهما بعدما جرّ الطالبان مطلق النار الشاب ليتم، على الأرجح، إعدامه.

ويوجد في كل معسكر صاحب مقالب ونوادر. وأذكر واحداً بالتحديد أثار الفوضى باستخدامه لاصقاً قوياً للغاية، وتجريبه على رفاقه النائمين. فقد أصيب رجل بجراح ونام الآخرون إلى جواره لإبقائه دافئاً. وعمد صاحب المقالب إلى لصق أيديهم وأرجلهم ببعضها البعض باللاصق القوي وهم نيام، والمفاجئ أن أصحابه لم يدموه من الضرب، لكن الأمر استغرق منهم أشهراً عدة لتقبّل المزحة.

وتحدّث كثير من التقارير عن رجال زعموا أنهم سائقو أبي، إلا أن الحقيقة أنه لم يمتلك أبداً سائقاً محدّداً. واعتاد أبي، الذي رغب في عدم إثارة الغيرة بين أتباعه، أن يسير صوب أحد الأتباع المخلصين قائلاً، «قُدْ بي إلى قندهار»، أو «قُدْ بي إلى المعسكر». ولم يعرف أي ممن قادوا آلية والدي متى يطلب منهم نقله، برغم أنهم أملوا جميعهم أن يتم اختيارهم لهذا الشرف.

ولهذا السبب، دُهشتُ سنة ٢٠٠٨ لمتابعة محاكمة رجل اسمه سليم أحمد سليم حمدان، عرّف عنه الأميركيون بأنه سائق أبي وحارسه الشخصي. اتُّهم

سليم بجرائم خطيرة بعدما أوقف على أحد الحواجز في أفغانستان في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١. وزُعم أنه عثر في سيارته على صاروخين مضادين للطائرات، واعتقد الأميركيون أنه يقوم بمهمة لتسليم الأسلحة.

وليست لدي فكرة عمّا إذا كان سليم قد أطاع بذلك أمراً من والدي بنقل الأسلحة، إلا أن ما أدهشني هو سماعه يردّد كالببغاء، واحدة من التهم التي أُوقف بموجبها، زاعماً أنه كان، نعم بالتأكيد، سائقاً لوالدي. فالأميركيون فهموا الأمر خطأً، واعترف سليم بما لم يكن عليه أبداً. وربما أنه لا يزال يجلّ والدي كثيراً إلى درجة أنه أراد للتاريخ أن يذكره بوصفه تابعاً مميّزاً له. وربّما اعتقد استحالة حصوله على محاكمة عادلة، وأن في وسعه بالتالي إلحاق بعض المجد باسمه، فسيتلقى سليم وعائلته بأسرها التكريم في العالم العربي ويُكافأ على التعريف عنه رسمياً بوصفه سائق أسامة الموثوق به.

وأعترف بأني سعدت لما وجدته هيئةُ المحلّفين الأميركيين بريئاً من أكثر التهم خطورة، وهي التآمر مع «القاعدة» لمهاجمة مدنيين، لأنه يمكنني القول إنه لم يكن أبداً عضواً في «القاعدة». فلا يعني مجرّد استمتاع أحد المحاربين القدامى بالمكوث على مقربة من أبي، أنه ينتمي إلى «القاعدة». وأنا بقيت مع والدي لسنين، بل إنني راقبت حتى، إلى جانب أشقائي، معسكرات المقاتلين، إلا أنني لم ألتحق بـ «القاعدة» أبداً.

طُلب من كل جنود والدي، قبل الظهور في المعسكرات، اختيار اسم وهمي. وتُعطى كذلك التعليمات للجنود بـ«نسيان ماضيهم»، وتُمنع عليهم مشاركة أحد في معلومات شخصية عن حياتهم الماضية. وقال والدي إنه من الضروري خلق مثل هذا الستار من الدخان، ليستحيل على المقاتلين المُعتقلين الإفشاء بالأسماء الحقيقية للمقاتلين المتمرّسين الآخرين. فكيف يمكنهم الكشف عن اسم لم يسمعوا به أبداً؟

وأعتقدُ أن هذا هو السبب الذي صعّب على الاستخبارات الأميركية اقتفاء أثر كثير من المقاتلين. ولم يكشف الوافدون الجدد أبداً عن أسمائهم الحقيقية

للمقاتلين الآخرين، ولو أنهم فعلوا فسرعان ما سيتم نسيان الأسماء نظراً إلى الاستخدام الشائع لأسمائهم الوهمية.

فأنا وأشقائي عرفنا، على سبيل المثال، سليماً، باسم صقر الجدّاوي (من جدّة). وقد وُلد صقر في اليمن، ويمتلك المظهر اليمني النموذجيّ لرجل صغير، لكنه قاس، ذو بشرة داكنة، وعينين بنّيتين، وشعر أسود. وكان قصير القامة، عريض المنكبين بعض الشيء، لكنه ليس سميناً أبداً. وله شارب ظريف ولحية. وأكثر ما أذكره عنه، امتلاكه روحاً مرحة، إذ غالباً ما يظهر وهو يضحك ويمزح.

أصبح صقر واحداً من رجالي المفضّلين في أفغانستان. وأذكر أنه كان صغيراً جداً، مراهقاً وحسب، لما تطوّع في البداية للسفر من اليمن إلى أفغانستان لمحاربة الروس. وبقي في المنطقة بعد انتهاء الحرب، وقد أُضعف أمله في العودة إلى اليمن بعدما اعتُقل كثير من المحاربين على أيدي حكوماتهم لدى عودتهم إلى ديارهم.

لم يكن صقر السائق المخصص لوالدي، لكنه تميّز بأنه سائق استثنائي يستطيع المناورة في طرق أفغانستان الضيقة والملتوية أكثر من أي شخص آخر عرفته. كما أن والدي اختاره ميكانيكياً للسيارات، لأنه لا يمكن لأحد إصلاح سيارة أو شاحنة بمثل مهارته. ولم يعمل صقر، طوال الفترة التي عشتها في أفغانستان، إلا ميكانيكي سيارات، لكن لم أعرف حقيقة دوره ما إن غادرت أفغانستان نهائياً في ٢٠٠١. إلا أنني أشعر واثقاً بأنه لم يكن أبداً حارساً شخصياً، لأنه لا يمتلك المزايا الضرورية للخدمة في مثل هذا الموقع.

وكان صقر هو المفضّل أيضاً من قدامى الحرب مع السوفيات. فهو رجل مسالم، غالباً ما أعلن أنه انتهى من واجباته القتالية ضد الروس. وهو لا يتمتع بالشروط الجسمانية للجندي النموذجي؛ ولم يزعج نفسه، على غرار أغلب قدامى الحرب الروسية، في تجديد مهاراته كجندي في المعسكرات. وهو

بالأحرى صديق لوالدي، لكنه لم يعرب أبداً عن الرهبة أو الخوف من أسامة بن لادن مثلما يفعل كثير من المقاتلين. وشهدت في مرات كثيرة صقراً يجلس إلى جانب والدي، فيأخذ كلاهما في تذكّر هذا الأمر أو سواه.

أمضى صقر الكثير من وقته الخاص يلازم أبناء أسامة بن لادن، فيقيم حفلات الشواء في السهل، أو يرافقنا في جولات نزهة على الجياد التي كان والدي قد استحصل عليها حينها. وأخذ يشاركنا أحياناً في الألعاب، أو يساعدنا مع أرانبنا أو كلابنا.

ما إن عدت من رحلتي الأولى إلى معسكرات التدريب، حتى شعرت بالضياع والإرباك. مرّت أوقات شعرت فيها بغضب شديد على الغرب، لأن الدعاية أداة قويّة ولا يمكن إلا قلة الصمود أمام الاستمرار في بث أنصاف الحقائق. واعتقدت، في غياب رسالة منافسة حول الأميركيين، أن الولايات المتحدة أمة شريرة تمتلك أجندة أكثر شراً لقتل المسلمين.

التزم معظم الرجال المحيطين بوالدي بحماسة برسالة الحقد التي يحملها، حتى لو عنت مساندتهم لها وله موتهم. وسمعتُ في مرات كثيرة والدي يتحدّث؛ ولم يأمر أحداً أبداً بالذهاب في مهمة انتحارية، بل أوعز إلى مقاتليه أن يدوّنوا أسماءهم على قصاصة من الورق يتركونها في الجامع إذا شعروا بأن عليهم القيام بذلك. وقد أصرّ على أنه يجب عدم الضغط على أحد للتخلّي عن الحياة حتى بالنسبة إلى قضيّة يُعتقد أنها تستأهل التضحية.

لكن رسالة الحقد هذه التي اعتنقها الجنود، دفعتني إلى اليأس، لأنني بطبيعتي لست حاقداً. عرفت أن والدي يتوقّع مني أن أصبح جندياً، بل ربما أن أقدّم حياتي في مهمّة ما. وأنا، برغم أنني صبي يستمرئ النشاطات الخارجية، مثل ركوب الخيل أو الصيد، فإنني لست قاتلاً، ولن أصبح كذلك أبداً. وهدفي الحقيقي الوحيد هو تصوّر كيفية الهرب من الحياة التي رسمها لي أبي.

رغبت في الهروب الذهني، فأخذت أستمع في الغالب إلى واحد من أجهزة الراديو القديمة التي سبق لوالدي اقتناؤها. فهو يملك الكثير منها، ويُبقي أذنه

متآلفة مع أخبار «البي.بي.سي.»، ويتابع سريعاً أخبار العالم كما لو أن لديه مصلحة خاصة في كل موضوع. وحين كنت أجلس في أحد الأيام في الاسطبل مع صديق لي نرتشف الشاي الساخن ونستمع إلى الراديو، رنّ فجأة صوت مميّز وهو ينشد أغنية على درجة كبيرة من الجمال، بحيث بدا أن السماء تُمطر شِعراً وموسيقى. تحرّكت سريعاً لنقل إبرة المذياع مرتاعاً لأن والدي يسمح لنا فقط بالاستماع إلى الأصوات المتكلّمة، لا إلى الأغاني المنشدة. إلا أن مفتاح الإغلاق «عصى»، ولم أتمكن من إطفاء الصوت الملازم. وجعلني الانفعال الذي صوّره «المغني» أشعر برقّة غريبة في داخلي، وسألت صديقي، «من هو هذا الرجل الذي يغنّي؟».

قال صديقي، «هذا ليس برجل. أنت تستمع إلى امرأة، المغنية المصرية الشهيرة أم كلثوم، كوكب الشرق. فكل من في العالم يعتقد أنها أعظم مغنية وُجدت على الإطلاق. وأنا أعتقد ذلك أيضاً».

«امرأة؟»! لم يمكنني حقاً تصديق الأمر. فصوتها عميق وغامض، على عكس أي أنثى سبق لي أن سمعتها. وقد حظر والدي بشدة الاستماع إلى أي نوع من أنواع الغناء، إلا أنني دخلت في غشاوة، وأردت كثيراً الاستماع إلى المزيد، بحيث إنني على استعداد للمخاطرة بإثارة غضبه الشديد.

«إنها ميتة الآن»، أفادني صديقي فأصاب قلبي بحزن غير متوقع، لأنني قبل لحظة لم أعرف حتى بوجود المغنية. استحوذ عليّ صوتها في الحال، بحيث إنني سعيت في اليوم التالي إلى أحد رجال الدين في المنطقة، وسألته: «هل يمنع الإسلام الاستماع إلى الشعر المُمَوسَق؟».

جلب ذلك الشيخ الأمل والانشراح إلى حياتي المظلمة عندما أجاب، «يقول أحد أهم شيوخ الإسلام إن ذلك مسموح ما دام لا يتغنّى بجسد المرأة أو ملامحها، ولا يتضمن أي كلام مسيء».

أصبحت الأشعار والأغاني، منذ ذلك اليوم، تسلية مهمة على خلفية وجودي البائس. وأخذت أصرف كل وقت ممكن أستمع فيه إلى أم كلثوم تنشد

أغانيها الرائعة عن الحب والشوق والفراق. وقد أوحت إلي قضية الحب كثيراً، فشعرت بنفسي مأخوذاً بكتابة بعض القصائد من بنات أفكاري.

غلّفتْ كل رغبة نتجت عن هذه الأغاني والأشعار حاجتي اليائسة إلى إنشاء حياة جديدة لنفسي. وجعلتني رسالة أم كلثوم أدرك وجود عالم موازٍ لعالم الحقد والانتقام التابع لنا نحن عائلة بن لادن، وهو عالم لم أعرف به من قبل، يعيش فيه الناس للحب ويغنون له.

ارتفعت كثيراً، في وقت الأحلام الرومانسية هذه، آمالي بإمكانية عودتي إلى السعودية والزواج بإحدى نسيباتي على غرار ما فعل شقيقي عبد الله. وأمضيت ساعات أفكّر في نسيبة معيّنة، وهي فتاة جميلة وعذبة أذكرها منذ طفولتي، وصرت أتخيّلنا وقد أغرمنا ببعضنا البعض، وتزوّجنا، ونعيش في منزل رائع مليء بالأولاد الجميلي الوجوه. ولن أكشف عنها، لأن ذلك قد يجر عليها انتباهاً سلبياً لأن ثمة اعتقاداً بأن نشاطات والدي لطّخت سمعة أولاده.

وثمة كثيرون ممن يتحاشوننا بسببه.

حصلتُ على الدعم المعنوي من والدتي التي أنبأتها أمومتها بأن أموري ليست على ما يرام. وقد انضممت إليها عندما اكتشفت صدفة أنها عادت إلى عادتها الليلية بالجلوس على الحرف خارج كوخنا للاسترخاء، وهي تستنشق هواء الجبل البارد وتشاهد النجوم المتلألئة المعلّقة في سماء الليل. مرّت ساعات ساكنة ونحن نجلس صامتين، أو نناقش حياتنا عندما نجد مزاجاً للكلام، وكم يبدو غريباً أننا وُلدنا في قصر في جدة، وانتهينا في كوخ صخري في أحد جبال أفغانستان. وأنا لطالما أحببت أمي أكثر من حبي أياً كان، وأصبحت علاقتنا أكثر وثوقاً من ذي قبل.

سمعت عَرَضاً، بعد ذلك ببضعة أشهر، حديثاً عن مشاريع لوالدي تتعلق بتغيير مهم، كانت والدتي أول من يعرف. اكتشفتُ أن أبي لم يعد يأتمنها كما كان يفعل في سنوات زواجهما الأولى. فهو رجل مشدود في اتجاهات كثيرة

مختلفة، بحيث إن علاقاته الشخصية ذَوَتْ لتصبح بحجم تينة مجففة، ومعها كذلك علاقة المحبة التي ربطته سابقاً بأمي.

سافر والدي أخيراً إلى قندهار، بعدما عاش في البلاد نحو سنة، للاجتماع بقائد الطالبان الملاّ محمد عمر. اكتشف والدي والملاّ عمر، في هذه الزيارة الأولى، أن أفكارهما مشتركة حول الإسلام، واتفقا على ضرورة عودة أبي إلى جلال أباد لفترة وجيزة ريثما توضع الترتيبات لنا لزيارة كابول، العاصمة الأفغانية، وربما الانتقال من بعدها إلى قندهار حيث يقيم الملاّ عمر.

أحببت فكرة مشاهدة أمور أكثر في أفغانستان. فقد بلغ بي السأم في الجبل حدّاً تبدو معه الدعوة إلى زيارة جبهة حرب فعلية جذّابة، لأن أفغانستان كلها لا تزال في حالة من الغليان.

لم تقل والدتي الكثير عندما أبلغتها أننا سنغادر جبل بن لادن للعودة إلى الحياة في المدينة. وترفض والدتي إدانة والدي، حتى معي أنا، ابنها، إلا أنني شاهدتها ترفع كتفيها الصغيرتين واعتقدت أن تلك الحركة تعني رفعة شِدَّة. وأملت أن يخف قلقها. وأمكنني القول إنها قلقة على سلامة أولادها الاصغر سناً، وخصوصاً ابنتيها الصغيرتين. وثقل حمل والدتي في ذلك الوقت بطفلها العاشر، لذا صلّيت لنرحل عن الجبل قبل حلول وقت انضمام الطفل إلينا.

واعتقدتُ، برغم انفجار الحرب الأهلية، أن أي نوع من الحياة سيكون أفضل من تلك التي نعيشها. وارتفعت معنوياتي للمرة الأولى منذ أشهر. ومرّت في خاطري فكرة لطيفة: ربما أجد أيضاً، بعد التخلّص من تورا بورا، طريقة للهرب من البلاد.



الفصل التاسع عشر

الحياة الجبلية

نجوى بن لادن

راقبت، وأنا أعيش في جبل زوجي، أكبر أبنائي وهم يقاربون سن الرشد. أصبح عبد الرحمن رجلاً في التاسعة عشرة من عمره، وتبعه سعد الذي أصبح في الثامنة عشرة. أما عمر، الذي بدا أكبر بسنوات كثيرة من سنيّ عمره التي قضاها على هذه الأرض، فسيصبح قريباً في السادسة عشرة. وعثمان، الذي ينمو ليصبح بطول جبل، في الرابعة عشرة. ويبدا أن عثمان سيكون الابن الذي سيبلغ قامة والده الشامخة. أما محمد العذب والهادئ، فهو في الثانية عشرة، ويكافح لمماشاة أشقائه الأكبر منه سناً.

أمضيت ساعات كثيرة مع أصغر أولادي، لأننا كنّا، في الأغلب، معزولين في المسكن الذي نقيم فيه. وفاطمة ابنة العاشرة جدّية، تتبعها إيمان ذات الأعوام السبعة كظلّها. وكان لادن، الذي لا يزال أسامة يدعوه بَكراً، أصغر أبنائي، وهو ولد كثير الحركة في الثالثة من العمر. عشقتْ ابنتاي شقيقهما الأصغر، واستمتعتا بلعب دور الأم الصغيرة له، بالطريقة التي يدلّع بها الكثير من البنات الصغار أخوتهن الذين في أول مشيتهم.

تدبّرنا، أنا وبناتي، الحصول على بعض مواد الخياطة من أبنائي الذين يُسمح لهم أحياناً بمغادرة الجبل إلى القرى التي تحتنا لشراء الحاجيات. وهكذا، أخذت وابنتيّ نجلس معاً ونثرثر ونحن نرفو ثيابنا، ونحاول صنع أخرى جديدة بدون الإفادة من ماكينة للخياطة، أو من الكهرباء.

يبدو الليل في الجبل كأنه مسكون بالأشباح. ولم نملك، في ما عدا ضوء القمر، سوى فوانيس تعمل على الغاز لإنارة دربنا. وأنا لا أزال أطبخ على موقد ذي عين واحدة، وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً لإطعام هذا العدد الكبير من الأولاد الجياع.

شكل الجوع والبرد مشكلتينا الأكثر تنغيصاً. ثمة كثير من الناس يجب على زوجي إطعامهم، إلا أن موارده كانت شحيحة. وجاءت أوقات ترنّحتُ فيها من الضعف لعدم وجود ما يكفي من الطعام، إلا أن قلقي الأكبر كان على طفلي الذي أحمله ولم يولد بعدُ، والأولاد الكثيري الحركة عند رجليّ. لم أتخيل أبداً أنني سأرى أبنائي يبكون من عضّات الجوع. إنها أكثر مشاعر العجز مرارة التي سبق لي أن عرفتها.

شكل طقس الجبل البارد مشكلة كبرى. فدفؤنا الوحيد توفّره مدفأة معدنية تعمل على الحطب، لكن مهما أبقينا النار مشتعلة ليلاً ونهاراً، فإن جبل تورا بورا عرضة لرياح رهيبة تصاحبها الثلوج. ويصبح من الصعب، مع تراكم الثلج فوق سقفنا، حتى تدفئة ثلاث غرف صغيرة. وكثيرة هي الساعات التي تحوّمنا فيها، أنا وأولادي، على مقربة من تلك المدفأة المعدنية، نرتجف من البرد، ونتساءل كيف يمكننا أن ننجو من دون قرصات البرد.

واجهت زوجتا زوجي الأخريان، اللتان كانتا بمنزلة شقيقتي، التحديات ذاتها التي كنت أعانيها، ولا أعرف ماذا كنّا لنفعل بدون بعضنا البعض. فلدى زوجنا الكثير من المشاغل المتعلّقة بالأعمال، بحيث أخذ يغيب بالقدر عينه لوجوده في الجبل. ومن حسن الأمور أن أبنائي كبار كفاية لتولّي بعض مهام والدهم في العناية بأمهم وخالتيهم وأخوتهم.

قرّبتني العزلة إلى ابني عمر. وحصلت للمرّة الأولى على فرصة مراقبة جميع أولادي عن كثب، وقد كشف سلوك عمر عن أنه أصبح الشخصية الأقوى، وصار رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى. إلا أن لطبعه جوانب متعددة. فابني الصالح جدير بالثقة، ومخلص، ولبق، لكن قد يصبح ضيّق الخلق، يصل إلى قرارات متسرّعة يتمسّك بها بعناد في مواجهة الدليل بأنه قد يكون مخطئاً.

كانت أمكنة نومنا متقاربة في ذلك الجبل، حيث يتكوّم جميع أولادي في مساحة صغيرة جداً. واستيقظت مرّات كثيرة في منتصف الليل لأجد عمر وهو يصلّي بحرارة. وكنت أعرف أن ابني متكدّر. لكنه لم يكن في وسعي القيام بأي شيء سوى مواساته بأن حياتنا بين يدي الله، وليس علينا أن نقلق.

فكّر عمر كثيراً في الآخرين، برغم تعاسته. ولم يستطع تحمّل رؤية أي من له روح تُساء معاملته، بشراً كان أم حيواناً. وهو الذي يهبّ للدفاع عن الجميع، حتى عن الأفاعي، ذلك الجنس المخيف الذي يرعبني منذ طفولتي.

في إحدى الليالي حلّت عاصفة رهيبة على جبل زوجي. هبّت الريح بقوة شديدة إلى درجة أن نوافذنا وأبوابنا تملّعت أغطيتها وتطايرت، وعلقنا بدون أي حماية من العواصف العاتية والمطر. أخذ أصغر أولادي يبكون رعباً. فالوجود على قمة الجبل يدبّ في أعماقنا شعوراً بأننا قُذفنا في دوامة العاصفة. لم يسبق لأحدنا أن شاهد أبداً مثل هذا العصف الطبيعي. ونحن غير معتادين على ما هو أكثر من العاصفة الرملية، التي يمكن أن تكون مخيفة، إلا أنه ما من شيء يوازي قوة دويّ الرعد، وومضات البرق، والرياح العاتية، والمطر المنهمر. وتمكّن أكبر أبنائي في النهاية من تعليق شرشف فوق الباب، ومناشف على النوافذ. وتكوّرنا، أنا وأولادي الصغار، عند الجدار في أبعد مسافة عن الأبواب والنوافذ.

انطلق أكبر أبنائي بعيداً لتفقّد خالتيهم. وفجأة سمعتُ صوت فحيح غريب اعتقدت أنه غاز يتسرّب من أحد من الأنابيب التي تغذي فوانيسنا. ولما ذهبت للتحقق من الأمر، شاهدتْ عيناي أفعى هائلة الحجم ملتفة على نفسها عند فتحة الكوخ، تتصرف كأنها مدعوّة إلى زيارتنا، أو في دارها بالرغم من أنني أدركت أنها تبحث عن مخبأ من العاصفة. سميّت اسم الله بصوت مرتفع، وحاولت الرجوع إلى الخلف ببطء شديد. فقد حذّرني زوجي وأبنائي إلى التنبه، فأفاعي الجبل هذه تحمل سموماً على درجة كبيرة من الخطورة، بحيث لا يتسع الوقت للنزول السريع من الجبل والقيادة على الطريق العام إلى المستشفى في جلال

أباد. تعاظم خوفي في تلك اللحظة، فلم أشأ الموت وترك أولادي الصغار بدون أم لهم.

بدأت أهتز خوفاً. فأنا امرأة تزايدت مخاوف طفولتها إلى مستوى لم أعد احتمل معه حتى صورة أفعى ملوّنة على صفحات كتاب. ولأنه لا مكان للهرب في ذلك الكوخ الصغير، صرخت طلباً لنجدة أولادي. جاء عمر سريعاً وهو يركض وكلاشينكوفه في يده. وسُعدت للمرة الأولى لأن زوجي أجبرهم على حمل ذلك السلاح، برغم كرهي اقتناءه.

صرخت، «حاذر يا عمر! ثمة أفعى عملاقة. هناك، عند الباب! اقتلها!».

ألقى عمر نظرة على الأفعى، وكابدني. «يا للأفعى المسكينة. أتريدين قتلها؟ دعيها وشأنها، اتركيها تَعِش».

بلغ خوفي ذروته، فأخذت أصيح بصوت مرتفع جداً، «اقتل تلك الأفعى!»، فلا مجال بأن أسمح لها بالهرب، حتى تتمكن مرة جديدة من أن تعود وقد تزحف تحت لحافي وأنا نائمة.

واصل ابني القول إنه لا يريد قتلها.

وبقيت أصرخ: «اقتل الأفعى!».

رأى عمر أخيراً أنني أعني ما أقول، فاستخدم سلاحه، وهوى به على رأسها. ارتحت للغاية وأنا أراقب جسم الأفعى وهو يضمر.

شعر عمر بالذنب على حياة ذلك الحيوان، ورفع جسمها المتهدّل بذراعيه. لا يزال يتملكني الخوف، وبقيت أصيح عليه رعباً ليأخذها بعيداً، لأن الأفعى تجعلني أهتزّ حتى وهي ميتة. أما عمر فبدا كأنه أحس بالحزن لمّا قال، «لم يكن عليك حملي على قتلها».

وخرج حاملاً بذراعيه جثتها، لا أدري إلى أين، وأنا في ذلك الوقت لم أبالِ.

لعمر أسلوبه مع الحيوانات. أذكر مرّة أثناء مراقبتي زوجي يحاول توليد

ناقة، أنه حصلت مشكلة، ولم يساعد أي شيء الناقة البائسة. فقد علق ابنها، نصفه في الخارج ونصفه في الداخل، وشعرت الناقة بآلام عظيمة.

سمع عمر بالمشكلة وجاء للمساعدة. لم يستجب، برغم أن أباه طلب منه الابتعاد، بل تقدّم لرفع رأس الجمل الصغير، مساعداً أمه الناقة، وأخرجه أخيراً حيّاً، وتلا بعض الآيات في أذني الناقة وابنها. لم يعرف زوجي ماذا يقول، لأنه أخذ يتضح أن الله أنعم على عمر ليشعر بألم كل حيوان، ويمتلك نوعاً من السحر في التواصل مع هذه المخلوقات.

وثمة كثير من القصص الأخرى. فالحياة التي عاشها الرجال من حولنا، بلغت في الغالب حدّاً كبيراً من القساوة، بحيث إنهم لا يلاحظون الأعمال الوحشية. وقد عُرف حتى عن أبنائي، وأبناء الرجال الذين يعملون لزوجي، إساءة معاملة الحيوانات. لكن عمر كان على استعداد للقتال من أجل حمايتها. ولطالما كان يطلب ممن يسيئون معاملتها أن يدعوها وشأنها، ويأمرهم بالتوقف عن أذيتها، فيطيع الجميع، حتى الصبية الأكبر سناً، لأنهم يعرفون أن عمر لن يتردّد في اتخاذ إجراءات إضافية دفاعاً عن الحيوان.

بعد أشهر من الحياة في ذلك الجبل، أخذت الأيام تبدو كالسنين. ثم جاء ذلك اليوم الطيّب الذي أطلعني فيه عمر على خبر لطالما صلّيت من أجل أن يتحقق: فنحن سنغادر قريباً، وننتقل إلى مدينة تدعى قندهار. قال عمر، «ستتحسن حياتك اليومية، يا أمي». حاذرتُ الكلام عن سعادتي، لكن قلبي خفق فرحاً لسماعي أن الوقت حان للتخلّي عن حياة الجبل. أحسست بأن طفلي على وشك الولادة، ولم أعرف ما قد يحصل، لأنني لم أزر طبيباً مرة منذ وصولي إلى تورا بورا. ولم أعد امرأة شابة تحظى بحمل سهل. وصلّيت لأن أكون في مدينة جلال أباد أو في قندهار عندما تحين ولادة طفلي.

وسرعان ما أخذنا نحمّل أنفسنا في آليات زوجي ونشق طريقنا نزولاً من الجبل. لم يحصل الانتقال بأسرع مما يجب، لأنني شعرت، بعد وصولنا إلى جلال أباد، بآلام المخاض. لم يكن زوجي معي، لكن أولادي الكبار الثلاثة

نقلوني إلى المستشفى الصغير في المدينة. ولم يمكن لأحد أن يكون إلى جانبي، لأن الأمور لا تسير على هذا المنوال في أفغانستان، لكن أبنائي انتظروا في الخارج ليعرفوا أن عائلتنا حظيت بابنة أخرى تحبّها. وهكذا رُزقتُ بِرُقيّة، الطفلة المحظوظة التي لم تتعرّف على الحياة في تورا بورا.

وبرغم أن الحياة بقيت صعبة من أوجه كثيرة عدة، فإن الله حقق لي أمنيتي بألا تطأ قدماي أبداً قمم جبل زوجي: تورا بورا.

الفصل العشرون

تصاعد العنف

عمر بن لادن

حصل الأمر الذي تمنّيته. رحلت عائلتي أخيراً من تورا بورا، ولن تعيش بعد ذلك اليوم أبداً في الجبل. أمكنني أخيراً رؤية السرور الذي أصاب أمي وإخوتي أيضاً. فبالرغم من أن الحياة في أي مكان من أفغانستان تشكّل تحدّياً، إلا أنه لا يمكن لأي شيء أن يضاهي البؤس الهائل لتورا بورا.

امتلأ الشهر الفائت بالحركة. ولمّا أصدر والدي الأمر لعائلته ولقادة «القاعدة» الأساسيين بإخلاء جبل بن لادن، بلغت البهجة بأشقائي وبي حدّاً كافحنا معه لمنع أنفسنا من الضحك بصوت مرتفع. وللمرة الأولى لم تلقَ سفرة الساعات الأربع المرهقة من تورا بورا إلى جلال أباد، أي شكوى.

بقينا بضعة أسابيع في جلال أباد ليتمكن والدي من تنظيم خططه الجديدة مع مساعديه. وجاء ذلك في الوقت المناسب، لأن أمي منحت بوصولنا الحياة لابنة صغيرة أنجبتها وأسمتها رُقيّة، ووفّر لها ذلك بضعة أسابيع في جلال أباد للراحة قبل أن نضطر إلى توضيب متاعها البسيط من جديد والقيام برحلة بالسيارة إلى كابول.

شاهدنا، ونحن نغادر إلى كابول، أن جمال كل بقعة من هذه البلاد، له سحره الخاص، لكننا وجدنا صعوبة في التمتع بالمنظر، لأن الطرق بلغت حدّاً من الوعورة أخذت معه آلياتنا تقفز وتتوثّب مثل الجياد الوحشية الشُّمُس. وتقع

كابول على بعد مئة ميل فقط غرب جلال أباد، لكن سوء حالة الطريق أدى إلى أن تستغرق السفرة ثماني ساعات. ولم أتمكن خلالها من التفكير إلا في أمي، وابنتها الطفلة، وأخوتي الآخرين الصغار.

انفرجت أساريري عندما وصلنا جميعنا إلى كابول سالمين. فالمدينة، التي كانت وجهتنا هذه المرة، تربض في سهل صغير يقسمه نهر كابول، وتحيط بها جبال هندوكوش ذات الجمال الأخاذ.

والأهم من ذلك كله، أن أمي والطفلة الجديدة أنجزتا الرحلة بدون أي نكسات صحية. وبقيت العائلة في تلك المدينة المدمّرة بضعة أسابيع، ليتمكن والدي من معاينة المنطقة والاجتماع مع بعض الأشخاص فيها. وأقامت عائلتنا، في انتظار أن ينهي أعماله، في منازل مستأجرة من طابقين، كانت عادية، إلا أننا سعدنا بوجود سقف فوق رأسنا، حيث إن قلة في كابول تتمتع بهذا الرفاه.

وكابول مثلٌ على ما تفعله الحرب الشاملة بأي بلد. فمنذ مغادرة الروس أفغانستان، حوّل القتال الفئوي المدينة، التي كانت في السابق مزدهرة، إلى كومة من الركام. وقد وُجدت منازل قليلة متفرّقة صالحة للسكن، لكن معظم السكان المتضررين عاشوا في هياكل متفجرة من الباطون، لا تشبه المنازل في شيء.

كانت المدينة موحشة جداً إلى درجة أننا سعدنا، أنا ووالدتي وأخوتي، بالمغادرة، وسررنا كثيراً لسماعنا أننا سنسافر ثلاثمئة ميل وأكثر إلى قندهار جوّاً. ونحن عند هذا الحد قد اكتفينا من طرق أفغانستان.

رفض والدي الصعود إلى أي نوع من الطائرات، معلناً أن التجهيزات بلغت حداً من عدم القابلية للإصلاح، بحيث إنه لا يثق بأن أياً من الطائرات الأفغانية ستبقى في الجو. وهكذا، لما حان وقت رحيلنا تمنّى لنا التوفيق وغادر مع قلّة من رجاله في الآليات. وبرغم قلقه على سلامة السفر جواً، فإن سفره عبر أفغانستان في الطرق الترابية المروعة وسط حرب أهلية شرسة، لم يكن نزهة.

كنت جاهلاً خططه في ذلك الوقت، لكني أعرف الآن أنه أخذ يعاين القواعد العسكرية التي تخلّى عنها الروس. وقد بُنيت هذه المجمعات العسكرية على مقربة من كل مدينة أفغانية رئيسة. وأبلغ الملاّ عمر والدي أنه في وسعه استخدام أي من هذه المجمعات التي لا يحتلها الطالبان.

استمرّ والدي في شعوره بالمرارة من نفيه من السودان. وهو لا يزال ينحو بالملامة في ذلك على الأميركيين. أصبح في عجلة محمومة من أمره لإقامة معسكرات تدريب. واستحوذت عليه فكرة تدريب آلاف المقاتلين لإفلاتهم على العالم الغربي.

امتلك الطالبان الطائرة التي استُخدمت لنقلنا، لكنها وُضعت بسخاء في تصرّف والدي. وبصعودنا إليها، أمكنني أن أرى أن جميع مقاعد الركاب قد أزيلت. وكان عددنا كبيراً، بحيث اضطررنا جميعنا إلى الجلوس متكوّمين معاً على الأرض. سارت النساء تلقائياً إلى مؤخرة الطائرة، في حين استقر الرجال في المقدمة، وقد تدجّجوا بالسلاح، وبنادقهم معلّقة على أكتافهم، وأحزمة القنابل حول خصورهم. وهذه ممارسة نموذجية في أفغانستان، حيث لا يعرف أحد أبداً متى ينشب القتال ويستعر، ويشعر كل رجل بالحاجة إلى أن يبقى جاهزاً للمعركة.

قيل لنا إن الرحلة جواً لن تستغرق أكثر من بضع ساعات. اجتمعنا كلنا في مجموعات، وقد سُررنا لحصولنا على حجّة لندردش، مع بعضنا البعض، ونعيش لحظات اجتماعية في الجو نادرة الحصول، على الأرض. جلس الشبان مع الشبان، فيما اجتمع المقاتلون القدامى معاً. وأنا كنت في مزاج جيّد نادر، متحمّساً في شأن الانتقال إلى قندهار. لم يسبق لي أبداً أن زرت المنطقة، وأملت في وجود مكان واحد ممتع في أفغانستان.

جلست مع صديق لي اسمه أبو هادي، يكبرني بخمس عشرة سنة. ترعرع في الأردن، إلا أنه سعى إلى هدف أسمى، فسافر إلى أفغانستان للانضمام إلى

الجهاد. وجلس شقيقي الأكبر عبد الرحمن في مرمى نظري، ولاحظت أنه يلهو بقنابله، لكنني لم أعر الأمر أهمية في حينه.

وبعد ساعة أو نحوها على الرحلة، لكزني أبو هادي بإلحاح، وهو يهمس بصوت مرتفع، «عمر، انظر! انظر إلى أخيك!».

نظرة واحدة وأخذ نبض قلبي يتسارع. كانت عتلة الأمان على الأرض والرمانة اليدوية في يدي عبد الرحمن! ويمكن للقنبلة أن تنفجر في أي لحظة، فتسقط الطائرة ويموت كل من على متنها.

تحرّك أبو هادي بأسرع مما سبق لي أن شاهدت رجلاً في مثل سنه يفعل، وأمسك بأبي حفص وأخبره بسرعة عن المشكلة. وأبو حفص، وهو الرجل الذي ائتمنه والدي على إيصال عائلته كلها بسلام إلى قندهار، أمسك بالرمانة اليدوية من يدي عبد الرحمن، ثم طلب المساعدة من أحد خبراء القنابل على متن الطائرة. جمّد الرجلان القنبلة قبل أن يدخلا مسرعين إلى حجرة القيادة. وصدف أن الطائرة تحلّق على علو منخفض، وقاما بطريقة ما بإلقاء القنبلة من النافذة، وادعيا أنها انفجرت في الجو، مع أن أحداً منّا لم يسمع أي صوت.

أما النساء، فكنَّ في عالم آخر، ولم يخبرهنّ أحد بما جرى.

هبطنا، بعد تلك الإثارة القوية، بسلام في قندهار. والمطار صغير ذو مبنى وحيد ومدرج واحد. ثمة آليات كانت تنتظر لتقلنا إلى منازلنا في قندهار. لم نعرف ماذا نتوقّع، إلا أننا قطعنا مسافة طويلة بعض الشيء عن المطار، لا تقل عن عشرين ميلاً.

استدارت آلياتنا إلى مجمّع هائل بناه الروس أثناء وجودهم في أفغانستان، يحيط به سور مرتفع مع مواقع للحراسة عند كل زاوية من زواياه. ويوجد نحو ثمانية منازل اسمنتية متوسطة الحجم باللون الزهري داخل حرم ذلك السور، عملَ رجال والدي على مدى أسابيع على إصلاحها. وقد تعرّضت للنهب بعد مغادرة الروس سنة ١٩٨٨. وأمكنني، حتى بعد إصلاح المنازل على عجل، رؤية الأضرار التي أحدثتها الصواريخ وثقوب الرصاص.

حصل والدي أخيراً على قاعدته العسكرية الخاصة. وطبعاً، لا توجد كهرباء ولا إمدادات ماء، رفض أصلاً تحديث المجمّع، مكرراً اعتقاده أنه على عائلته ومقاتليه أن يعيشوا حياة بسيطة. ولم يشتكِ منا أحد، فذاكرة أكواخ تورا بورا الحجرية لا تزال ماثلة في أذهاننا.

نُقلت أمي وخالاتي جميعهن إلى منازلهن الخاصة داخل المجمع. وكانت تقع جنباً إلى جنب، وهذا مناسب لأنه ليست لديهن رفيقات أخريات. وسرعان ما سيشرع رجال والدي في بناء سور حول كل منزل، موفرين الخصوصية التي تحتاج إليها زوجات والدي.

توجد عشرون فيلا كبيرة خارج السور سمعتُ أن الجنرالات الروس استخدموها من قبل. وثمة أيضاً بناء ضخم يأوي إليه الجنود الأدنى رتبة. وأقام المقاتلون المتزوجون ولهم أولاد، في المبنى الكبير خارج السور أيضاً. ويوجد مبنى عسكري كبير خارج السور نُصبت على سطحه صواريخ أرض - جو خاصة.

لا يخلو المكان بالطبع من جامع صغير داخل السور، إضافة إلى مكاتب مختلفة لوالدي وضباطه رفيعي الرتب. وشُيّدت الاسطبلات إلى جانب جناح العازبين.

وقندهار أبعد من أن تكون الجنة المثالية. فنحن لا نزال نعيش في بلد في حالة حرب. وثمة أوقات أمكننا فيها سماع القصف والقتال، مع أن الحرب لم تدخل المجمّع أبداً. وثمة أيضاً خطر الموت من المرض في أرض تعامل سكّانها مع الحرب والموت لفترة طويلة جداً، بحيث تم التخلي عن الكثير من العادات السابقة المتعلقة بالصحة والنظافة.

بقينا في الغالب في داخل مجمّعنا، إلا أننا، بعد أشهر قليلة من الانتقال إلى قندهار، تمتعنا أنا وأشقائي إلى جانب بعض من الأصدقاء، بما يكفي من الجرأة للمغامرة بالدخول إلى المدينة. وشهدنا في قندهار المشاكل المختلفة التي أخلّت بانتظام حال الكثيرين من الأفغان.

أذكر وقتاً جمعنا فيه، أنا وأصدقائي، ما معنا من مال لنتمكن من الذهاب إلى مطعم شعبي في قندهار. وقد امتلأنا بالتوقعات بعدما اعتدنا على الطعام الغثّ، إلى درجة أن الكلاب الشاردة لا تأكله إلا بلأي. وبعدما طلبنا الطعام، لاحظ أحد رفاقي بعض الأباريق الموضوعة على مقربة من الطاولة. كان فضولياً إلى حدّ أنه لم يستطع تمالك نفسه، فنهض ورفع الوعاء لينظر إلى ما في داخله. وشرح النادل أن الأفغان يحرصون، قبل تناول الطعام، على إفراغ حلقهم من النخام. ووفّر المطعم الأباريق لمنع الزبائن من البصق على الأرض.

كانت مثل تلك الصورة النافرة والمقرفة، كافية لتجعلنا نشمئز، وتقطع قابليتنا عن الأكل، أو حتى التفكير فيه.

والمدينة نفسها ملوّثة، مع مجارٍ للصرف الصحي والمياه المبتذلة، مفتوحة في شوارعها. ويأتي أغلبها مباشرة من المنازل الواقعة على جانبي الأرصفة والشوارع. وثمة مراحيض داخلية في المنازل، لكن إمدادات المياه غير موجودة. وبهدف التخلص من النفايات، بُنيت مراحيض ذات مقاعد مكشوفة تفتح على الشارع من تحت، حيث تُرمى الفضلات البشرية. والجواب الشائع عن أسئلتنا هو: من الأفضل أن تكون في الشارع على أن تكون في المنزل.

لم نعش نحن في مثل تلك المساكن، فقد استأجر والدي عدداً من المباني في المدينة لاستخدامها بيوتاً للضيافة. وثمة أيام استخدمنا فيها، أنا وأشقائي أو أصدقاؤنا، تلك المنازل ورأينا بأنفسنا الطريقة غير الصحية في التخلص من النفايات. وما أثار قلقنا أكثر ما يكون، أنه يمكن للمشاة النظر بسهولة إلى فوق، ورؤية العجز العاري لمن يستخدم المرحاض.

جاءت أوقات وجدنا فيها الأمر مسلّياً، كما عندما يأتينا زائر من السعودية متعوّد على أمور الحياة المرفّهة، لأن الحكومة السعودية استخدمت معظم أموال النفط لتحديث معظم البلاد. واختبر هذا الصديق المحدّد تقلصات معوية قوية بعد تناوله الطعام في المطاعم المحلية. وكنا نتعمّد، عندما كنا نرشده إلى المرحاض، عدم تنبيهه إلى الثقب المفتوح. وسرعان ما يهرع إلينا مضطرباً

كالمجنون، قائلاً إن كلباً أخذ ينبح عليه من الشارع من تحت. هذا أمر جديد علينا كلياً، فنسرع حينها لرؤية ذلك بأنفسنا. ولطالما اختلسنا نظرات سريعة من فتحة المرحاض لنكتشف المذنب النابح. جلست كلبة مع جرائها متكبّبة تحت المرحاض. فقد عثرت الأم على زاوية جيدة من الشارع لوضع جرائها. وأخذت تشتكي بعدما اتسخت والجراء من فوق. وغني عن القول أن أوجاع بطن الصديق سكنت على الفور. ورفض من حينها استخدام المرحاض الداخلي، ورأى أنه من الأفضل قضاء حاجته في حقل مجاور، أو في ساحة خالية.

سبّبت مقاعد المراحيض الضرر للبشر، كما للكلاب. فما من مكان للفضلات البشرية تذهب إليه سوى المضي نزولاً. وعندما يسير المشاة على الأرصفة الضيقة، يجدون أنه من الضروري السير عبر أكوام من الفضلات البشرية. والرائحة قوية إلى درجة أنها تصيب بالشلل. فخمّة الفضلات البشرية تتلبّث فوق المدينة بالرغم أن المزارعين يقصدونها أياماً عدة في الأسبوع لجمع الفضلات واستخدامها لتسميد حقولهم.

أثبتت أفغانستان أنها مكان خطر لأبناء بن لادن. وشارفنا، أنا وإخوتي، على الموت فيها أكثر من مرّة. وأغلب الحوادث التي بالكاد نجونا منها كانت بسبب الاستعمال الخاطئ للقنابل وغيرها من المتفجّرات، لأن الأسلحة منتشرة في كل مكان، وليست دائماً في أيدٍ خبيرة.

ما إن انتقلنا من تورا بورا إلى قندهار، حتى شرع والدي في تنظيم صفوف للتدريب على الأسلحة داخل المجمع، وأمرنا بالعودة من حين إلى آخر إلى الانتظام في دورات تجديدية. ولم نشتكِ، لأننا غالباً ما شعرنا بالسأم، وكنا نتطلّع إلى أمر نقوم به.

وفي أحد الأيام بالذات، قررت وأشقائي التسجيل في صف عن القنابل يديره أحد الجنرالات. وتعلّقت إحدى قواعده بـ«ما العمل بقنبلة أزيلت عتلة أمانها». وهكذا، على ما شاءه القدر، أسقط القنبلة وهو يتحدّث. فطمأن الصف قائلاً: «لا تقلقوا، فهي ليست مُعدَّه للتفجير».

تفحّصت القنبلة وهي تتدحرج على الأرض، ولما رأيت العتلة منفصلة عنها، أمرت أشقائي على الفور: «اخرجوا من هنا!»

ركض عدد منّا صوب الباب، لكن عبد الرحمن جمد في مكانه، واكتفى بتغطية وجهه بيديه، وهو ما لن يؤمّن له، طبعاً، الحماية من الانفجار. وجهدت لجعله يتحرّك عندما شرع الجنرال في الضحك. فهو كان عندما يلاحظ الخطر، يسارع إما إلى إعادة وضع العتلة في مكانها، وإما إلى تعطيل القنبلة.

حاول طمأنة الصف المحاذر، فأخبرنا رواية صغيرة عن كيفية لجوء المدرّسين في الغالب إلى مثل هذه الوسائل لإخافة الطلاب، ومعرفة كيفية تصرفهم، وهم يبحثون بذلك عن الطلاب الذين يحافظون على رباطة جأشهم في مثل هذه الظروف. وقال إن الفوضى عمّت قبل وقت قصير في أحد الصفوف المكتظة بالتلاميذ الأغرار. وفي تلك المناسبة، حاول كثير منهم الهرب عبر الباب، إلى درجة أنهم حشروا أجسامهم بقوة داخل إطار الباب، وكانت النتيجة أنه لم يعد في وسع أي منهم الخروج أو الدخول. وحاول جندي سمين من جراء رغد الحياة الطيبة في السعودية، الهرب عبر نافذة صغيرة. ومن سوء حظه أن جسمه كان أضخم من الفتحة، فعلق رأسه وكتفاه في الخارج، وصدره وأسفل جسمه في الداخل.

ومن حسن الحظ أن الأمر كان مجرّد تمرين، وإلا لأصبح جميع من علقوا في الأبواب والنوافذ، أشلاء.

وأصبح الوضع أكثر خطورة في أحد الصفوف التي حضرناها. حاولنا، أنا وأشقائي، إخفاء ضحكاتنا، لأن مدرّبنا بدا علاّمة أكثر من كونه جندياً. وما أثار قلقي، أنه بدا نصف أعمى مع أنه يضع نظارات سميكة جداً ذات عدسات مزدوجة، بدت معها حدقتا عينيه هائلتي الحجم. أمسك المدرّب شبه الاعمى بولاّعة بيد، ومتفجّرة بالأخرى، وهو يخبرنا أنه من المهم للجندي أن يعرف الوقت الذي يستغرقه اشتعال الفتيل. وقرّب الولاعة إلى مسافة قريبة جداً، بحيث أخذ الفتيل يحترق ببطء. والغريب أنه لم يدرك أنه أشعله، فرماه في الصندوق مع المتفجرات الأخرى.

كنت على وشك تحذير أشقائي لأطلب منهم الهرب والحماية، عندما تذكّرت تعليمات الأستاذ الأول بأن كثيراً من هذه الأوضاع يُصمَّم لاختبار الطلاب. أجبرت نفسي على البقاء جامداً، وأنا أراقب عن كثب صندوق المتفجرات. وبالفعل، اشتعل الصندوق وعلا الدخان. ذُعر الأستاذ، فأمسك بالصندوق ورماه على الأرض، وهو يدوس على اللهب. وفي الوقت الذي تأهبت فيه للقيام بعملية خروج سريع، سمع بعض الجنود المتمرسين في القتال، الجلبة، فولجوا إلى الداخل مسرعين. ولما رأى اثنان من الرجال الشجعان الأستاذ وصندوقه المشتعل، أمسكا به، وحملاه، على جناح السرعة إلى الخارج. وأصيبا بجروح في أيديهما، إلا أنهما نجَوَا من إصابات كانت تهدد حياتهما.

وفي حصة تدريب أخرى، أخذ أستاذ يعرض عمل قنبلة صغيرة، فأشعلها عَرَضاً. ورأى متأخراً جداً، أن الفتيل أقصر من المعتاد. زعق طالباً منا الهرب بأقصى ما يمكننا، وهو في أعقابنا. وما إن بلغنا منطقة الأمان حتى انفجرت القنبلة.

وعرّضنا نوع آخر من عدم الكفاءة للخطر في واحد من صفوفنا الدينية اليومية التي عُقدت في الجامع داخل المجمّع. وكانت الصفوف كبيرة لأن أبناء رجال القاعدة حضروا معنا.

كان أستاذنا رجلاً ذا وجه حبور يُدعى أبا شاكر، وهو مصري في أوائل الثلاثين، نحيل لكنه صاحب عضلات ولياقة بدنية عالية، وله لحية قصيرة ومظهر يصعب وصفه، لأنه لا يمتلك ملامح جسمانية خارجة عن المألوف، مثل أنف كبير أو عينين صغيرتين. وهو يسعد لوجوده بين التلامذة، ودائم اللطف، والمُفضّل لدى جميع التلامذة.

كان بناء الجامع قديماً، وقد شُيّد أساساً من حجارة الطين. وسقفه مصنوع، كما هي العادة في أفغانستان، من الخشب، والعشب، والقرميد الطيني. وفي كل مرّة تمطر، يدلف الماء من السقف. وبعد كل شتوة، يُستدعى الرجل

المولج بالتصليحات. وبدلاً من أخذ الوقت اللازم لإصلاح المدرسة كما يجب، يهيل رجل التصليحات الرمل على السقف، وهذه وصفة للكارثة، بسبب الوزن المتراكم. ولم يعرف والدي طبعاً بهذه التقنية، وهو الخبير بكل ما يتعلق بالبناء، أو بترميم أبنية من أي نوع.

وقضى نظامنا المعتاد بأن يغادر الأولاد الأصغر سناً عند الحادية عشرة صباحاً، في حين يبقى الصبية الأكبر سناً ساعة إضافية لمزيد من الدرس. جلسنا في أحد الأيام، أنا وأشقائي، في خلفية الجامع. وكان حمزة، الابن الوحيد للخالة خيرية، أفضل صديقات أمي و«الشقيقة الزوجة»، آخر الصغار المغادرين.

وما إن صفق أخي الباب من خلفه حتى تصدّع سقف الجامع وانهار. وسقطت قرميدات الطين الثقيلة على رؤوسنا، ثم انهار الرمل والعشب والخشب.

صعقنا ثقلها على رؤوسنا وأجسامنا، لكننا لم نفقد الوعي. أمكننا سماع أبي شاكر يصيح بصوت مرتفع، وهو ينادي بأسمائنا. وربما أصيب الرجل المسكين بالرعب وهو يعتقد أن أكبر أبناء أسامة بن لادن هلكوا خلال رعايته لهم.

لكن رعاية الله أنقذتنا هذه المرة أيضاً. ولحسن حظه أننا كنا أحياء، لكننا علقنا في مواقعنا بعدما ثبّتتنا الأخشاب وقرميدات الطين في أماكننا. لكننا صبية أقوياء البنية، فشرعنا بالدفع معاً كأننا جسد واحد. وأمكننا، برغم الضجيج، سماع أخينا الصغير حمزة يبكي بصوت مرتفع، مدركاً أن أمراً خطيراً جداً قد وقع للتو. وخشي معه أن تقع الملامة عليه لأنه آخر من غادر المبنى.

وما هي إلا دقائق قليلة، حتى سمعنا صوت والدنا المهيب تتبعه أصوات رجال آخرين. وشرع أبي ورجاله بوتيرة محمومة في رفع الأنقاض بأيديهم العارية، ونحن ندفع من تحت. وسرعان ما شاهدنا ضوء النهار مع التقاء جهودنا بجهودهم. وأبلغنا لاحقاً أننا خلقنا منظراً مرعباً عن حق للتلاميذ الصغار. وقد أغلقت أعيننا من الغبار، واصفرّت وجوهنا من الرمل، وتمزقت أوشحة رؤوسنا من نثرات الخشب. وقال أحد أشقائي إننا، بأيدينا المدماة

الممتدّة كالموتى الأحياء، ذكّرناه بالأشباح والعفاريت التي وصفها أحد مقاتلي والدنا.

جاء الدكتور أيمن الظواهري، وتفحّصنا عن كثب، وأعلن أنه لم يصب أي منا بجروح خطيرة.

كانت المرّة الأولى التي يضع فيها الدكتور الظواهري يده عليّ. شعرت بالقلق منذ اللحظة الأولى التي عرّفني فيها والدي إلى الرجل. وبذلت ما أمكنني لتجنبه في السودان بعدما قتل صديقي الفتى ابن محمد شرف. عرفت منذ البداية، أن للظواهري تأثيراً سلبياً في والدي، وقد دفع به في طريق العنف أكثر بكثير مما كان سيذهب لو تُرك وحده. ويبدو أن الظواهري، وهو رجل شديد الذكاء، قد تلقّف مشاعري غير الودية تجاهه، وشعرت بنفوره منّي. وقد نشأ إحساسه هذا ربما من واقع أنني الابن الوحيد لوالدي الذي يمتلك أحياناً ما يكفي من الجرأة للتعبير عما يجول في خاطره.

وأذكر، على سبيل المثال، مرّة جلس فيها الظواهري ووالدي وأبو حفص يشربون الشاي. والرجال الثلاثة جميعهم قادة، مع أن والدي هو الرئيس، وهم يعرفون ذلك. وكان الظواهري يطلب حتى الإذن ليتكلّم. ولم أسمعه أبداً يتفوّه بكلمة واحدة بدون ذلك الإذن. فيقول، «من فضلك، يا شيخ أسامة، هل يمكنني الكلام؟»؛ أو، «هل يمكنني من فضلك، يا شيخ أسامة، أن أقول شيئاً للرجال؟». وهكذا هي الحال بالنسبة إلى جميع الرجال الآخرين؛ حيث لم يجرؤ أي منهم، مهما بلغ موقعه في منظمته، على التفوّه بفكرة واحدة بدون إذن من أبي.

لكنهم حصلوا في ذلك اليوم على إذن من والدي بالكلام، وانخرطوا في حديث معقّد عن أهدافهم في إنقاذ العالم من السلطة الأميركية. وأخذ أبي يقول إن «الحمل والظلم قد وُضعا على عاتق العالم الإسلامي. فهل تضعون الحمل كلّه على طرف واحد من طرفي الأرجوحة المتوازنة؟ كلا، لأنكم لو فعلتم، لما أمكن للأرجوحة أن ترتفع في شكل طبيعي، كما يجب عليها أن تفعل. فيجب

توزيع كل شيء بالتساوي في الحياة. ولأنه يتم لوم المسلمين على كل شيء، فإنهم يتلقون كل ظلم العالم. وهذا خطأ».

وافتُرض بي أن أكون الخادم الصامت، لكنني سمعت في ذلك اليوم ما يكفي. وقبل أن أعرف ما يحصل، تحرّك لساني الأخرق وأخذت أعبّر عن أفكاري. «لماذا، يا أبي، جئت بنا إلى هذا المكان؟ لمَ تجعلنا نعيش هكذا؟ ولماذا لا يمكننا العيش في العالم الحقيقي، حياة طبيعية، مع أمور عادية، محاطين بأناس طبيعيين؟ لم لا نستطيع العيش بسلام؟». لم يسبق لي أبداً أن تحدّثت بمثل هذه الجرأة، لكنني تشوّقت يائساً إلى سماع جواب أبي، بحيث تطلّعت للمرة الأولى في حياتي بوقاحة إلى عينيه.

صُدم والدي، إلى درجة أنه أعيا عن الرد. وأتفاجأ، وأنا أتذكّر نبرتي وموقفي، بأنه لم يضربني بالعصا أمام الرجال.

أنجد أبو حفص في النهاية والدي بقوله، «شئنا، يا عمر، أن نكون هنا في هذا البلد. جئنا برغبة شخصية منّا هرباً من الحياة الحقيقية. لم نعد نريد أن نكون جزءاً من ذلك العالم. وهذا هو سبب وجود والدك هنا. وأنت، بوصفك ابنه، تنتمي إلى حيث يكون والدك».

تشوّقت إلى مزيد من الاحتجاج، لكنني لم أفعل. ولا أزال أذكر جيّداً الطريقة الحاقدة التي نظر إليّ فيها الظواهري، وهو ربما يتمنى أن يسدّد رصاصة إلى رأسي، تماماً كما فعل مع صديقي البريء في السودان.

أخذت، عند ذاك الوقت وفي ذلك العمر، أفقد شخصيتي المهذبة. أراد والدنا من أبنائه الابتعاد عن جميع الرجال، وأن يتبعوا توجيهاته، وهو الرجل الذي لم تعرفه حقّاً سوى قلّة من الناس. قال: «على أولادي أن يكونوا أصابع يدي اليمنى. على أفكاري أن تسيطر على أعمالكم تماماً كما يسيطر عقلي على حركة أطرافي. على أطرافكم يا أولادي أن تستجيب لتفكيري، كما لو أن عقلي موجود في رؤوسكم».

علينا أن نكون رجالاً آليين، بدون خيارات خاصة بنا، ولا أفعال.

وأخذ، على مرّ الأيام، يُرسلنا حاملين أوامره، ويطلب منا أن نكون أقوياء وأشدّاء، وأن نتفادى الكثير من الموالفة مع أي من الرجال. وهكذا، تهيّأ لنا، أنا وأشقائي، بعض من مركز والدنا الأميري. بل أخذ الرجال يدعون أكبر أبناء والدي بال«الشيوخ الكبار»، وأعترفُ بأن وقع ذلك على أذني لم يكن سيّئاً، لأنه لم يسبق لي أن حظيت بأي تقدير. وازدادت مع العمر رغبتي في خلق شخصيتي الخاصة. ومع الوقت أصبحت وأشقائي، متعجرفين، وقد شعرنا بأنفسنا فوق الجميع، لأنه هكذا أخذ يُنظر إلينا.

أساء والدنا معاملتنا بوصفنا عبيده من الرجال الآليين، وجارانا رجاله بوصفنا ملوكاً صغاراً. وبنتيجة حياتنا الملتوية، نشأت لدى كلّ منا مشاكل في شخصيته وتكوينه النفسي. وحده عبد الله تفادى الأسوأ. فعبد الرحمن لم يتغيّر كثيراً منذ الطفولة، ويرتاح أكثر ما يكون في صحبة الخيل. وازداد سعد، مع كل يوم يمر، في عبثيته مثرثراً بدون توقف. ولم يتعود الجنود الأشداء من حولنا على أي رجل لا يستطيع كبح لسانه، إلا أنه لم يتم التسامح بهدوء مع سعد، إلا لأنه ابن بطلهم.

تعوّد سعد، بعد انتقالنا إلى قندهار، على الثرثرة بدون توقف حول الطعام. لم يعرف أحد السبب، لكنني أعتقد أنه غالباً ما نجوع، وعندما نأكل يكون طعامنا رديئاً جداً. وكل وجبة سيئة هي تكرار لما قبلها، فاستحوذ المطبخ على سعد. وتدبّر مرّة في قندهار الحصول على قالب من الحلوى، لم نعلم أبداً من أين جاء به. وناقش سعد أمره على نحو لا ينقطع، بحيث إنني حتى اليوم أتذكر تلك الحلوى كما لو أنني تناولتها بنفسي! وقد غطي القالب بالقمح الحلو المطحون، ورُشّ بالسكّر والعسل.

أكل سعد القالب بأكمله ورفض المشاركة من أي منا ولو بقضمة واحدة. وأخذ، على مدى أسابيع بعد ذلك، في الحديث مع أي غريب يلقاه في الشارع، وينطلق في وصف مفصّل لشكل القالب، وطعمه، وكيف يعتقد أنه خُبز. ويبتعد الرجال الأفغان البالغون اعتقاداً منهم أن شقيقي مصاب بمس في

عقله. واستمع جنود أبي إليه يثرثر في شأن حلواه إلى أن أخذوا يركضون هاربين كلّما رأوه يقترب. وهددته أخيراً بضربه إذا لم يسكت. لكنه واصل، برغم ذلك، ثرثرته إلى أن حصل في أحد الأيام على مهلّبية خاصة وشرع في وصفها كما فعل بقالب الحلوى. ولم يستطع شيء أن يوقف لسانه عن القيل والقال والثرثرة، ولا حتى استنكار والدي.

ومن يعرف سبل عيشنا، لا يَلُمْ ربما سعداً على ما دأب على فعله. فخيارات أبي وتقريره مصير حياتنا أخذت تصيب أبناءه بالجنون!

وجد عثمان صعوبة في الإبقاء على صداقة طبيعية مع أي كان، لأنه أراد في الأساس السيطرة على آرائهم بطريقة أبي ذاتها.

وعندما أقرأ اليوم أخباراً عن أن أشقائي زعماء مهمون في تنظيم والدي، أشكك في تلك التقارير. فقد كوّنوا، في الوقت الذي غادرت فيه، شخصياتهم الراشدة، وليس في مقدور أي منهم تنظيم قوة مقاتلة.

وشقيقي الطفل محمّد، هو الأخ الوحيد الذي يمكن أن يرتقي إلى مرتبة عُليا، لأن شخصيته هادئة وجدية. وأمكنني، حتى قبل أن أغادر أفغانستان، رؤية والدي ينقل آماله في حمل لقب «الابن المختار» منّي إلى محمد. وقد جعل مرّة محمّداً يأخذ صورة معه وقد أمسك شقيقي ببندقية في حضنه. وهذه، في عالمنا، رسالة مفادها أن الوالد ينقل سلطته إلى ابنه.

إلا أن اتكاله عليّ وثقته بي، كانا قد تعاظما قبل ذلك. وأذكر عندما جاء إلي في شأن مشكلة متفاقمة، هي النقص في الطعام وغيره من المؤن. وعرفنا جميعنا في ذلك الوقت، أن والدي لم يعد رجلاً ثريّاً. وبرغم وضعه منظومة للاستحصال على التمويل من أولئك الذين يساندون الجهاد، لوجود عدد من الأصدقاء، وأفراد العائلة، ومن العائلة المالكة الذين ظلوا يوفرون الدعم المالي، فقد حلت أوقات فرغت فيها صناديق المال لديه تماماً.

جاءني والدي في أحد الأسابيع التي أصيب فيها أفراد العائلة بالجوع، وقال: «لاحظت، يا عمر، أنك رجل عادل. أريد شخصاً يمكنني الوثوق به

لتقنين الطعام. وستكون مسؤوليتك، من اليوم وصاعداً، احتساب كمية الطعام الضرورية لكل زوجة وأولادها. وخذ في الحسبان أن المراهقين يحتاجون إلى الغذاء أكثر من الآخرين، لأنهم ينمون بسرعة. عليك تصنيف المؤن الغذائية وتقسيمها بعدل».

افترضتُ أن والدي عرف أنه لا يمكن التفكير في عبد الرحمن لهذا العمل، لأن شخصيته تهوى الوحدة كثيراً إلى حد أنه سيجد مستحيلاً عليه التفاعل مع الآخرين وهو يوزّع الطعام. وسعد ليس مناسباً لأننا نعرف أنه سيترك لنفسه الحصة الأكبر منها.

أخذت عملي بجدّية. لم أُطق أن تجوع أمي وخالاتي ولا الأولاد. ومع أن غداءنا غث وغير دسم، فقد حصل في مرات قليلة أن جلب فيها زوار من أفراد العائلة المالكة، قصدوا أفغانستان للذهاب في رحلات صيد مع والدي، هدايا كناية عن صناديق كبيرة من الفاكهة، والسمك، واللحوم الحمراء والخضار. وكانت تلك أياماً سعيدة، حصل فيها أصغر الأولاد على وجبات خاصة من الطعام. وقال والدي إنه وردته تقارير بأنني كنت منصفاً إلى درجة أنه لم تصدر شكاوى من أحد. وبعد تلك المرحلة، أسرّ إليّ أبي بأنني الابن الذي اختاره ليكون الرجل الثاني ويده اليمنى في القيادة.

وشحب وجهه لما أجبت، «سأفعل، يا والدي، كل ما في وسعي لأساعد أمي وخالاتي وأخوتي، لكنني لست الابن المناسب لتولّي عملك. فأنا أسعى إلى حياة مسالمة، وليس إلى حياة عنف». لكنه رفض، برغم كلامي، التراجع عن فكرة كوني البديل المناسب له. وأخذني بعد ذلك إلى خطوط جبهة القتال. ويمكنني فقط أن أتكهّن بأنه أمل، إذا طابت لي ما تولّده في المرء إثارة القتال، أن أصبح متحمساً للحرب، كما فعل وهو يحارب الروس. إلا أنه سيصاب بخيبة أملٍ مريرة.

وأصبحت، مع مرور الوقت، أكثر جرأة مما أمكنني أن أحلم به، وأخذت أعترض بثقة على قرارات والدي. لكن النزاعات التي ستفسخ العلاقة بيننا، ستنشب لاحقاً.

بعد بضعة أشهر على استقرار عائلتي في قندهار، كنت أزور أمي عندما جاء أحد أشقائي ليبلغني أن أبي يريدني إلى جانبه. انصعت لأوامره فعلّقت الكلاشينكوف فوق كتفي، وحزمت حزام قنابلي، وذهبت.

افترضت حينها أن والدي سيطرح علي سؤالاً عن مواردنا من الطعام، أو سيصدر أوامر تتعلق بشؤون العائلة. فأنا قد تحمّلت قسطاً كبيراً من المسؤولية عن الزوجات والأولاد مع أنني كنت حينذاك في السادسة عشرة وحسب.

أبلغني أحد المقاتلين العابرين أن والدي في المبنى الذي يستخدمه مكتباً، فوجدته هناك جالساً القرفصاء على الأرض مع مجموعة من مقاتليه، فاقتربت بهدوء وبدون كلام، كما هي عادتنا.

رفع والدي نظره إليّ. لم يبدُ عليه السرور أو عدمه لرؤيتي، واكتفى بالقول، «أنا، يا بني، أغادر الآن للذهاب إلى خطوط الجبهة، وعليك المجيء معي».

هززت رأسي بدون تعليق. لم أكن خائفاً، بل أشعر بالإثارة. فأنا، بعد أكثر من سنة من الحياة في بلد يعيش الحرب، أصابني الفضول في شأن الجبهة، وقد سمعت الكثير من الروايات عن البسالة من الجنود العائدين. كانت الطالبان لا تزال تقاتل التحالف الشمالي بقيادة أحمد شاه مسعود، المحارب الذي اشتهر بنبوغه العسكري، وبأنه بطل المجاهدين أيام الحرب الروسية. وبعودة والدي مرّة ثانية إلى أفغانستان، أضحى بطلا الحملة الروسية عدوّين. فقد التزم أبي، بعدما منحه الملاّ عمر درع حمايته، بضم قوته المحاربة إلى جيش زعيم الطالبان. والملا عمر ورجاله الطالبان «أعداء زرق» لمسعود.

حصل كل شيء عَرَضاً في ذلك اليوم. لم يملك الرجال الذين اختيروا للقيام بالرحلة آليات مخصصة لهم، أو حتى مقاعد. واختار والدي عشوائياً سيارة وسائقاً، وتبعته وصعدتُ مع صقر الجدّاوي (سليم حمدان). كانت الرحلة قصيرة ولم تستغرق أكثر من ثلاثين أو أربعين دقيقة، لكنها كانت غير مريحة وكثيرة

الوعورة، شأنها شأن جميع الرحلات في الطرق الأفغانية. ولا يمكنني أن أتذكّر شيئاً محدّداً عنها سوى أخبار صقر الطويلة ونكاته التي أضحكتني طول الوقت، وأخرجتني من حالتي الجدّية العادية. وصقر هو الرجل القصير الذي يمزح باستمرار، ويستمتع بحياته أكثر من الآخرين. ويصعب عليّ عدم الاسترخاء وأنا في رفقته.

ما إن وصلنا إلى الجبهة حتى وجد كل واحد ما يقوم به، بينما اجتمع والدي مع بعض مساعديه ممن يمسكون بقيادة خط الجبهة. سرحنا، أنا وصقر، للتعرف إلى المكان، وقرر صقر، بسبب الضجر، ممارسة بعض الرماية على الأهداف.

ثبّت علبة معدنية وشرع في إطلاق النار عليها.

وناقشنا حذاقته لبرهة، ثم عاد إلى إطلاق بعض العيارت الإضافية، ثم كرر الأمر مرّة أخرى.

أصابتنا صدمة كبيرة، لأن الانفجار جاء قوياً إلى درجة أنه أصابنا بالارتباك الفوري. ما الذي حصل؟ لم يسبق لأي منا أن سمع الكلاشينكوف يُصدر مثل هذا الصوت الذي يهزّ الأرض.

شرعنا نتفحّص سلاح صقر ونناقش غرابة الموقف، إلا أن صاروخاً هزّ الدنيا من حولنا، وانفجر على مقربة منا. فأدركنا أن الكلاشينكوف ليس مصدر الضجيج.

وفي غضون ثوان، أصبحنا عرضة لوابل من القصف بالصواريخ التي أخذت تنهال علينا، تخللتها فترة انقطاع قصيرة، تمكنت خلالها من سماع صوت والدي يصرخ بنا: «تراجعا! تراجعا!».

جلست القرفصاء مع صقر. منعني الارتياع من التحرّك، وكان صقر حذراً للغاية، فأخذ يدرس كيفية التحرك بدون الاصطدام بصاروخ.

أخذنا نفكر كيف شرعت السماء تمطر صواريخ بدون أن يفهم أي منّا كيف أصبح رجال مسعود على هذا القرب. بالله عليكم، فنحن وراء خط الجبهة! كيف تسلل رجال مسعود بين خط الطالبان وبيننا بدون أن تراهم أعين رجال أبي المزروعة في كل شبر تقريباً في مناطق نفوذ طالبان.

قبعت هناك وأنا أتوقع الموت في كل لحظة، ونظرت إلى الوراء لأرى أن أبي ورفاقه قد احتموا في مبنى من الباطون ينظرون عاجزين إلى ابن أسامة بن لادن وهو مكشوف ينتظر الموت في أي لحظة. أخذت الصواريخ تصفر من فوق رأسي، ويتطاير التراب والبحص على وجهي، وتظهر الحفر العميقة من حولي، فاعتقدت حقّاً أنني أعيش اللحظات الأخيرة من حياتي على الأرض. وأسفي الوحيد هو الحزن الذي أعرف أن موتي سيسببه لأمي. والغريب في الأمر أنني لم أشعر بذرة من الخوف الحقيقي. وأفترض أن فورة من الأدرينالين خلقت لدي إحساسا خادعاً بالشجاعة.

نظرت مرّة أخرى إلى الوراء لأرى والدي، ربما للمرة الأخيرة. ها هو يقف الآن عند مدخل الملجأ المرتجل، مخاطراً بحياته، وهو يشير إلي بيديه لأركض إليه. استجمعت في النهاية شجاعتي لأنطلق مسرعاً إلى الملجأ، حيث بدا والدي المرتجف سعيداً جداً بأنني حيّ.

لم نكن جاهزين لمعركة كاملة، ولم يعد لدينا من خيار سوى الانسحاب. بعد الإفاقة من الصدمة الأولى، أدرك والدي فجأة أننا لسنا عرضة لهجوم من رجال مسعود، بل إن الطالبان هم الذين يطلقون علينا النار! فنحن ضحايا نيران صديقة.

لم يسبق لي أبداً أن شاهدت أبي في مثل ثورة الغضب العنيف هذه. وأصدر أمره: «صقر، أحضرْ سيارتك، وقدْها من حول هذه المنطقة. اذهب إلى موقع الإطلاق الخاص بهم، وقل لهم أن يوقفوا ذلك الآن، وإلا فسيقتلوننا كلنا!».

وصل صقر سالماً، وأخبر قائد الطالبان بأنه يطلق النار على أسامة بن

لادن، وإنه كاد يقتل ابن الشيخ. قال صقر إن القائد كاد يصاب بنوبة قلبية. اعتقد، لما سمع صقراً يطلق النار من سلاحه، أنه عرضة لهجوم مباغت من الوراء. وظن أن رجال مسعود تمكنوا بطريقة ما من التخلص من مراقبته.

لم يُرض شرحُه والدي الذي بقي يستشيط غضباً كما لم يسبق أن رأيته من قبل. وزمجر قائلاً إن على القائد، في مثل هذه الأوضاع، أن يتحقق أولاً قبل الشروع في قصف منطقة تعتبر آمنة.

لم أنسَ قط تلك الرحلة إلى الجبهة، لكنها لم تلهمني كما أمل والدي.



كثرت المجموعات المتصارعة في ما بينها في أفغانستان، وتزايدت كالفطر، بحيث أحاطت جبهات القتال في معظم المدن والقرى. ولم يعد غريباً أن يدعم والدي قوات الطالبان، وبخاصة عندما خاض الطالبان معارك حامية ضد تحالف الشمال بقيادة مسعود. أحسست بأن أبي يستمتع بوضع رجاله في مواجهة جنود رجل طالما أعجب كثيراً بمهاراته العسكرية. ولم يكن يفرح أكثر من أن يُقال إنه تغلّب في دهائه على القائد المحنك.

وأنا سعيد بالقول إنني وأشقائي تفادينا، لفترة، إرسالنا إلى خطوط الجبهة، إلا أنه في أحد الأيام، وبدون أي سبب وجيه، أمرني والدي بالتقدّم شخصياً إلى واحدة من قواعدنا التابعة لـ «القاعدة»، موجودة في أعالي جبال كابول عند أطراف المدينة. قال والدي: «اذهب يا بني. اذهب واكتشف حياة الجندي».

أعتقد أنني كنت في السابعة عشرة. وشكّل القتال على خطوط النار آخر بند في لائحة الأمور التي أرغب فيها. وقد سبق أن شاهدت عدداً كبيراً جداً من الرجال المصابين بجروح خطيرة، أو هم في حالة النزاع، وقد جيء بهم من الجبهة. ويعني جرحُ الحربِ في أفغانستان الموتَ لعدم وجود مستشفيات ميدانية، ولا حتى عيادات طبية موقتة لمعالجة الجرحى. وتُبذل الجهود أحياناً لنقل الجرحى إلى أقرب مدينة، إلا أن ذلك لا يحصل إلا في ما ندر. وبرغم

وجود الدكتور الظواهري للحالات الطارئة الحقّة، فإن مهمته الأساسية لم تكن لعب دور الطبيب، بل التخطيط للهجمات.

لم أملك خياراً سوى تنفيذ ما أُمرت به، لأنني لم أبلغ بعد العمر الذي يمكنني فيه التمرّد على والدي. وقد شعرت، في الواقع، ما إن أصبحت على الطريق، باختلاجات خفيفة من الإثارة.

أمكنني، بوصولي إلى القاعدة في جبال كابول، رؤية جنود مسعود في مواجهة رجال أبي. وقد جُهّز المحاربون على خط النار بالأسلحة الرشاشة وغيرها من السلاح ذي المدى القصير. أما خط المدفعية فموجود وراء ذلك مباشرة، بين خط الجبهة والقاعدة. ووقعت عيناي على دبابات روسية لا تزال تعمل، كانت من مخلّفات الحرب الأخيرة، وقد مُوّهت بأغصان الأشجار والأعشاب، وخُبّئت في زوايا بعض الأماكن المسطحة. لم تكن المعارك بالدبابات شائعة كثيراً، وهذا مخيّب لأنني امتلكت بعض المهارات في تشغيلها، ووددت، على غرار معظم الصبية المراهقين، الحصول على فرصة لقيادة إحداها.

شاهدت إمدادات كبيرة من الأسلحة، من صواريخ ستينغر إلى الرشاشات والمدفعية. وقد أخذتني الدهشة لتعقيدات الحرب، لأنني تصورّت، على غرار معظم الناس، أن القتال في أفغانستان عبارة عن حرب عصابات. إلا أن خطوط الجبهة رُسمت بالطريقة ذاتها التي تخيّلت فيها القوى العسكرية الضخمة وهي تتمركز في مقابل بعضها البعض خلال المواجهات بين القوى العالمية. رأيت الحيّز الواسع من الرجال المدرّبين تدريباً ممتازاً، ويستخدمون في الغالب تجهيزات حديثة، فتذكّرت أنه ما إن انضم والدي وجنوده إلى الطالبان حتى بدّل الاحتراف العسكري الذي تعلّمه خلال سنوات الحرب العشر مع السوفيات، مجرى النزاع الحالي تبديلاً جذرياً.

كان القتال قد هدأ لدى وصولي. وقمت أساساً بالمراقبة خلال الأيام الخمسة الأولى، وفكّرتُ في أن وجودي على خطوط النار ليس أسوأ ما يحصل

لي. وحصلت مناسبات أخذت فيها أعبث بجهازي اللاسلكي المحمول باليد، وقد حظي معظم الجنود على خط الجبهة بواحد مثله. إلا أن جهاز الجندي العادي ليس متطوّراً على غرار الأجهزة التي يستخدمها والدي والقادة رفيعو المستوى.

شعرت بالضجر، ووجدت أنني لو أخذت وقتي فسأتمكن من العثور على الموجة التي يستخدمها رجال مسعود. وهكذا كان، فانهمكت معهم في محادثات، وأنا أسألهم من أين هم، وغير ذلك من الثرثرة غير العسكرية. ولم أكشف لهم، بالطبع، أنني ابن أسامة بن لادن، وإلا فإن هؤلاء الرجال قد يشنون هجوماً شاملاً لأسر مثل هذا الصيد الثمين، وهم لا يعرفون أن والدي لن يفعل شيئاً لإطلاقي.

وسألت مرّة أحد الجنود الودودين: «لماذا تحاولون قتلنا؟».

أجاب أحد جنود مسعود: «ليس لدي شيء ضدكم. هذه حرب من أجل الأرض. ولدينا أوامر بإطلاق النار على كل من يوجد على الأرض، وأنتم عليها. وسيكون عليّ أن أطلق النار عليكم إذا توفّرت لي الفرصة لذلك».

نطق الجندي بالحقيقة. فلقد أراد كل أمير حرب أن يحكم البلاد. وبرغم أن ثمة نقصاً في المنازل، والمستشفيات، والمدارس، والغذاء، والثياب، وغير ذلك من الضروريات، فإنه لا يوجد نقص في أمراء الحرب، في هذه البلاد التي يجهد كل من فيها للوصول إلى الموقع الأعلى. وهكذا، أصبحت الحرب هي النتيجة لوجود مجموعة من الرجال العنيدين الذين لا يساومون.

ارتبط خط الجبهة حول كابول بمنطقة قروية انتشرت فيها الأكواخ المتواضعة عند سفح الجبل. وقد هُجر الكثير من هذه المنازل بسبب القتال القريب، فاختار جنود والدي النوم فيها بدلاً من القرفصة على الأرض الحجرية. ووضع الجنود في خلال ساعات النوم، مراقبين على طول خط الجبل. وحلّت الليلة التي جاء فيها دوري في الخدمة كمراقب، لأن والدي أوصى بألّا أعامَل كاستثناء عن أي جندي آخر. وقضت أوامره بأن «لا أفضل، ولا أسوأ».

لم أكد أتمركز في موقع مراقبة مناسب، حتى سمعت أزيز رصاصة يمر قريباً من أذني اليمنى، ثم أزيز رصاصة ثانية يطن متجاوزاً أذني اليسرى. وسرعان ما أخذ الرصاص في التطاير. لقد كشف جنود العدو موقعي. وأخذ الرصاص يئزّ من الجانبين، فلم أستطع أن أقرر الجهة التي سأقفز إليها.

ولا أزال غير متأكد كيف أنني تفاديت الإصابة. ويبدو، في حدود تصوري وتحليلي، أن الليلة التي غاب فيها القمر أخلّت بمهارة العدو في الرمي، أو ربما أن جسمي رسخ رسوخاً عظيماً في مكانه، بحيث إن قنّاص العدو قرر أن هدفه ليس إلا صخرة جبلية. وسمع رفاقي الجنود أخيراً القرقعة وزحفوا للمشاركة في المعركة في اللحظة بالتحديد التي انتهى فيها إطلاق النار. ولما ظهر نور الفجر، راعتهم رؤية هذا العدد من الرصاصات المحيطة بموقعي. لقد رحمني الله في تلك الليلة.

وفي اليوم السادس اندلعت المعركة، وتكوّن لديّ على الفور تقدير كبير جديد للجنود. أُرسلتُ إلى موقع المدفعية حيث أصابت قرقعة الحرب طبلتي أذني بشيء من الصمم. وأخذت، بالتأكيد، في التعوّد شيئاً فشيئاً على ضجيج الحرب، لكن ليس على بشاعاتها ومشاهدها المأسوية أبداً. فمجزرة الموت شنيعة، ولا يوجد أبشع من مشهد رجال مصابين بالجراح أو في حالة النزاع، ومعظمهم ليسوا أكبر مني سنّاً.

أسفت لاستمراري في تخييب رجاء والدي، لكني عدت من هناك بتصميم متجدد على أن الحرب هي الممارسة الأكثر عبثية التي يمكن تخيّلها. وتعهّدت، وأنا أجثم على قمة الجبل تلك، بأن أقضي ما بقي من حياتي وأنا أرفع صوتي بالكلام والتنديد ضد هذا الأمر بالذات الذي أحبه والدي كثيراً.

والإسلام هو الأمر الوحيد الذي أحبه والدي أكثر من الحرب. ويمكن للمسلم أن يصلّي في أي مكان: في الشارع، وفي منزله، وفي مكتبه، وفي الصحراء، أو حتى في المطار، إلا أنه من الأفضل لو توفّرت للمسلم - للرجل

المسلم على الأقل - فرصة الصلاة في الجامع. إلا أن ثمة أوقاتاً سئمنا فيها، أنا وأشقائي، الذهاب إلى الجامع. وليس مردّ ذلك لنقص في الإيمان، فنحن كنّا مؤمنين، بل لأنه استُخدم لأمور كثيرة جداً، بحيث إنني وأشقائي كنا نقضي فيه وقتاً أكثر مما نقضيه في منازلنا. فقد شهدت كثيراً من الاجتماعات الطويلة المملة التي تستمرّ لساعات. وغالباً ما كان أقل الخطباء المسلمين طرافة يحاضرون إلى أن ترتخي رموش أعيننا وتتمايل رؤوسنا ضجراً. ولم يشفق والدي على وضعنا، وتوقّع من أبنائه أن يجلسوا ساكنين، ويُبدوا حماستهم في شأن تنويعات لا تنتهي حول الموضوع ذاته.

وانتشر الخبر، مع الوقت، بأنه في وسع أي من يشعر بالنزعة إلى إعطاء المحاضرات القيام بذلك. احتجز هؤلاء المحاضرون المتحمّسون المستمعين إليهم لساعات. وضج كل شخص بالغ تقريباً في طلب التوجّه إلى الحضور من أجل إقناع الآخرين بفهمه الخاص للإسلام. ومعظمهم ليسوا من المتبحّرين فيه، ولا يفقهون شيئاً من علومه، بل هم رجال جهلة اعتقدوا أن مقامهم سيرتفع من خلال مراسم الكلام الذي لا حدّ له.

كنت وأغلب أشقائي، قد أمضينا ساعات في الجامع نتعلّم آيات من القرآن، وتاريخ الإسلام، وأسباب الجهاد، والوقائع التي يجب أن نعرفها في شأن فجور العالم غير الإسلامي، إلى جانب مخططات والدي المستقبلية لتدمير الغرب. وتلقّينا في هذا الجامع الرسالة التي فحواها أن الولايات المتحدة تخشى أن يطبق الاسلام على الدين المسيحي. وقيل لنا إن خطة الله المقدسة تقضي بجعل جميع الديانات، بما فيها تلك التي يمارسها المسيحيون واليهود والهندوس، تخضع لحكم الإسلام. وسيتآلف جميع شعوب الأرض في ظل الخلافة الإسلامية.

مضت سنتان طويلتان ظللت فيهما عرضة للخطب الفارغة المطوّلة من أفواه الأشخاص المضجرين غير المثقفين، وما إن انقضتا، كتبت رسالة مغفلة، وقد حرصت فيها على تغيير خط يدي.

وهاكم ما أذكره من تلك الرسالة:

«لا يجب أن يُسمح لأحد بالوقوف والتحدّث في الجامع بدون إذن من الشيخ بن لادن. فليس عدلاً تعريض جماعة المصلّين لقصف مستمر من المحاضرات. ثمة أمور كثيرة في العالم يجدر بالرجال القيام بها غير الجلوس لساعات في الجامع للاستماع إلى خطباء جهلة.

«لا يجب استخدام الجامع بهذه اللامبالاة. ومثل هذه الخطابات المضجرة، وهي تشكّل في الغالب رأي فرد واحد، لا يؤدّي في شيء إلى إنجاح الإسلام. فعلى المحاضرين المسلمين أن يبعثوا الروح في نفوس المؤمنين، إلا أن أغلب الذين اختطفوا جامعنا لا ينتجون سوى الشقاق والسخط. لا يجب وضع المؤمنين في موضع الضجر التام، لأن من شأن ذلك إحباط عزيمتهم عن حضور مناسبات كثيرة مفيدة في الجامع».

لم أشأ أن يتم اكتشافي لأنني لم أرغب في إثارة غضب والدي، فتسللت إلى الجامع في خلال فترة هادئة لأعلق رسالتي بمسمار على الجدار.

ولما حان موعد الصلاة التالية، كنت هناك مع والدي. وجاء إلينا واحد من أكبر الرجال سنّاً ليتحدّث صراحة. قال «أخذ الرجال يتكلّمون. وقالوا إنه لا يمكن إلا لولد من أولاد الأمير أن يتمتع بهذا القدر من الشجاعة لتعليق مثل تلك الرسالة. فكّرنا في الأمر وتناقشنا حول من يمكن أن يكون من أبناء الشيخ أسامة، واتفقنا جميعنا على أن ذلك ليس إلا من صنع يد واحدة، هي يد عمر».

لم أقل شيئاً.

ووالدي لم يقل شيئاً.

وفي النهاية، سألني كبير السن بصراحة: «هل كتبت هذه الرسالة يا عمر؟».

نظرت في عينيه بدون الاعتراف بأي شيء. لم أقل نعم، ولم أقل لا.

استمرّ والدي جالساً بهدوء. لم ينظر إلى الرجل الكبير في السن، ولم يلتفت إليّ. أعتقد أنه أخذ ينظر إلى يديه.

وأخيراً، قال الرجل المتقدم في السن، «لماذا كتبت هذه الرسالة يا عمر؟».

ولمعرفتي أنه لن يرحل أبداً إذا لم أردّ عليه، أجبته: «أنا أتفق مع ما جاء فيها بالرغم من أنني لم أكتبها. فقد طفح كيل الشبان».

لم يتأكد الرجل مما سيكون عليه ردّ فعل والدي، فهزّ برأسه وابتعد بدون أن ينبس بحرف واحد.

لم يحرّك أبي ساكناً، وأنا أخشى ما قد يقوله، لأنه لم يسبق لي أبداً أن كذبت عليه. شعرت بأنه يعرف في قلبه أن ابنه عمر هو المرتكب بالفعل، لكن الغريب أنه أبقى الموضوع في سريرته، ولم يناقشني فيه. وانخفض عدد الخطابات لفترة من الزمن، إلا أن معظم الرجال لا يحبون شيئاً أكثر من الاستماع إلى أصواتهم. وهكذا، لم تمضِ فترة طويلة حتى عادوا من جديد ليدفعوا بأنفسهم إلى المنصة، ويبشّروا بطابعهم الإسلامي الخاص.

واكتشفت بعد أسبوع من ذلك، أن والدي يواجه مشاكل أكثر خطورة بكثير من الضجر في الجامع. فهو، للمرة الأولى في حياته، لا يملك أي مال.

نشأت مشاكل جديدة، برغم أننا فقراء منذ ١٩٩٤ عندما جمّدت الحكومة السعودية أرصدة والدي. ولمّا فقد قدرته على الوصول إلى أمواله الخاصة، حافظت منظمته الهائلة الحجم على وجودها بفضل التبرعات. فقد شرع أفراد متعاطفون في العائلة المالكة، أو حتى أعضاء في أسرة والدي المباشرة، في التبرع بسخاء لقضية الجهاد. ولم توجد، حتى ذلك الوقت، أي قوانين ضد مثل هذا العطاء. إلا أن الحكومة حظرت أخيراً على المؤسسات الخيرية السعودية التبرع لقضية والدي. وتمت مراقبة الجميع للتأكد من عدم قيام أي منهم بالمساهمة.

أصبنا، للمرة الأولى، بيأس فعلي، لأنه لا يوجد، في مثل هذا الوضع المتدهور، مال لإطعام عائلتنا، أو للجمهرة الهائلة من الناس التي تحلّقت حول والدي.

وذكرياتي حادة حول ذلك اليوم، لأنني عانيت، وكذلك الرجال، الجوع. فقد أعطيتُ بنفسي آخر الطعام، المؤلف من البيض والبطاطا، للنساء والأولاد. وأخذت عضات الجوع تنهش بطوننا.

شرع والدي يناقش المشكلة مع أبي حفص وعدد قليل آخر من الرجال الذين يثق بهم، فجلستُ واستمعت. تحدّث أبي بطريقة حزينة وخائبة، «لو أنني فقط أملك خمسة ملايين دولار لكسبت هذه الحرب اليوم». عرفنا جميعنا أنه يتحدّث عن الحرب الأهلية التي تشغل الجميع وتستمر في ابتلاء كل رجل وامرأة وطفل يعيشون في أفغانستان، وهو نزاع يؤخّره عما يعتقد أنه رسالته الحقيقية في الحياة، وهي شن الحرب على الغرب.

شعرت بفورة من الغضب. لم يمتلك والدي ريالاً سعودياً واحداً، ولا حتى «أفغانية» واحدة، وإذا لم نحصل على التمويل في وقت قريب، فقد نموت جميعنا من الجوع. وها أنا أسمع والدي يتكرّب لأنه لا يملك المال للقيام بالحرب. إلا أنني أبقيت فمي مطبقاً، لأنه ليس الوقت المناسب للشروع في خلاف معه. فهو محاط برجال تبلغ محبتهم له درجة انهم سيسعدون بطعني بالخنجر في قلبي بسبب انتقادي والدي.

عاد انتباهه، بعد هنيهات قليلة، ليتركّز على المشكلة الراهنة. نظر إلى رجاله وأوعز إليهم «اذهبوا إلى كل خزنة، انظروا في كل مخبأ، وابحثوا عن بعض المال المنسي الذي قد نكون قد خبأناه في أوقات بحبوحتنا».

فعل الرجال ما طُلب منهم، وعادوا واحدهم تلو الآخر يجرّون خيبتهم ويبوحون بالخبر غير المُحبّب، بأن الصناديق التي كانت في السابق محشوة بالمال، فارغة الآن. وقال أحد الرجال، «لا يوجد فيها حتى الغبار».

وفجأة، اندفع أحد الرجال إلى الغرفة وهو يتهلّل. قدّم إلى والدي رزمة من

الدولارات الأميركية، قائلا، «يا شيخ، وجدت هذا المال في أحد الصناديق المقفلة التي نسينا أمرها منذ زمن طويل».

عدّ والدي المال سريعاً، معلناً أنه «توجد هنا خمسة آلاف دولار!».

يا لها من ترويحة! سَيَفي هذا المبلغ بالكثير في أسواق الغذاء في قندهار. ويمكننا الآن شراء المؤن لإطعام جياعنا. وبرغم السعادة البادية على وجه والدي، فقد حمل صوته نبرة أسف عميق عندما قال، «لم أتخيّل أبداً في حياتي، أن العثور على خمسة آلاف دولار متواضعة، سيحمل إلي مثل هذا الفرح».

عادت الحادثة بذاكرة والدي إلى الماضي الجميل؛ إلى الأيام التي اعتقد فيها أن جميع أحلامه ستتحقّق. فهو، بعد هزيمة الروس، ركن إلى زمن من العجرفة، وقد اقتنع بأن ما بقي من حياته سيزخر بالانتصارات. لكن ذلك لم يحصل. والواقع أن أحلامه قد تبخّرت.

تطلّع والدي أوّلاً إلى أبي حفص، ثم ألقى نظرة سريعة على بعض الرجال الأكبر سنّاً في الحلقة، وهم قدامى الحرب الروسية، قبل أن يشير إليّ ويقول، «انظروا إلى ابني الفتى! لمّا وصلنا في البداية إلى أفغانستان، منذ سنوات طويلة مضت، كنا نحن أيضاً شبّاناً نَضِري الوجوه، مقاتلين ننبض بالحياة، طوال القامة، شديدي العضلات، ذوي لياقة بدنية، وأصحّاء. كانت لحانا سوداء ورؤوسنا مليئة بالشعر الكثيف، لا يمكن رؤية شعرة بيضاء واحدة فيها!».

وأصبح صوته مكتئباً: «من كان يحلم بأن حياتنا ستأخذ هذا المسار؟ خسرنا الكثير من الأصدقاء في الجهاد. إنهم في الجنة، بينما نحن لا نزال نكافح على الأرض مقاتلين من أجل إحقاق العدل للإسلام. ومع أننا نعرف أن الحياة على أرض الله ليست أكثر من دَرَج يوصل إلى السماء، فإن تحمّل الرحلة غالباً ما يكون صعباً. عندما جئنا، ونحن على هذا القدر الكبير من التشوّق إلى أفغانستان، وصلنا ونحن شبّان. وشعرنا بالأسى على المقاتلين

القدامى الذين بالكاد يستطيعون التنقّل. وانظروا إلينا الآن! صرنا نحن الرجال الكبار في السن! وها إن أبناءنا يزرعون أقدامهم في آثار أقدامنا».

تلوّيتُ وأنا أعرف أن أبي سيصاب بخيبة مريرة، إذا كان يعتمد عليّ في تحقيق أحلامه. فأنا، لدى أول فرصة، سأنتزع قدمي من آثار أقدامه، وأصنع آثاري الخاصة بي.

تأكّدت تماماً من أن والدي يفكّر فيَّ بوصفي «المختار» عندما أعلن أن صحافياً بريطانياً، هو روبرت فيسك، آتٍ إلى أفغانستان لإجراء مقابلة معه، وبأنني سأكون من بين الحاضرين. سبق لفيسك أن أجرى مقابلة أو اثنتين مع والدي من قبل، لكنها المرّة الأولى التي سأقابله فيها.

جاء سعد معنا لحضور المقابلة، لكن لم يؤتَ بعبد الرحمن. أملتُ وحسب ألا يشرع سعد في الحديث عما تناولناه للتو من بيض وخبز. وبرغم افتخاري بأنني واحد من ابنين كانا مع والدي في مثل هذه المقابلة المهمة، فإنني آسف للقول إنني لا أتذكّر سوى القليل مما دار من نقاش فعلي فيها. ويمكن لمن يهمهم الأمر العثور على أعمال فيسك وقراءة ذلك بأنفسهم. وأذكر أن فيسك كان رجلاً ظريفاً جداً، حتى أنه أبدى بعض الاهتمام بي، فاستدار صوبي بسيماء لطيفة ليسألني إذا كنت سعيداً.

أذهلني سؤاله. فقلّة هم الناس، في خلال حياتي كلّها، الذين اهتموا فعلاً بمشاعري، ولم يسألني أحد بالتأكيد إن كنت سعيداً أو لا. وتساءلت لجزء من اللحظة، إذا كان فيسك لائقاً وحسب. لكنه بدا صادقاً جداً إلى درجة أنني أردت أن أُرضيه بجوابي. وفي النهاية أجبته: «نعم، أنا سعيد».

لم يطرح عليّ فيسك المزيد من الأسئلة، لكن لساني تشوّق بحرقة إلى التراجع عن تلك الكلمات، والكشف عن حقيقة أنني أشقى صبي على قيد الحياة، وأكره الحقد والعنف اللذين يسوّق لهما والدي. أردت أخذ فيسك جانباً لأقول له إنني سأجد في أحد الأيام الشجاعة للمجاهرة بالحديث ضد والدي

والعمل لقضية السلام. كدت أنفجر غضباً، لكنني كنت أجبن من أن أرفع صوتي بالكلام.

سأل فيسك والدي بلطف إذا كان يحب أن تؤخذ له صورة معي. وقد ملأتني الإثارة عندما وافق، لأنه ليس مولعاً بالصور، وعنت موافقته على الظهور فيها معي أكثر مما عنته الصورة ذاتها.

بعد مغادرة فيسك، وجدتُ الشجاعة لأسأل، «هل أنت قلق يا والدي في شأن ما قد يقوله ذلك المراسل؟».

هزّ والدي بكتفيه، وقال: «كلاّ، سيكون منصفاً».

أمكنني في وقت لاحق الحصول على نسخة من مقابلة فيسك، وشعرت، للغرابة، بالخيبة لأنه لم يأتِ على ذكري بأي طريقة، برغم أنني عرفت أن والدي هو الشخص الوحيد الذي يهمّ في عائلتنا. وليس للعالم من سبب للاهتمام بي، مع أن لدي سبباً للاكتراث بما يدور فيه. لقد دنا الوقت الذي سأشق فيه طريقي.



أضحت حياتنا، كآل بن لادن، أكثر غرابة مع مرور الوقت. ومرّد ذلك أن ولع والدي بالجهاد ارتبط بأناس تائهين في الحياة، ولديهم توق إلى القتال، بدلاً من الارتباط بأولئك الذين يسعون إلى متع الحياة العادية. وفي وقت كان فيه بعض المجندين زوّاراً موقتين، ووجودهم في أفغانستان ليس أكثر من «عطلة جهادية»، فإن معظم الجنود أدمنوا سريعاً على حياة الجهاد، وسعوا إلى أساليبه العنفية، لأنهم اعتقدوا أن قضيته هي القضية الأطهر للمسلم، وأن لحياتهم معنى كبيراً لأنهم أرادوا وهب تلك الحياة لله.

أصبح هؤلاء الشبان رفاق أخوتي، وقد عرّضونا للكثير من الحوادث الغريبة.

شكّل والدي مصدراً دائماً للحديث المهيب، فحضوره سيطر عليهم إلى درجة أنهم يعتقدون أن أصغر الأمور تشكّل علامة من الله. وفي أحد الأيام، راعت ظاهرة غريبة رجالاً عديدين. ففي كل صيف تتدفق أسراب طيور المنطقة على قندهار وهي في طريق هجرتها. ولأن العرب يحبّون الطيور، فقد بذلنا جهوداً خاصة لتوفير الراحة لها. حتى أننا، أنا وأشقائي، فتحنا الزجاج فوق الباب ليتوفّر لهذه الطيور مكان جيّد لبناء أعشاشها فيه. وما إن تفقس بيوضها لتخرج منها الزغاليل حتى تغادر. ولاحظ الرجال أن طيراً أنثى بالتحديد تعاود

الزيارة على مدى سنوات عدة على التوالي. فهي تحمل شريطاً أحمر مميّزاً على أحدى أرجلها. ولم يحمل أي طير آخر مثل هذه العلامة.

تكهّن أحد الجنود بأن الأميركيين يستخدمون العصفورة لتعقّب والدي. لكنه سرعان ما قرّر أن الحال ليست كذلك، إلا أن التضاحك الكثير تواصل حول كيف أن هذا الطير الصغير وجد منزل والدي تكراراً، بينما يعجز الأميركيون المتقدمون تقنياً عن ذلك.

وكان معنا في أفغانستان مدرّب عسكري أستلطفه كثيراً، يستقبلني دوماً بابتسامة مرحّبة ويعرض علي المساعدة. لم أسمع أبداً اسم عائلته، لأنه يُمنع عليه، طبعاً، استخدامه، وعرفه الجميع في جيش والدي بأبي زهير. وقد تبوّأ مركزاً رفيعاً في تنظيم والدي، وأخذ يتنقّل جيئة وذهاباً بين قندهار ومعسكر التدريب القريب من كابول.

وحصلت حادثة مع أبي زهير لن أنساها أبداً. فقد افتخر بامتلاك بقرة جميلة سوداء وبيضاء، أثارت حسد الكثير من الجنود بسبب التقنين الشديد في الطعام والشراب. وسرعان ما وضعت البقرة عجلاً شكّل مصدراً آخر لفرح أبي زهير، لأنه كان يمتلك خططاً له.

تراءى له في إحدى الليالي كابوس غريب. فقد حلم بأن اثنين من جنوده حلبا سرّاً بقرته، وأخذا الحليب الذي حفظته البقرة لعجلها. لم يتمكن في اليوم التالي من إزاحة الحلم من ذهنه. وبقي يراوده حتى بعدما أدى أولى صلوات النهار. استدعى أبو زهير مدرّباً آخر، اسمه أبو عطا، وناقش الرجلان الحلم بجدّية كبيرة. عرف أبو زهير أنه لن يرتاح إلا إذا مضى بالمسألة التي تزعجه إلى نهايتها، فبعث في طلب من شاهدهما في الحلم.

ظهر الرجلان والاضطراب باد عليهما.

واستجوبهما أبو زهير بحنكة، وقد عرف أنهما متطيّران جداً: «هل ارتكبتما في الليلة الماضية إثماً؟».

انهار الجندي المُسمّى أبا وليد على الفور، واعترفا بأنهما تسلّلا إلى زريبة

البقرة وحلباها. وكانا قد أخفيا الدليل على عملية سطوهما، وشربا الحليب، ولم يكن في وسع أي كان، سوى العجل الجائع، أن يعرف بعملية الحلب، لولا حلم أبي زهير.

استشاط أبو زهير غضباً على قلّة الثقة، وجاء عقابه قاسياً. اضطر الجنديان إلى الركض على الجبل صعوداً ونزولاً إلى أن أقسما إنهما تعلّما الدرس. وانتشر الخبر، بلا شك، بأن الله يؤيّد كثيراً عمل والدي، بحيث إذا ارتكب أحدهم إثماً، فسيقوم بتحذير قادته وهم نيام.

وحصلت قصص مسليّة أخرى. أذكر عندما رافقت والدي وبعضاً من كبار مساعديه في رحلة بالسيارة لاستطلاع الأرض، وتلقين العناصر ما عليهم فعله في القتال، والتحقق من كفاءة آخر دفعة من المجندين الذين يتدرّبون في المعسكرات، جلس أبي في إحدى السيارات في مقدمة الموكب، وركبت في سيارة في المؤخرة. وكانت السفرة، كالعادة، مجهدة بسبب سوء حالة الطرقات والنقص في مرافق العيش المتوفرة لمسافري الطرق الأفغان. وتقلّب مزاج كثير من المقاتلين من جرّاء التعب، فطلب والدي توقفات متكرّرة لتقسيم الرحلة إلى مراحل. وكان والدي، كلما اقتربنا من القرى الصغيرة، يوقف آليته جانباً لنتمكن من تعبئة قِرَبنا بالماء من نبع القرية، واستهلاك بعض طعامنا البسيط، وطبعاً قضاء حاجاتنا.

لكن، ماذا نفعل في غياب توفّر المراحيض العامة، وانعدام المراحيض الخاصة، حيث اضطر المقاتلون إلى التفرّق بحثاً عن الخصوصية في زوايا الحقول المنعزلة. وكانوا يعودون، بعد قضاء حاجتهم، إلى القافلة لانتظار الجنود الآخرين تحت فيء شجرة. ويندر أن نعترض على التأخير، لأنه ما من أحد يتشوّق كثيراً إلى العودة إلى طرق أفغانستان الوعرة. لقد أحببنا الحصول على الوقت الإضافي للجلوس وتبادل الحديث.

وأذكر أن أحد الجنود انتظر حتى الدقيقة الأخيرة، وذهب مسرعاً وغاب لفترة طويلة جداً، أخذنا خلالها نتساءل عما حلّ به. وتلكّأنا تحت الشجرة

وأخذنا وقتنا في الاستمتاع بالنسيم، عندما جاء مسرعاً يخبط بقدميه فوق العشب المرتفع وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

وتحولت ابتسامته لدى رؤيته رفاقه إلى ضحك. ولأننا نهتم بكل ما هو مسلّ، دفعناه إلى الكشف عن التفاصيل، لكن ضحكه منعه من البوح بقصته، إلى أن بقّ البحصة أخيراً: «كنت هناك أقضي حاجتي، لمّا سمعت وقع خطوات. استخدمت الإشارة لتنبيه الدخيل إلى أنني منشغل في مسألة خاصة. وتخيّلوا صدمتي عندما سرّع الدخيل خطواته، آتياً مباشرة إليّ. وبقيت أطلق الإشارة، «أح، هم، أح، هم»، لكن ما من شيء أوقف تسارع خطواته صوبي.

«أصبحت كالمسعور، لأنني لست في وضع يناسب رؤيتي فيه!».

لم نستطع مع قوله هذا تمالك أنفسنا، فاستغرقنا جميعنا في الضحك، ووقع بعضنا على ظهره من شدة الضحك.

وتابع نادرته قائلاً: «فجأة، ظهر أمامي رجل طويل القامة! وضع يده على كتفي ونظر إليّ وأنا أقضي حاجتي، ليسأل، هل أنت بخير، يا صديقي؟ فقد سمعت أصواتاً غريبة جداً أصابتني بالقلق الشديد، ما دفعني إلى المجيء والتأكد من أن الرجل الذي يُصدر تلك الأصوات بخير».

واستلقى الجندي من الضحك، وقال «جلّ ما تمكنت من القيام به، هو المزيد من الهمهمة! وماذا كان عليّ أن أفعل حينها؟ فها أنا وسروالي حول كعبي، أقضي حاجتي وأُجري محادثة!».

تجمعت في تلك اللحظة حلقة ضخمة من المقاتلين، واعتبر الجميع، أن القصة كثيرة المرح. لم يتمكن أحد من الكلام، وأخذت دموع الضحك تنساب على الوجوه القاسية لجميع المقاتلين.

تميّزت حياتي في أوجه كثيرة منها بالكآبة، لكنني حاولت تعزية نفسي بفكرة أنني أفضل حالاً من الآخرين. فأنا، على الأقل، لا أعيش حياة ولد معوّق في بلد تعصف فيه الحرب الأهلية. فليس لدى الأفغان المساكين وسيلة للتعاطي كما

يجب مع الولد المعوّق أو المتخلّف عقلياً. ورأى بعض الجنود حالات تمّ فيها تقييد المتخلّفين عقلياً كالكلاب بسلاسل غليظة، وربطهم بشجرة أو بكرسي.

وثمة في الواقع صبي من هذا النوع تماهيت معه لأننا من العمر ذاته، أقام في قرية على مقربة من مجمّعنا في قندهار، حيث يعيش مقيّداً بالسلاسل. وأصبح، على مرّ السنين، ماهراً في الهرب. وكان، بعدما يتخلّص من قيوده، يتوجّه أحياناً صوب مجمّعنا. وفي أحد الأيام، شاهد أحد الحراس شخصاً ذكراً يقترب، فصاح به: «قف! عرّف عن نفسك!».

لم يتمكن الفتى المسكين من الفهم، فتباطأ في سيره وهو يتبع الصوت البشري. ظنّ الحارس أن مفجّراً انتحارياً آتٍ إلى المجمع، وشرع في إطلاق النار من فوق رأس الفتى، الذي واصل السير قُدُماً ولم يردعه إطلاق النار.

تمكن الحارس أخيراً من الرؤية بوضوح، وشاهد أن الزائر ليس إلا فتى القرية المقيّد المسكين. هرع حرّاس آخرون إلى البوابة الرئيسية لدى سماعهم إطلاق النار، وسارعوا إلى التقاط الصبي وإعادته إلى سيرته الأولى مهملاً في قيوده.

لاحظت، مع مرور الوقت، أن والدي يُصاب بنوبات من الحزن، ومع أنه لم يطلعني على أفكاره الدفينة، لكن تعاسته أصابت أوتار قلبي. وأخذتُ، بوصفي ابنه، أبحث عن الأسباب التي تبرر تصرّفه. أردت له التخلّي عن الحرب والعنف. وكانت تلك، بالتأكيد، الأيام التي سبقت عبوره الحدَّ الذي حتّم ألّا يعود أبداً إلى عيش الحياة الطبيعية.

وفي الوقت الذي أخذت أشعر فيه بمزيد من اللطف حيال والدي، ظهرت أعمال وحشية زادت إلى الأبد من نفوري من «القاعدة» ومن سيرورة حياة أبي.

احتفظنا، أنا وأشقائي، منذ صغرنا في الخرطوم، بجراء كلاب كحيوانات أليفة. وازداد عددها منذ اليوم الذي أهداني فيه الملا نور الله جروي الأول في أفغانستان: بوبي. وليس، في العالم الذي نعيش فيه، ما يسمح بالتحديد

المقصود لنسل الحيوانات الأليفة. بل إن عالمنا الإسلامي يعتبر «خصي» الكلاب وحشية، إذ يخسر الذكور لذّة المعاشرة، وتفقد الإناث متعة الأمومة. وتقضي طريقة المسلمين بترك الطبيعة كما شاءها الله. وهكذا، كثرت الجراء حول مجمّعنا.

سمعت، بعد وقت قصير على انتقالنا إلى قندهار، أن معسكرات التدريب التابعة لوالدي قد أصبحت متطوّرة، ويختبر فيها الرجال أسلحة كيميائية وبيولوجية قاتلة.

وشرعت في أحد الأيام، أعتني بكلبتي وجرائها، حينما جاء عدد من المقاتلين وطلبوا استعارة الجراء. لم تعجبني الفكرة، لكنني اعتقدت أنهم يبحثون عن البعض منها لأنفسهم. فسمحت لهم بأخذها، وقد باتت في عمر يسمح لها بالعيش بدون حاجة إلى حليب أمها.

وشاعت مثل تلك الطلبات، فأثارت فضولي لمعرفة إلى أين تذهب هذه الجراء كلّها. كنت قد أمضيت حينذاك سنوات كثيرة في أفغانستان، ولاحظت أن قلّة من الناس تعطف على الكلاب. فأغلب الأفغان يعتبرون الكلاب كالوباء، بالطريقة ذاتها التي يفكّر فيها الناس بالقوارض، فيطلقون النار على الجرو اللطيف بدلاً من الإسراع إلى إيوائه. وليس لعالمي ارتباط بالعاطفة والشفقة اللتين قيل لي إن الناس في الغرب يكنّونهما لحيواناتهم الأليفة.

وسرعان ما أفضى لي صديق بأن الجراء التي أحببناها أنا وإخوتي حباً جمّاً واعتنينا بها، يُضحّى بها في سبيل قضية الجهاد. استخدم جنود والدي الجراء «حيوانات اختبار» يطلقون عليها الغازات لمعرفة كم يستغرقها من الوقت لتنفق.

اهتزّ جسمي كلّه من هول الصدمة. انتحبت، ولم يمكن لأي شيء أن يحرّك عواطف والدي أو رجاله. قيل لي إنهم يحتاجون إلى «حيوانات اختبار»، وجراؤنا مثالية لهذه الغاية. لم تظهر على والدي أي مؤشرات اهتمام بأنني أعاني بما يكفي للتوسل من أجل حياة جرائي. واستمتع عدد من الجنود الجدد،

وكانوا شباناً وُلدوا بدون إحساس، في وصف كرب موت تلك الحيوانات الظريفة الصغيرة. أصرّوا على إخباري باختلاجات الرعب التي انتابتها، وهي تجلس مقيدة في قفص، وتعاني في خلال المحنة كلها. فالغاز ليس سريعاً بالدرجة التي يعتقدها الناس.

لم أسمح لنفسي بعد ذلك أبداً بالتعلّق بأي جراء حديثة الولادة، لأنني أدركت بمجرّد النظر إلى وجوهها الظريفة أنها ستموت، لكنها لا تعرف ذلك بعد. واستمرّت اختبارات الغاز تلك حتى وأنا أغادر أفغانستان.

بل إنني انصرفت أكثر عن والدي، وازددتُ نفوراً منه، بعدما عرفت محنة الجراء، وأدركت أن سبيله لا يقود إلا إلى الألم والخيبة والموت. وكانت صورة الكلاب التي تعاني مؤلمة جداً بالفعل، بحيث إنني دفعتها إلى أعمق أعماق ذهني. وأنا اليوم أروي هذه القصة للمرة الأولى في حياتي.

أخذت انفعالاتي تختلج كما لو أنها في مهب أعتى الرياح. وقررت أن فرصتي الوحيدة في السعادة هي أن أصبح مستقلاً، وإيجاد زوجة مناسبة أبدأ معها في بناء عائلتي الخاصة. أصبحت في آذار/مارس ١٩٩٨، في السابعة عشرة. وهذه محطّة فارقة لأنني لطالما اعتقدت أنه العمر الذي يجب عليّ أن أتزوج فيه. وربما علق هذا العمر في ذهني لأن والدي تزوّج وهو في السابعة عشرة، وكذلك فعل شقيقي عبد الله. وأراد كل من عبد الرحمن وسعد الزواج أيضاً.

سألنا ثلاثتنا أصدقاءنا عن مقاتلين لديهم بنات في سن مناسبة للزواج، لأن البلوغ يُعتبر من متطلبات الزواج، فلم نجد ضالتنا في المجمّع. وكانت رغبتي الكبرى هي في الزواج بإحدى نسيباتي في السعودية، لأنني عرفت أنني لن أعود أبداً إلى أفغانستان. لكن لن يسمح أي من أعمامي أو عماتي لبناتهم بالزواج بأحد أبناء أسامة بن لادن. وقد كان عبد الله محظوظاً جداً بالزواج قبل أن تتلطخ سمعة والدي إلى حد تشويه سمعة أبنائه.

قررت أنه علي السفر إلى السودان للعثور على العروس المناسبة، وقرر سعد

مرافقتي. لم يمنعنا أبي من السفر بما أن سعداً في التاسعة عشرة وأنا في السابعة عشرة. أما والدتنا العزيزة فليست من النوع الذي يمكن أن يمنع أي شيء، بل قالت، «أصلّي إلى الله، يا ولديَّ، ليحرسكما، ويحفظكما سالمين، ويهبكما السعادة التي تريدانها».

وضبت وسعداً، بعض الحاجيات، وسافرنا بالتاكسي إلى باكستان حيث استقلينا الطائرة إلى سورية عبر إيران. تذكّرت، ونحن نمر عبر إيران، اليوم الذي رافقت فيه والدي من الخرطوم إلى جلال أباد. ومع أن الرحلة حصلت قبل ذلك بسنتين، فإن هذه الفترة بدت لي مثل مئة سنة. فلحياة أفغانستان الموحشة أسلوبها في إطالة الزمن.

كان وجودنا في سورية ممتعاً، خصوصاً بعدما فاجأنا عائلة أمي بدخولنا بابها بدون استئذان. لم نبق إلا بضعة أيام، إلا أنها كانت كافية لأدرك أن جدتي تعاني كثيراً بسبب غياب أمي المُطوّل. فقد مرّ وقت طويل مذ كانت أمي في وضع يسمح لها بالاتصال بهم هاتفياً، أو بكتابة الرسائل، بحيث إن عائلة غانم لم تعرف شيئاً عن ابنة أمي الأخيرة رقيّة. تشوّقوا كثيراً إلى التفاصيل المتعلقة بأمي وأولادها، ولم يستطيعوا التوقف عن طرح الأسئلة. وانتابهم القلق في الأساس على صحة والدتي وسلامتها، بعدما سمعوا التفاصيل الكاملة عن الحياة في أفغانستان.

طرحوا أسئلة قليلة عن والدي ونشاطاته الراهنة. فمن الأفضل عدم الخوض في بعض مواضيع الحياة. وودعونا، بعد زيارة ممتعة جداً، وصعدنا على متن الطائرة المتوجهة إلى السودان.

ما إنا وصلتُ وسعداً، أخيراً إلى السودان، حتى شعرت بفورة من المودّة لهذه الأرض وشعبها. شعرت بنفسي كأنني «الابن الشاطر» والوفي العائد إلى دياره، لأنني لم أنسَ أبداً الأناس الودودين والفرح الذي عرفناه خلال مكوثنا هناك.

زوّدنا والدي ببضعة أسماء لمسؤولين حكوميين قد يوفّرون لنا بعض الحماية. وأمكنني الشعور بشغفهم بأولاد رجل عرفوه بوصفه صديقا كريماً. وأعربوا عن الأسف لاضطرار الحكومة إلى طرده، وزوّدونا بالإذن الرسمي بالتوجه إلى أي مكان في البلاد، وهو أمر غير مألوف في تلك الأيام.

سرعان ما افترقنا أنا وسعد. فقد وجد، مثلي، عائلة يقيم عندها. وهذا أفضل لأن ثرثرة سعد التي لا تنتهي، تثير الأعصاب سريعاً. بحثنا، كل من جانبه، عن عروس تناسبه، واعتمدنا على أصدقاء قدامى ليسألوا عن شابات جذابات من عائلات محترمة يمكن لأهاليهن أن يوافقوا على زواج بناتهم بأبناء بن لادن.

منذ وطأت قدماي مرة جديدة السودان، تذكرت الأحصنة التي تركناها مرغمين هنا عندما غادرناها إلى بلاد الأفغان. لذلك، قبل البحث الجدي عن عروس، نشدت الجياد التي خلفناها وراءنا. وغالباً ما فكّرت فيها، وصلّيت ليشتريها شخص لطيف يعاملها معاملة جيدة. ودفعني شوقي إلى معرفة شيء عنها، إلى القيام برحلة سريعة إلى اسطبلات والدي حيث تركناها.

دخلت في كابوس. قيل لي إن جميع الأحصنة، ما عدا اثنين منها، إما ماتت جوعاً، وإما نفقت جراء إصابتها بمرض لم تُعالَج منه.

وبقي أدهم ولزّاز حيّين، وهما الأقوى. لكن أدهم المسكين مريض على حافة الموت، وقد هزل كثيراً إلى درجة أن قوائمه التي كانت قوية في ما مضى، لم تعد تستطيع حمل جسمه. ولم يتطلب الأمر خبيراً في الخيل لمعرفة أن أدهم لن يستمر أسبوعاً حيّاً.

أما لزاز، الحصان الأكثر اعتزازاً بنفسه من بين الأحصنة الذين عرفتهم، فأصبح على درجة كبيرة من الهزال، حتى أن عظامه أخذت تمزّق لحمه محاولة اختراقه. فهذا الحصان صاحب المزاج الفخور جداً، والذي كاد يهزم والدي المتسلّط، يبدو مرتبكاً الآن، غير متأكّد من هو أو أين هو. وقد غبت عن ذاكرته.

غمرني الأسى، وحاولت إنقاذ حياة لزّاز، لكنني فشلت. وهذا الموضوع مؤلم جداً، حتى أنه لا يمكنني استعادة تلك الذكريات. وأصبح قلبي، بعد هذا الاكتشاف المريع، على درجة كبيرة من الحزن دمّرت معها متعة السفرة.

عثرت على البعض من قدامى رفاق مدرستي، وسرحنا في ذكريات الأوقات الطيبة التي تمتعنا بها معاً. لم يعرف كثير من هؤلاء الصبية ما حلّ بأبناء بن لادن، سوى أنهم كانوا يوماً في المدرسة وغابوا في اليوم التالي. لم يسمعوا بالهجوم الذي استهدف اغتيال أسامة بن لادن، وهو السبب الذي دفع بوالدي إلى إخراجنا من المدرسة. واعترف قلّة منهم بأنهم علموا لاحقاً بأننا غادرنا السودان كلّياً. افترض معظمهم أننا عدنا إلى السعودية، إلى تلك الحياة الرغيدة، وقد فوجئوا لسماعهم أننا قصدنا أفغانستان. نظر عدد من الصبية إليّ بحزن، وهم على درجة كافية من الفطنة ليعرفوا أن حياتنا كعائلة بن لادن ليست كما يجب أن تكون.

قمت بعد ذلك بزيارة المؤسسات التي أسسها والدي، والأراضي التي اشتراها كلها، بإرث بن لادن. وسبق للكثير منها أن حمل اسم عائلتنا، بما فيها معمل كبير لمعالجة الجلود، أخذ والدي أبناءه إليه مرات عدّة وهو يشير بفخر إلى أنه يشكّل أنجح مغامرات الأعمال التي قام بها.

وصلتُ لأجد معمل الجلود مقفلاً، وقد أُعطي المبنى لمعهد مجاور استخدمه مسكناً للأساتذة. أصابتني الفكرة بالغضب لأن المعمل يخص عائلة بن لادن، وليس لأحد الحق في تقديمه هدية إلى الآخرين.

صرفتُ الكثير من الوقت في ذلك المعمل، أجول من حوله وأنا أتقلّب غضباً، إلى أن أدركت فجأة أن السماء أخذت تظلم. عرفت أنه يجب عليّ العودة إلى الخرطوم قبل أن يجعل الليل السفرة غير آمنة، فقررت السباحة في النيل بدلاً من أخذ الطريق الطويلة للوصول إلى أحد الجسور.

لم يكن مثل هذا القرار على القدر الذي يبدو عليه من الحماقة، لأنني

سبحت وأشقائي عرض النيل مرات كثيرة، ولا سبب للشعور بالتشاؤم. غابت الشمس عن السماء، لكن القمر المكتمل أضاء الليل، وانعكس ضوؤه على أمواج النهر. ويمكنني، إذا صدقت حساباتي، أن أسبح إلى المدينة في غضون عشر إلى خمس عشرة دقيقة، بينما سيستغرقني السير ساعات عدة لأن الجسر الأقرب بعيد جداً عن طريقي.

جلست عند حافة النهر وخلعت فردتي حذائي، وحشرتهما بين خصر سروالي وجسمي، ثم خضت في المياه الباردة والمظلمة. أمكنني رؤية أشجار النخيل تتمايل عند الضفة الأخرى، في مشهد ذكّرني بأنني لن أسبح إلا مسافة قصيرة.

وخلال دقيقة أخذت أواجه المتاعب. شرع التيار القوي في شكل خادع في سحبي بعيداً عن الضفة وهو يدفع بجسمي مع النهر. وبدلاً من العوم للحفاظ على طاقتي، واصلت مقاومة التيار معتقداً أنني لو بذلت جهداً أكبر وحسب فسأبلغ الضفة. أصابتني جهودي العبثية بالإنهاك، وسرعان ما استبدّ بي التعب إلى درجة أن كل عضلة من عضلات جسمي اهتزّت ألماً.

مرّت ساعات وأنا تغمرني الماء حيناً، وأطوف حيناً آخر في النيل، وأفكاري تنجرف على نحو غير متماسك. لعنت نفسي. كان عليّ أن أحضر سعداً معي إلى المعمل، لكني لم أخبره بوجهتي. لم يعرف أحد، في الواقع، مكاني، ولا حتى العائلة الفاضلة التي قدّمت إلي المسكن. ولا يملك أحد أي دلالة على أنني أتخبّط في النيل. والأكثر ترجيحاً أن تمساحاً ما سيلتهمني، فأختفي بدون أن تعرف عائلتي شيئاً عن مصيري.

صلّيت إلى الله ليرسل إليّ خشبة واحدة عائمة، أو أي شيء أتمسّك به إلى أن أتمكّن من بلوغ الشاطئ. واستجاب الله صلاتي، لمحت في تلك اللحظة شيئاً يطفو إلى جانبي. ولما اندفعت إلى الأمام للإمساك به، لمست رجلاي القاع. فأنا في موقع يجري فيه النهر ضحلاً. وكنت أتخبّط حيث أمكنني الوقوف والسير خارجاً من الماء.

غلبني شعور بالحماقة، وسرت بصعوبة إلى الضفة الرملية وأنا شاكر لكوني لا أزال حيّاً، ولا أعرف أين أنا بعد، لأنني انجرفت لمسافة طويلة جداً. وعلي أن انتظر الشمس لأجد طريق عودتي إلى الخرطوم. كان هواء الليل قارساً. وبحثت عند أطراف النيل فعثرت على قضيب كبير، وتفحّصت الرمل إلى أن وجدت مكاناً مناسباً، ليس ليّناً كثيراً ولا قاسياً، فغرزته في التراب إلى أن انغرس بثبات. وخلعت عندها ثيابي الرطبة وعلقتها عليه. أما فردتا الحذاء فقد ضاعتا.

لم أشعر أبداً بمثل هذا البرد، ولا حتى في ثلوج تورا بورا المرتفعة. وتذكّرت قول والدي إنه يجب، في مثل هذه الحيرة، الذهاب إلى تحت، إلى داخل الأرض. جرفت الرمل بيدي إلى أن حفرت حفرة كبيرة بما يكفي لجسمي. زحفت إلى داخل الفوهة مستخدماً يدي لإهالة الرمل المحفور فوق جسمي. وخلال دقائق، شعرت بالرمل الثقيل وقد ولّد الحرارة، واستغرقت في نوم عميق بعدما أنهكتني مشارفتي على الغرق.

استيقظت على وقع أصوات قبل أن تظهر الشمس في السماء. ارتعت، وتطلّعت فرأيت مجموعة من الرجال الغاضبين يمطرونني بأسئلتهم: «من أنت؟ من أين جئت؟ لماذا أنت هنا؟». أخبرتهم قصتي التي بدا أنهم لم يصدّقوها. انتابني الخوف، لأنني مجرّد مراهق متمدّد وأنا عار في حفرة، وبدت على الرجال سيماء خشونة أوحت إليّ بالخطر.

ولسبب، لن أعرفه أبداً، صاح أحد الرجال الكبار: «إنه شبح! إنه شبح!». وجفل عدد منهم عند سماعهم إياه يصرخ وابتعدوا عني. وشهق واحد آخر. من الواضح أن الأشباح تخيفهم، لأنهم استداروا وهربوا على طول الضفة.

بقيت هنيهات بدون حراك، وأنا أفكر في ما حصل للتو. ولما أدركتُ أنه يمكن لعقلٍ أكثر هدوءاً أن يفكّر في ما هو أفضل من فكرة الشبح فيقنع رفاقه بالعودة لضربي وسلبي، زحفت خارجاً من حفرتي، وارتديت ثيابي، وبحثت عن مكان أفضل للاختباء. سرت بضعة أميال، وحفرت حفرة أخرى، وحاولت مرّة

أخرى الاستسلام لنومٍ أحتاج إليه. لكن القدر شاء أن تصل بُعيد ذلك مجموعة مختلفة من الرجال، وهم على القدر ذاته من ارتياب الآخرين. وطلبوا هم أيضاً معرفة من أنا، وماذا أفعل في منطقتهم.

وصرخت بصوت مرتفع، وقد تذكّرت ردّ فعل العصبة الأخرى لدى ذكر الشبح، وعرفت أن معظم سكان الريف متطيّرون: «أنا شبح! أنا شبح!».

جمّد أولئك الرجال في أرضهم، ثم هربت المجموعة كلها كالريح، وقد صدّقت كلامي. أحسست، من خلال مثل ردود الفعل هذه، بأنني في منطقة خطرة جداً، وخارجة على القانون، فقررت البحث عن قرية أجد فيها رجل دين.

ومن حسن حظّي أنني عثرت سريعاً على إحدى القرى، وفيها جامع قدّم إليّ إمامه الطعام ومكاناً للراحة. وقادني، بعد ذلك، إلى أفضل مكان أجد فيه طريق عودتي إلى الخرطوم. تدبّرت الركوب في صندوق شاحنة صغيرة، وعانيت خلال الرحلة شقاءً مطبقاً لأن الطريق الترابية كانت جافة جداً، إلى درجة أن الرمل الناعم تطاير على وجوهنا.

وببلوغي ضواحي الخرطوم، استقليت سيّارة أجرة إلى منزل العائلة التي أقيم عندها. كان مضيفي ينتظرني كالمسعور، وهو خائف على سلامتي. والمفاجئ أنه، عندما أخبرته قصتي، استعر غضباً، ووجّه إليّ اتهامات بأنني مسلم سيئ! ثم اتهمني بقضاء الليل مع امرأة. لم تقبل أذناه تصديق تجربتي المروّعة في السباحة في النيل، وقد شارفت على الغرق، وأمضيت الليل في حفرة، وتعرّض لي سكان محلّيون يخشون الأشباح، ووجدت ملجأً في جامع إحدى القرى. لم يصدّق أبداً الحقيقة التي يسمعها، وبقي غاضباً مني حتى اليوم الذي غادرت فيه الخرطوم.

أصابني ردّ فعله بالقنوط.

استقريت، بعد مثل هذه الاختبارات غير السعيدة، وحاولت إيجاد عروس.

إلا أنني جوبهت بالرفض أنّى توجهت. وربما، وهو ما لن أعرفه أبداً، أن مضيفي قد حذّر أصدقاءه بأنني ميّال إلى التهتّك. ولم يرد أحد أن يزوجني بابنته.

وتخيّلوا دهشتي لمّا علمت بأن سعداً حقق المستحيل. فباستحواذ مقصد واحد على ذهنه، تماماً كما عندما يفتش عن الطعام، أو يصف وجبة لذيذة، ركّز شقيقي ووجد لنفسه زوجة جميلة. ولمعرفتي بسعد، فإنه ربّما أنهك الجميع إلى أن أدركوا أن الطريقة الوحيدة لإسكاته هي في العثور له على زوجة. وكانت الفتاة في السادسة عشرة، كبيرة كفاية للزواج بموافقة من أهلها.

ازدهى سعد بأنه بأنه انتهى من إعداد زواجه. ولم يشكّل الزواج مسألة كبرى، لكنه كان بالتأكيد مُفرِحاً لأن العريس بلغ درجة كبرى من الاستثارة. وقد عقد الحفل في منزل الفتاة، جلست فيه النساء في الداخل والرجال في الخارج. وتم بعد ذلك تحضير أوراقها، وأُجريت الاستعدادات لها لترافق زوجها في رحلة العودة إلى أفغانستان.

عدت بدون زوجة إلى حضن أمي وأخوتي في أفغانستان. صحيح أن عائلتي كانت أكثر اهتماماً بسعد وزوجته الجديدة، إلا أنه تم أيضاً الترحيب بعودتي بفرح عظيم. بدا أن الجميع افتقدني، وهو ما لم أتوقعه. وبرغم ذلك، أحببت كثيراً كوني خارج أفغانستان، بحيث بدأت أفكّر في مبررات للقيام بسفرة أخرى في أسرع وقت ممكن.

أصبحت، مع مرور الوقت، أقرب إلى بعض قدامى حرب والدي ضد الروس من قربي إلى أشقائي. وبدا صديقي العزيز صقر سعيداً بنوع خاص لرؤيتي بعد عودتي من الخرطوم، حتى أنه وافق على قيامي بتمارين على القيادة، وهو أمر لا يصح لي القيام به في كل يوم. صعدت إلى مقعد السائق وجلس صقر إلى جانبي واشار علي بالحذر. ففي المرة الأخيرة التي قاد بها الآلية، أدت الطرق السيئة إلى الإضرار بجهاز توجيه الحركة. تمتّع صقر بالكثير من الصبر، وقام بكل الأمور التي يقوم بها معظم الآباء لأبنائهم. فراح

بوجّهني، سامحاً لي بالقيادة على طول الطريق إلى قندهار، ويعلّمني أساليب الحذق في المناورة على الطرق ذات الخط الواحد، متنبهاً إلى جميع العربات التي تجرها الحمير والخيل. وكانت مشاهد قندهار في أوجه كثيرة منها ساحرة، مع أن كلاً منا يعلم بأن الحرب والفقر المدقع أنزلا الشعب الأفغاني إلى ما دون مستوى الحياة.

إلا أن مثل هذه المناسبات الخالية من الهم أوشكت على الانتهاء، لأن حدثاً يلوح في الأفق سيأخذنا خطوة إضافية إلى الجحيم الأرضي.



الفصل الثالث والعشرون

رعب حقيقي

عمر بن لادن

ذكّرني المجمّع في قندهار، خلال صيف ١٩٩٨، بخليّة نحل مضطربة. كان القادة يأتون ويذهبون بدون أي تفسير. ومهما يكن ما يفعلونه، فإنه استثار المقاتلين الذين شرعوا في اختبار أسلحتهم، ومراقبة الطرق، والتحديق في السماء، بالمقدار ذاته من التركيز. تفحّصتُ السماء أيضاً بحثاً عمّا لا أعرف ماهيته. شعرت بتواطؤ كبير، لكن أحداً لم يشأ أن يقول لي شيئاً. قاربت والدي بحذر، سائلاً إذا كان ثمة أمر كبير قريب.

أجابني: «ليس من شأنك أن تعرف يا بني. إنها مسائل العائلة». وكان يرمز بهذا إلى مسائل «القاعدة»، وهو جوابه الشائك المعتاد ما إن يُكثر أبناؤه السؤال.

احتُفظ جيّداً بالسرّ، فلم يدر حتى صديقي صقر بالطبيعة الدقيقة للأمور، برغم أنه اتفق معي على أن والدي وقادته شائكون مثل النيص.

مرّ الوقت ببطء حتى السابع من آب/أغسطس ١٩٩٨، عندما اكتشف من كان منا خارج الحلقة، السبب وراء النشاط الناهض. أفقتُ كالعادة باكراً، وذهبت إلى الجامع لأداء صلواتي، ثم سرت إلى مكتب والدي في داخل مجمّع قندهار.

لم يتحدّث والدي، بل أخذ يستمع باهتمام إلى الأخبار العالمية عبر الراديو.

وأعلن بُعَيْدَ ذلك، «على جميع الرجال الذين هم في سن القتال الاستعداد لمغادرة قندهار». أسرعنا لتنفيذ أمره، واكتشفنا أننا ذاهبون إلى معسكر تدريب مجاور لانتظار بعض الأخبار المهمة.

لم يبعد المعسكر سوى ساعة عنّا، وما إن أصبحنا هناك حتى شغّل جميع القادة مذاييعهم، وركزوها على الأخبار. حذوت حذوهم وأنا متشوّق إلى معرفة ما الذي ينتظره والدي. وفي حوالى الثانية عشرة والنصف بعد الظهر بتوقيت أفغانستان، والعاشرة والنصف قبل الظهر بالتوقيت المحلي لأفريقيا، أفادت الأخبار عن تزامن انفجار سيارتين مفخختين في سفارتي الولايات المتحدة في دار السلام، عاصمة تانزانيا، ونيروني، العاصمة الكينية. ووقعت، بحسب التقارير، خسائر كبيرة جداً في الأرواح.

انقطع نَفَسي. تفرّستُ في وجه أبي، فلم يسبق لي في حياتي كلها أن رأيته على هذا القدر من الإثارة والسعادة. وسرعان ما انتشر شعوره بالغبطة إلى قادته وفي أوساط الجنود، وجميعهم يضحكون ويهنئون بعضهم بعضاً. وسمعت بُعَيْدَ ذلك من يصرخ بأنه تم توجيه ضربة ناجحة إلى العدو: أميركا!

بعد لحظات قليلة من الصدمة، أعربت أيضاً عن سعادتي، وأنا أعكس صورة ردود الفعل التي أراها، خصوصاً أنني تعلّمت من صغري أن الأميركيين مصمّمون على قتلي لأنني مسلم.

كثرت التقارير الصحافية والإعلامية التي تتحدث عن الدمار الرهيب والخسائر في الأرواح. وكلما ورد خبر عاجل شرع المقاتلون يحتفلون بإطلاق نيران أسلحتهم في الهواء. وسمعتُ بعضهم يتبجّح كيف تم تجهيز المتفجرات في منزل واحد من خبراء التفجير، ثم تخبئتها في الحدائق التي يلعب فيها أولاد «القاعدة».

وادعى أحد المقاتلين الفخورين: «كانت آثار أقدام أولادي ظاهرة في الرمل الذي يغطّي صناديق الديناميت و«التي.أن.تي.»، وكانت متفجرات أخرى مخبّأة تحت جهاز رياضة التسلّق في الدغل. كان صغاري يلعبون بسعادة، وأنا كنت مرتاحاً أيضاً لأنني أعرف أن الله سيحفظ أطفالنا من أي مكروه».

لقد خاطر هؤلاء الرجال بحياة أطفال صغار لتخبئة متفجراتهم. ولم يعد يصدمني كثيراً أي شيء بعد ذلك.

لا أستطيع أن أتذكّر بالتحديد كم بقينا في معسكر التدريب على مقربة من قندهار، لكننا مكثنا كفاية لنسمع أن ٢١٣ شخصاً قُتلوا في نيروبي، ودزينة على الأقل في دار السلام. استمعتُ بانتباه، وعلمتُ أن معظم الجرحى والقتلى هم من المدنيين الأفارقة الذين صدف مرورهم بالمكان عندما انفجرت القنبلتان. وأتساءل، عندما أستعيد تلك الأحداث المؤلمة، لماذا لم يكترث بعض الرجال ممن هلّلوا للعملية، لإزهاق حياة جميع المسلمين الذين قُتلوا في أفريقيا.

لم يأسف والدي لهذا العمل، ولا حتى للقتلى من المسلمين. ولو أن أياً من مقاتليه أثار، في الماضي، مثل هذه المخاوف، لأجاب، «نحن في حرب. وعلى المدنيين أن يُقتلوا أوّلاً إذا جعل منهم العدو جداراً أمام المكاتب الحكومية أو العسكرية. وإلا فكيف يمكنك الوصول إلى العدو؟ ثم إن مدنييهم سيصبحون في أمان إذا تركتنا حكوماتهم وشأنها».

وتصبح، والحالة هذه، أي مُنشأة ترفع العلم الأميركي هدفاً محتملاً. ولا همّ إذا قُتل مسلمون. ثم إن والدي يعتقد أن الله هو الذي يقرر كل الأمور، ولو أنه لم يحن بعد وقت وفاة هؤلاء الأفارقة المسلمين، لما وُجدوا في المكان لدى انفجار القنبلتين.

شرع والدي خلال أيام قليلة يستمع إلى تقارير إخبارية بأن الرئيس كلينتون قد يردّ. وتلقى بعض الاتصالات السرّية عبر جهازه اللاسلكي، ثم اجتمع مع كبار قادته قبل الإعلان أننا ستتوجه شمالاً، إلى منطقة قريبة من كابول.

انتابني القلق في شأن النساء اللواتي يُتركن وحدهن هن والأطفال في مجمّع قندهار، لكن والدي قال: «كلا. سيكونون في أمان. فكلينتون لن يقصف أبداً مكاناً فيه نساء وأطفال».

لم أرتح كثيراً إلى ترك أمي وأخوتي الصغار بدون حماية، لكن لم تكن في يدي حيلة. غادرنا المنطقة، وقد سارت بنا السيارات لساعات طويلة شمالاً

ونحن نمرّ في منطقة لا تزال تعيش مخاض الحرب الأهلية. وبعد وصولنا إلى مقربة من خوست ومعسكر الفاروق للتدريب، واجهتنا معركة في الشارع بين الطالبان وعناصر من قبيلة الهزارة الشيعية. وأدى الشجار إلى إقفال الطريق، فأوقف والدي القافلة ليستفسر عمّا يجري.

تعرّف قائد الطالبان إلى والدي، فوقف متأهّباً، وأجاب بأن أحد رجال الهزارة قام بحركة قبيحة، استفزت رجاله بعدما رفع إصبعه الوسطى في وجه مجموعة الطالبان، وهذه إهانة كبيرة. أوقف الطالبان الرجل وضربوه بعصي غليظة وبأعقاب البنادق، ثم رموا به في شاحنة مكشوفة. وعرفتُ أنهم يأخذون الرجل بعيداً لإعدامه. فالطالبان خبراء في إعدام المدنيين. ثم إن أمراً مثل الإعدام أو الموت الشنيع، أصبح شائعاً جداً في أفغانستان إلى درجة يبدو معها أن ذلك لم يعد يثير اهتمام أحده سوى القلّة. انتظرنا بعض الوقت ليُخلي قائد الطالبان المنطقة، ثم تابعنا طريقنا إلى معسكر الفاروق، وهو واحد من أكثر مخيمات التدريب التي أنشأها والدي شهرة.

بدت رحلتنا أشبه بجولة انتصار. وما إن وصلنا حتى شرع رجال الفاروق في الاحتفال بحرارة، وقد انتشوا سروراً بالفعل لخبر التفجيرين في أفريقيا. وبات الانتقام من أميركا على كل شفة ولسان. فسنوات الاستماع إلى المحاضرات ومشاهدة الفيديو حول الأعمال الوحشية الأميركية ضد المسلمين، أثارت كلّها هذا القدر من الحقد إلى حد أن موت أميركي واحد يشكّل سبباً للتهليل. وهذا هو سبب انضمام الرجال إلى «القاعدة» في المقام الأول، وسبب عدم شكواهم من أنهر التدريب الطوال ولياليه، وسبب استعدادهم للمخاطرة بحياتهم.

تلقّى والدي، بعد بضعة أيام في الفاروق، اتصالاً فائق السرّية، ثم أعلن، «علينا، سريعاً، أن نغيّر موقعنا». وقال «سنذهب إلى كابول، إلى بيت الضيافة هناك». وسبق لوالدي أن استأجر عدداً من بيوت الضيافة في كل مدينة رئيسية، واستخدمها مساكن فاخرة لضيوف خاصين من السعودية أو دبي أو غيرهما من الدول الغنية بالنفط.

وهكذا، ودّعنا في ٢٠ آب/أغسطس ١٩٩٨ المقاتلين في الفاروق وتوجهنا إلى كابول.

كان بيت الضيافة كناية عن فيلا مستقلة بيضاء من ثلاثة طوابق تحيط بها حديقة جميلة خضراء مع الكثير من الأشجار. أملتُ أن نبقى هناك، لكن بعيد وصولنا جاء رئيس الأمن إلى والدي مسرعاً، وقال إنه تلقى النبأ الأكثر فظاعة عبر جهازه اللاسلكي المحمول. فقد قُصف معسكر الفاروق للتو، بعد ساعتين فقط على مغادرتنا له. فقد أمطرت صواريخ الكروز في هجوم كثيف على المعسكر، وقتلت أو جرحت كثيراً من الرجال الذين تركناهم منذ قليل وراءنا.

وسرعان ما اكتشف والدي أن الصواريخ أُطلقت من سفن حربية أميركية في البحر الأحمر. وقد هوجمت الخرطوم أيضاً، برغم أننا لم نستطع تخيّل السبب.

تركتُ أصدقاء طيبين عديدين في الفاروق، وصلّيت ليكونوا قد نجوا من الهجوم.

يتقبّل والدي في العادة الأخبار السيئة بهدوء وتمالك للنفس. لكنه، ما إن سمع خبر الأضرار والضحايا في الفاروق، حتى انتابه الغضب الأكثر عنفاً وجموحاً. احمرّ وجهه. وتطاير الشرر من عينيه، وأخذ يكرر قول الآية ذاتها من القرآن: «قاتلهم الله أنّى يؤفكون!» [المنافقون]، وضرب الهواء بصورة هوجاء بقبضتيه، وصاح، «قاتل الله المعتدين! كيف يمكن لأي كان مهاجمة مسلمين؟ كيف يمكن لأيٍّ كان مهاجمة مسلمين؟ كيف يمكن لأيٍّ كان مهاجمة مسلمين؟».

اتفقت معه في ذلك الوقت، إلا أنني تذكّرت، في وقت لاحق من الحياة، المرات الكثيرة التي أعلن فيها أن الأميركيين في مهمة لقتل المسلمين، وهو ما جعلني أفكّر مليّاً في دهشته الصادقة لمقتل مسلمين. والغريب في الأمر أن أي واحد من بيننا لم يأخذ في الاعتبار أن والدي هو من سبب قصف معسكره بقيامه أولاً بتفجير السفارتين الأميركيتين: العين بالعين.

وسرعان ما عرفنا بحصول غارات على معسكرات تدريب كثيرة في أنحاء

أفغانستان. شعرت وكأن المرض انتاب جسمي إلى أن علمت بأن مجمّع قندهار أفلت من الهجوم. ومما سمعته على الأقل، أن أمي وخالتيّ والأخوة الصغار في أمان.

ما إن هدّأ والدي من روعه، حتى شكر الله على فشل الأميركيين في قتله. ومن المؤكد أنه كان خسر المزيد من الرجال لو أن الأميركيين أطلقوا صواريخهم قبل ذلك بساعتين فقط.

انتقل ذهن والدي من فكرة إلى أخرى، إلى أن قرر أخيراً أن بيت الضيافة لم يعد آمناً. وسنختفي عن وجه الأرض بالطريقة التي يختفي فيها أرباب المافيا الأميركيون عن النظر إبان حروبهم على مناطق السيطرة. وفي وسعكم القول إن والدي، وكبار قادته، وأبناءه «انتقلوا إلى النوم على الفُرُش»، عندما انطلقنا مسرعين من بيت الضيافة في كابول إلى منزل آمن في المدينة ذاتها.

لم يعرف، حتى أولاده، بمواقع المنازل الآمنة التي يحتفظ بها والدي في كل مدن أفغانستان الرئيسة، إلا أنه تم نقلنا سريعاً إلى منزل مجاور. كان عاديّاً أكثر من الفيلا، لكنه أكثر أمناً لأنه يقع في وسط منطقة سكنية كبيرة. وتوارينا في وسط الأبرياء، لأن والدي لاحظ في الغالب أن الأميركيين يتجنّبون قتل المدنيين.

اختبأنا هناك لما يزيد على الثلاثين يوماً، وبقينا جميعنا بعيدين عن الأنظار، حتى عن أنظار جيراننا الذين لم تكن لديهم فكرة بأن كبار قادة «القاعدة» موجودون على مقربة خطيرة. والحرّية الوحيدة التي سمح بها والدي لأبنائه، هي في إلقاء نظرة من وقت إلى آخر من خلال نوافذ الواجهة. كنّا، أنا وأشقائي، لا نفتح الستائر أكثر من فتحة بسيطة جداً لنتمعّن في المنازل القريبة ونراقب المارة الأفغان. وأخذ والدي وكبار رجاله يتلقون الأخبار عمّن قتل من الرجال ويحصون الضرر اللاحق بالتنظيم، ويبقى لديهم برغم ذلك وقتٌ للتمتع بازدياد عدد قتلى تفجيري السفارتين الأميركيتين.

تفجّعنا حتى تورّمت عيوننا على موتانا، وتجاهلنا، بدون مبرر القتلى الأفريقيين، واحتفينا حتى انتشينا بالموتى الأميركيين. وكنت أصغر بكثير من استيعاب الجنون المطبق لمثل هذا التفكير.

مرّ ذلك الشهر الموحش ببطء شديد. وتشوّقنا جميعنا إلى العودة إلى الفاروق وغيره من المعسكرات التي قُصفت، للبحث عن أصدقائنا، والتفجّع على الموتى، ومن ثم العودة إلى قندهار لطمأنة أنفسنا إلى أن عائلاتنا في أمان بالفعل.

في ١٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨، أمرنا والدي أخيراً بمغادرة المنزل الآمن في كابول، والتوجه إلى خوست لتفقّد الأضرار بأنفسنا.

سكت ركّاب آليتنا بينما نحن نقترب. كان المعسكر يضج بالنشاط في المرة الأخيرة التي شاهدناه فيها. امتلأت الصفوف، ونام رجال في التحصينات، وصلّى آخرون في قاعة الصلاة. ووُجد عدد كبير من منشآت التدريب والتخزين.

لم يمكننا تصديق أعيننا. لم يعد يوجد في المكان الذي كان فيه المعسكر سابقاً، سوى الخراب. ومن المدهش وجود من نجا.

نزلنا من السيارات وتبعنا والدي وهو يعاين الأضرار. كنا قد سمعنا، حينها، أن الأميركيين أطلقوا أكثر من سبعين صاروخ كروز على البلاد.

بلغ الهجوم درجة كبيرة من العنف، حتى أن المقاتلين الأشداء لا يزالون يرتجفون بعد مرور شهر عليه. أبلغونا أنهم استمروا، بعد مغادرتنا، بالاحتفال. انهمك الجميع، مدرّبين ومتدربين، بالأحداث، وظلوا وهم في قمة الانفعال يناقشون زيارة الشيخ. ثم، بدون أي انذار، أصبح العالم غير العالم. اعتقدوا في البداية أن النجوم تتوثّب من أمكنتها في السماء، ملقية بأجسامها المتوقّدة على الأرض، وهي تسقط لمّاعة وبيضاء.

وشرح والدي أن «ما رأيتموه هو الحرارة المندفعة من الصواريخ».

فجأة، امتلأ الجو بالخطر، مع ومضات متوقّدة واصطدامات بلغت من القوة

حدّاً تفجّرت معه طبلات آذانهم. ولم يدركوا الخطر إلا بعد فوات الأوان. ولقي رجال منهم ميتة كالحة وهم يهرعون مسرعين في اتجاه، ثم في آخر. وقد هُرس أصدقاء لهم هرساً أمام أعينهم.

امّحت الحياة من الوجود في كل مكان أصابته الصواريخ. وقيل لي إن صديقي السعودي مات وقد تناثرت بقاياه على فوهة حفرة كبيرة. ولمّا سألتُ عن أبي محمّد، وهو صديق طيب عرّفني إليه أبو زهير، قيل لي إنه أصيب أيضاً إصابة مباشرة. وجيء بي إلى الحفرة التي تضمُّ بعضاً من رفات جثته، فتجمّع كل غضبي في كرة مظلمة في قلبي. لقد شوشتني جميع الرسائل التي سمعتها طوال حياتي، فلم أعد أسيطر على مشاعري، وصرت أسخط في لحظة على الأميركيين، وأغضب في اللحظة التالية من والدي. وقد ألقت دوامة العاصفة المعدنية بصديق آخر لي، وأخذت تقذفه من مكان إلى آخر لتتركه في النهاية وقد اخترقت جسمه قطع كبيرة من الشظايا. وصُدمت لمعرفتي أنه نجا، لكنه أصيب بجراح جسيمة.

تأذّت الحيوانات أيضاً. انتحب أبو زهير على بقرته السوداء والبيضاء وعجلها الصغير. وقد تقطّع كلاهما إلى أجزاء صغيرة. وأفاد شهود عيان أنهم رأوا البقرة تطير في الجو. وقد استحالت إلى لا شيء، حتى أنه لم يتم العثور على الجلد الذي يغطي جسمها، بينما عُثر في معسكر التدريب على الجزء الأعلى من جسم العجل، وقد تكوّر.

يمكن للحياة أن تصيب بالحيرة الكبيرة، إذ تحدّث كثير من المقاتلين الأشداء، لأيام كثيرة، عن حسرتهم على فقدان البقرة.

أُصبتُ باضطراب أكبر مع اكتشافي المزيد عن تفجيري السفارتين الأميركيتين. وتخيّلتُ أن حكومات الغرب تخطط لموت عائلتي، بينما يهيّئ والدي رجاله لهجمات جديدة. وأخذت، في كل مرة أنظر فيها إلى أمي وصغار الأولاد في عائلتي، أخشى أن يتبخّروا بفعل صاروخ قوي.

صعقت الخسائر والدي، لكنه استجمع انفعالاته، وعاين، من مكانة الزعيم التي هو عليها، الأضرار، وأنا متأكد من أنه يخطط للانتقام.

كنت مع والدي وعدد قليل من الرجال، عندما أخذ ذهني يتخبَّط لعدة أيام، بحثاً عما يوصله إلى اليقين في موضوعيْ القتل والموت. وقررت أنني سأثير موضوع القتل. لم أدخل، وقد نضجتُ، مباشرة في جدال أعلم بأنه سيُغضب والدي. وبدلاً من مناقشة العنف الراهن الذي يستولي على حياتنا، شرعت في الحديث بسؤاله أوّلاً: «كم من الرجال قتلتَ، يا والدي، في الحرب الروسية؟».

تجاهلني ولم يجبني.

ثابرتُ وقد صممت على عدم القبول بالصمت جواباً أبداً: «يا والدي، أريد حقّاً أن أعرف كم قتلت من الرجال في الحرب الروسية؟».

استمر والدي في عدم اكتراثه لي، إلى أن ردّدتُ السؤال في شكل صبياني، بطريقة سريعة تقارب الهزلية: «كم من الرجال قتلتَ في الحرب الروسية؟ كم من الرجال قتلت في الحرب الروسية؟ كم من الرجال قتلت في الحرب الروسية؟».

بدوت أشبه بالمجنون، لكنني كنت أحترق ببطء من الداخل، ولم أبالِ بالقصاص: «لا بد من أنك قتلت أحداً، يا أبي».

صُدم القادة والمقاتلون المحيطون بنا كثيراً، إلى درجة امتناعهم عن الكلام، إلا أنهم تطلّعوا إليّ مبهوتين كما لو أنني واحد من المجانين، أو شخص يجب تحاشيه. فلم يسبق لأحد أن تحدّث أبداً مع الشيخ بمثل هذه النبرة السفيهة. ولا يُسمح لأحد بذلك حتى لو كان واحداً من أبنائه.

استدار والدي صوبي أخيراً، وقد تملّكه الحنق، وقال بصوت جازم: «لقد فعلتُ. فأنا قائد! أصدرتُ أوامر بالقتل، وقتلتُ أناساً بنفسي! قتلتُ الكثيرين بحيث إنني لا أعرف الرقم النهائي. مات كثيرون بيدي هاتين، أو بأوامر منّي».

لم أفاجأ بسماعي جوابه. وأردت المزيد من التفاصيل، واستمررت أشبه باللعبة الملقّنة، وأنا غير قادر على وقف نفسي. «أبي، يا أبي، متى ستضع الحرب أوزارها؟ فأنت في حرب منذ ما قبل ولادتي! لماذا لا يمكنك العثور على طريقة أخرى؟ لمَ لا تستطيع الجلوس والكلام؟ لماذا لم يمكن حصول هدنة؟ فأنا أكره هذا القتال، ولا يمكن له أن يستمر!». وبلغت في جرأتي حداً، شرعت فيه في التشكّي والتأوّه. «أريد مغادرة هذه الأرض! أرغب في أن أعيش في العالم الحقيقي! أرجوك، ألا يمكنني الرحيل؟».

أخذ المحاربون الأشداء في الابتعاد ببطء، لا يعرفون ما العمل وهم يعتقدون أنني ربّما أُصبت بانهيار عصبي.

حافظ والدي على رباطة جأشه: «من واجبك يا بني البقاء إلى جانبي. أريد أبنائي معي! ولا أود مناقشة هذا الموضوع مرّة أخرى!».

تركني جالساً، إلا أنني أُصبت بحمّى الاستياء، وعرفت أنني لن أستسلم أبداً إلى أن أحصل على الإذن بالمغادرة. وأدرك اليوم، بعد سنوات على فعلتي تلك، وأنا أستعيدها بفصولها كلها، والأسئلة التي طرحتها، أنني كنت بالفعل على حافة الانهيار العصبي. أخذت أكمن، منتظراً والدي، في مناطق مختلفة من مجمّع قندهار. وكنت، إذا دخل مكتبه، أنتظره إلى أن يخرج، ثم أقفز من مخبئي، وأنا أتوسّله كمن يردّد الطلبات، «أريد مغادرة هذا المكان! عليّ أن أغادر هذا المكان!».

لم يرفع والدي صوته أبداً، بل اكتفى بتكرار ما اعتقدَ أنه الأفضل: «كلاّ. يجب أن تبقى. مَن غيرك سيأخذ مكاني، يا عمر؟ أنت ذراعي اليمنى. أحتاج إليك. ستكون الثاني من بعدي في القيادة».

«كلاّ! فأنا لست قائداً يا والدي. أريد العيش في عالم مسالم. أود أن أتعلّم. لا أرغب في أن أقاتل. أريد أن أكون حرّاً». وتذكّرت بقايا أشلاء أصدقائي التي بلغت من الصغر حدّاً لم يمكن معه دفنهم، فقلت: «لا أريد أن أقتل!».

سرت بعد ذلك ببضعة أيام وراء والدي، وأنا أشعر كما لو أنني سأنفجر بالتأكيد كما مزّق صاروخ الكروز جسم أبي محمّد، وشرعت في التحدّث مع نفسي، لكن بصوت على درجة كافية من الارتفاع ليتمكّن من سماع كل كلمة.

«أتساءل متى سيوقف أبي هذا القتال؟ يا والدي! متى ستكفّ عن هذه الحرب؟».

فاض غيظ والدي في النهاية، فاستدار صوبي غاضباً، ينظر إليّ شزراً. «كيف يمكنك، يا عمر، الاستمرار في طرح هذا السؤال عليّ؟ وهل يُسأل مسلم متى سيكفّ عن الصلاة إلى ربّه؟ سأقاتل حتى يوم مماتي! سأقاتل إلى أن ألفظ أنفاسي الأخيرة! لن أوقف أبداً قتالي من أجل العدالة! لن أوقف أبداً هذا الجهاد!». واستدار وابتعد بأسرع ما يمكنه، متحدّثاً بصوت أعلى مما سبق لي أن سمعته، «هذا الموضوع بات مُقفلاً الآن!».

لقد دفعت بوالدي إلى أقصى الحدود. وهو لن يدير ظهره أبداً للجهاد، ولو أدّت أفعاله إلى مقتل جميع من أحبَّهم، بمن فيهم زوجاته وأولاده كلهم. وسيتطلّب تخليص نفسي من حياة الجهاد هذه جرأة وتخطيطاً دقيقاً.

تسببت لوالدي بالكثير من الحزن والعار بسبب سلوكي المعاند، وأدى بي إلى الشعور بالذنب لما أصيب إصابة بالغة في حادث سباق. ففي أحد الأيام، بعد فترة قصيرة من جدالنا الحاد، ركبنا، أنا وأشقائي مع بضعة من رجال أبي، بمن فيهم صقر، جيادنا في جولة في داخل مجمّع قندهار. ورآنا والدي الذي أخذ حصان شقيقي عثمان الرمادي واسمه سيكوب. وأخذنا، بعدما انضم إلينا، في التسابق في منطقة يبلغ طولها نحو نصف ميل. وغافلته عينُه التي لا يرى فيها وجعلته يغفل عن حفرة عمقها حوالى المتر محاذية للسور المحيط بالمجمع، وهي تُستخدم للتخلّص من النفايات. وانطلق والدي بسيكوب بسرعة هائلة بهدف اللحاق بنا، واصلاً مباشرة إلى تلك الحفرة، ومرتمياً عن الحصان ورأسه إلى الأمام.

صاح أحد أصدقاء والدي المقرّبين محذّراً، «سقط أبو عبد الله!». وتنادي

قلة من أقرب الأصدقاء المقربين والدي بأبي عبد الله، تيمّناً بابنه البكر عبد الله.

استجاب الجميع بسرعة، وعَدَونا بجيادنا عائدين إليه بأقصى سرعة ونزلنا عنها سريعاً. تجاوزتُ الجميع، ووصلت إلى جانبه أولاً، ورفعت رأسه وأنا خائف من أنه قد كسر عنقه. لم يتكلّم والدي. عرفت من شحوب وجهه وتقطيبه، أنه يعاني ألماً شديداً. وهو، الآن، كعادته، يرفض الاعتراف بالشعور بأي انزعاج. ركض صقر عائداً إلى حصانه، وهو يصيح «سآتي بشاحنة»، ثم اختفى في لمح البصر.

أخذ والدي يكافح للوقوف، رافضاً السماح لأي كان برفعه أو مساندته. وقف بهدوء، رافضاً الإجابة عن أسئلتنا، إلى أن هرع صقر عائداً في شاحنة حمراء، وقال «سيلاقينا الدكتور الظواهري في منزل أم حمزة»، وهو يعني منزل خالتي خيرية، وهو الأقرب إلينا.

استمر والدي في رفض أي مساعدة، وأدخل نفسه إلى الشاحنة، بينما شغّل صقر المحرّك بأقصى طاقته، منطلقاً في اللحظة التي جلس فيها والدي مكانه. ولم نُضع نحن الفرسان أي ثانية، فامتطينا أحصنتنا ودفعناها إلى العَدْو بأقصى سرعتها، وفكّر أحدهم في الإمساك بلجام حصان عثمان، سيكوب، الذي نجا بدون أن يصاب بأذى.

وصلنا، في حين كان والدنا يسير إلى منزل الخالة خيرية. وحثّنا الدكتور الظواهري بإلحاح، على إيصال والدي إلى أقرب سرير. وما إن أصبح أبي في عهدة الدكتور الظواهري، حتى لم يعد في وسعنا القيام بشيء سوى الوقوف من حوله وقد اعترتنا الصدمة.

أفاد الظواهري أخيراً أن والدي، برأيه الطبي، نجا من إصابات كادت تودي بحياته، لكنه لاحظ «وجود ألم حاد في منطقة أضلاع القفص الصدري»، وأوصى بالتصوير الشعاعي وبمزيد من التحقّق. وتقرّر قيام واحد من أكثر

السائقين معرفة بباكستان، باجتياز الحدود والعثور على أفضل طبيب والعودة به مع تجهيزاته الطبية، ليتمكن والدي من تلقي العلاج بدون مغادرة قندهار.

جيء في اليوم التالي بجرّاح باكستاني مشهور للعناية بوالدي. وأُجريت الترتيبات التي اقترحها الدكتور الظواهري، فجلب معه أحدث التجهيزات الطبية. وسرعان ما أكدت الفحوصات تشخيص الظواهري أن والدي مصاب بكسور في الاضلاع. والعلاج الوحيد، الذي يعرفه الجميع، لشفاء الأضلاع المكسورة، هو الانتظار. ولزم والدي النافد الصبر، السرير شهراً تهتم والدتي وخالتاي بحاجاته، وهي المدة الأطول التي تقضيها أي من زوجات والدي معه منذ أول أيام زواجهن.

تفاعل والدي مع الحادثة بعدم تصديق، وهو الفارس الماهر منذ طفولته. وأذكر أنني جلست إلى جانبه وهو يتضاحك بسخرية. «تحاول أميركا منذ سنوات قتلي، يا بني، مستخدمة أكثر الأسلحة الدقيقة القاتلة المتوفّرة. ولم تستطع الولايات المتحدة الجبارة إيذائي، بينما كاد حصان صغير واحد يقتلني. الحياة غامضة جداً، يا بني، غامضة جداً».

وبدا، وهو يخرج من تعافيه، هزيلاً وساهماً. فالإصابات وانقطاعه عن العمل استنزفت طاقته التي كانت قوية في ما مضى. ومرّت أشهر كثيرة قبل أن يتعافى كلّياً.

ولم يشأ أي منا النظر من بُعد إلى وجه سيكوب، برغم أنه لم يصب بأذى. وقد قُدم هدية إلى أفغاني ما لا أعرفه شخصياً.

وُجدت جوانب معقدة كثيرة في حياة والدي، بما فيها صلته بزعيم الطالبان الملاّ عمر. فقد شكّلت أفغانستان مكاناً على درجة كبيرة من الخطورة، خاف والدي معها أن يلقى الملاّ عمر المصير ذاته الذي لقيه الملاّ نور الله، فيصبح والدي مرّة أخرى بدون سند قوي. فلم ينس أي أفغاني أبداً أن والدي عربي ولا ينتمي إلى أي قبيلة أفغانية. وهذا الواقع أضعف موقعه.

أبقى أبي أعداءه في حالة تخمين دائمة من خلال تحرّكه المستمر، وهو نادراً ما ينام في السرير ذاته لأكثر من ليلة واحدة، بينما الملاّ عمر رجل متوحّد نادراً ما يغادر منزله في قندهار. ويمكن لأي قاتل عاقد العزم العثور عليه بسهولة.

وغالباً ما ذكّرنا والدي، بعد محاولة اغتياله في الخرطوم، بأن ثمن الجهاد هو اليقظة الدائمة. وحاول في الواقع إقناع الملاّ عمر بأهمية استمرار كونه هدفاً متحرّكاً. لكن زعيم الطالبان لم يبالِ بنصيحة والدي. فالملاّ عمر يسلّم بالقدريّة، مؤمناً بأن ما يقرره الله حاصل لا محالة، فلا يخصص لحظة من الوقت للقلق من القتلة المحتملين.

وما كان إلا أن ظهر في أحد الأيام صهريج ماء كبير خارج منزل الملاّ عمر في قندهار. ووجود مثل هذه الشاحنة غير مألوف، لأن المياه تصل إلى منزل الملاّ عبر الأنابيب، ولم يتوجس أحد من ظهورها. وسرعان ما وقع انفجار ضخم، مزّق منزل الملاّ قاتلاً اثنتين من زوجاته الثلاث، واثنين من أشقائه، وعدداً كبيراً من فريقه. وتطايرت أشلاء أجسام كثيرة فوق منطقة واسعة، ولم يصب الملاّ عمر إلا بجروح طفيفة.

لم تغيّر محاولة الاغتيال هذه من وتيرة حياة الملا عمر، الذي احتفظ بعاداته القديمة برغم نجاته التي كانت ضريبتها باهظة بموت زوجتيه وشقيقيه. وأفاد أعضاء في فريقه، أنه استمر في النوم ليلاً كالطفل الهانئ، وهو يعلم في قرارة نفسه، بأن الموتى لم يسقطوا إلا بإرادة الله.

وبعد وقت قصير على تفجيري السفارتين الأميركيتين وهجوم كلينتون على معسكرات التدريب، شرعت الولايات المتحدة والسعودية ودول مختلفة أخرى في الضغط على الطالبان لطرد أبي من أفغانستان. فتذكّرتُ الصدمة النفسية لطردنا من السودان، واعتقدتُ أن التاريخ يعيد نفسه.

أراد الجميع فرصة لتوقيف أبي وإخضاعه لمحاكمة تُتوَّج بالإعدام. وأمكنني رؤية توتّر والدي لما بلغ مسمعه مثل هذا الكلام، فلم تبق سوى أمكنة قليلة

للجوء إليها. وهو غير متأكد أين سيحط به الرحال إذا طُرد من أفغانستان، برغم أن مناطق نائية من باكستان واليمن لا تزال تشكّل احتمالاً قائماً.

وبرغم أن الملاّ عمر ليس من نوع الرجال الذين يسمحون بالتدخّل الخارجي في شؤونه، فإن الهجوم الأميركي على أفغانستان استرعى انتباهه الكامل.

أخذت في أحد الأيام أتسكّع في مجمّع والدي في قندهار عندما جاءه خبر بأن الملاّ عمر سيأتي للزيارة في وقت لاحق من النهار. لم يبقَ لنا سوى ساعات قليلة للاستعداد، واهتم أبي بترك انطباع جيّد، فأمطر رجاله بالتعليمات للتحضير لوليمة وتجهيز واحدة من أجمل مناطق الحديقة وأوسعها مكاناً للاجتماع.

ارتدى والدي ثوبه السعودي الرسمي وانتظر. إنها مناسبة مهمة، لأنها المرة الأولى التي يغادر فيها الملاّ عمر منزله لزيارة والدي. التقطنا، أنا وأشقائي، توجّس رجال أمثال أبي حفص والظواهري، اللذين هما في العادة باردان وساكنان، فانتظرنا باضطراب مع والدنا.

سرعان ما أبلغنا مراقبو والدي أن قافلة من اثنتي عشرة سيارة لاند كروزر ذات زجاج معتم، تتوجه ناحيتنا. لم يتفوّه أحد بكلمة، بينما سيارات اللاند كروزر تندفع إلى المجمّع. ولمّا توقّفت القافلة، فتحت الأبواب وخرج منها جنود من الطالبان مدججون بالسلاح. وقد اشتهر الملاّ عمر بالتكتّم، ولم تؤخذ له إلا صور قليلة، ولم نملك بالتالي، لا أشقائي ولا أنا، فكرة عما يبدو عليه. لكنه ما إن خرج من الآلية حتى تعرّف إليه الجميع على الفور من خلال هالة القوة والمناعة التي تميّزه عن أتباعه.

وجدت نفسي أنظر إلى رجل أكثر طولاً ونحافة من والدي. وقد شكّل ذلك مفاجأة كبرى، لأنه لم يسبق لي أن التقيت أي شخص أطول من أبي.

ارتدى الملاّ عمر لباس الطالبان التقليدي، المؤلف من صدرة سوداء وقميص أبيض، وكان على درجة كبيرة من البياض واللمعان، بحيث عرفنا أنه

مصنوع من أجود أنواع القطن. وقد لف عمامة سوداء حول رأسه، لم يظهر من تحتها سوى جزء صغير لخصلة من الشعر الأسود. وتميّز بوجه رجولي مليح ذي بشرة زيتونية. وأضفى عليه حاجباه الكثيفان الأشعثان مظهراً رجولياً قوياً. وغطى شاربان كثان شفته العليا.

ويحمل الملا عمر آثار جروح في الوجه من قتاله مع الروس. وتوجد فجوة في محجر عينه اليمنى، إضافة إلى آثار جروح أخرى تشوّه خدّه الأيمن وجبهته. ويشكّل مثل هذه الجروح في بلد عنيف مثل أفغانستان، مفخرة للرجل.

بدا الملاّ عمر فتيّاً، برغم إصاباته الكثيرة. وجعلتني معرفتي بفقدانه عينه اليمنى، أفكّر في والدي وعينه اليمنى التي هي عملياً غير ذات فائدة، لكنها سليمة ولا تفيد إلا في الإبقاء على المظهر الجذّاب. وشعرت باليقين بأن الرجلين لم ينقاشا أبداً بلواهما المشتركة.

فوجئت لمّا سار والدي للترحيب بالملاّ عمر، بأن زعيم الطالبان ابتعد بجفاء بدون أن يعطي والدي الفرصة للترحيب به بالطريقة الإسلامية المعهودة، بقوله «السلام عليكم»، تتبعها المصافحة والقبلات التقليدية على الخدين والعناق. ومثل هذا الترحيب هو في عاداتنا دلالة على الاحترام الكبير.

قاد بعض من رجال أبي الملاّ عمر وحاشيته إلى الحديقة المجاورة لمنزل أمي، وهي أظرف حديقة في مجمّعنا في قندهار. وسار أبي وأتباعه وراءهم. ولم يكن هناك، طبعاً، أي وجود للنساء.

تبعنا، أنا وأشقائي، جمهرة الرجال. فنحن، لكوننا أبناء بن لادن، نمتلك الحق في ذلك. ولدهشة الجميع، طلب الملاّ عمر إيجاد كرسيّ على الطراز الغربي للجلوس. وعُثر في واحد من المنازل على كرسي من مخلفات الروس، جلس عليها الملاّ عمر، مشيراً إلى أنه سيتربع عالياً على ذلك الكرسي، وعلى كل واحد آخر الجلوس على الأرض، بمن فيهم والدي.

ولم يكتف بهذه الإهانة فقط، بل طلب وضع الكرسي في الطرف الآخر من

الحديقة، آمراً رجاله بالجلوس بينه وبين والدي. واستقرّ أبي بهدوء على سجادة عجمية فُرشت على الأرض، متربّعاً على الطريقة العربية.

فكّرت في نفسي في أن هذه ليست بالدلالة الجيدة. فالمشهد يخرج عن الواقع مع الملاّ عمر جاثماً عالياً على كرسيه، بينما والدي على مسافة كبيرة منه يجلس منخفضاً على الأرض. وهذا إذلال لا يمكن إغفاله. أراد الملاّ عمر إفهام والدي، أنه ليس شيئاً بالنسبة إليه. وأشارت أفعاله أيضاً إلى أنه ساخط عليه.

واستمرّت الإهانات عندما لم يتوجه الملاّ عمر إلى أبي بالكلام مباشرة، بل تحدّث عوضاً عن ذلك بالبشتو، لغة قبيلته البشتون، مستخدماً ترجمانه الخاص لنقل رسالته إلى العربية. ولم أفهم سبب هذه الطريقة التي ترافق مثل هذا الحديث المهم، خصوصاً أن والدي يتحدّث البشتو بطلاقة.

حافظ أبي على رباطة جأشه، ولم يتأثر سلباً بهذه الإهانات المتتالية، وجلس بهدوء واحترام وصبر، ينتظر ليسمع ما لدى الملاّ عمر ليقوله. وأرهقني الاستماع إلى الحديث المترجم، لأن الرجلين تحدّثا بصوت خفيض، بل إن صوت الملاّ عمر كان أهود من صوت والدي. وقد راعني التشابه بينهما أكثر فأكثر.

لم يُضِع الملاّ عمر الكلام ولا الوقت، بل دخل مباشرة في سبب خروجه من عزلته المعهودة. فزعيم الطالبان ممتعض من نشاطات والدي الكفاحية. والملاّ عمر مهتم بشؤون أفغانستان الداخلية وحسب، ولا رغبة لديه في استجلاب التدخّل من العالم الخارجي. وقد سبق وحصلت تبرّمات من منظمات حقوق الإنسان حول معاملة النساء في ظل الطالبان.

وختم الملا عمر بالقول: «الوضع السياسي محموم. ومن الأفضل لك ولرجالك مغادرة أفغانستان».

ظلّ والدي هادئاً، برغم معرفتي بأن آخر شيء يريده هو أن يُطرد من ملاذه الآمن. وأبطأ كثيراً في الرد وهو يختار كلماته بعناية، قبل أن يتحدّث في النهاية بهوادة:

«أمضيت، يا شيخ، منذ كنتُ شاباً، سنوات كثيرة من عمري في أفغانستان وأنا أقاتل من أجل شعبك. لم أنسَ أبداً، ولو مرّة، هذه البلاد، وقد عدت إليها لأبني فيها قرية، بل إنني نقلت إلى هنا نسائي وأولادي وأصدقائي المقرّبين. وها نحن الآن أصبحنا مجموعة كبيرة مؤلفة من مئات من الأشخاص. فكيف يمكنني نقل مثل هذه المجموعة الكبيرة من الناس بسهولة؟ وإلى أين أنقلهم؟».

وكرّر الملاّ عمر: «حان الوقت لك ولمقاتليك لتغادروا أفغانستان».

تمهّل والدي، وهو محترس، محترس، محترس، وطلب بلطف: «سمحت لي الحكومة السودانية بالإقامة هناك لخمس سنوات. فهل تعمل معي الجميل ذاته؟ هل تسمح لي بالبقاء في أفغانستان لسنة ونصف سنة أخرى؟».

بقي الملاّ عمر هادئاً لوقت طويل جداً، وأمارات التفكير تبدو على وجهه. ولمّا جاوب في النهاية، تحدّث لوقت طويل جداً. ولا يمكنني تذكّر كلماته بالضبط، لكنه فصّل بعناية الحجج المؤيدة وتلك المناهضة لاستمرار وجود والدي في أفغانستان.

وفي الوقت الذي بدأ حَدْسنا ينبئنا بأن كلمات الملاّ عمر التالية ستكون الطلب من والدي المغادرة، قام أبي بلطف كامل ينمّ عن حنكة سياسية، بالضرب على الوتر الإسلامي، قائلاً، «يا شيخ، إذا استسلمت لضغط حكومات الكفّار، فسيكون قرارك مناهضاً للإسلام».

اختلج الملاّ عمر، المعروف بتكرّسه التام للإسلام، اختلاجة خفيفة. فهو متردد في العمل ضد ما يوصي به الإسلام، فتمهّل.

وفي تلك اللحظة اختار الملاّ عمر دينه على كل شيء آخر، فوق مصلحة بلاده وحسن حال العالم. وهزّ برأسه:

«يا شيخ أسامة، سألبّي طلبك. سأجاملك كما فعلت الحكومة السودانية تماماً. لديك دعوة إلى البقاء سنة ونصف سنة أخرى. رتّب خلالها انتقالك، واعثر على دولة أخرى لعائلتك».

وها إن والدي يُنقذ نفسه مرّة أخرى، لأنه فاق الملاّ عمر دهاءً. فما إن أدرك أن الملاّ سيطرده برغم إخلاصه للطالبان، حتى اعتنى في اختيار الكلمات المثالية لجعله يبدّل رأيه، موقتاً على الأقل. فما من مسلم صالح يخضع لإرادة الكفار ضد مصلحة أخيه المسلم، حتى ولو كان الكافر على حق والمسلم على خطأ.

كان والدي رجلاً متألّقاً من أوجه عدّة.

أدرك قلة من الناظرين ما قد رشح، ولم يعرفوا إلا أن كل شيء سار على ما يرام. ولاح شعور بالاحتفال والزهو في أوساط جمهرة الرجال. طلب والدي إحضار الطعام، فشرع كثير من الرجال في إحضار أطباق من لحم الضأن مع الأرز والخضار. وبرغم قلّة مؤننا الغذائية، تدبّر والدي ورجاله، بطريقة ما، تحضير وليمة كبرى. وأمر، على جري عاداتنا العربية، بتقديم أفضل الطعام إلى زعيم الطالبان.

إلا أن صدمة نهائية كانت في انتظارنا. فقد أوجع الملاّ عمر والدي بإهانة ختامية، لما أعلن بجفاء أنه ليس جائعاً. وبهذا، سار زعيم الطالبان مبتعداً، بدون أي كلمة وداع لوالدي. وقفز العدد الكبير من الرجال بأسلحتهم الكبيرة إلى آلياتهم. وغادرت قافلة الملاّ عمر مسرعة.

تبادل كثير من رجال والدي نظرات التبرُّم، لأنه يمكن لمثل هذه الإهانة إشعال حرب قبلية في عالمنا العربي. لكن، ليس في اليد حيلة سوى القبول بهذا السلوك السفيه. فالملاّ عمر هو الرجل الأقوى في أفغانستان كلها، ويسيطر على معظم البلاد، وقد أدخل رجالُه، جنودُ الطالبان القساة، الخوف في كل قلب تقريباً. ولا يمكن لوالدي، برغم قوة تنظيمه «القاعدة»، الدخول في معركة مع الطالبان، لأنه سيخسرها، وهو يعرف ذلك.

صحيح أن أحداث اليوم حطّت من قَدْر والدي، إلا أنه ارتاح إلى كسبه بعض الوقت لتدبّر تفاصيل مستقبله. وهو لم يمتلك، عندما رُحّل عن السودان، سوى بضعة أشهر لتنظيم وضعه. وها إنه يحظى الآن بما يزيد على السنة لوضع

مخططاته. ويمكن لأي شيء أن يحصل في سنة. رفض تناول الطعام، وانسحب للقاء كبار معاونيه. وذهبنا، أنا وأشقائي، إلى منزل أمي للتأكد من حصول النساء والأولاد على حصتهم من الوليمة. إذ يندر أن نحصل على مثل هذا الطعام الشهي على موائدنا.

وأعترفُ بأنني شعرت بالفخر لأن والدي أنقذ الموقف من جديد، برغم أنني فكّرت دوماً في أنه ليس ثمة ما هو أفضل لي من أن يجبر الملاّ والدي على الرحيل في غضون ساعة. وأعرف الآن أنه ما من شيء كان، في الحالتين كلتيهما، سيوقف والدي عن جهاده. وإذا لم يتمكّن من البقاء في أفغانستان فسيذهب إلى باكستان. وإذا سحبت باكستان سجادة الاستقبال، فسيذهب إلى اليمن. وإذا رمته اليمن خارجاً، فسيقوم برحلة إلى وسط أكثر الصحارى عدائية، ويخطط من هناك ضد الغرب. فالجهاد العنفي هو حياة والدي، ولا شيء غير ذلك يهم حقاً. لا شيء.

كان أملي الوحيد أن يؤدّي سحب الملاّ عمر دعمه، إلى تبطيء نشاطات والدي الجهادية. وهو، بعد تلك النجاة بشق النفس، سيصبح بالتأكيد أشد حذراً. لكن الحال لم تكن كذلك. فقد ضاعف من نشاطاته إثر اجتماعه المشؤوم مع الملاّ عمر. وواصل رحلته عبر الطريق المسدود. وهو لا يزال السائق ونحن الركّاب. إلا أن الوجهة أخذت تصبح أكثر وضوحاً لي مع كلّ لفّة مفقود. إنها رحلة ذهاب فقط.



تلقّى والدي، بعد وقت قصير جداً على زيارة الملاّ عمر، خبراً من أحد المقربين له في باكستان، بأن والدته طارت من جدّة إلى دبي، وأنها ستصل قريباً مع زوجها محمد العطاس. وقد اعتنى أشقّاء لوالدي، يعيشون في السعودية، في تنسيق تفاصيل الرحلة برغم جهل أبي بمجيئها، إلى أن أصبحت في دبي.

سبق لجدتي أن زارتنا مرة أو اثنتين ونحن نقيم في الخرطوم، لكن ذلك تمّ منذ زمن بعيد، حصل بعده كثير من التطورات. وسُرّ الجميع للخبر، لأننا سنشاهد عن قريب وجهاً مُفضّلاً ومحبوباً في منزلنا الأفغاني. لكن والدتي كانت الأكثر حبوراً، وقد باتت في الأربعين من عمرها وتحمل طفلها الحادي عشر. وهي أحبّت عمّتها عليا كوالدة ثانية لها، لذا تحمّست أكثر مما سبق لي أن رأيتها تفعل منذ زمن بعيد.

وأعلن والدي، في يوم وصولها، أنه سيقود بنفسه إلى المطار، وأنني سأرافقه في سيارته، وسيتبعنا أشقاء آخرون ومقاتلون في قافلة. ونادراً ما قاد والدي بنفسه منذ مغادرتنا السعودية. وعرفت بذلك أنه يُظهر أقصى درجات التكريم لأمه.

تدجّجنا، كالعادة، بالكلاشينكوفات وأحزمة القنابل، بدون أن نفكّر أبداً

كيف سيبدو الأمر لزائرينا من العائلة غير المعتادين على عالمنا الجهادي. ففي السعودية ينتهي الأمر بالمدنيين الذين يحملون السلاح في السجن، برغم أن الحكومة السعودية منحت والدي، في سنوات حربه مع الروس، هامشاً من الليونة، وغضت الطرف عن تسليح رجاله من أجل أمنه الخاص.

وقفنا، أنا ووالدي، معاً ونحن نراقب هبوط الطائرة. تشبّهتُ بتصرّف أبي الهادئ والوقور، لكنني بالكاد تمكّنت من احتواء انفعالي. ظهرت جدتي وزوجها أخيراً عند باب الطائرة المفتوح، ولوّحا بأيديهما قبل أن يشرعا في النزول على الدرج النقّال.

جدتي امرأة تتميز بقامة وبُنية عاديتين. وقد ورث والدي طوله عن والده. وهي جذّابة، وفطنة جداً، وتتحدّث بثقة. أما رابّ والدي، محمد العطاس، فرجل قصير القامة، بطول نحو مائة وثلاثة وسبعين سنتيمتراً، متوسط البنية، أشيب الشعر، وله شارب بدون لحية. ظريف المظهر، وذو طبيعة هادئة ولطيفة.

أسرعنا، أنا ووالدي، في السير للقائهما. وما إن أصبحت جدتي في منتصف الدرج، حتى لاحظ والدي، للمرة الأولى على ما يبدو، أنها غير محجّبة، ووجهها بادٍ لأي غريب، فأشار إليها سريعاً بيديه لتستر وجهها. بدت متفاجئة، لكنها أمسكت بطرف وشاحها ولفّته حول وجهها وعينيها. وصعّب ذلك عليها بالطبع قدرتها على النزول على الدرج، فتعثّرت وكادت تقع. قمنا بحركة عفوية لإنقاذها من السقطة، لكنها تمكنت في اللحظة الأخيرة من تثبيت قدميها.

انسابت الوالدة برشاقة نحو ابنها، وشبكت يدها بيده وأصبح كلاهما في عالم خاص بهما. لم يسبق لي أن شاهدت السعادة الكاملة من قبل، إلا أنني عرفت، في ذلك اليوم، أن والدي سعيد بالقدر الذي يمكن لرجل أن يكونه.

واكب والدي أمه ومحمد العطاس إلى كابينة السيارة الأحدث في أسطوله، طالباً مني الركوب في الخلف، في الهواء الطلق، لأنه لا يوجد متسع لراحتنا نحن الأربعة. وستتبعنا السيارات الأكثر قِدَماً. ملتُ من فوق جانب الشاحنة،

وأنا أشعر بزهو كبير إلى درجة أنني أردت الاحتفال. وكنت عند هذا الحد قد اكتسبت بعض عادات المقاتلين في المعسكرات، ولم أفكّر إلا في إفراغ رصاص سلاحي بإطلاق النار منه ابتهاجاً، وأطلقت رشقات عدة في الجو.

لم يسعد والدي، وضرب على نافذة الشاحنة الخلفية وهو يشير إلي بالتوقف. وأبلغني، بوصولنا إلى المجمّع، أن محمّداً المسكين ظن أننا نتعرّض لهجوم، وبدا عليه الاضطراب بوضوح، حتى بعدما طمأنه والدي إلى أن حماقتي وحدها هي التي سببت الجلبة.

أُسكنت جدتي وزوجها في أجمل بيت للضيافة، ثم وُوكبا إلى منزل أمي. جلبت جدتي معها هدايا من الشوكولا. واهتززنا، أنا وأشقائي فرحاً؛ فنحن لم نَرَ الشوكولا ولا ذُقناها منذ إقامتنا في الخرطوم. بل إن بعضاً من أصغر إخوتي لم يعرفوا ما هي السكاكر، وكان من الممتع رؤية وجوههم الصغيرة عندما تناولوا ما أُغدق عليهم من الحلوى.

واعتز والدي بأن أولم لوالدته ورابّه من المؤن ذات النوعية الجيدة التي أمكنه، بطريقة ما، الحصول عليها. فالطعام المتوفّر لنا في العادة في أفغانستان كريه. بل إنه أبدى الكثير من الليونة حتى في ما يتعلّق بمراوح التبريد، حيث إن مجمّع قندهار لا يزال بدون كهرباء، وقد تأذى كثير من الضيوف، وامتعضوا من حرّ الصيف. وبعدما أوشك بعض الضيوف الرفيعي المقام على الإغماء، أمر والدي بجلب بعض المراوح العاملة على البطارية لأكثر ضيوفه تكريماً.

لم تستخدم جدتي أو زوجها المراوح، لكنني شهدت عدداً من الضيوف يكافحون للإمساك بالشفرات الدوارة على مقربة من وجوههم، وهم يحاولون إجراء محادثة أو الاستمتاع بوجبة طعام، في مشهد ذكّرني بأولئك الضيوف الأثرياء في الخرطوم وهم يمسكون بتلك المراوح اليدوية المُحاكة.

شكّلت الأمسية الأولى الليلة الوحيدة التي اجتمعت فيها العائلة كلّها معاً، وبلغت درجة كبيرة من المتعة، حيث أخذ والدي يتذكّر بعض القصص الممتعة من صباه. نظر إلى جدتي بعذوبة، وسألها: «هل تذكرين، يا أمي، عندما كنت

صغيراً جداً، قبل وقت طويل على أيام الدراسة، وكان هدفي الوحيد في الحياة الحصول على عنزة كحيوان أليف؟».

هزّت جدتي رأسها بمتعة، وأجابت: «نعم، يا بني، أذكر كل شيء عن تلك الحادثة».

«رفض زوجُك السماح لابنك بالحصول على عنزة. وطلبتُ منه ذلك مراراً وتكراراً، وهو في كل مرّة يرفض ويجزم بأنه لن يقبل بوجود ماعز في منزله في جدة. وبعد المرّة الثالثة أو الرابعة، تبرّم زوجك من ابنك، وقال: إذا أردت عنزة يا أسامة، فعليك أن تزرع واحدة بنفسك. وأصابني ذلك حقّاً بالإرباك، وسألت زوجك كيف أقوم بأمر مثل زراعة عنزة».

ضحك محمّد من قلبه وهو يتذكّر تلك الحادثة البعيدة.

«قال لي زوجك، يا أمي، إنه عليّ، عندما تقدّم والدتي عنزة عند وجبة الغداء، أن آخذ عظمة ساقها المطبوخة، وأزرعها على عمق حوالى ثمانية سنتمترات في الأرض. ونبّهني إلى أنني إن لم أروِ الساق في كل يوم، فلن تنمو لتصبح عنزة.

«وبالفعل، في المرة التالية التي طهوتِ فيها الماعز، احتفظتُ بعظمة الساق وحملتها بعزم إلى الحديقة لأحفر حفرة وأزرعها فيها، ودأبت على ريّها يوميّاً. وأخذت، بعد بضعة أسابيع، أتساءل عن الخطأ الذي ارتكبته، لأنه لم ينبت من الأرض شيء يشبه العنزة. وبعد أسابيع من الاهتمام بعظمة الماعز تلك، أطلعني زوجك أخيراً على حقيقة أن الأمر لا يعدو كونه مزحة، وأن العظمة لن تنمو أبدا لتصبح العنزة التي أرغب فيها بشدة!».

مرّر والدي نظره عليّ وعلى أخوتي. «ولهذا السبب، يا أبنائي، منحتكم كل ما يتعلّق برغبتكم في اقتناء الحيوانات».

تذكّرتُ فجأة جميع رؤوس الماعز التي اشتراها لنا أبي ونحن صغار في السعودية. وأدركت للمرة الأولى أنه يمنحها لأبنائه، كي يلبي رغبات طفولته الخاصة.

استمتع محمد بالرواية الصغيرة، ليقول أخيراً، «لم تكن لدي، يا أسامة، أي فكرة بأنك ستأخذني على محمل الجد. وأنا آسف إذا سبّبت لك أي أسى».

ابتسم والدي. «كلا، كانت تلك مزحة جيدة ومسلّية لصبي صغير».

ودفعت رواية العنزة بمحمد إلى أن يتذكّر أيضاً رواية عائلية أخرى. «هل تذكر يا أسامة عندما امتطيتَ الثور؟».

ابتسم والدي وقال «أتذكّر». وبدا سعيداً جداً بالذكرى. «تعرفون، يا عائلتي العزيزة، حبّي الأحصنة. وأنا منذ نعومة أظفاري أردت حصاناً أكثر من أي شيء آخر، وحتى من العنزة التي انتظرتها لتنبت في الحديقة! أضجرتُ أمي ومحمداً بدون توقّف، ولم يأخذني أي منهما على محمل الجد. وفي إحدى المرات التي أمضينا فيها العطلة في سورية في منزل أهل والدتكم، شرعت في مسيرة طويلة مع أخوالكم عندما لاحظت ثوراً ضخماً يُربّى في أحد الحقول. وحثّني شيء في داخلي على التسلل عبر السياج والاقتراب منه.

«كان ثوراً هائجاً، وهو الحيوان الأقوى الذي تقع عليه عيناي أبداً. خطّطت لامتطائه وأنا أفكّر في سري في أن الأمر لن يختلف كثيراً عن ركوب الخيل. وإذا لم تسمح لي عائلتي بالحصول على حصان، فربما أحصل على ثور! اقتربت ببطء، لكن الثور لم يتأثر بوجودي. وافترضتُ أنه معتاد على البشر. استمر في لامبالاته، يقضم العشب الأخضر، وهو مُكتفٍ بعالمه.

«اقتربت من جانبه بهدوء، ثم، بلمح البصر، قفزت عن الأرض إلى ظهره. وصمّم الثور فوراً على رميي عن ظهره. لففت ذراعيّ حول عنقه، الأمر الذي جعله أكثر استعصاءً. نفر أوّلاً في اتجاه، ومن ثم في الاتجاه الآخر، راكضاً بأسرع ما يمكن لثور أن يركض. استدار في أرضه، وشكّل ذلك أهوج ركوب لي في حياتي. تشبّثت، ثم أدركت أنني سأصاب بضرر بالغ. استجمعت قواي، وسرعان ما اندفعت عنه، وأخذت أتدحرج على الأرض، المرّة تلو المرّة، وأنا أشم رائحة العشب الجديد في حين كان وجهي وجسمي ينزلقان بعجز عبر الحقل.

«كان أشقاء نجوى يتفرّجون، كذلك تقدّم أناس آخرون لمشاهدة محاولتي

ركوب الثور. وانشغل أخوالكم في الإسراع إلى منزل عائلتها وهم يصيحون أنه تم الإطاحة بأسامة من على ظهر ثور.

«جزعت أمي ومحمد، طبعاً، لحماقتي. وعند ذاك قررا أنني في حاجة إلى ما أمتطيه، وأن الحصان سيكون أقل خطورة».

هزّ محمد العطاس رأسه موافقاً. «تعرفون والدكم، إذا قرّر أمراً لا يتراجع عنه، ولا يتوقّف إلى أن يحصل على مبتغاه».

عرفنا، نعم، هذا الجانب من طبع والدنا. ويمكن لمثل هذه الصفة المميّزة أن تكون جيّدة، أو أن تصبح سيئة. ومما أعرفه من حياة والدي، فإن عناده جلب عليه الكثير من المشاكل. وما إن يتمنّى شيئاً حتى لا يستسلم أبداً، حتى عندما يصبح لأمنيته توأم، وهذا التوأم اسمه الدمار.

إلا أن تلك الأمسية شكّلت مناسبة نادرة لنا لنكون عائلة حقيقية، وأنا لم أشتكِ، بل كنت شاكراً كثيراً، وعادت علي بالنفع رؤية وجه أمي الوادع، السعيد، ومشاهدة والدي مستمتعاً على سبيل التغيير. فهو في العادة صارم في شأن كل شيء. لكنه بدا، في حضور أمه، ابناً عادياً، ووالداً، وزوجاً. وتبادلت أمي وجدتي الكثير من النظرات الودّية، وأمكنني القول إن جدتي قلقة كثيراً في خصوص زوجة ابنها.

شكّلت تلك الليلة الأولى مثالاً على الكمال، لكن لم يسر ما بقي من زيارة جدّتي على ما يرام. علمنا لاحقاً بأن زيارتها ليست زيارة عائلية وحسب، فقد أرسلها الملك فهد إلى والدي أملاً منه في أن حب والدي الكبير لها سيفعل فعل السحر. جاءت جدتي عليا إلى أفغانستان لمناشدة والدي التخلي عن الجهاد، والعودة إلى الديار، والتكفير. وقالت الجدة عليا إن الوقت لم يفت بعد. فالملك فهد يقدم عرضاً واحداً أخيراً، متعهداً لوالدي أنه لن يُسجن أو يُسلَّم إلى الأميركيين، بل ستؤمَّن له حياة هادئة لو عاد فقط إلى السعودية.

وبالرغم من أن والدي أدرك أن والدته تؤمن فعلاً بوعود الملك، فإنه لم يؤمن. اقتنع بأنه ما إن تطأ قدماه رمل السعودية حتى يُسجن لما بقي من حياته،

أو يُسلَّم إلى الأميركيين ليتمكنوا من إجراء محاكمة صُورية بالطريقة ذاتها التي اعتمدوها مع عمر عبد الرحمن، رجل الدين المصري الضرير الذي أدين بمؤامرة التحريض على الفتنة وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة. وأعلن أبي تكراراً، على مر السنين، أنه يفضّل الموت على القبضة الفاحشة للأميركيين المكروهين.

أحب والدته كثيراً جداً إلى حد أنه لم يشعر بالغضب لكلامها، واكتفى بالإجابة بأنه لا يستطيع العودة أبداً إلى المملكة. ولن تشاهد عيناه من جديد أرضها، ولن تطأ قدماه شوارع جدة. لقد قطع كل علاقة له مع البلد الذي أحبّه.

وهكذا انتهت تلك الأمسية الممتعة بجو عكر. وغادرت جدتي ومحمد العطاس أفغانستان بعد ذلك بيومين.

ضاعفت زيارة جدتي من رغبتي في مغادرة والدي والحياة التي اختارها لي. وأصبحت مثل تلك الفكرة أكثر إلحاحاً بعدما أخذني أقرب أصدقائي إلي، أبو هادي، جانباً، وحذّرني بنيّة صادقة: «عليك، يا عمر، بمغادرة أفغانستان. فقد تناهى إليّ وجود أمر كبير جداً قيد التحضير. عليك أن تغادر، يا عمر. فأنت شاب. ولم يسبق لك أبداً أن آذيت أحداً. عليك أن ترحل، وأن تسعى إلى حياة طبيعية. لا تبق هنا لوقت أطول».

وهكذا، حتى بعد الهجوم الأميركي، وبعد تحذيرات الملاّ عمر، لا يزال والدي ورجاله ينحتون العنف، ويصنعونه ويبجّلونه. وهم، على ما قاله أبو هادي، ينوون على أمر أكبر حتى من الهجومين القاتلين على السفارتين الأميركيتين في أفريقيا. وسيُقتل المزيد من الأبرياء، كما حصل في أفريقيا وفي أفغانستان، لأن بعض من قُتلوا في المعسكرات لم يكونوا يتدرّبون ليصبحوا مقاتلين، بل جاؤوا لزيارة أصدقاء، أو لمجرّد شعورهم بالفضول.

وليس أبو هادي بالرجل الذي يكذب. وإذا رأى أنه عليّ المغادرة، فيجب أن أغادر. وفي وقت لاحق من ذلك النهار، جمعت أخوتي من حولي

وصارحتهم بالخبر الذي تناهى إلي: «اسمعوا يا أخوتي، لقد عرفتُ معلومة سرّية. يجري الإعداد لعمل كبير. وإليكم الحقيقة البسيطة: إذا غادرنا فسوف نعيش وإذا بقينا فسوف نموت».

وسارعوا بالموافقة، وقال أحدهم: «إذا قام والدنا بهجمات أخرى، فستُدمَّر أفغانستان بكاملها».

فقلت: «علينا أن نهرب».

وافق أشقائي. لكن كيف؟ على مغادرتنا أن تحصل سرّاً. فقد بلغ التطرف بوالدنا حدّاً قد يسجننا معه إذا عرف بخطط هربنا.

اقترحت: «عندما يذهب والدنا في عمل، نندفع جميعنا إلى باكستان، على أحصنتنا».

هزّ أشقائي برؤوسهم موافقين. وجميع أبناء بن لادن فرسان ممتازون، ويمكننا الوصول بسهولة إلى جياد والدي. ونمتلك الميزة الإضافية بأننا نعرف تضاريس أرض الجبال، كأنها راحات أيدينا. فربما تنفع تلك الرحلات الإجبارية الطويلة إلى باكستان من تورا بورا، في شيء في النهاية.

نعم، سنمتطي أحصنتنا إلى باكستان، ونبيع الأحصنة إلى ملاّك غني، ثم نستخدم المال للطيران إلى السودان. وبعد زيارة ممتعة للسودان، سنقوم برحلة حول العالم! وسنمتّع أنفسنا على سبيل التغيير.

راودتنا أحلام كبرى. كنّا جدّيين تمام الجد في الهرب بحيث شرعنا في ذبح بعض جمال والدنا، وفي تقديد اللحم حتى لا يفسد، وتوضيب بعض المؤن. وحده أبو هادي عرف بخططنا، وهو موافق معنا كلّياً.

انتابت أذهاننا بالتأكيد مشاعر الذنب حيال والدتنا وأخوتنا الأصغر سنّاً. إلا أننا أدركنا أن أمنا لن توافق أبداً على المغادرة بدون إذن من زوجها. ولو أنه سأل، فستجد أمي أنه يستحيل عليها أن تكذب، وستُحبط خطتنا.

لم يشأ أي منا تخيّل ردّ فعل أبينا على عدم إخلاصنا. عرفنا أنه يعتقد أن

علينا أن نتبع جهاده بأكبر شغف، وحمل السلاح ومهاجمة الأميركيين، أو أي من يرى فيه عدوّاً.

وخففت من قلقنا بعض الشيء، معرفة أن والدتنا وأخوتنا الصغار يمتلكون فضيلة الجنس والعمر، فلن يتقاعس أبي لحظة في حماية زوجته أو أي أنثى أو أطفال ملزم برعايتهم، وسيبذل جهوداً جبارة لحمايتهم. وحتى لو هاجم الأميركيون من جديد، فإننا تذكّرنا كلمات والدنا بأنهم لن يتعمدوا أبداً مهاجمة النساء والأولاد.

وسرعان ما أصبح لدينا ما يكفي من الطعام لرحلتنا. أصابتني الحماسة وقد مضت عليّ سنوات وأنا أفكّر في الرحيل. لكن الفكرة جديدة على أشقائي. فأخذوا، الواحد تلو الآخر، في الانسحاب.

قال أحدهم: «يمكن لأذرعة والدي الطويلة بلوغ أي مكان. وهو سيقتلنا بالتأكيد».

وقال آخر: «أفغانستان خطرة جداً. فوراء كل أكمة يوجد قاطع طريق. سنُسرق ونُقتل ونحن في الطريق».

وقلت مجادلاً: «هذه مخاطرات عليكم ركوبها. فسنموت إذا بقينا مع والدنا. والمعلومة التي حصلت عليها لا تترك مجالاً للشك في أن علينا الذهاب!».

سكتوا جميعهم، وقد استغرقوا في التفكير. وسرعان ما انساق كل من أشقائي بعيداً عن الخطة، وأخذوا جميعهم يتفادونني.

فكّرت في الذهاب وحدي، لكن المنطق يقول إنه لا يمكن لأقل من مسافرين اثنين النجاة. فالحذر ضروري، لأنه يمكن للمسافر وحيداً أن يتعرّض للهجوم، وفي أغلب الأحيان قد يُقتل. فالحياة رخيصة جداً في أفغانستان.

استشرت أخيراً أبا هادي، وسألته إذا كان على استعداد للذهاب معي، فقال، برغم أنه يريدني أن أهرب: «كلا، يا عمر. لا أستطيع. فمكاني هنا مع والدك».

جلست صامتاً وحزيناً، وأنا أقضم، طوال أسابيع، من لحم الجمل المقدد ذاك، وأحلم بفرصتي الضائعة في الهرب. وبرغم ذلك لم أتخل عن الفكرة.

استرعت في هذه الفترة العصيبة، أمي انتباهي الكامل. راقبتها في أحد الأيام وهي تكدح في المطبخ العابق بالبخار الساخن، وتطبخ وجبة بسيطة من الأرزّ على موقد الغاز المفرد، فراودني هاجس أن أمي ربما لن تبقى حيّة حتى نهاية ولادتها المقبلة.

بدا أن والدتي المسكينة، التي عانت طويلاً، ليست بخير، وهي التي حملت مرات كثيرة، وتواجه الآن حملاً في سن متأخرة بدون عناية طبية أو تغذية مناسبة. وليس الأمر أنها تشتكي، لأنني لم أسمعها، ولا مرّة واحدة خلال تلك السنين كلها، تعرب عن استيائها من أي شيء. فقد عاشت بدون مكيّف للهواء في أحر المناخات، وبلا تدفئة في أكثرها برداً وصقيعاً، وبدون أدوات منزلية حديثة لتخزين الطعام أو طبخه، أو لغسل ثياب العائلة، وبلا طعام مناسب لأولادها، وبلا عناية صحّية لأحد. وعاشت بغير أن تتوفر لها وسيلة للتواصل مع أمها أو أخوتها. وقد تقبّلت هذه الظروف كلها بأعذب سكينة، وهي تبادر دوماً زوجها وأولادها بالأفكار الإيجابية. لكن كان عندها بالتأكيد كثير من الشكوك الصامتة في شأن الطريق التي اختارها والدي. فقد بدأت زواجها بأمل كبير مسافرة إلى بلد غني لتحيا حياتها مع الرجل الذي تحب. وأعرفُ أن أحلامها كفتاة لم تتحقّق، حتى لو لم تعترف بذلك.

سُررت فجأة لأنني لم أهرب وأتركها وحدها. فمع انشغال والدي الكبير بجهاده وبأمور أخرى، تعتمد أمي عليّ بصورة رئيسية.

عرفت أنه على أحد أن يُخرج أمي من أفغانستان. عليها العودة إلى والدتها في سورية لتحظى بالعناية الطبية المناسبة. وعلى أصغر أولادها أن يذهبوا معها، وهم ثلاثة أطفال تتراوح أعمارهم بين الثالثة والتاسعة. فإيمان الجميلة في التاسعة، ولادن الظريف بلغ السادسة، ورقيّة الرائعة تخطت الثالثة.

فكّرت في أن لحم الجمل المقدّد سيكون مفيداً في النهاية، وشرعت في رسم خطة ثانية للفرار، وأنا أركّز هذه المرة على سلامة والدتي وأخوتي الصغار.

إلا أنه غاب عني أن أفكاراً مريعة أخرى تختمر في ذهن أبي؛ وأن ثمة خططاً ستدفع بي بعيداً إلى الأبد.



عرفت أن أبنائي يكبرون لمّا سمعتهم عَرَضاً يتناقشون في الزواج. كان كل من عثمان ومحمد، أصغر بكثير من الحديث عن الزواج، لكنهما تأثرا بالنقاشات المشوّقة التي سمعاها صدفة من أشقائهما الأكبر سنّاً.

وعبد الله وسعد هما الابنان الوحيدان اللذان تزوّجا. وها قد مضى على رحيل عبد الله خمس أو ست سنوات. ولما زارتنا العمة عليا جلبت معها الخبر السار، بأن ابننا البكر أصبح والداً. لكنني لم أستمتع بأي مناسبة سعيدة للقاء أول أحفادي، مع أن هؤلاء الأطفال احتلوا أحلام يقظتي.

وقد سافر سعد وعمر إلى السودان بحثاً عن عروسين، لكن سعداً نجح وحده وعاد بزوجته ليقيما على مقربة منّا. وفي غضون سنة، رُزقا بابن أسمياه أسامة، وهو ما راق كثيراً لزوجي.

وأنا أكاد لا أصدّق أنني وزوجي أصبحنا جدّين. لكن، كيف انقضت تلك السنوات؟

استدعى أسامة في خلال ذلك الوقت، كبار الأبناء، وقدّم إليهم قطعة أرض، وطلب منهم أن يحرثوها وينتجوا منها الغذاء، كما علّمهم ذلك في السودان. واعتقد زوجي أنه يمكن لأبنائنا أن يكتفوا مادياً من خلال جني محصول تلك الأرض. ويمكن لمثل هذا المشروع التجاري، أن يؤمّن الخضار الطازجة لمائدتنا، ويوفّر مالاً إضافياً من أي عملية بيع.

لم يتحمّس أي من أبنائي للزراعة، برغم أنهم يراعون، كالعادة، واجبات الاحترام لوالدهم، وقد أعربوا له جميعهم عن امتنانهم وشكرهم، ووعدوه بتنفيذ رغبته، والاهتمام بها، لكن أحداً من أبنائه لم يرث عنه حبّه الكبير للزراعة.

لم يكن عمر قد تزوّج بعد، برغم رغبته القوية في الحصول على زوجة، وكان يسأل دائماً ويومياً، كلّ مقاتل إن كان يعرف فتاة صالحة للزواج من عائلة مناسبة. وقد يئس من العثور على عروس، فأصبح أكثر انكساراً من العادة. وثمة ليالٍ اختفى فيها لساعات كثيرة، وهو يمتطي حصانه يهيم في الصحراء، وأنا أنتظر ابننا بصبر، حتى الفجر إذا اقتضى الأمر، لأنني أمه وأخشى على سلامته. فربما لسعته واحدة من تلك الأفاعي السامة، أو كبا حصانه في حفرة.

والحوادث شائعة بوجود سبعة أبناء. وأذكر الوقت الذي أخذ فيه محمّد الصغير يركض ويلعب في الصحراء، واختفى عن النظر. فقد هوى في جوف عميق محفور في الأرض، وفقد وعيه لنهار كامل. وأشكر الله أن أشقاءه كانوا في المنطقة، وشرعوا، بعد يوم، في عملية بحث كبيرة، إلى أن عثروا عليه أخيراً في ذلك الجحر. ولو أن موقعه كان مجهولاً لما عرف أحد أين يبحث، ولربما نهشت لحمه الذئاب. وفي مرّة أخرى، تهوّر سعد في القيادة فانقلبت به السيارة. وكان لادن يجلس في المقعد الخلفي، فاندفع خارجاً وقد كُسرت يده.

لطالما فكّرت في أنه لو حلّت كارثة بعمر، لما عرف أحد أين يبدأ في البحث. لم يمانع زوجي في رحلات عمر المنفردة على الحصان في الصحراء، وذكّرني بأن هذه كانت حاله وهو شاب في السعودية. ويبدو أن زوجي يحبّ عمر أكثر لروحه المنفردة، وأطلق عليه لقب عمر «الفاروق»، وهو اسم عربي للسيف.

واعترف كثير من الناس بخصائص عمر الفريدة. ونظرت إليه إحدى شقيقاتي الزوجات نظرة إكبار، وكانت تقول كلما شاهدته يسير صوبنا إنه «أبو الحكمة». وأطلقت عليه أخرى اسم «عمر الكريم»، لأنه اشتهر بأنه أكثر أبنائي إنعاماً،

فيوفّر القليل من المال الذي يمكنه الحصول عليه لمساعدة من هم أسوأ حالاً منه.

وبالرغم من أنني حملت من جديد، فقد انشغل بالي في أمور كثيرة، أكثر من انشغالي في نفسي.

وحدث أن أسامة قرر في أوائل سنة ١٩٩٩ أن الوقت حان لتزويج ابنتنا فاطمة، المولودة في ١٩٨٧، وابنته خديجة من سهام، وهي تصغر فاطمة بسنة. وليس من المستغرب، في ثقافتنا، زواج بنات في مثل هذا العمر. ثم إن مثل هذه القرارات، تعود إلى أسامة وحده. وسعدت لسماعي أنه تشاور مع عمر طالباً من ابني الحكيم نصيحته في مقاتلين يعرفهم عمر جيّداً. وأوعز زوجي إليه بإيجاد زوجين صالحين لابنتيه.

أخذ عمر عملية البحث على محمل الجد، وشرع يراقب بعناية الرجال الذين يعملون مع أبيه. وأوصى أخيراً بجنديين، اسماهما محمّد وعبد الله، اعتقد أنهما رجلان ذكيان ولطيفان. العريسان المحتملان اللذان انتقاهما عمر للزواج بأختيه، هما من السعودية، وهو ما بدا أنه يُرضي أسامة، وقد قاربا سن الثلاثين. وأحدهما من حراس زوجي الشخصيين، وبالتالي عرفه عمر أكثر من الآخرين.

وأوصى عمر بأن تُزوّج فاطمة بمحمد وخديجة بعبد الله. وما إن وقع الخيار حتى تمت معالجة جميع الأمور على الطريقة الإسلامية التقليدية. وتشاور أسامة في المسألة معي ومع سهام، ورضيت كلتانا بقرار زوجنا.

ثم استدعى أسامة، كما هو متّبع، كلاًّ من الفتاتين على حدة، ليخبرها عن الزوج الذي اختاره لها. وقد حرص أسامة على العمل بموجب ما يقتضيه ديننا، بإفهام كل منهما بأن الزواج لن يتم إذا لم يعجبها زوجها، وأنه، في هذه الحال، سيتم البحث عن عريس آخر.

وبخجل كبير، قالت الفتاتان إنهما، سترضيان بالزواج بالرجلين اللذين اختارهما والدهما. وعندها تدبّر أسامة أمر اللقاء بين العرسان بوجود رقيب

للعريسين مع ابنتيه. وما إن أعلنت ابنتانا والعريسان المحتملان قبولهم ببعضهم البعض، حتى أعلنت الخطوبة.

تم تزويج ابنتي أوّلاً. وكان عرسها بسيطاً جداً، وجرى في منزلنا في قندهار. وطبعاً، لم يختلط الرجال والنساء. وكان الطعام شحيحاً في ذلك الوقت، فلم نملك أي شيء خاص نقدّمه إلى الضيوف سوى الأرز والخضار، وهو الشيء ذاته الذي نتناوله في كل يوم من أيام الأسبوع.

وبعد الزواج، انتقلت ابنتي وزوجها إلى منزل في المجمّع قريب منّي، وهو ما أفرحني. وتذكّرت قبل ذلك بسنوات، عندما تزوّجت بأسامة، كيف عارضت أمي انتقال ابنتها إلى مكان بهذا البعد. وأنا للمرة الأولى، أتفهم والدتي كلّياً.

بدا عمر منكسراً على نحو غريب. وقد اعترف، برغم فرحه في الحصول على فرصة التوصية بأفضل عريسين، بأنه أصيب خلال العرس بالتوجّس لرؤية شقيقته الطفلة فاطمة تصبح زوجة في مثل هذا العمر الصغير.

واعترفتُ، ما إن تفوّه عمر بهذه الكلمات، بأن القلق تآكل قلبي أيضاً. ففاطمة صغيرة جداً وبريئة، وهي تحت الحماية التامة لوالدتها. ولم تعرف أحداً من خارج عائلتها أبداً. لكن المرأة تحتاج في عاداتنا إلى زوج صالح يحميها، ولم يسعني إلا أن أصلّي أن يكون زوجها، محمد، أفضل زوج لابنتي الفتية.

بعد أسابيع على زواج فاطمة، جاءني عمر وهو في حالة جدّية لم أعهده عليها من قبل. قال ابني: «أريدك، يا أمي، أن تسافري إلى سورية لتنجبي هذا الطفل. وسآخذك بنفسي». توقّف ثم تابع «سنأخذ أصغر الأولاد معنا أيضاً».

فوجئت كثيراً، وأعياني الكلام. لم تعتد أي من زوجات أسامة على مغادرة أفغانستان، لأي سبب. وقد سبق لي بالفعل أن أنجبت طفلة في هذا البلد، هي ابنتي الصغرى رقيّة.

وأنا، في الحقيقة، لم أفكّر مرة في الرحيل.

بدا كأن الأمر استحوذ على عمر، وهو يدفعني إلى القبول، وقال «إذا لم تطلبي، يا أمي، الإذن من زوجك بالمغادرة، فسأفعل ذلك عنك».

حدّقت في ولدي الوسيم، وعيناه البنّيتان تومضان تصميماً. من كان ليخمّن، من بين جميع أبنائي، أن عُمر، الأكثر إحساساً، هو الذي ستحلّق شجاعته عالياً مع كل سنة تمرّ؟ لم يكن سهلاً لأي كان، الوقوف في وجه قوّة عمر الهائلة. فابني رجل شجاع، وقد أحببته حباً مضاعفاً على عنايته بي وبإخوته الصغار.



استحال، في أيام التوتّر تلك، إيجاد فرصة لنقاش سهل مع والدي. وهو رجل عنيد، يسارع دوماً إلى الإجابة بالرفض ما إن تخطر أي فكرة لأي من أبنائه. لذا، عرفت أنني أحتاج إلى وقت وحدي معه لأعرض قضيتي، ولاختيار كلماتي بعناية. فلا يمكنني الإشارة إلى تحذير أبي هادي، وإلا تعرّض صديقي لعقاب قاس. عليّ أن أتحدّث فقط عن صحّة أمي، وعن حاجتها إلى عناية خاصة لولادتها المتوقّعة. إلا أنه صعب الحصول على وقت خاص مع والدي، فهو محاط طوال الوقت برجاله المخلصين، وهم أشخاص تحدوهم الرغبة في الدوران حوله عن قرب.

دعا والدي في أحد الأيام إلى اجتماع لجميع المقاتلين، والتحقنا بهم أنا وأشقائي، ونحن نتساءل عن الضرورة الملحّة إلى ذلك.

تحدّث عن فرح الاستشهاد، وكيف أن أكبر فخر للمسلم هو بذل حياته من أجل قضية الإسلام. نظرت حول الغرفة في حين كان والدي يتحدّث، وتمعّنت في وجوه المقاتلين، فلاحظت أن الأكبر سناً يبدون ضجرين بعض الشيء، بينما تشع وجوه الشبان الجدد في تنظيم «القاعدة».

ولما انتهى الاجتماع، استدعى والدي جميع أبنائه، بمن فيهم الصغار في السن، وصرف الرجال الذين يمكثون في العادة إلى جانبه، فاعتقدتُ أنها قد

تكون الفرصة المثالية لمناقشة صحّة أمي وحاجتها إلى طبيب جيّد يلد طفلها الحادي عشر.

كان والدي في مزاج جيّد نادر بعدما خرج من حديث ناجح مع المقاتلين. من المؤكد أنه يمتلك القدرة على الإيحاء للشبان بالتخلّي عن حياتهم، لأنني رأيت، ونحن ننسحب من غرفة الاجتماع، كثيراً من المقاتلين الشبان يتهافتون لتدوين أسمائهم على ورقة الشهادة.

قال لنا والدي، بصوت غلبت عليه الإثارة، «اجلسوا، يا أولادي، اجلسوا، تجمّعوا في حلقة. لديّ ما أقوله لكم».

ما إن صرنا عند قدميه، حتى قال: «اسمعوا، يا أبنائي، ثمة ورقة على جدار الجامع. هذه الورقة هي للرجال الذين هم من المسلمين الصالحين، رجال يتطوعون ليصبحوا مفجّرين انتحاريين».

نظر إلينا والأمل يشعّ في عينيه.

هذه المرة لم نُبقِ نظرنا على الأرض، بل حدّقنا في والدنا، لكن بدون أن يتكلّم أي منا. أما أنا فقد منعني هولي الكبير من الصراخ بالكلمات العالقة على لساني.

ومع أن والدي لم يطلب منّا أن نضيف أسماءنا إلى قائمة الانتحاريين، فقد أوحى بكلماته وبوجهه أن ذلك يُسعده كثيراً.

ولم يحرّك أحد ساكناً.

فكرّر والدي ما سبق وقاله: «توجد، يا أبنائي، ورقة على جدار الجامع. وهذه الورقة هي للرجال الذين يتطوعون ليكونوا مفجّرين انتحاريين. وعلى من يريدون وهب حياتهم للإسلام أن يضيفوا أسماءهم إلى اللائحة».

وكان أن وقف واحد من أصغر أخوتي، أصغر من أن يدرك مفهوم الحياة والموت، وأحنى رأسه باحترام في اتجاه والدي، وخرج راكضاً إلى الجامع. سيتطوع الصبي الصغير ليصبح مفجّراً انتحارياً.

أصبتُ بالسخط وقد استعدت في النهاية صوتي: «كيف يمكنك، يا والدي، أن تطلب هذا من أبنائك؟».

ازداد تكدّر أبي مني على مدار الأشهر القليلة الماضية. فقد أخذ يتضح له أنني خيبة أمل: ابن يرفض معطف السلطة، ويريد السلام لا الحرب. حدّق فيَّ بعدائية واضحة، وهو يؤشّر بيديه: «إليك يا عمر، يا ابني، ما يجب أن تعرفه. لا مكان لك في قلبي أكثر من أي رجل آخر أو فتى في مجمل البلاد». ونظر إلى أشقائي: «وهذا ينطبق أيضاً على جميع أبنائي».

قام والدي بإعلانه: لا يذهب حبه لأولاده إلى ما هو أبعد من الطبقة الخارجية للحمه. أما قلبه، فخال من المحبة الأبوية.

لم يكن أَلَمُ تلك الحقيقة خفيفاً عليّ. ها أنا أعرف أخيراً أين هو موقعي. فوالدي يكره أعداءه أكثر مما يحب أبناءه. شعرت بأنني سأكون أحمق إذا أهدرت لحظة واحدة إضافية من حياتي.

عرفت أنني راحل، وراحل عمّا قريب. وعندما أفعل، لن أفكّر في والدي بأكثر مما فكّر فيّ. وأصبح التحدي الوحيد الذي يواجهني، هو كيف أخرج والدتي وإخوتي الصغار معي.

خرجنا، أنا وأشقائي، مبتعدين بهدوء، بينما أعطى الصبي الأصغر وحده دفعة لكبرياء والدي الجهادية.

انتظرت بضعة أيام إضافية إلى أن خرج والدي من أحد الأبنية وهو يتجه إلى آخر. وقد أخذت أتربّص محاولاً إيجاد الوقت الذي أصبح فيه إلى جانبه بدون خمسة رجال أو ستة بيننا.

وتحدّثت، برغم أنه رفض الاعتراف بوجودي: «أنا قلق، يا والدي، على صحة أمي. فقد بلغت سناً أصبح فيها إنجاب الأولاد خطراً عليها. هل تسمح لي بأخذها إلى أمها؟ ربما تصبح في أمان هناك».

لم يجب والدي، بالرغم من أنه ألقى نظرة سريعة إلى وجهي عرفت منها أن حبه الوالدي لي خفّ وتراجع إلى درجة خطيرة.

لكن، لا شيء سيوقفني. استحوذ عليّ الأمر، كما حصل معي قبل ذلك ببضع سنوات عندما أنهكت والدي بالعنف غير المرغوب فيه، المحيط بحياتي.

وهكذا، قدّمت المناشدة ذاتها في اليوم التالي.

وكانت التماساتي هي ذاتها دوماً: طلب أخذ والدتي إلى مكان أفضل للولادة. وواصلت الكلام معه مرّة في اليوم على الأقل، وأحياناً مرتين، ودائماً بحضور رجاله، لأنه لم يمكنني أبداً الحصول على فرصة لقائه على حدة.

بعد عشرة أيام من محاولات إقناع والدي، أرسل في طلبي مع واحد من رجاله. تبعتُ الرجل بحذر، وأنا أتساءل: هل طفح الكيل به مني ويريد سجني.

استقبلني، لما دخلت مكتبه، بدون عطف، إلا أن حجتي قد أصابت موضعاً حساساً. قال أخيراً، «نعم، يا عمر. يمكن لوالدتك أن تسافر إلى سورية لولادة هذا الطفل». ورمقني بنظرة بغيضة هي كناية عن فرصة أخيرة لتغيير رأيي.

«نعم، يا والدي، سآخذها».

ألقى بيديه الاثنتين في الهواء، وقال «تذكّر يا عمر أن هذا بينك وبين ربّك».

بعبارات أخرى، اعتقد والدي أنني بتركه، أكون غير مخلص لإيماني. وقلتُ مكرّراً «نعم، يا والدي. هذا بيني وبين ربّي. سآخذها».

تنهّد، ثم نادى على أحد رجاله ليأتيه بمبلغ صغير من المال. وأشار إليّ لآخذه من يده. «إذا اقتصدت، يوصلك هذا المبلغ إلى سورية. سلامة والدتك من مسؤوليتك».

«وماذا عن الأولاد؟ ألا يمكن لوالدتي أخذ أصغر أولادها معها؟».

جلس والدي صامتاً، ثم أعطى إذناً محدوداً: يمكنها أخذ رقيّة، وعبد الرحمن».

رقيّة في الثانية من العمر، وبالتالي ليست هذه بمفاجأة. ويحتاج عبد الرحمن إلى البقاء مع والدته. لكن ثمة آخرون يحتاجون إلى أمنا أيضاً.

«وماذا عن إيمان؟ ولادن؟». فإيمان لا تزال فتاة صغيرة، في التاسعة من العمر، ولادن في الخامسة وحسب، برغم أنه سيصبح قريباً في السادسة. والولدان خجولان، ويخافان البقاء بدون أمهما. لم أرد تركهما، لأنني أملت، ما إن أُخرج أمي من أفغانستان، أن أقنعها بعدم العودة.

لكن والدي كثير المكر، لأنه يعرف أنه لا يمكن لوالدتي تحمّل الابتعاد عن إيمان ولادن. «كلا، على إيمان وبكر [كما يدعو والدي لادن] البقاء معي. فقط رقيّة وعبد الرحمن، لا أكثر».

شرعت في مزيد من الكلام، والتوسّل من أجل هذين الولدين الصغيرين، لكنه رفع إحدى يديه وجزم قائلاً: «كلا. أنت تعرف جيداً أنه لا يمكنك معارضتي. لا تسألني من جديد. فقط رقية وعبد الرحمن».

هززت برأسي. لقد فعلت ما في وسعي. سأقلق في شأن الولدين الآخرين لاحقاً. أما الآن فعلي نقل والدتي إلى بر الأمان.

ما إن أعطى موافقته، حتى تحرّكت سريعاً، وهرعت راكضاً إلى المنزل لأبلغ والدتي أننا سنغادر قريباً. وبرغم أنها لم تعرب أبداً عن رغبة في المغادرة، فقد رأيت علامة الارتياح على وجهها، إلا أنها تحوّلت إلى الحزن لما أخبرتها أن إيمان ولادن باقيان هنا، في بلاد الأفغان.

لكن، لم يمكنني التفكير في ذلك في تلك اللحظة.

سنغادر أفغانستان.

ترافقت المرارة مع الغبطة. ولما أخبرْنا كلاً من إيمان ولادن أن أمهما ستبتعد فترة، توتّرا وخافا. وبعد بعض الشرح، قبلت إيمان الصغيرة بقدرها

باستسلام، لأنها متعوّدة على القيام بما يقوله لها الآخرون، لكن لادن شكّل حكاية أخرى. ناح على نحو مثير للشفقة، ولم تفلح أي تعزية له، لأن والدته ستذهب بعيداً بدونه. ولم تخفف من حسرته، حتى فكرة ولادة طفل جديد، شقيقاً كان أم شقيقة.

أزعجتني فكرة الخطة الكبيرة التي حذّرني أبو هادي منها. وصلّيت ليتم إلغاء الخطة، أو تأجليها على الأقل، إلى أن أتدبّر إخراج إيمان ولادن.

كان يوم رحيلنا محطّماً للأعصاب، إذ واصل لادن نواحه وبكاءه للمجيء معنا. وانهار في النهاية كلّياً، وهو يبكي بصوت مرتفع، ويتبع كل خطوة من خطواتي، ويجذبني بقوة من سروالي، ويتوسّلني، «خذني معك يا أخي. خذني معك يا أخي».

راودتني فكرة سريعة تقضي بالإمساك بلادن عندما لا ينظر أحد، لأهمس له بأن يهدأ كلّياً، وأخبئه تحت الشراشف في مؤخرة السيارة، إلا أن الفرصة لم تؤاتني أبداً. كان والدي ورجاله يراقبون، وأعينهم متوثبة كعيون الصقور، لا يفوتهم شيء. ثم إن والدي قرر أن شقيقتي فاطمة وزوجها الجديد محمد سيرافقاننا إلى حدود باكستان.

سُررت في الحقيقة لذلك. فالطريق خطرة، وفي أفغانستان عدد هائل من قطّاع الطرق، لكن أياً منهم سيفكر مرتين قبل مهاجمة ثلاثة رجال مسلحين.

ناديت أمي لأقول لها إنه حان وقت المغادرة. سارت في اتجاهي على مهل وإلى جانبها فاطمة. حملت شقيقتي رقيّة بين ذراعيها. وكان دوري الأول في القيادة، فجلست خلف المقود. وجلس محمد وعبد الرحمن في المقدمة، بينما ولجت أمي والفتاتان إلى الخلف.

شاهدت والدي يتوجه إلى السيارة، فتوقّف قلبي للحظة وخفت من أن يغير رأيه، لكنه جاء فقط ليودّع أمي. تبادلا بعض الكلمات بصوت خفيض لم أسمعه.

لم أشعر بالحزن لمغادرة والدي، لأنني شرعت في تحدّيه قبل ذلك

بسنوات. فالمأساة بالنسبة إلي، هي في ترك لادن وإيمان وراءنا. كان ترك شقيقي وشقيقتي لمصير مجهول، هو أصعب عمل قمت به طوال حياتي.

ألقيت، وأنا أقود مبتعداً عن أبي وعنف حياته، نظرة أخيرة على قامته الطويلة التي أخذت تختفي شيئاً فشيئاً وعرفت أنني لا أغادر أفغانستان بحثاً عن السعادة، بل عن السلام.



شعرت بعيني أسامة عليّ وأنا أتجاوزه للجلوس في المقعد الخلفي للسيارة ذات الدفع الرباعي. تساءلت إذا كان زوجي سيودّعني، وقد استغربت صمته في شأن رحيلي. وما إن استقررتُ في المقعد الخلفي للآلية حتى توجّه صوبي، متوقّفاً ليحملق بإمعان عبر النافذة إلى ذاتي الملتفّة بالبرقع.

وفاجأني أسامة بكلماته.

«مهما قيل لك، يا نجوى، فأنا لن أطلّقك أبداً».

حدّقت فيه وقد أعياني الكلام. الطلاق؟ أنا لم أفكّر في الطلاق. وأنا لست ذاهبة إلى سورية إلاّ لألد طفلي.

قال أسامة تالياً: «عودي مع الطفل ما إن يصبح في إمكانك السفر».

أجبته «سأفعل، يا زوجي. سأعود مع الطفل بأسرع ما يمكنني ذلك».

ابتسم أسامة وهو يعرف أنني عنيت ما أقول. فأنا، في كل سنيّ زواجنا، لم أكذب عليه أبداً.

بانت الضغينة جلية بين عمر وأسامة. لم يلتفت للتحدّث مع والده، ولم يبذل أسامة أي جهد للتكلّم مع ابنه. وأنا لا علم لي بما حصل بين زوجي وابني، لأن أياً منهما لا يتحدّث بسهولة عن أموره الخاصة، سوى أن أمراً

خطيراً قد أدى إلى الانشقاق. فمنذ أصبح عمر مراهقاً، حادت طريقه عن طريق والده. وأمِلْتُ فقط أن الزمن سيعيد التقريب بينهما. وأنا أعرف أن عمر، منذ نعومة أظفاره، أحب والده أكثر من كل أولادي، لكن هذه المحبة أصابها العطب والأذية، وبات من الصعب التئام جروحها.

أدار عمر محرّك السيارة، وقاد بها مبتعداً وعنقه شديدة التصلُّب، وقد صمم على الرحيل بدون انفعالات، لكنني رأيت ابني، في اللحظة الأخيرة، يدير عنقه ليلقي نظرة أخيرة على والده. وتطلّعتُ، أنا أيضاً، إلى الوراء، وليتني لم أفعل، لأن عينيّ لم تشاهدا شيئاً سوى لادن يقف وحيداً عند جانب الطريق، وهو ينوح، ويشيّعنا بدموعه التي لم تتوقف، واستغاثته بطلب أمه. ووقفت إيمان إلى جانب شقيقها الأكبر محمد، وهي تحافظ على مظهرها الشجاع. لكن وجه لادن الصغير أظهر كل ما في قلبه. لم يتمكن من لجم نفسه، فشرع يركض بمحاذاة السيارة، وهو لا يزال يصرخ لعمر «أرجوك يا أخي، خذني معك. أرجوك دعني أذهب مع أمي. أرجوك يا أخي».

أنزل عمر نافذته ولوّح صارخاً: «سنأخذك في المرة المقبلة يا لادن».

انفطر قلبي كأم. من الواضح أن صغيريَّ خائفان، وسبق لي في الليلة السابقة أن تحدّثت إليهما، وقطعت لهما وعداً من القلب: «سأعود. كونا شجاعين سأعود».

سأعود. نعم، سأعود. فأنا لا أنوي التخلّي عن أولادي إلى الأبد. سأعود.

تنهّدت تنهيدة عميقة، وعدت أفكر في فاطمة. عرفت أنها وزوجها لن يذهبا إلى أبعد من الحدود الباكستانية، حيث سننتقل، أنا وعمر وعبد الرحمن ورقيّة، إلى إحدى سيّارات الأجرة لتأخذنا إلى أحد المطارات الباكستانية، على أن نطير من هناك إلى سورية. وأوصيتها: «اعتني، يا فاطمة، بإيمان ولادن خصوصاً».

أجابت: «سأفعل، يا أمي. لا تقلقي»، وهي بالكاد تستطيع إخراج الكلام من فمها.

صمتنا جميعنا لفترات طويلة، لأن كل رحلة بالسيارة في أفغانستان خطرة ومنهكة، ويتّجه الركّاب إلى تركيز انتباههم على سفوح التلال المحيطة بالطريق. وبالرغم من أن أسامة تدبّر لنا السفر بأحدث سيارة لديه وأفضلها، وهي سيارة كبيرة وجيّدة ذات دفع رباعي، فإن الطرق مريعة، إلى درجة أننا شعرنا، بعد بضعة أميال، كما لو أننا تلقينا ضرباً بعصيٍّ غليظة.

لم يشكل لي الشهر السابع من حملي أي متعة. فقد شعرت بالضيق وأنا غير قادرة على بلوغ وضعية مريحة. ولم تكن رقيّة سوى طفلة في أول مشيها، وتحتاج إلى كثير من الاهتمام. أخذت تتسلّق عليّ مرة، وعلى أختها فاطمة مرة، واستمرت على هذه الحال طوال الطريق. وفاطمة، منذ أن تمكّنت، تساعدني في شؤون إخوتها الأصغر سناً. وعرفتُ أنها ستصبح أمّاً رائعة، إلا أنني أملت، نظراً إلى صغر سنها، أن يتأخر أي حمل لها.

أفاد زوج فاطمة، محمد، أن الرحلة بالسيارة ستستغرق ثلاثة أيام، وأن هذه الفترة ستكون خطرة. فلا تزال أفغانستان أرضاً خطيرة تتواصل فيها المناوشات القبلية، وتتربّص العصابات وقطّاع الطرق بالمسافرين لسرقتهم. وسمعنا أن قطّاع الطرق يقتلون في الأغلب ضحاياهم. حاولت نزع الهواجس من رأسي، وأنا أعلم أن رجالنا الثلاثة جميعهم ضليعون في استخدام بنادق الكلاشينكوف الهجومية. وحمل كل منهم إضافة إلى ذلك، مسدساً والكثير من القنابل. وبالطبع، فإن كل رجل في أفغانستان مسلّح، وبالتالي سيكون كل من سيهاجمنا على الدرجة ذاتها من الجهوزية.

لم يدخل أي من رجالنا في حديث، بل تكلّموا بحماسة وهم يفيدون عمّا يمكنهم رؤيته من نوافذ سيارتنا. وأصر عمر على القيادة، فتطلّع عبد الرحمن إلى ما قد يشير إلى خطر من جهتنا اليسرى، بينما ركز محمد عينه ناحية اليمين. وحرصت فاطمة كثيراً على النظر إلى الخلف للتأكد من عدم قدوم أحد ومباغتته لنا من الخلف. وشعرت، صدقاً، بأنني في أيدٍ أمينة.

حاولت ألاّ أفكّر في ما قد نفعله في حال لاحقنا المجرمون، بالرغم من

أنني راجعت ما علّمني إيّاه أسامة عن الأسلحة. فهو قد أخذنا، أنا وشقيقتيّ الزوجتين، مرات عدة إلى مكان منعزل ليعلّمنا كيفية الإمساك بالمسدّس بأيدينا، وأي زناد نضغط عليه لنجعل الرصاصة تنطلق من الأنبوب. وأمسكت كلّ منا بمسدس زوجي الثقيل، وفعلنا كما قيل لنا، إلا أن أسامة سرعان ما أدرك الحقيقة، وهي أن الأمر لا يعدو بعضاً من المتعة لنا في أن نحاول إصابة الأهداف التي وضعها على الصخور الكبيرة. ولا أعتقد أن أي واحدة منّا اقتربت من النجاح في إصابتها. وها قد جاء اليوم الذي أحتاج فيه إلى مثل هذه المهارات، وأتمنّى لو أنني حاولت جاهدة أكثر لأصبح رامية سلاح ماهرة.

انتاب عمر قلق كبير على سلامتنا، بحيث أصرّ، ما إن أخذ ضوء الشمس ينحسر، على أن نبعد سيارتنا كثيراً عن الطريق. فالظلمة تجلب أعظم الأخطار على المسافرين. وهكذا، غادرنا الطريق وتسلّقنا بعض التلال المرتفعة، فأوقف السيّارة في موقع مشرف، بحيث يتناوب رجالنا على مراقبة المنطقة الواسعة.

أصرّت عزيزتي فاطمة على أن تنام وزوجها على الأرض خارج السيارة، ونام معهما عبد الرحمن. رفض عمر الراحة، واستمر في المراقبة حاملاً بندقيته الكبيرة. ونمتُ أنا والصغيرة بالقدر من الراحة الذي يمكن لامرأة تقدّم بها الحمل أن ترتاحه، ولما يمكن لطفلة صغيرة أن ترتاح في مجال ضيّق داخل سيارة.

وهكذا، سافرنا على مدى ثلاثة أنهر وليلتين. وآسفة للقول إننا لم نكن وحدنا في تلك السيارة، لأن الخوف والخطر والانزعاج كانت رفيقتنا الدائمة.

احتجنا جميعًنا، في نهاية الأيام الثلاثة، إلى حمّام جيّد، نغسل به ما علق بأجسامنا من غبار، وما خلّفته هذه الرحلة فينا من خوف وقلق، لكن أيّا منّا لم يهتم بذلك، فيكفي أننا وصلنا سالمين. أما المحطة الحزينة التي علينا أن نتوقف فيها، غصباً عنا، فكانت وداع فاطمة ومحمد. أخبرنا محمد أنه سيأخذ قسطاً من الراحة في الجانب الباكستاني من الحدود، ومن ثم يقود عائداً دون توقّف. ولم أملك أي دليل عن كيفية تمكّنه من القيام بذلك، إلا أن ابنتي

تزوجّت برجل قوي لديه الكثير من التصميم. وإذا أمكن لأحد القيام بالأمر، فهو بالتأكيد محمّد.

أكملنا، أنا وعمر وعبد الرحمن ورقيّة، بقية الرحلة الباكستانية في سيّارة أجرة. وقارنت بين سفراتنا الماضية في سيّارات طويلة سوداء مع مواكبة، وهذه السفرة. نحن الآن فقراء، ولم نعد نتمتع بتلك المعاملة الخاصة. لقد تغيّرت الحياة في أوجهٍ كثيرة. . . كثيرة.

ذهبنا إلى المطار وصعدنا إلى الطائرة المتجهة إلى سورية، ومنظرنا كمسافرين مثير للشفقة. فنحن متسخون ومتعبون. إلا أنني كنت تحت البرقع، ولم يعرف أحد أن نجوى غانم بن لادن هي الموجودة تحت هذا الثوب المتفخ. فللباس المرأة المسلمة مزاياه المفيدة أحياناً.

لا يمكن للكلام أن يصف فرح قلبي لرؤية أمي العزيزة وأخوتي الأحباء بعد سبعة أعوام طويلة.

شكّلت سورية عالماً من الهدوء بعد الحياة الصعبة في أفغانستان. ولم يكن ثمة إثارة للتغيير، وهذا شيء جيد لي. زرت عائلتي وارتحت. وفي الوقت الذي أنجبت فيه طفلتي، وترتيبها الحادية عشرة، وآخر العنقود بين أولادي، بعد شهرين على وصولي إلى البلاد، شعرت بالتحسن واستمتعت باللياقة، التي طالما أفتقدتها في أفغانستان، وعدت المرأة التي كنتها في السابق. وقلت لعمر إنه كان على حق، وإنني احتجت إلى عناية كبيرة في هذه الولادة. وسنسمي الطفلة نور، وهو الاسم الذي اختاره أسامة تكريماً لأخته غير الشقيقة نور التي ماتت سنة ١٩٩٤.

راودتني، وأنا أنظر إلى نور بين ذراعي، فكرة أنني بعد خمس وعشرين سنة من الزواج، وأنا في سن الواحدة والأربعين، أصبحت أماً لأحد عشر ولداً. لم أحلم أبداً، وأنا مراهقة شابة، بإنجاب هذا العدد من الأبناء، برغم أني أحببت كل ولد منهم، ولم أميز بينهم أبداً.

خلال هذه الفترة، شرع ابني عمر في وضع مخططاته. فهو لم يقبل أبداً

بخسارة إرثه، وقضى هدفه بإعادة استحصاله على الجنسية السعودية. وقدّمت إليه عائلة والده مساعدتها اللطيفة، وبدا أن عمر سينجح، إلا أن طلبه يحتاج إلى الوقت للموافقة عليه.

اكتشفت أن ابني لا يضع خططاً خاصة به وحسب، بل لديه أفكار تتعلق بأفراد آخرين في عائلتنا. لم يرد عمر العودة إلى أفغانستان إلا ليأتي بإيمان ولادن ليقيما في سورية.

تمهّلت في الكلام، لأنني أردت له أن يفهم أنه لا يمكنني التخلّي عن أولادي. وأجبته أخيراً «على أيمان ولادن، يا بني، أن يبقيا حيث هما. وهما لن يأتيا إليّ، بل سأذهب أنا إليهما». توقّفت قليلاً وأنا أنظر إلى الصغيرة نور، وأخبرته: «ما إن يصبح عمر نور ثلاثة أشهر، حتى أعود معها إلى أفغانستان».

توسّل عمر: «سمعت كلاماً يا أمي. ثمة مصيبة كبيرة ستحلّ. عليك البقاء خارج أفغانستان».

سمعت تحذير عمر أكثر من مرّة، لكنني لن أكون أكثر من امرأة بائسة بدون أولادي الستة الذين تركتهم في أفغانستان. وأنا أيضاً زوجة رجل لم أعصِ أمراً له أبداً. «سأعود يا عمر، يا بني، إلى أفغانستان. فهناك زوجي وأولادي».

أصرّ عمر: «أرجوك يا أمي، ابقي بعيدة عن أفغانستان. فثمة مصيبة كبيرة ستحلّ».

«إذا كان هناك من خطر آتٍ، يا عمر، فعليّ أن أعود. لدي أطفال صغار هناك، وسيحتاجون إلى والدتهم».

لم يمكن لأيٍّ منّا محو إيمان ولادن من فكره، لأن عُمر قال بدون تحفّظ «لا أستطيع النوم. لو أنني فقط أوقفت السيارة والتقطت لادن وهو يركض بمحاذاتي، لو أنني فقط أمسكت به».

نظرت إلى ابني وشعرت بالحزن يفطر قلبي. فأنا أعرف مكاني في الحياة. أنا زوجة أسامة بن لادن، ولدي أولاد كثر منه. وعليّ أن أعود إلى مكاني في

العالم الذي هو مع أولادي. لكن عمر موضوع آخر. فأكثر أبنائي إحساساً لم يقبل أبداً بالحياة التي أعطيت له. فهو لم يسعد مع عائلته، إلا أنني خشيت أنه لن يسعد بدونها.

وسرعان ما اتصل بي أسامة ليعرف هل أبصرت الطفلة النور بسلام. وسألني متى سيعيدنا عمر إلى أفغانستان. عند ذاك قلت له إن عُمر قد لا يرجع. توقّف أسامة عن الكلام قليلاً، لكنه لم يقل شيئاً سوى أن أتدبّر السفر جواً من سورية إلى باكستان. وإذا لم يعد عمر إلى عائلتنا، فسيصبح عثمان مسؤولاً عن أمه.

وجاء اليوم الذي ودّعت فيه عائلتي في سورية. وكان عمر ينتظر جواز سفره السعودي، على أن يذهب بعد الحصول عليه إلى جدة لاستئناف حياته هناك على غرار ابني البكر عبد الله.

وتوجه إليّ عمر بنداء أخير قبل أن أغادر، لكن جوابي بقي ذاته: «يجب أن أعود يا بني إلى مكاني في الحياة. وهذا المكان هو مع أولادي».

وهكذا كان.

كانت رحلة العودة كريهة إلى حد كبير، حتى أنني أوقفتها عن ولوج ذاكرتي. فقد افتقدت عمر أكثر مما سبق وتخيّلته، لأن ابني الرابع كان المدافع الغيور عنّي منذ مراهقته، إلا أنه الآن في سورية، وأنا مسافرة بدونه. كان معي عبد الرحمن وعثمان، إلا أن كليهما انشغل بمخاطر رحلة الطريق. وأنا اهتممت، وحدي، بطفلة صغيرة جداً وبابن بالكاد يتعلم المشي. وذرف الطفلان دموعاً غزيرة في خلال تلك الرحلة الشبيهة بالكابوس.

وبرغم الخطر الذي حذّرني عمر من أنه ينتظرني في أفغانستان، لم يبدُ لي أي شيء على هذه الدرجة من الترحيب مثل أسوار مجمّعنا في قندهار.

قدم زوجي سريعاً لرؤيتي أنا والطفلة الجديدة. وكان لادن الصغير يقفز ويركض في جميع الاتجاهات، وقد تحمّس كثيراً لعودة أمه. وُسرَّت العزيزة أيمان أيضاً، لكنها وقفت بصمت في انتظار لمسة مني. أما شقيقتاي الزوجتان، فكلتاهما كانت بخير، وسعدتا بعودتي، بحيث يمكننا تسقّط أخبار بعضنا

البعض. حدث ذلك في أوائل سنة ٢٠٠٠ وقد أمضيت ما بقي من ذلك العام أستمتع مع أولادي، مع أنني اشتقت إلى من ليسا معي، وخصوصاً عمر.

وجاءت المفاجأة الكبرى في وقت لاحق من السنة، عندما أخذ ابني الفتي محمد، الذي بلغ الخامسة عشرة للتو، يلحّ على الزواج.

زعم أنه واقع في حب ابنة أبي حفص، أقرب صديق إلى زوجي والقائد ذي المرتبة الرفيعة. وبالرغم من أنه لم تتح الفرصة لمحمد لقضاء الوقت مع ابنة أبي حفص، فهو قد رآها ووقع في حبها.

جابه زوجي وأبو حفص محمداً بالرفض، على اعتبار أنه صغير جداً، وكذلك العروس التي تصغر ابني بسنوات عدة.

إلا أن محمداً ورث عن أبيه قوّة الإرادة، رافضاً اعتبار الرفض جواباً. وألحّ في طلبه على والده وأبي حفص كثيراً، إلى حدّ أن شرع الرجلان يتشاوران، ووافقا على السماح للصغيرين بعقد لقاء تحت أنظار المقربين منهما، وهو ما يُعتبر مناسباً في مجتمعنا. فرح الولدان ببعضهما البعض كثيراً إلى حد أن أبويهما وافقا على عقد خطوبة، على أن تكون طويلة. أو، على الأقل، هكذا قضت الخطّة.

أُعلنت الخطوبة إذاً، وتم توقيع الأوراق المطلوبة. وبالطبع، لم يتزوجا كما يفعل رجل وامرأة، نظراً إلى عدم نضج محمد وعروسه.

أمل الجميع أن الترتيبات الرسمية ستهدّئ محمداً وتدفعه إلى الانتظار إلى أن يصبح في السابعة عشرة في ٢٠٠٢، وهو عمر مناسب للعريس، بحسب ما يرى زوجي.

إلا أنه كانت لابننا أفكار أخرى.

في إحدى ليالي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، وبينما كان الجميع نياماً، انسلّ ابني المضطرب من فراشه، وتسلل إلى اسطبلات زوجي، وامتطى حصاناً، وعدا به على مدى ست ساعات في أرض خطرة، مسافراً لأكثر من

ثلاثين ميلاً من مجمّعنا الريفي إلى مدينة قندهار. ووصل إلى منزل أبي حفص قبل الفجر بقليل.

ارتاع أبو حفص من الطَّرق القوي على بابه.

هبَّ ليرى إذا كان الأمر يستدعي منه استخدام السلاح.

لكن محمداً، صهره، كان هو من أيقظه من نومه، وقد تملكته جرأة كبيرة ليعلن بصوت مرتفع: «أنا هنا لأطالب بعروسي».

كان محمد أكثر شجاعة من معظم المراهقين، لأن أبا حفص رجل ضخم، ومقاتل لا يعرف الخوف، ووالد يأخذ شرف عائلته على محمل الجد.

ومن حسن حظ محمد أنه لم يتلق الضرب بالعصا، بل دعاه أبو حفص بدلاً من ذلك إلى منزله، حيث لم يتوقّف عن الكلام، متحدّثاً بقوة-لإقناع حميه المستقبلي بأنه يجب عقد الزواج عاجلاً، وليس آجلاً.

سافر أبو حفص عائداً مع محمد إلى مجمّعنا للاجتماع مع أسامة. وقد قلق الرجلان على محمد الذي خاطر بحياته للقيام بتلك الجولة الليلية على الحصان وحده.

لانَ الأبوان أخيراً، وقد اقتنعا بوجود حب كبير بين ولديهما.

وهذا ما حصل، فالرجلان الصديقان المقربان منذ أيام الحرب الروسية، يخططان لعرس كبير لابنهما وابنتهما. وقد فرح أولادنا كثيراً إلى حد أن الحدث تطوّر إلى مناسبة هائلة استغرق التخطيط لها أشهراً عدّة، حتى أنه تمت دعوة أفراد من العائلة في السعودية. وتقرر أن يُعقد زواج محمد في شهر كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. وستسافر والدة أسامة، وزوجها، وأحد أبنائهما إلى قندهار، لهذه الغاية.

جاء كانون الثاني/يناير سريعاً. وشكّل زواج ابني محمد حدثاً كبيراً مع الكثير من الغبطة والسرور. لم يسبق لي أبداً أن شاهدت أسامة على هذا القدر من البهجة، لأنه يحب أبا حفص كأخ، وسيربط ولداهما عائلتينا إلى الأبد.

وكالعادة، احتفل الرجال والنساء، كل على حدة. وبعد العرس، أقام محمد وعروسه على مقربة مني، وقد أوحيا إلى الجميع بأنهما أسعد زوجين. أما أنا، فأحببت زوجة ابني كما أحب بناتي.

سُررت كثيراً لعودتي إلى أفغانستان مع أولادي، بحيث إنني بالكاد فكّرت، ولو مرة، في تحذير عمر من المصيبة الآتية.



الفصل الثامن والعشرون

العودة إلى السعودية

عمر بن لادن

لم أحقق الكثير في الأشهر الأربعة التي أمضيتها في سورية، ما بين أواخر سنة ١٩٩٩ وأوائل سنة ٢٠٠٠، سوى تعلّم فن الانتظار. وقد صممت على استعادة الإرث الذي يحق لي كمواطن سعودي. أنا لم أقبل أبداً بزيف جنسيتي السودانية، فما أنا ألا سعودي. ونقطة على السطر.

فشلت جهودي في إبقاء أمي وشقيقتي وشقيقيّ الأصغرين، بعيداً عن أفغانستان. لا يمكن أن تظل أمي بعيدة عن أولادها الآخرين، أو عن الحياة الوحيدة التي عرفتها منذ اليوم الأول الذي تزوّجت فيه بوالدي قبل ستة وعشرين عاماً.

وما إن غادَرَتْ حتى غرقتُ في حالة من التراخي، وأنا جزع من أنني سأسمع، في أي يوم، عن مصيبة رهيبة يسببها والدي. ومن حسن الحظ أن الأشهر الأولى لسنة ٢٠٠٠ مرّت بهدوء، بدون أخبار عن هجمات انطلقت من أفغانستان. هدّأني ذلك ودفعني إلى الاعتقاد أن أبا هادي ربما أخطأ، أو أن والدي أصبح ربما أكثر حذراً، وقد أصابه القلق من أن الملاّ عمر سيجبره على مغادرة أفغانستان فوراً في حال تنفيذ المزيد من الضربات ضد الولايات المتحدة أو المملكة العربية السعودية.

وحلّ اليوم السعيد الذي أبلغتُ فيه أنه تمت الموافقة على طلبي الحصول

على جواز السفر السعودي. وأصبحت أكثر سعادة مما كنته لسنوات، لمعرفتي أنني استعدت اسم مولدي وإرثي الحقيقي، لأنني لم أقبل أبداً بقرار والدي تغيير سجلّي الرسمي قبل مغادرتنا السودان. وابتسمت ابتسامة عريضة ملء وجهي بالفعل، بانت معها أسناني كلها. ومن حسن الحظ أنه لم يوجد في الجوار من يعترض أو يُحصي عددها.

بلغت قوة الانفعال الذي شعرت به لكوني استرجعت جنسيتي، وعدت سعودياً من جديد، أشدَّ مما أمكنني تصوّره. وخطّطت سريعاً للعودة إلى أرض مسقط رأسي؛ الأرض التي أحببت.

وأفضل الأوقات كان وقت وصولي إلى جدة. فأنا لم أرَ مدينة طفولتي منذ ثماني سنوات طويلة. أحببت كل شيء: المناظر، والروائح، والناس. زرت عائلة والدي التي لعب أفرادها دوراً أساسياً في تحقيق أحلامي. ثم، إلى من ألتجئ غير عائلتي؟

أردت القيام بأمور كثيرة، إلا أن رحلتي الأولى كانت إلى المسجد الحرام في مكة. شكرت الله لأن درب والدي لم تغرّني، ولأنني نجحت في مقاومة حياة العنف، حتى وأنا فتي وقابل للتكيف.

سافرت، بعد تلك التجربة الرائعة، عائداً إلى جدة، وأنا أتمتع بكل يوم بوصفه خطوة إضافية في اتجاه بناء حياتي الجديدة. وقد تعرّفت للمرة الأولى إلى كثير من انسبائي آل بن لادن، لأن والدي تعمَّد إبقاء أولاده عند حدود عائلة والده.

وكان، من هؤلاء الأقارب، رندا محمد بن لادن، أخت والدي غير الشقيقة، وعمّتي العزيزة التي تصغر والدتي ببضع سنوات. لم تأخذ عليّ العمة رندا ارتباطي بوالدي، ووضعتني تحت جناحها.

وعمّتي هذه واحدة من أفطن النساء اللواتي عرفتهن، وقد حققت الكثير في حياتها. فهي ليست وحسب أول امرأة في السعودية تحصل على رخصة لقيادة طائرة، بل توصّلت إلى أن تصبح دكتورة في الطب، تعتني بالمرضى من أفراد العائلة.

ولسبب من الأسباب، اهتمت عمتي كثيراً بحياتي. وقالت، برغم أن أنسبائي أعطوني وظيفة وضيعة، إنه علي العودة إلى المدرسة إذا أردت تحقيق أي نجاح. وقد أخَذَت الأمر على محمل كبير من الجد، بحيث إنها اتصلت بوزارة التربية، وتدبّرت لي الذهاب لإجراء مقابلة. قلت لها إنني سأفعل، برغم عدم تأكدي من أنني سأحقق ذلك. فأيام الدراسة أثارت فيّ ذكريات رهيبة.

حملت طوال سنوات غضباً عارماً على معلّمي مدرسة أبي بن كعب في جدة، وعلى واحد منهم بنوع خاص، بلغت به القساوة حداً يجب معها ألا يكون له أي عمل مع الأولاد الصغار. وقررت العودة إلى تلك المدرسة لمواجهة الرجل. فقد ضربني تكراراً، واعتقدتُ أنه ربما يمكنني استدراجه من المدرسة وضربه بالعصا لأعلّمه كيف يكون الشعور بذلك.

بلغت الإذلال حجماً كبيراً جداً، بحيث إنني عانيت، لدى عبوري مدخل المدرسة، فورة من الهول في جسمي كلّه. وشعرت، برغم أنني في التاسعة عشرة من العمر وقد كبرت أخيراً لأصبح رجلاً طويلاً وقوياً، كما لو أنني طفل عاجز.

لكنني لن أدع ذلك يردعني عن أن أقول لهذا المعلّم القاسي رأيي فيه. ويا لخيبتي، إذ سرعان ما عرفت أنه تقاعد منذ سنوات. ولم يشأ أحد أن يقول لي أين يقيم. ولم يمكنني، في الواقع، تحديد مكان أي من الأساتذة الذين أساؤوا معاملتي أنا وأخوتي. ولما أدركت أن الانتقام بات مستحيلاً، اندفعت بعيداً.

جعلتني تلك المدرسة أفكّر بجدية أكبر في الموعد الذي حددته عمّتي رندا. وعلي الاعتراف بأنني كنت جاهلاً. فقد قطع والدي تعليمنا الرسمي، ما عدا التعليم الديني، وأنا ما زلت في الثانية عشرة. وعرفت، بالرغم من أن التعليم الديني مهم، أن التعليم الرسمي سيكون من متطلبات حياة مهنية جيدة وناجحة في قطاع الأعمال. وقد لاحظت أن أنسبائي آل بن لادن، تلقوا تعليماً عالياً، ويعرفون الكثير من الأمور التي لا أدركها. وقد أزعجني شعوري بأنني أقل استعداداً لمماشاة حياة أنسبائي.

وقرّرت اتباع توصية عمتي رندا.

أُصبتُ، وأنا في طريقي إلى الموعد في وزارة التربية، بالارتباك بسبب وجود كثير من المباني الكبيرة في المنطقة، وانتهى بي المطاف في مبنى يضم شركات تلفزيونية عدة. لم أدرك أنني في المكان الخطأ، فدرت من حول المبنى وأنا أتحقق على الأبواب من اسم وزارة التربية.

راودت الشكوك أحد عناصر الأمن الذي طلب رؤية ما يُعرّف عنّي. لم أفكّر في الأمر، وأعطيته هويتي. وفي الحقيقة، سببت رؤية اسمي دخول الرجل في حالة من الاضطراب الجنوني. ولمّا اعترفت بأنني ابن أسامة بن لادن، أوقفني!

أُخذت إلى الحرس الوطني، وهو مكتب تابع للجيش السعودي، ووُضعت في غرفة صغيرة ليتم استجوابي.

وصل رجلان، وتداخلا في الكلام، وهما يسألانني عن سبب وجودي في مكاتب التلفزيون، وإلى أين أنا ذاهب، ولماذا. وشرع عنصر الأمن الذي أوقفني في الكذب، قائلاً لضابط الجيش إنه أدرك أنني لا أنوي خيراً لما رآني أراقب المبنى بطريقة تثير الكثير من الريبة. وأمكنني أن أرى أنه أخذ يتخيل نفسه بالفعل، وقد حصل على مكافأة لمنعه عملاً إرهابياً!

أصيب الجميع حينها بالذعر. ونُقلت إلى مكان أكثر أمناً، وأُقفل عليّ في زنزانة. انتظرت هناك لست ساعات، لا أعرف ما العمل، في حين استمر الأناس في السير عائدين للتحديق فيّ. لم أشأ أن يعتقدوا أنني مثير للشغب، وقد أحرجني كثيراً أن أطلب الاتصال بعائلتي.

وصل أخيراً، أحد الجنرالات، ومن حسن حظي أنه كان ذكيّاً. طرح عليّ الأسئلة بهدوء، وأخبرته بالحقيقة، وهي بسيطة. لم أعرف أنني في المبنى الخطأ، وانتقلت ببساطة من مكتب إلى مكتب، أملاً مني في العثور على القسم المطلوب.

ابتسم الجنرال اللطيف، وقال: «لا تبدو لي إرهابياً. وأنا أصدّقك». ووقف وصافحني، وخرج ليأمر بإطلاق سراحي.

عدت في اليوم التالي إلى المنطقة وعثرت على المبنى الصحيح. كان وزير التربية طيّباً، وسجّلني في مدرسة تبلغ أعمار التلاميذ فيها ما بين السابعة والثانية عشرة، إلا أنه يوجد فيها قسم منفصل للتلامذة الأكبر سنّاً الذين لم تُتح لهم أبداً فرصة إنهاء الدراسة.

جاء يوم دراستي الأول. لم أشعر أبداً بمثل هذا الخجل. فها أنا رجل يبلغ طولي أكثر من مائة وثلاثة وثمانين سنتيمتراً، أدخل مدرسة جميع التلامذة الآخرين فيها من الأولاد. وأوضح مدير المدرسة أنه لا يحبني، سائلاً: «ما الذي تفعله هنا؟ أنت كبير جداً على هذه المدرسة، حتى على الصف الخاص. قف جانباً». وهكذا، جعلني أقف خارجاً إلى أن تم توجيه كل تلميذ إلى صفّه. وبعد ذلك سمح لي بدخول مبنى المدرسة.

ولما اكتشف المدير في وقت لاحق من النهار أنني ابن أسامة بن لادن، تضاعف استياؤه.

وأخذ المدير، مع كل يوم يمرّ، يصعّب عليّ أكثر حضور المدرسة. وحدد نظاماً علي أن ألتزم به: إذا لم أجلس في غرفة صفّي مع قرع جرس بدء الدروس، فعلّي عندها العودة إلى المنزل. إلا أنه أمرني بالانتظار خارجاً إلى حين دخول جميع التلامذة الآخرين، وغالباً ما يجعل من المستحيل عليّ دخول الصف في الوقت المحدَّد.

وسأقول إنني لست التلميذ الوحيد الذي أُسيئت معاملته. فقد اتضح أن أي تلميذ فاق الثانية عشرة من العمر، غير مرحّب به، برغم أن مدرسته هي التي توفر فيها صفوف خاصة للتلامذة الأكبر سنّاً!

وقلت في سري: «هذا ما جناه أبي عليّ».

رفضت أن أدع المعلم يحبط من عزيمتي. وقبلت إذلاله لي بوجه عديم الانفعال، منهياً تلك السنة الصعبة، وخاضعاً لامتحانات الصف السادس التي نجحت فيها، وحصلت على شهادتي.

تخلّيت بعد ذلك عن المدرسة نهائياً، وقد أدركت أن الأساتذة في السعودية

لن يسمحوا لي أبداً بالتخرّج. فأنا كبير جداً في السن، وطويل جداً، وابن أسامة بن لادن.

وسيكون علي أن أشق طريقي صعوداً في الأعمال بدون تعليم رسمي.

ثم حلّ الثاني عشر من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، والهجوم على السفينة الحربية الأميركية كول في ميناء عدن في اليمن. كانت كول متوقّفة لإعادة التزوّد بالوقود عندما اقترب زورق صغير منها، وقد ادعى الرجلان اللذان على متنه أنهما صيادان ودودان أخذا يلوّحان للبحارة الأميركيين على السفينة الذين ردوا عليهما بالتلويح بأيديهم أيضاً. وما إن بلغ الزورق جانب الميناء حتى حصل انفجار هائل أدى إلى مقتل ١٧ بحاراً، وجرح ٣٩ آخرين.

شعرتُ بموجة من الغثيان. فهل والدي يحتفل كما فعل بعد التفجيرين في أفريقيا؟ لم أمتلك، طبعاً، وسيلة لمعرفة الحقيقة كاملة، ليس أكثر من أي مواطن سعودي عادي. فأنا لم أعد أنظر إلى الخارج من الداخل. وأنا في الحقيقة فضّلت موقعي الجديد برغم أنني لم أتوقف عن القلق على أمي وأخوتي.

ولم تمر أيام كثيرة حتى أخذت التقارير الصحافية الدولية تقول إن تنظيم «القاعدة» الذي يتزعمه والدي، يقف وراء تفجير «كول». فهل هذا هو الهجوم الكبير الذي حذّرني منه أبو هادي؟ أنبأني حَدْسي بأنه ليس هو، لأن الهجوم على كول، برغم الضرر الحاصل والخسائر في الأرواح، أقل تدميراً من تفجيري السفارتين الأميركيتين. وأوحت كلمات أبي هادي بأن الهجوم المقبل سيبلغ حداً كبيراً من الضخامة لن يتخيّله سوى القلّة.

تحطّمت أعصابي، ولا يوجد أحد أشاطره همومي. فثمة اتفاق ضمني بين عائلة والدي في السعودية بعدم الحديث في أمور محرجة مثل والدي ونشاطاته. بل نادراً ما يتلفّظ عبد الله، شقيقي من أمي وأبي، باسم والدنا. وعاش أخي غير الشقيق، علي، مع والدته في مكة، إلا أنه لم يكن لدينا الكثير مما نقوله

لبعضنا البعض. فذكريات طفولتنا بلغت حداً كبيراً من الألم، بحيث لم تتملكنا الرغبة في إعادة تذكّر تلك الأيام.

وهكذا، تبرّحتُ ألماً وحدي، وكلمات أبي هادي تطنّ في أذني، وأنا آمل، برغم ذلك، ألا يحصل الحدث الكبير الذي حذّرني صديقي منه.

تلقّت جدتي عليا وعائلتها، في شهر كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠، دعوة إلى السفر إلى أفغانستان لحضور زواج شقيقي محمّد. وقد تحمّستُ لرؤية ابنها البكر.

وليس مفاجئاً أنني لم أتسلّم دعوة، إلا أنني تعجّبت لسماعي أن شقيقي الفتي محمّد سيتزوج بابنة أبي حفص. فبالنسبة إليّ، لا يزال كل من العريس والعروس طفلاً.

وأعاد زواج شقيقي الأصغر مني، وضعي كعازب إلى ذهني.

وبعودة جدتي من الزفاف، استدعتني إلى منزلها، وقد تشوّقتُ إلى سماع تفاصيل حياة عائلتي في أفغانستان. لكنها، وهي التي لم تخبرني بالكثير، كشفت أن العرس كان واحداً من أروع الأعراس، وأن محمداً كان أكثر العرسان سعادة. وأفادتني بأن جميع أفراد عائلتي بخير، الأمر الذي أدخل في نفسي شعوراً جميلاً بالارتياح.

ثم فاجأتني جدتي بقولها: «عمر، والدك غاضب منك جداً لمغادرتك أفغانستان. وهو يأمرك بالعودة».

أذهلني ذلك وراعني، وطلبت المزيد من التفاصيل: «لماذا هو غاضب؟ فهو لم يغضب من عبد الله لعودته إلى السعودية. فلماذا يغضب مني؟».

واكتفت بالقول «لا أعرف سبب غضب ابني. إنه والدك. عُدْ يا عمر، عُدْ واكتشف بنفسك. والدك يأمر بذلك».

رمتني الرسالة غير المتوقعة في دوامة الاضطراب. فلا يمكن لأي ابن أن

يتجاهل مثل هذا الأمر المباشر من والده، لكن ما الذي جرى ليدفعه إلى إصداره؟

فكّرت في احتمالات كثيرة. ربما للأمر علاقة ما بصديقي أبي هادي. هل طلب والدي تحقيقاً خاصاً عن سبب عدم عودتي من سورية؟ هل اكتشف أحد أن أبا هادي حذّرني من وجود مهمّة سرّية؟ بالرغم من أنه رفض أن يقول أكثر من أن علي الهرب، فإن هذه المعلومة يمكنها حتى أن تُدخله في مشكلة خطيرة جداً إلى درجة أنه قد يُعدم بتهمة الخيانة.

هل طلب والدي من أمي أن تكشف عن أحاديثنا؟ فوالدتي لن تتطوّع لتقديم معلومات عني. لكن، لو طرح عليها والدي سؤالاً مباشراً، فلن تكذب أبداً عليه.

وبعد أسبوع من التردّد، قررت القيام بأمر قلت إنني لن أفعله أبداً: العودة إلى أفغانستان.

لكن الزيارة ستكون وجيزة. سأدخل سريعاً، وأخرج سريعاً.

حفلت الرحلة كثيراً بالصعوبات، بحيث كدت أستدير على أعقابي عند الحدود الأفغانية. وكدت، وأنا أنتظر ثلاثة أسابيع للقيام بترتيبات السفر، أقنع نفسي بالتخلي عن الرحلة. لماذا يجب أن يكون لوالدي أي تأثير فيَّ؟ فروابطنا القلبية قد انفصمت منذ وقت بعيد. وبرغم ذلك وجدت نفسي مدفوعاً ضد إرادتي.

ربما لم يكن وداعنا نهائياً بما يكفي.

شاهدت عيناي مرّة أخرى مجمّعنا في قندهار بعد واحدة من أشد السفرات إرهاقاً.

قفزت أمي وأخوتي الصغار فرحاً بعودتي، وقد اعتقدوا خطأً أنني عدت لأبقى. سحبتُ والدتي جانباً وسألتها: «قالت لي جدتي، يا أمي، إن والدي أمرني بالعودة. هل تعرفين شيئاً عن ذلك؟».

هزّت برأسها نافية، وقالت «لم أسمع بهذا الأمر».

وذهبت، بعد الزيارة اللطيفة، بحثاً عن أبي، وأنا أخشى مشاحنة درامية بسبب كلمات جدتي.

بحثت عنه ليوم أو يومين، ولم أتمكن من إيجاده.

وبعد طول بحث رأيته أخيراً، وهو ذاهب للوضوء. فسرت مسرعاً حتى لا أضيعه، وناديته «أبي، لقد عدت. أبلغتني جدّتي أنك تصرّ على رؤيتي».

أجابني بابتسامة غير متوقعة، «يا بني، ما من حاجة بك إلى العودة. لقد ركبت مخاطرة خطيرة من أجل لاشيء».

استدار والدي وغسل وجهه، ويديه، ورجليه، قبل أن يدخل الجامع لأداء صلواته.

وقفت مصدوماً. ما الذي حصل للتو؟ هل سافرت هذه المسافة الطويلة كلها، عبر أكثر الطرقات خطورة، من أجل لاشيء؟ من المؤكد أن جدتي ما كانت لتوصل مثل تلك الرسالة لو لم يطلب والدي منها إيصالها.

هززت برأسي، وقد أصابتني الحيرة. ابتعدت وأنا أبحث عن صديقي أبي هادي الذي لم يبتهج لرؤيتي، فبادرني قائلاً «عمر! ما الذي تفعله في قندهار؟».

أخبرت صديقي عن رسالة جدتي، وعن رد فعل والدي.

فكّر أبو هادي لبضع دقائق، وتطلّع من حوله للتأكد من أننا وحدنا، ثم همس: «أنت تعرف والدك يا عمر. ربما افتقدك لما كانت جدتك هنا من أجل العرس، وهو يعتقد أنه أخذ يخسر العديد من أبنائه. والأكثر ترجيحاً أنه انتابته لحظة غضب، وأعرب عن انزعاجه. وفي الوقت الذي تلقّيتَ فيه الرسالة ورجعت، طرأت أمور كثيرة في ذهنه، ونسي غضبه منذ وقت طويل».

وأفترضُ أن تفسير أبي هادي جيّد، كأي تفسير آخر.

ثم عاد أبو هادي إلى تحذيره الأساسي. «لا تفكّر، يا عمر، في البقاء هنا. ارجع إلى حياتك الجديدة. الخطة الكبرى لا تزال سارية، وستُنفَّذ. وعليك أن تكون بعيداً، بعيداً جداً. أعتقد أن الكثيرين منّا سيموتون».

ومرّة أخرى استخدم صديقي يده للشرح. «تذكّر يا عمر أن المهام الماضية كانت بهذا الحجم»، وأنزل يده إلى مقربة من الأرض. «أما المهمة الجديدة فبهذا الحجم»، ورفع يده عالياً بقدر ما يستطيع من فوق رأسه.

اقتنعت، وذكّرته: «لكن أمّي؟».

«حاوِلْ مرّة أخرى إقناعها بالمغادرة. لا أعلم متى سيقع الحدث الكبير، لكنني أعتقد أن الوقت آخذ في الاقتراب».

صدّقتُ أبا هادي. يجب أن أرحل، هذه المرة نهائياً.

بقيت لبضعة أسابيع، وأنا أتحدث جدّياً مع أمي. ولكن ليس لدينا حَمْل هذه المرة نستند إليه في مناشدتنا. قلت لها «إذا لم تتمكني من المغادرة معي، يا أمي، فعليك بالمغادرة قريباً. أرجوك، اطلبي الإذن من والدي، فربما يمنحك إياه».

وللمرّة الأولى، ينعكس القلق في عيني أمي. وأمِلْتُ أن تحذيري سيخترق نظريتها الساذجة التي تعتبر أن كل شيء في الحياة سينتهي إلى خير.

أردت رؤية أبي مرّة أخيرة، ليكون لي كلام حاسم معه، ولأتوسل إليه إرسال أمي وإخوتي بعيداً، لكنه استمر في الذهاب أو الإياب. لم تتوفّر لي الفرصة أبداً في الاقتراب منه لإجراء حديث خاص. لم يسبق لي أن رأيت والدي على هذا القدر من الانشغال مع كل من زوّاره ورجاله، حتى في خلال ذلك الصيف الكثير الانشغال في ١٩٩٨ الذي أدى إلى تفجيري أفريقيا.

تساءلت إذا كان والدي على هذا القدر من الاجتهاد، لأنه يخطط لمراحل الحدث الكبير الذي خشي وقوعه أبو هادي.

همستُ كلمات الوداع الأخيرة لأبي هادي. دمعت عينا ذلك المحارب الشديد وهو يقول لي «لن نلتقي يا عمر على هذه الأرض من جديد، لكنني سأراك في الجنة».

لكن الاستئذان الأصعب بالرحيل، كان عندما ودّعت أمي وأخوتي، وكافحت وقلبي يشعر بالأسى من أنني قد لا أرى أياً منهم أبداً بعد الآن.

ولمّا غادرتُ أمي، ناشدتها للمرة الأخيرة «أرجوك يا أمي، غادري هذا المكان. عودي إلى الحياة الحقيقية».



الفصل التاسع والعشرون

مغادرة أفغانستان نهائياً

نجوى بن لادن

جددت زيارة ابني من هواجسي. وكل ما أمكنني التفكير فيه، هو كلماته التحذيرية. شعرت، للمرة الأولى، بأن عمر قد نطق بالحقيقة، وأنه من الأفضل لي أن أغادر أفغانستان. وأردت، حقيقة، للمرّة الأولى خلال زواجي بأسامة، أخذ أولادي والعودة إلى منزل عائلتي في سورية. لكنني لم أتمتع بما يكفي من الشجاعة لمفاتحة زوجي بقراري هذا.

وجدت نفسي أفكّر طوال الوقت في الرحيل، وقد تملّكتني فكرة ضرورة خروجي من أفغانستان. لكنني لم أرد المغادرة بدون أولادي، على الأقل غير المتزوجين منهم، أي عبد الرحمن، والأربعة الأصغر: إيمان، ولادن، ورقيّة، ونور.

وقد زوّج أسامة مؤخراً إحدى البنات بأحد المقاتلين، ولي بالتالي أربعة أولاد مرتبطين بأزواجهم في أفغانستان، وهم: سعد، وعثمان، ومحمّد، وفاطمة. وعرفت أنهم لن يغادروا معي.

استبد بي الحزن والكرب والقلق إلى أن أنهكتُ. أصبحت هموم عمر همومي. وتضخّم هذا الهم إلى أن تحوّل إلى خوف رهيب، فأدركت في النهاية أنني سأكون أكثر سعادة لو بذلت جهداً على الأقل. ولو جابهني أسامة بالرفض، فلن يكون في وسعي فعل شيء، وسأقبل بما يقدّره لي الله. ولو وافق أسامة، فسأعتبر عندها الأمر بمثابة إشارة إلي بالذهاب.

مرّ علينا حرّ صيف آب/أغسطس، وكان أن جاء عندها الوقت المناسب لمناقشة زوجي في الأمر. لم أشأ أن أفقد شجاعتي، فسألته بدون تردّد، «أسامة، هل يمكنني الذهاب إلى سورية؟».

لم يتحرّك أسامة، وحدّق فيّ مفكّراً. فلطالما قال، خلال سنوات زواجنا كلّها، إنه يعطي الحرّية لأي من زوجاته بالرحيل في أي وقت إذا شعرت بالرغبة في ذلك. قال «أتريدين إذاً، الذهاب، يا نجوى؟».

«نعم، يا زوجي. أريد الذهاب إلى سورية، إلى منزل والدتي».

لم نتحدّث، لا أنا ولا هو، في شأن الطلاق، لأنه ليس موضوع طلبي. أردت وحسب الذهاب إلى سورية مع أصغر أولادي.

قال أسامة «أمتأكّدة أنت، يا نجوى، من أنك تريدين الذهاب؟».

«أريد السفر إلى سورية».

هزّ برأسه موافقاً، وتعبيره يحمل بعض الحزن. وقال «نعم، يا نجوى، في وسعك المغادرة».

«هل يمكن لأولادنا المغادرة معي؟».

«يمكنك أخذ عبد الرحمن، ورقيّة، ونور».

«وإيمان؟ ولادن؟».

«لا، لا يمكن لإيمان ولادن الذهاب. إنهما يخصّان والدهما».

هززتُ برأسي ليقيني أنني لن أتمكن من تغيير رأيه في شأنهما، لكنني لن أعرف أبداً سبب إبقائهما لكونهما صغيرين جداً.

«حسناً، سآخذ عبد الرحمن، ورقيّة، ونور».

قال أسامة: «سأتدبّر الأمر. ستغادرين خلال أسابيع قليلة»، ثم استدار وخرج من الباب كما لو أننا ناقشنا أموراً بسيطة كثيراً لا تستحق أن يبقى من أجلها وقتاً أطول.

تحرّكت الشكوك في داخلي. فربما كان عمر مخطئاً، وربما لا يوجد سبب لي للابتعاد.

رآني أسامة مرّات عدة قبل أن أغادر. واستغل مناسبة خاصة ليقول لي، كما فعل لدى ذهابي إلى سورية لولادة نور، «لن أطلّقك أبداً يا نجوى. حتى ولو سمعتِ أنني طلّقتك، فلن يكون ذلك صحيحاً».

هززت برأسي، وأنا أصدّق زوجي. عرفت أن روابطنا العائلية ستضمن ولاء أسامة، ثم إنني لا أطلب الطلاق.

بل إنني، في صباح مغادرتي، قدّمت إلى زوجي محبساً عربون سنواتنا معاً. فلطالما كان أسامة جزءاً من حياتي، فهو نسيبي قبل أن يصبح عريسي، وعريسي قبل أن يصبح أبا أولادي.

وفي أول أيام أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أقلني ابني عثمان بالسيارة إلى خارج أفغانستان، بعيداً، وبعيداً جداً عن أبنائي سعد ومحمّد ولادن وابنتيّ فاطمة وإيمان. انفطر قلب الأم داخلي وتحطّم إلى أجزاء صغيرة، وأنا أشاهد وجوه أولادي الصغار تتلاشى، وتضمحلّ في البعيد.

إلا أنني أنقذت عبد الرحمن، ورقيّة ابنة الأعوام الأربعة، ونور ذات العامين.

لم أكفّ أبداً، طوال الرحلة عبر أرض أفغانستان الوعرة، عن الصلاة والتضرع كي يعمّ السلام الأرض، ليتمكّن الجميع من استعادة الحياة الطبيعية. وأعتقد أن هذه الأمنية مشتركة بين جميع النساء الأمهات.

وأنا، برغم جميع الأمور الرهيبة التي حصلت منذ مغادرتي أفغانستان، لا يمكنني أن أفكّر وأشعر إلا بقلبي كأم. لأن قلب الأم يتألم أشد الألم مع فقدان كل ولد. فلا ترى أي منا أبناءها يكبرون ليصيروا رجالاً. ولا يمكن لأيٍّ منا أن ترى بناتها يصبحن أمهات. ولا يعود في وسعنا رؤية البسمة على وجوههن، أو كفكفة دموعهن. شعر قلبي كأم، بألم مع كل خسارة، وأنا أذرف الدمع ليس على أولادي وحسب، بل على كل ولد فقدته أمه.



أفقت من نومي العميق على عويل غريب، أعقبه صوت غير معتاد. كنت في منزل جدتي في جدّة عندما اقتحم عمّي غرفتي، وصوته مرتفع، وكلماته توقع بالإرباك. «انظر إلى ما فعله شقيقي! انظر إلى ما فعله شقيقي! لقد دمّر حياتنا جميعاً! لقد دمّرنا!»

واستمر في الصياح: «تعال بسرعة! تعال وشاهد ما فعله شقيقي! انظر إلى ما فعله والدك!».

ارتديت ثيابي على عجل وتبعته إلى الغرفة التي تحتوي على شاشة تلفزيون. وشاهدت اللهب يندفع من مبنيين مرتفعين، بدون أن أمتلك أي فكرة عمّا أنظر إليه.

لكنني سرعان ما عرفت أن أميركا تتعرّض لهجوم خطير.

كانت الكلمات والصور مريعة إلى درجة عصية على الفهم. وبالرغم من أن عمّي عبّر عن أسوأ مخاوفه، لم يكن ممكناً لأي منا أن يعتقد حقّاً أن شخصاً نعرفه، شخصاً أحببناه، قد تربطه أي علاقة بالأحداث الكارثية التي نشاهدها.

بدا مستحيلاً، برغم تحذيرات أبي هادي، أن يكون أبي هو المسؤول عن الفوضى والموت الحاصلين في أميركا. فالهجوم الذي أشهده كبير للغاية، كبير

إلى درجة لا يمكن معها إلا لقوة عظمى أخرى تدبيره. هذا أكبر بكثير مما أذكره من كلمات أبي هادي وحركات يديه، وهو يُنزل يده على علو بضعة سنتيمترات فقط عن الأرض، قائلاً لي، «كان، يا عمر، تفجيرا السفارتين بهذا الحجم»، ثم يرفع يده إلى أعلى ما يستطيع، «هكذا ستكون المهمة المقبلة».

أهذه هي المهمة؟ طبعاً لا!

ثم تذكّرت لحظة أكثر غرابة. فقد تلقّيت في الليلة السابقة اتصالاً هاتفياً مفاجئاً من أمي، قالت فيه إنها أخذت بنصيحتي واستجمعت قواها لتطلب من والدي الإذن بالمغادرة. وهي قد غادرت أفغانستان، وباتت الآن في سورية ومعها طفلتاها وأخي عبد الرحمن.

«ولادن؟»

صمتت والدتي قليلاً، ثم قالت «إنه مع والده».

عَصَرَتْ بلوى هذا الصبي الصغير قلبي.

وعلى وقع هذه الفاجعة الراهنة، أصابتني ملابسات سماح والدي لها بالمغادرة، كالحجر الكبير. فهل تركها تذهب بسبب ما عرف أنه آتٍ؟

اتصلتُ بأمي، بعد مشاهدة برجَيْ نيويورك، لأعرف إن كانت تشاهد التلفاز من سورية. لكن الذهول بلغ بها حداً منعها من إكمال محادثة عادية. وجاء الاتصال الهاتفي وجيزاً.

انفعل أعضاء عائلة بن لادن الكبيرة بالطريقة ذاتها التي انفعلت فيها والدتي. لم يتكلّم أحد منهم على الحادث. لم يتحدّث عمي بعد ذلك أبداً عن إمكان وقوف والدي وراء الهجمات. ورفضت جدّتي حتى السماح لفكرة أن تكون لابنها أي علاقة بالمبنين المحترقين.

وأنا أيضاً غذّيت شكوكي بمليون سبب وسبب، يعلل استحالة قيامه بهذا العمل الرهيب. لم أرد لوالدي أن يكون الشخص المسؤول عن ذلك.

ولم أعرف إلا بعد فترة طويلة من ذلك، أنه عليّ التخلّي عن رفاهية

الشك، بعدما تبنّى المسؤولية الشخصية عن الهجمات. وحان الوقت لتنحية الحلم الذي متّعت نفسي به، وأنا آمل بحدّة أن يكون العالم على خطأ، وأن والدي ليس من سبب ذلك اليوم الفظيع. وبعدما استمعت إلى شريط صوتي بكلمات والدي نفسه يتحمّل فيه المسؤولية عن الهجمات، واجهت الواقع الخطير الجديد: أنه هو، وليس أحداً سواه، من يقف وراء أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

أدخلتني هذه الحقيقة المذهلة في أحلك هوّة.

وعرف الجميع أن الرئيس الأميركي جورج و. بوش لن يدع النهار يمرّ بدون ردّ. أخذنا ننتظر ونتساءل عن الموعد الذي سيترجم فيه الأميركيون الجبابرة ردّهم. وعشت في الحقيقة في هول وأنا أفكر في أصغر إخوتي والرعب الذي سيختبرونه تحت تلك القنابل الأميركية الهائلة التدمير.

لم يتلق أحد في العائلة خبراً من والدي، برغم أنه تدبّر في السابق دوماً إجراء اتصال متى أراد ذلك.

وأصبح جميع من في عائلة بن لادن مكسوراً إلى درجة أننا لم نتحدث إلا نادراً في أي موضوع. فقد ضاع كل منا في أفكاره ومتاهاتها.

أخيراً انتهى التشويق، لمّا شرعت الولايات المتحدة في هجومها. فقد ردّ الأميركيون في السابع من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ بقصف شكّل أكثر الهجمات كثافة بما لم تشهد مثله البلاد من قبل، وقد تواصلت من تشرين الأول/أكتوبر حتى تشرين الثاني/نوفمبر.

مات الآلاف من الناس في أفغانستان. وشرع آخرون يهربون إلى الحدود في سعيهم اليائس إلى الفرار من القنابل. ونقلت محطات إخبارية عربية عدة تقارير عن المحاربين القتلى، لأن الكثيرين منهم كانوا من العرب. رأيت صورة أبي حفص، وسمعت أن قنبلة هدمت بيته. ويُفترض أن الكثيرين ماتوا معه. وتساءلت إن كان شقيقي محمد وعروسه الشابة من بين القتلى.

وشاهدت لاحقاً صورة غير واضحة لأبي هادي تمر سريعة عبر شاشة

التلفزيون. فهو أيضاً قد مات. واستمرّت أفكاري تجنح عائدة إلى اليوم الذي قال فيه أبو هادي إنه عليّ أن أغادر وإلا فسأموت معه. كان على حق. فهو ميت، وأنا على قيد الحياة. وأذكر أنه سبق له أن حضّر كفنه، وأبقاه قريباً منه، وتساءلتُ إذا توفّر لأي أحد الوقت للفّه به لدفنه.

لم أستطع اكتشاف شيء يتعلّق بأشقائي وشقيقاتي، برغم التقارير الدائمة التي تفيد عن مشاهدة والدي الطويل القامة. وأنا أعرف أن عثمان يتمتع بالطول ذاته، وتساءلت إذا كانت الصور التي تلتقطها الأقمار الصناعية هي لشقيقي.

يُفترض أن والدي عاد إلى تورا بورا، إلى الجبل الذي شعر فيه أكثر ما يكون بأنه في دياره. وأعرف أنه سيصعب العثور عليه هناك. فما من أحد يعرف تضاريس هذه الجبال مثل والدي. وأذكر أنه في وسعه أن يتعرّف إلى جميع الصخور الضخمة، ويعرف بالتحديد المسافة التي تفصل واحدتها عن الأخرى. وسمعت تقارير تفيد بأن والدي أرسل زوجاته وأولاده إلى باكستان، وأنه تبعهم.

وستبقى صورة المسكين لادن تسكنني إلى الأبد. فشقيقي الطفل هو أكثر أولاد عائلتنا اضطراباً ويخاف بسهولة. وقد أصبح أخيراً في الثامنة من العمر، وهو أصغر من أن يكون بعيداً عن رعاية والدته. ساورني قلق هائل عليه: هل هو يجهد في تسلّق تلك الصخور الضخمة والممرات الخفية التي سلكتُها منذ زمن بعيد عندما أجبرني والدي على السفر مشياً إلى باكستان؟ وقد رميت لحظتها جام غضبي على والدي لمنعه إيمان ولادن من المغادرة مع والدتهما.

مرّ زمن طويل على تلك الأوقات المهولة. وقد اختبرتُ الكثير من الخيبات وعرفت القليل من الفرح. حاول بعض الناس إيذائي، وأنا لن أسمّيهم، في حين قدّم آخرون إلي يد المساعدة، بمن فيهم أقاربي من آل بن لادن، وأنسباء أمي في سورية، والحكومة المصرية بقيادة الرئيس حسني مبارك، وأمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، والعاهل السعودي الملك عبد الله بن عبد العزيز.

أمي على قيد الحياة وهي بخير. وتريد توجيه شكر خاص إلى جميع من ساعدوها منذ عودتها إلى سورية. فهي تريد شكر عائلتها، وعائلة أبي، والأهم

من ذلك الحكومة السورية بقيادة الرئيس بشار الأسد. فقد كان هذا الرئيس الشاب وعائلته طيّبين ولطيفين معها ومع أولادها، في حين كانت هي منشغلة كثيراً في تدبّر أمور ابنتيها الصغيرتين.

واضطررتُ خلال سنوات الخسارة والحزن إلى مصالحة نفسي مع حقيقة والدي، أسامة بن لادن. وأعرف الآن أنه، منذ اليوم الأول للمعركة الأولى مع السوفيات في أفغانستان، يقتل بشراً آخرين. وقد اعترف لي بهذا القدر، في تلك الأيام الخوالي، عندما كنت الفتى الذي يقدّم إليه الشاي في أفغانستان. وغالباً ما أتساءل إذا كان والدي قد قَتَلَ في كثير من المرّات، بحيث لم يعد فعل القتل يجلب له اللذة أو الألم.

وأنا لا أشبه والدي في شيء. فهو يصلّي للحرب، أما أنا فأصلّي للسلام.

وها إن كلاً منا يذهب في حال سبيله، وكل منّا يعتقد أنه على حق.

قام والدي بخياره، وقمت أنا بخياري.

وأنا، في النهاية، سيّد نفسي.

ويمكنني أن أحيا معها.

ملاحظات أخيرة

جين ساسون

غالباً ما أتلقى، بوصفي كاتبة تركّز أساساً على حياة نساء مررن في أوقات مأساوية وخطيرة، طلبات من رجال ونساء يأملون أن ألفت انتباه العالم إلى قصصهم. ونادرة هي المناسبات التي تثير فيّ حبّ الاستطلاع.

وكانت الحال كذلك في ربيع ٢٠٠٨، لما شاهدت بريداً إلكترونياً، أُرسل إليّ بواسطة الموقع الإلكتروني لأحد ناشريّ، يدّعي أنه واحد من أفراد أسرة أسامة بن لادن. فعمر بن لادن هو رابع أبناء أسامة، زعيم «القاعدة» السيّئ

الصيت، الذي اعترف أخيراً بدوره في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ على الولايات المتحدة الأميركية. قال عمر إنه يريدني أن أكشف عن قصته الشخصية ليخبر العالم بتجارب نشأته كابن لأسامة بن لادن.

ولأقول الحق، لم يكن رد فعلي الأول إيجابياً. فصور الحادي عشر من أيلول/سبتمبر خلَّفت الكثير من الهول في قلبي، بحيث لا أكاد أفكّر في أسامة بن لادن بدون غضب. إلا أنني، بدافع من الفضول، اتصلت هاتفياً بمصر للتحدث مع ابنه عمر.

وسرعان ما علمت بأن طفولة عمر كانت بائسة. وشرعت، بُعَيْدَ أول محادثة لنا، في البحث عبر الإنترنت عن معلومات حوله. لم تكن اكتشافاتي الأولى مشجّعة، برغم تعاطفي مع أي ولد لأي أب لا يعرف الرحمة. فابن أسامة هذا احتل العناوين الرئيسة لسببين: الأول، أن وسائل الإعلام اهتمّت أكثر ما يكون بزواجه بامرأة هي في ضعفي عمره. وقد أثار هذا الخبر غير المعتاد جنون صحف الفضائح البريطانية التي أخذت تعيّر الزوجين بدون أي تعاطف.

والثاني، وهو الأهم، أن عمر يضع نفسه في مواجهة والده. فابن الرجل الذي يدعو إلى قتل غير المسلمين، يسوّق بشجاعة للسلام واللاعنف. وهذه مفاجأة كبرى. فالأبناء، من خلال معرفتي بالرجال السعوديين، لا يتحدّثون أبداً ضد آبائهم. وقد شاهدت شخصياً أمراء رفيعي الشأن يرتجفون استباقاً لوصول آبائهم الطاعنين في السن. فالسعوديون يكرّمون آباءهم تكريماً كبيراً، وهذا جانب رائع من جوانب الثقافة السعودية.

دفعتني دعوة عمر إلى السلام، في حين أن والده يسوّق للعنف، إلى إعادة النظر في ميلي الأساسي إلى رفض مشروع الكتابة، وازداد فضولي. أي نوع من الآباء والأزواج كان أسامة بن لادن؟ هل أحب زوجاته وأولاده؟ وإذا فعل، فكيف لم يقدّر نتائج سلوكه المُستهجن على أولاده الأبرياء؟ وقمت، بالفعل، بعد اتصالات هاتفية كثيرة، باكتشافات مفاجئة عن حياة أسامة بن لادن وعائلته.

كان عمر صبياً صغيراً في العاشرة لمّا أُجبرت عائلته على الهرب من

السعودية. وكان مراهقاً لما طُلب منها ذاتها مغادرة السودان. وسافرت العائلة من هناك لتقيم في أفغانستان التي تمزّقها الحرب. وعاش عمر، بسبب نشاطات والده، حياة منعزلة بدون أن تتوفّر له فرصة التعليم. ولم يتمكن، طوال سنوات، من زيارة عائلته الكبرى.

بدا عمر محبّاً للسلام بالسليقة. وبرغم ذلك، لم يمتلك خياراً سوى النشوء في معسكرات تدريب إرهابية. وقد أُجبر على التخلي عن أحصنته التي يحبها في كل مرة اضطرت عائلته إلى الهرب. وشاهد أمه الحبيبة تمر في حمل تلو الحمل، وهي تعيش في بيئات تزداد بدائية باطّراد. وكاد عمر، في ثلاث مناسبات، يفقد حياته. وقد انفصل عن أشقائه وشقيقاته الذين أحبهم كثيراً، تاركاً ستة منهم وراءه في أفغانستان.

استمرت الأسئلة في ذهني تحرقني: هل أُجبر أبناء أسامة على المشاركة في القتال؟ هل زُوجت بناته رغماً عنهن؟ هل كان أسامة بن لادن قاسي القلب مع زوجاته وأولاده، أم لطيفاً؟ ما الذي حدث فعلاً في منزل أسامة بن لادن؟

لطالما كان أسامة، بالتأكيد، كتوماً للغاية في شأن حياته الخاصة. وفجأة تُتاح فرصة ليكتشف العالم الحقيقة المجهولة عن رجل فقد الحق في الحفاظ على تلك الخصوصية.

اكتشفتُ أنه ما من كتاب وُضع عن أسامة بن لادن أو عائلته حظي بتعاون من فرد واحد من عائلته. ومع أن كتاب كارمن بن لادن «في قلب المملكة: حياتي في السعودية»، شكّل قراءة رائعة، فإن كارمن تزوجّت بأحد أفراد العائلة. لكن روايتها المثيرة للاهتمام، التي لقيت رواجاً كبيراً، هي بالأحرى رواية شخصية عن الحياة في السعودية، وعن مشاكل طلاقها المستمرة مع أخي أسامة غير الشقيق.

اعتمد كتاب ستيف كول «آل بن لادن» The Bin Ladens، الذي نال ثناءً كبيراً، البحث الدقيق، وقد كُتب بأسلوب جيّد، لكن المؤلف لم يلقَ أي تعاون من أي مصدر أولي لعائلة بن لادن. وعلى ما يقوله المؤلف نفسه، فإن «عائلة

بن لادن، في رد على طلبات كثيرة على مدى فترة ثلاث سنوات لإجراء مقابلات، تعاونت فقط، على نحو محدود، ما عدا من يوجد من أفرادها في اليمن. فكبار أعضاء العائلة في جدة لم يجروا أي مقابلات واسعة أو جوهرية. وبرغم ذلك، حاولنا أنا وجولي تيت، بعد وضع المسودة الأساسية للمخطوطة، أن نتحقق من وقائع المادة المتعلقة بمن هم على قيد الحياة من آل بن لادن مع ممثلين عن العائلة. ورفضت العائلة، من خلال محاميها، الردّ على معظم الأسئلة المكتوبة المطروحة».

وسرعان ما علمتُ بأن والدة عمر هي ابنة خال أسامة وزوجته الأولى. والواقع أن الزوجين لم يتطلّقا أبداً مع أن نجوى لم تعد تقيم مع زوجها. وفوجئتُ عندما تلقّيت رسالة من نجوى تخبرني فيها عن عمر. أثّرت رسالتها في نفسي، لأنني أدركت الجهد الذي تطلّبها لكتابة رسالة إلى امرأة أميركية لا تعرفها. وعرفت من عمر أن والدته امرأة مسلمة محافظة للغاية، عاشت دائماً في عزلة. ولا يمكن لسيدة كهذه الاتصال بغربية بسهولة.

لكن نجوى والدة ابن فخور وحسّاس، وقد كشفت عن روايات صغيرة جميلة توحي بطباع عمر وحياته. وشعرت، وأنا أقرأ رسالة نجوى، بأنني مدفوعة إلى سؤال عمر إن كانت أمه ستوافق على رواية قصتها هي أيضاً.

وافقت نجوى، لدهشتي الكبيرة، لكن فقط لأن ابنها طلب إليها المشاركة. لم ترغب في مهاجمة أسامة من خلال هذا الكتاب. وقد رسمت في الواقع حدوداً للمواضيع التي وافقت على مناقشتها، وتقيدت بها. ولكونها امرأة عاشت حياتها الزوجية في عزلة تامة، فإنها لم تكن على معرفة وثيقة بقصص الحرب أو بمشاركة زوجها في الجهاد. إلا أنني عرفت أن آخرين سيشاركونني في افتتاني لأعرف كيف كانت حياة زوجة بن لادن الأولى والأهم.

وخطرت في بالي فجأة فكرة أن قصة أسامة ستشكّل الكتاب الأول الذي يضعه ابن حقيقي لعائلة بن لادن. وستكون الرواية الوحيدة التي تخبر عن حقيقة الحياة في منزل الإرهابي الشهير.

تحدّثت مع عمر مرّات أخرى إضافية، وأنا أسأله عن مشاعره الحقيقية حيال نشاطات والده ومقتل الأناس الأبرياء. ولم أشأ المشاركة في الكتاب في حال اعتقد عمر أن لوالده أسباباً مشروعة لتصرّفه القاتل. وقلقت أيضاً لمّا قرأت عدداً من المواضيع عبر الإنترنت، بدا فيها عمر على تضارب في شأن أعمال والده الوحشية. وبالفعل، بدا عمر، برغم إعلانه كرهه العنف، غير قادر، لوقت طويل، على أن يقبل حقيقة أن أباه هو المسؤول عن هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وغير ذلك من أعمال العنف الدنيئة. لكنني ذكّرت نفسي بأنه سيصعب على معظم الناس الاعتقاد أن شخصاً يحبونه يمكنه أن يكون قادراً على ممارسة الإرهاب.

وقد سهل فهم واقع أن الابن لم يستطع معرفة كنه إعطاء والده الأمر بقتل مدنيين أبرياء. أضف إلى ذلك أن نظريات المؤامرة تسيطر على الرأي العام في معظم العالم العربي. وقد جاءت معظم الحجج القاطعة على مشاركة أسامة بن لادن، من الحكومة الأميركية، وهي مكروهة في معظم العالم العربي. وثمة في الواقع قلّة من العرب تصدّق أي تقرير صادر من واشنطن، أو لندن، أو برلين، أو باريس.

وبعد أن أصدر أسامة بن لادن شرائط تسجيل صوتي وفيديو مختلفة، يعلن فيها مسؤوليته عن هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وغيرها من الأعمال العنفية، أقرّ عمر أخيراً بأن والده أمر بالفعل بهذه الهجمات. بدا عمر، على نحو يمكن تفهمّه، وقد صعقه بعض تسجيلات والده. ومع أنه أراد أن يصدّق الأفضل عن سلوك والده، فإنه لم يعد يستطيع التمسّك بالأمل في أنه ليس مذنباً.

وبعدما عرفت الكثير من التفاصيل عن أسامة بن لادن، وعائلته، وقادة القاعدة وجنودها الذين شكّلوا حضوراً دائم الازدياد خلال نشأة عمر، حدستُ بأن هذه قصة مهمة ويجب أن تُروى. أعتقد أن علينا المطالبة بمعرفة كل شيء عن الرجل المسؤول عن مقتل هذا العدد الكبير من الأبرياء، وسيستحيل الاقتراب من العالم الخاص لأسامة بن لادن أكثر من الاقتراب منه عبر زوجته الأولى وابنه المولود الرابع.

جين ساسون

الملحق أ

عائلة أسامة بن لادن:

من هم؟ وماذا حلّ بهم؟

أهل اسامة بن لادن

عليا غانم

وُلدت أم أسامة، عليا، في ١٩٤٣ في اللاذقية في سورية. وانتقلت إلى السعودية بعد زواجها في ١٩٥٦ بمحمد بن لادن، حيث وُلد ابنهما الوحيد، أسامة، في الرياض في ١٥ شباط/فبراير ١٩٥٧. وما كاد يصبح في عامه الأول، حتى حملت عليا للمرة الثانية، لكنها فقدت الطفل في حادث غريب تعرّضت فيه للإصابة بسبب عطل في آلة عصر الغسالة. وطلبت عليا، بعيد إسقاطها، الطلاق من زوجها، فمنحها إياه. ولأنها تعيش في عالم لا يمكن فيه لامرأة مطلّقة أن تعيش وحدها، تزوجّت للمرة الثانية بمحمد العطاس، وهو رجل لطيف وموظّف محترم عند زوجها السابق في شركة بنائه الآخذة في التوسع السريع.

أصبحت عليا ومحمد العطاس والدين لأربعة أولاد، ثلاثة أبناء وابنة واحدة. وعاش أسامة مع أمه، ورابّه، والإخوة الأربعة، في ضاحية المشرف في جدة، السعودية، حيث نشأ وجلب إليها ابنة خاله وزوجته الأولى، نجوى.

ويقال إن عليا، الأم المحبة، لا تستطيع قبول واقع أن ابنها متورّط في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وكانت هي ومحمد لا يزالان، حتى أوائل ٢٠٠٩، يعيشان في الفيلا ذاتها التي نشأ فيها أسامة.

رابّ أسامة. يتحدّر من أسرة عريقة من تجار جدة. يقول عمر إن زوج جدته رجل لطيف وكريم، يحبّه كل من يعرفه ويحترمه، بمن في ذلك ابن زوجته، أسامة.

محمد بن لادن

يُعتقد، برغم غياب سجل رسمي بالولادة، أن والد أسامة بن لادن وُلد ما بين ١٩٠٦ و١٩٠٨ في الرباط، حضرموت، في الجنوب الشرقي من اليمن. سافر محمد، بعد وفاة والده غير المتوقعة، مع شقيقه الأصغر منه سناً، عبد الله، بحثاً عن العمل في خارج اليمن. واستقر الأخوان، بعد سلسلة من النكسات، في السعودية، حيث حظي محمد بثقة الملك السعودي الأول، عبد العزيز آل سعود، على عمله في مشاريع بناء مختلفة. وسرعان ما أنشأ محمد، بدعم من الملك، مجموعة بن لادن السعودية التي نمت لتصبح واحدة من أكبر الشركات في السعودية. وتوسعت، في وقت لاحق، إلى دول أخرى في المنطقة. وتزوّج محمد بن لادن، الذي أخذت تجارته واستثماراته تزداد باطراد، بالكثير من النساء، وأصبح والداً لعدد كبير من الأولاد، هم ٢٢ ابناً و٣٣ فتاة. ويقول عمر إن والده هو الثامن عشر من بين ٢٢ ابناً. توفي محمد بن لادن في ١٩٦٧، متأثراً بجراحه التي أصيب بها في حادث تحطم طائرة.

الزوجات

نجوى غانم، تزوج بها في ١٩٧٤

وُلدت نجوى غانم في ١٩٥٨ في اللاذقية، في سورية، لإبراهيم ونبيهة. وقد تزوج إبراهيم خمس مرات قبل ارتباطه بنبيهة، إلا أنه لم يتزوج إلا بامرأة واحدة في كل مرة. ورزق بابن وحيد، هو علي، من زيجاته السابقة. وكانت نبيهة زوجته السادسة والأخيرة. أصبح إبراهيم ونبيهة والدين لخمسة أولاد وُلدوا بالترتيب التالي: ناجي، نجوى، نبيل، أحمد، وليلى. تزوّجت نجوى في ١٩٧٤

بابن عمتها أسامة، وهو في السابعة عشرة وهي في الخامسة عشرة. وبعد أربعة إلى خمسة أشهر، سافر أسامة وعليا ومحمد العطاس إلى سورية لمواكبة نجوى إلى منزلها الجديد في جدة، السعودية. ورافق إبراهيم ابنته وبقي في جدة للزيارة.

أصبحت نجوى وأسامة والدين لأحد عشر ولداً. وانتقلت نجوى مع زوجها من السعودية إلى السودان، ومنه إلى أفغانستان. وغادرت أفغانستان نهائياً في الفترة الواقعة ما بين السابع من أيلول/سبتمر ٢٠٠١ والتاسع منه. وهي تقيم الآن مع عائلتها في سورية. ويقيم معها ابنها عبد الرحمن وابنتاها الصغريان.

خديجة الشريف، تزوج بها في ١٩٨٢

تكبر خديجة زوجها السابق، أسامة، بتسع سنين، وتنتمي إلى عائلة تتحدّر من نَسَب النبي. وهي امرأة مثقفة جداً، وقد عملت مدرّسة قبل أن تتزوج بأسامة. أنجبت ثلاثة أولاد، وتطلّقت من زوجها في خلال إقامتها في السودان، وعادت إلى السعودية ولا تزال مقيمة فيها. وابنها الاكبر علي موجود في السجن في السعودية بعدما حُكم عليه بخمس عشرة سنة لاتهامه بحيازة سلاح غير مرخّص.

خيرية الصبار، تزوج بها في ١٩٨٥

تتحدر عائلة خيرية أيضاً من نَسَب النبي. وقد تخصصت في تعليم الأولاد الصم والبكم، وأصبحت زوجة أسامة الثالثة بعدما دبّرت نجوى هذا الزواج. وهي أم لولد وحيد، حمزة، وقد بقيت مع زوجها في أفغانستان بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. ولا يعرف أحد هل نجت خيرية وابنها، أم لا، من غارات القصف الأميركي في تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.

سهام الصبار، تزوج بها في ١٩٨٧

تتحدر عائلة خيرية أيضاً من نَسَب النبي. وهي رابع زوجات أسامة، وأم

لأربعة أولاد. بقيت في أفغانستان مع زوجها وأولادها بعد أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. ولا يعرف أحد هل نجت سهام وأولادها الأربعة، أم لا، من الغارات الأميركية الانتقامية التي أعقبت ذلك.

الزواج الخامس (ملغى)

عُقد زواج أسامة الخامس في الخرطوم، السودان، بعد طلاق زوجته الثانية منه وعودتها إلى السعودية. إلا أن هذا الزواج، استناداً إلى نجوى غانم، لم يقع فعلاً، وتم إلغاؤه خلال ٤٨ ساعة.

أمل الصداح، وقد تزوج بها في أواخر ٢٠٠٠ أو أوائل ٢٠٠١

إذا استثنينا الزواج الملغى، تصبح أمل زوجة أسامة الخامسة، وقد أنجبت منه ابنة وحيدة اسمها صفية. ولا يعرف أحد هل عادت أمل وطفلتها إلى اليمن بعد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، أم بقيت في أفغانستان إبان القصف الأميركي.

الأولاد من الزوجة الأولى نجوى غانم

عبد الله

وُلد طفل نجوى الأول، وهو الابن البكر، في ١٩٧٦ في جدة. وتبوّأ عبد الله، بوصفه البكر، الموقع الأكثر تشريفاً من بين جميع أبناء أسامة بن لادن. ولما أصبح في سن المراهقة، شرع في التعبير عن رأيه في أمور تتعلق بالعائلة. ترك العائلة في الخرطوم لما سافر في ١٩٩٥ إلى جدة في السعودية للزواج بإحدى نسيباته، وهي طيّبة محمد بن لادن. وقرر عدم العودة إلى الخرطوم، وبقي بدلاً من ذلك مع زوجته وأولاده في جدة، حيث يدير عملاً صغيراً. ويعيش حياة هادئة، متجنّباً كل دعاية، مع أنه بقي مقرّباً من أمه، نجوى، التي يزورها في سورية. وقد بلغ عبد الله الثالثة والثلاثين في ٢٠٠٩.

عبد الرحمن

وُلد طفل نجوى الثاني، في ١٩٧٨ في جدة. وبحسب عمر، فإن شقيقه عبد

الرحمن كان طفلاً استثنائياً اضطر إلى مواجهة محنة شخصية فريدة. غادر عبد الرحمن أفغانستان مع أمه في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. ومنذ ذلك الوقت، فشل في استعادة جنسيته السعودية، ووجد صعوبة، في غياب الأوراق الرسمية، في العثور على وظيفة أو في الزواج. وعبد الرحمن فارس موهوب، ويعيش بهدوء مع أمه وشقيقتيه في اللاذقية، مبتعداً، على غرار شقيقه الأكبر، عن أي دعاية. وأصبح في الواحدة والثلاثين في ٢٠٠٩.

سعد

طفل نجوى الثالث، وُلد في ١٩٧٩ في جدة. كان ولداً ثرثاراً، وبقي يحب كثرة الكلام حتى وهو بالغ، وغالباً ما يثير حنق أشقائه ومعارفه الآخرين. رفض أسامة السماح لسعد ولزوجته السودانية المولد ولابنهما أسامة، بمغادرة أفغانستان مع نجوى في ٢٠٠١. ومنذ ذلك الحين، تحدّثت تقارير عن أن سعداً أوقف وهو يسافر عبر إيران. ومن المحتمل أنه لا يزال محتجزاً فيها، إلا أنه لا يوجد إثبات قوي على احتجازه. لكن تقريراً حديثاً آخر يزعم أن سعداً أُطلق وغادر إيران، إلا أنه ما من أحد، بمن فيهم نجوى، متأكد من مصيره. وإذا كان سعد حياً في ٢٠٠٩، فهو قد أصبح في الثلاثين من العمر.

عمر

وُلد طفل نجوى الرابع، وهو الابن الرابع، في ١٩٨١ في جدة. كان عمر الأكثر قرباً من والدته، وهو الابن الذي تمرّد بقوة كبيرة على والده وجهاده. ويحلم عمر في الواقع بمواجهة جهاد والده العنفي من خلال تشكيل حركة سلمية تجد وسائل أفضل لحل الخلافات الثقافية والدينية.

واجه عمر، بعد مغادرته أفغانستان للمرة النهائية في ٢٠٠١، الكثير من التحديات. وبرغم نجاحه في استعادة جنسيته السعودية، وجد صعوبة في إيجاد مكانه في عالم الأعمال. تزوّج ورُزق بابن اسمه أحمد. والتقى عمر، وهو مسافر إلى مصر، امرأة إنكليزية هي جين فيليكس - براون. أغرم الاثنان

ببعضهما البعض وأنهى زواجه الأول. ومنذ ذلك الوقت، أصبح عمر أكثر حماسة حتى في الدعوة إلى وقف العنف، وهو يتوق إلى جعل اسم بن لادن يرتبط بالسلام بدلاً من الإرهاب. رغب عمر في الانضمام إلى زوجته والإقامة في المملكة المتحدة، حيث يعتقد أنه سيجد من الأسهل عليه تشكيل حركة سلمية، فتقدم بطلب تأشيرة دخول زواج روتينية. ظهرت مشاكل في طلب التأشيرة بانتظار تحديد القرار من مسألة اللجوء السياسي. وفي النهاية، بفضل سخاء الحكومة القطرية، استقر عمر وزوجته هناك، وهو ينتظر تأشيرته. وعاد في خلال وضع هذا الكتاب إلى السعودية، البلد الذي يحبه كل الحب. وأصبح في ٢٠٠٩ في الثامنة والعشرين.

عثمان

الابن الخامس لنجوى، وُلد في ١٩٨٣ في جدة. تزوّج عثمان في ٢٠٠١ بابنة المصري محمد شوقي الإسلامبولي، وهو عضو رفيع المرتبة في تنظيم الجماعة الإسلامية التابعة للشيخ عمر عبد الرحمن. وسبق للحكومة المصرية أن أدانت في ١٩٩٧ والد زوجة عثمان، إلى جانب ١٠٧ متهمين آخرين في المؤامرة لاغتيال الرئيس المصري حسني مبارك، إضافة إلى مسؤولين مصريين آخرين. واشتهر شقيق الإسلامبولي، خالد، بكونه القاتل للرئيس المصري أنور السادات في السادس من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١. وقد صاح خالد «الموت للفرعون» وهو يركض صوب السادات لإطلاق النار عليه. اعتُقل خالد وحوكم ووُجد مذنباً بالجريمة وأُعدم في السنة التالية في نيسان/أبريل ١٩٨٢. لم يسمح أسامة لعثمان أو لزوجته بمغادرة أفغانستان مع نجوى. وانتشرت شائعات بأنه هرب من أفغانستان خلال القصف الأميركي في تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، إلى جانب الدكتور أيمن الظواهري، لكن لا يوجد إثبات قاطع على ذلك. ولا تعرف نجوى مصير ابنها الخامس أو زوجته. وإذا كان عثمان لا يزال حيّاً، فإنه أصبح في السادسة والعشرين من العمر في ٢٠٠٩.

محمد

الابن السادس لنجوى، وُلد في ١٩٨٥ في جدة. يفيد عمر بأن محمّداً كان خيار والده الثاني لخلافته على رأس القاعدة (كان عمر هو الخيار الأول إلى أن أعرب عن رفضه العنف). ويقول عمر أيضاً إن محمّداً هو الشقيق الوحيد الذي يمتلك بعض المزايا الضرورية لتولي مركز مهم في تنظيم والده. وأصبح محمد، بعد زواجه في سنة ٢٠٠٠ بابنة أبي حفص، أكثر الأبناء قبولاً بالبقاء هناك مع والده. ولا تعرف نجوى مصير ابنها أو زوجته. ولو أن محمداً لا يزال حياً في ٢٠٠٩، لأصبح في الرابعة والعشرين.

فاطمة

الطفلة السابعة لنجوى، وهي الابنة الأولى. وُلدت في ١٩٨٧ في المدينة. وبعدما اختار عُمر الزوج لها، تدبّر أسامة في ١٩٩٩ زواج ابنته، وهي في الثانية عشرة، بمقاتل سعودي اسمه محمد. وقد قُتل زوجها في الهجمات الأميركية في تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١. ولا تعرف نجوى مصير ابنتها الأولى، برغم أنه يُعتقد أنها تقيم في أراضي القبائل الباكستانية النائية على مقربة من والدها. ولو أن فاطمة على قيد الحياة، فإن عمرها سيكون ٢٢ عاماً في ٢٠٠٩.

إيمان

طفلة نجوى الثامنة، وهي الابنة الثانية، وقد وُلدت في ١٩٩٠ في جدة. كانت إيمان في الحادية عشرة فقط لما غادرت أمها أفغانستان في التاسع من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. رفض أسامة طلب نجوى أن تغادر ابنتها معها. ولا تعرف نجوى مصير ابنتها الثانية، برغم أنه يُفترض، في حال نجاة إيمان من القصف، أن يكون والدها قد تدبّر زواجها عند بلوغها. ولو أنها لا تزال حيّة في ٢٠٠٩، فسيصبح عمرها ١٩ عاماً، ويُعتقد أنها تقيم، على الأرجح، في باكستان إلى جوار والدها، أو مع زوجها في حال تزوّجت.

لادن، المعروف أيضاً ببكر

الابن التاسع لنجوى. وُلد في ١٩٩٣ في جدة لما غادرت نجوى الخرطوم جواً إلى السعودية خصيصاً لولادته. وكان لادن في السابعة فقط من العمر لمّا غادرت أمه أفغانستان في ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. ولم يسمح أسامة لها بأخذ أصغر أبنائها معها. ولا تعرف مصير ولدها الأصغر، برغم الاعتقاد أنه، في حال نجا من قصف تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، مقيم مع والده في باكستان. ولو أن لادن بقي حياً في ٢٠٠٩، فسيكون في السادسة عشرة.

زقيّة

وُلدت رقيّة، طفلة نجوى العاشرة والابنة الثالثة، في ١٩٩٧ في جلال أباد، في أفغانستان. ولأنها كانت صغيرة للغاية، سمح أسامة لزوجته بأخذها معها إلى سورية لما ذهبت في ١٩٩٩ لولادة طفلها الحادي عشر. وسُمح أيضاً لنجوى باصطحاب رقيّة معها لما غادرت أفغانستان نهائياً في ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وتعيش حالياً مع أمها في سورية، وبلغت الثانية عشرة في ٢٠٠٩.

نور

طفلة نجوى الحادية عشرة، وهي الابنة الرابعة، وقد وُلدت في اللاذقية، سورية، في ١٩٩٩. وسمح أسامة لنجوى بأخذ نور، إلى جانب شقيقيها رقية وعبد الرحمن، لما غادرت أفغانستان في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وتعيش مع أمها في سورية. وبلغت التاسعة في ٢٠٠٩.

الأولاد من الزوجة الثانية، خديجة

علي

وُلد أول ابن لخديجة وأسامة في جدة في السعودية. وقد غادرت خديجة الخرطوم بعد طلاقها من أسامة، وعادت لتعيش في السعودية. رافق علي، ابن العاشرة، أمه إلى السعودية، لكنه عاد في السنة التالية في زيارة للخرطوم لرؤية

والده وإخوته غير الأشقاء. ومنذ بضع سنوات، أوقفه الأمن السعودي بتهمة حيازة سلاح غير مرخّص. وأمضى سنوات في السجن بدون محاكمة إلى أن حُكم عليه في ٢٠٠٨ بالسجن ١٥ عاماً. وتعتقد العائلة أنه بريء من أي جريمة. وقد أصبح، في ٢٠٠٩، في الثالثة والعشرين.

عامر

وُلد ابن خديجة الثاني، من أسامة، في جدة في ١٩٩٠. ولما غادرت خديجة الخرطوم عائدة إلى السعودية ذهب عامر معها ولم يرَ والده بعد ذلك أبداً. ويعيش اليوم في السعودية، وقد أصبح في التاسعة عشرة في ٢٠٠٩.

عائشة

وُلدت طفلة خديجة الثالثة، وهي الابنة الأولى والوحيدة لها، في الخرطوم، السودان، في ١٩٩٢. ولما غادرت خديجة الخرطوم عائدة إلى السعودية، ذهبت عائشة مع أمها ولم تر والدها بعد ذلك أبداً. وتقيم اليوم في السعودية. وقد أصبحت في الخامسة عشرة في ٢٠٠٩.

الابن من الزوجة الثالثة، خيرية

حمزة

وُلد ابن خيرية الأول، وهو الوحيد لها من أسامة، في ١٩٨٩ في جدة، السعودية. وظلّ حتى ٢٠٠١ ولد خيرية الوحيد. وبقي مع أمه ووالده في أفغانستان، ومن غير المعروف هل نجا حمزة أم لا من الهجمات الأميركية في تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١. وقد أذاعت «القاعدة» في ٢٠٠٨، شريطاً مسجلاً ذكرت فيه أن المتحدث فيه هو حمزة. ويقول عمر إن التسجيل تم قبل سنوات على ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وكان حمزة لا يزال صبياً صغيراً عندما طلب أسامة متطوعين للقيام بالتسجيل. وكان حمزة هو الابن الوحيد الذي تطوع. ولو أنه نجا من هجمات ٢٠٠١، فيُعتقد أنه سيكون مع والده في منطقة القبائل في باكستان. وإذا كان حياً في ٢٠٠٩، فيكون عمره عشرين عاماً.

الأولاد من الزوجة الرابعة، سهام

خديجة

وُلدت أول طفلة، وهي أول بنت لسهام وأسامة، في ١٩٨٨ في جدة. وقد تم تزويج خديجة في ١٩٩٩، بتدبير من والدها، بمقاتل سعودي في «القاعدة» اسمه عبد الله، وكانت في الحادية عشرة فقط من العمر. وبقيت في أفغانستان مع والدتها سهام، وكانت هناك إبان القصف الأميركي في تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١. وليس معروفاً هل نجت من القصف أم لا، لكن يُعتقد في حال نجاتها، أنها تعيش مع زوجها على مقربة من والدها في باكستان. وإذا كانت حية في ٢٠٠٩، فيكون عمرها ٢١ عاماً.

خالد

وُلد طفل سهام الثاني من أسامة، وهو الصبي الأول، في ١٩٨٩ في جدة. ولا يُعرف سوى القليل عنه برغم بقائه مع أمه في أفغانستان. والمرجح أنه، في حال نجاته من غارات القصف في ٢٠٠١، يعيش مع أهله في باكستان. وإذا كان على قيد الحياة في ٢٠٠٩، فيكون عمره ٢٠ عاماً.

مريم

وُلدت الطفلة الثالثة، وهي الابنة الثانية لسهام وأسامة، في ١٩٩٠ في جدة. وحظيت مريم بحياة مبكرة عسيرة، وهي التي وُلدت قبل أوانها في اليوم ذاته مع إيمان ابنة نجوى. ولا يُعرف الكثير عنها سوى أنها بقيت مع أمها في أفغانستان. ولو أنها نجت من غارات ٢٠٠١، لافترض بوالدها أن يكون دبّر لها زواجاً مبكراً بأحد المقاتلين عند سن البلوغ. ويُفترض والحالة هذه أنها تعيش في باكستان مع عائلتها. وإذا كانت حية في ٢٠٠٩ فيكون عمرها ١٩ عاماً.

سمية

وُلدت الطفلة الرابعة، وهي الابنة الثالثة لسهام وأسامة، في ١٩٩٢ في

العاصمة السودانية الخرطوم. ولا يُعرف الكثير عن سمية سوى أنها بقيت مع أمها في أفغانستان. ومن المعتقد أن والدها دبّر لها زواجاً مبكراً بواحد من مقاتليه عند سن البلوغ. ولو أنها نجت من هجمات ٢٠٠١ على أفغانستان، لعاشت على الأرجح مع عائلتها في منطقة باكستان. ولو كانت حية، لبلغت السابعة عشرة في ٢٠٠٩.

الابنة من الزوجة الرابعة اليمنية أمل الصداح

صفية

إنها المولودة الأولى والابنة الأولى لأمل وأسامة. وبالرغم من أن والدة صفية تزوجت بأسامة بن لادن في قندهار، أفغانستان، قبل مغادرة نجوى البلاد، فإن نجوى، على عكس زيجاته الأخرى، لم تعرف سوى القليل عن أمل. ولا يوجد اليوم تأكيد قوي في شأن أمل الصداح، أو ابنتها صفية. ويفيد بعض التقارير أن أسامة أرسل أملاً وصفية عائدتين إلى اليمن لتبقيا خارج الخطر قبل هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ على الولايات المتحدة، في حين تفيد تقارير أخرى أنهما بقيتا مع أسامة وعائلته الواسعة، وقد هربتا من أفغانستان إلى باكستان. وبما أنه لم يعد هناك اتصال بين أمل والعائلة، فلا توجد معلومة واقعية راهنة تمكن الإفادة عنها. لكن، في حال بقيت أمل وطفلتها في أفغانستان خلال القصف ونجتا من الهجمات، فستكون صفية قد أصبحت في حوالي الثامنة في ٢٠٠٩.

الملحق ب

التاريخ الزمني لأسامة بن لادن

في ما يلي تواريخ مهمة في حياة أسامة بن لادن الشخصية، والسياسية، والجهادية، وحياته الإسلامية من ١٩٥٧ إلى ٢٠٠٩.

١٩٥٧ : الجمعة، ١٥ شباط/فبراير ١٩٧٥: وُلد أسامة بن محمد بن عوض بن عبود بن لادن القحطاني(*) في الرياض، في السعودية، في ساعات الصباح الأولى، لأبوين هما محمد عوض بن لادن وعليا غانم. وهو الثامن عشر من اثنين وعشرين ابناً سيولدون لمحمد عوض بن لادن، والولد الأول لعليا غانم. وتنحدر عائلتا والده ووالدته من حضرموت في اليمن. وقد استقر محمد بن لادن، وهو فتى في السعودية، وأصبح مواطناً سعودياً. واستقرت عائلة عليا غانم في سورية وأخذت الجنسية السورية. وولدهما الوحيد أسامة وُلد مواطناً سعودياً.

١٩٥٩ : طلاق محمد عوض بن لادن وعليا غانم. احتفظت عليا بالوصاية المادية على ابنها، أسامة، إلا أنه بقي جزءاً من عائلة والده.

١٩٥٩ : عليا غانم تتزوج بمحمد العطّاس، وتُرزق من زوجها الثاني بأربعة أولاد.

(*) يفيد عمر بن لادن أن والده أبلغ عائلته أن اسم العائلة الحقيقي كان القحطاني. لكن والده، محمّد بن لادن، لم يسجّل الاسم أبداً. وذلك غير موثّق في أي مصدر آخر.

١٩٦٣: تسجيل أسامة في مدرسة التاجر النموذجية في جدة التي تُعتبر أكثر المدارس تقدماً في السعودية.

١٩٦٦: والد أسامة يشتري أول طائرة للعائلة.

١٩٦٧: حادث تحطم طائرة في ٣ أيلول/سبتمبر في أوم في السعودية، ومقتل محمد بن لادن، والد أسامة.

١٩٧٤: زواج أسامة بنجوى غانم. نجوى في الخامسة عشرة وأسامة في السابعة عشرة. وهي ابنة خاله. عُقد زواج بسيط في سورية، في منزل أهل نجوى. وتقول نجوى إن التقارير الصحافية التي تقول إنها أُكرهت على الزواج خاطئة. فزواجها بابن عمّتها كان ناشئاً عن حب. وبعد حصولها على الوثائق الرسمية، انضمت إلى زوجها أسامة في جدة في السعودية. أقام الزوجان الشابان في منزل والدة أسامة ورابّه، بينما تابع أسامة دراسته.

١٩٧٤: تولّى أسامة مهامه بدوام جزئي في مؤسسة والده المتعددة الجنسيات الضخمة للبناء، وهي مجموعة بن لادن.

١٩٧٦: تسجّل أسامة طالباً في جامعة الملك عبد العزيز في جدة. درس الاقتصاد والإدارة (تقول نجوى إن زوجها لم يدرس الهندسة أبداً، بالرغم من أن تلك الخرافة تلقى انتشاراً). مرّ الشرق الاوسط، في تلك الأيام، في صحوة إسلامية بدأت بعد حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل التي عانت فيها مصر والأردن وسورية هزيمة عسكرية أفقدت العرب الروح المعنوية. وبلغ أسامة سن الرشد في خلال ذلك التغير السياسي.

١٩٧٦: رحّب أسامة ونجوى بمولودهما الأول، وهو صبي أسمياه عبد الله. ومن يومها سيُطلق أقرب أصدقاء أسامة وشركاؤه عليه أبا عبد الله. وأصبح أفراد عائلة نجوى وأصدقاؤها يطلقون عليها كنية أم عبد الله.

١٩٧٨ : أسامة ونجوى يرحبان بمولودهما الثاني، وهو صبي أسمياه عبد الرحمن.

١٩٧٩ : شكّلت ١٩٧٩، في الروزنامة الإسلامية، السنة الأولى في القرن الجديد.

١٩٧٩ : سافر أسامة ونجوى وولداهما عبر إنكلترا إلى الولايات المتحدة، حيث التقى أسامة عبد الله عزّام، وهو الرجل الذي يعتبره الكثيرون المرشد الأول لأسامة. وكان عبد الله يقوم بجولة خطابية في أميركا للتجنيد من أجل الجهاد. والتقى أسامة، الذي استيقظ أخيراً على هوى الجهاد، مع عبد الله عزام لمناقشة ووضع الخطط المتعلقة بدوره في الحركة. اعتلّ عبد الرحمن في خلال الجولة، واستشار أسامة ونجوى طبيباً اختصاصياً في شأن مولودهما الثاني.

١٩٧٩ : أسامة ونجوى يرحّبان بمولودهما الثالث، وهو صبي أسمياه سعداً.

١٩٧٩ : تلقّى مسلمو العالم ضربة رهيبة في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩. انتهى موسم الحج السنوي وأخذ الحجاج يتحضّرون لمغادرة مكّة. وفاض المسجد الحرام بالمصلّين، لأن مكة تمتلئ دوماً بالمتعبدين المسلمين الأجانب. وما إن أنهى الإمام صلاة الفجر الأولى، حتى سُمع أزيز إطلاق النار وتعرّض المصلّون للهجوم.

وسرعان ما سيطر ثلاثمئة متمرّد بقيادة جهيمان العتيبي، العريف في الحرس الوطني السعودي، على رجال الدين وعلى المصلّين، واعتبروهم جميعهم رهائن. وسيطر المتمردون سيطرة تامة على المسجد الحرام، وأذاعوا عن أهدافهم عبر مكبرات الصوت في كل أنحاء مكة.

تدفّق الجيش السعودي والحرس الوطني على مكة، وأمروا بإخلاء المدينة ومحيط المسجد الحرام. وبما أن القرآن يحظر العنف في حرم المسجد الحرام سعت العائلة المالكة السعودية أولاً إلى الحصول على الموافقة من السلطات الدينية على استخدام القوة القاتلة ضد المتمردين، فأعطيت لها.

استمرت المعركة التي أعقبت ذلك أسبوعين. وتمت أخيراً السيطرة على المسجد الحرام في الرابع من كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩. وأفادت التقارير الرسمية أن ٢٥٥ متطرّفاً وجندياً وحاجّاً قُتلوا، في حين أصيب ٥٦٠ بجروح. أما المتمردون الذين أُلقي القبض عليهم، فإنهم إما سُجنوا، وإما قُطعت رؤوسهم، إذ أشارت التقارير إلى حصول ٦٣ عملية قطع رأس.

١٩٧٩: روسيا تجتاح أفغانستان في ٢٥ كانون الأول/ديسمبر.

١٩٨٠: أسامة يرد على ما وصفه بغزو «الشيوعيين الكفار»، بتنظيم أعمال خيرية لمصلحة مقاتلي المقاومة الأفغانية الذين عُرفوا بالمجاهدين. وأنشأ صديقه ومرشده عبد الله عزّام مؤسسة لهذا الغرض. وأصبح أسامة، بدعم من ثروة عائلته وبتشجيع من الحكومة السعودية، الممول الأكبر.

١٩٨٠: أسامة يشرع في أولى سفراته إلى باكستان لتسليم المؤن وتقديم المساندة إلى أشقائه المسلمين الأفغان. ومنذ ذلك الوقت، انخرط بقوة في الكفاح الأفغاني ضد روسيا، ونسّق رحلاته لتتناسب مع دراسته ومسؤولياته العائلية.

١٩٨٠ إلى ١٩٨١: دفعت مهام أسامة الجهادية به إلى التخلي عن الجامعة مع أنه لم يبقَ له إلا فصل واحد للتخرج.

١٩٨١ : أسامة يواصل جمع الأموال وتسليم المؤن إلى باكستان لمصلحة المقاومة الأفغانية ضد السوفيات.

١٩٨١ : رحب أسامة ونجوى، في شهر آذار/مارس، بمولودهما الرابع، وهو صبي أسمياه عمر

١٩٨٢ : أسامة يصبح أكثر انخراطاً في النزاع في أفغانستان. تبدّلت طبيعة الحرب بين روسيا وأفغانستان، إذ احتل الروس المدن الرئيسة، وقام المجاهدون (المقسمون إلى مجموعات كثيرة) بشن حرب عصابات. وحصلت من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٥ خمس هجمات روسية رئيسة، أدت إلى قتال عنيف. استمر صديق أسامة ومرشده في تجنيد المقاتلين العرب للمشاركة في الحرب، فأصبح أسامة أكثر تورّطاً، جامعاً ملايين الدولارات من واهبين خليجيين أثرياء لدعم المجاهدين.

١٩٨٢ : يلتقي أسامة، وهو في باكستان وأفغانستان، بعضاً من الجهاديين المصريين الذين سيُلهمون السعودي الشاب. وهم سيصبحون لاحقاً من أتباعه. وخمسة من هؤلاء الرجال هم محمد عاطف (أبو حفص)، الدكتور أيمن الظواهري، أبو عبيدة البنشيري، عبد الله أحمد عبد الله، وعمر عبد الرحمن.

١٩٨٣ : أسامة يشتري مبنى كبيراً في جدة مؤلفاً من ١٢ شقة، نقل إليه نجوى وأولادهما.

١٩٨٣ : أسامة يتخذ لنفسه زوجة ثانية، هي امرأة سعودية من جدة اسمها خديجة الشريف. وتتحدّر أسرة الشريف من سلاله الإمام الحسين (رُزقت ابنة النبي بصبيين، واحد اسمه الحسن والآخر الحسين. والأسرة السعودية التي تتحدر من النبي، توضح دوماً النَّسَب الذي تنتسب إليه، سواء الحسن أو الحسين).

١٩٨٣ : أسامة ونجوى يرحبان بمولودهما الخامس، وهو صبي أسمياه عثمان.

١٩٨٤ : أسامة يأخذ معه، في بعض المناسبات، زوجتيه وأولاده في سفراته إلى باكستان، حيث يقيمون في فيلا كبيرة في مدينة بيشاور على مقربة من الحدود الأفغانية.

١٩٨٤ : أسامة وزوجته الثانية يرحبان بمولودهما الأول، وهو صبي أسمياه علياً. ومن حينها أصبح يُطلق على خديجة اسم أم عليّ، لكن أسامة سيبقى يُسمى دوماً أبا عبد الله.

١٩٨٤ : أسامة يساعد عبد الله عزّام على تأسيس مكتب الخدمات الذي يقوم بتوزيع المجاهدين العرب على الوحدات المقاتلة، أو على منظمات الإغاثة المسؤولة عن جمع الطعام والسلاح للمجاهدين.

١٩٨٤ : أسامة إلى المزيد من توسيع مشاركته في الجهاد من خلال المساعدة على إنشاء معسكرات تدريب عبر الحدود الأفغانية. وشرع في بناء الأنفاق والطرق ومعسكرات التدريب الضرورية لمساعدة المسلمين في قتال الغزاة السوفيات.

١٩٨٥ : أسامة وزوجته الأولى يرحبان بمولودهما السادس، وهو صبي سُمّي محمداً.

١٩٨٦ : أسامة إلى المزيد من التورط في النزاع الأفغاني - الروسي: أنشأ قاعدته العسكرية الأولى في شرق أفغانستان على مقربة من قرية تدعى جاجي تبعد عشرة كيلومترات عن الحدود الباكستانية. وخصصت القاعدة العسكرية لمقاتليه العرب، وسُمّيت عرين الأسد. وأخذ، في خلال سفراته المتكرّرة إلى باكستان، يعبر، في شكل روتيني، الحدود الباكستانية إلى أفغانستان ليقاتل بوصفه قائداً في حرب العصابات، يقود قواته العربية في عدد من المعارك ضد الروس.

١٩٨٦ : أراد أسامة تعريف ابنه البكر عبد الله إلى الجهاد، فأخذ الفتى ابن السنوات الثماني معه، إلى قاعدة جاجي القتالية. وتلقّى انتقاداً غير متوقع من العائلة ومن الزعماء الجهاديين الآخرين، لتعريضه ابنه لمخاطر الحرب. وهي المرّة الأولى، من مرات كثيرة، التي يدفع فيها أسامة بأبنائه غير المتحمسين إلى واجهة ولعه الشخصي بالجهاد.

١٩٨٦ : مع انضمام كثير من المسلمين الراديكاليين إلى الصراع في أفغانستان، أصبح أسامة أكثر وعياً سياسيّاً ونشاطاً، الأمر الذي دفعه إلى التفكير في رسالته في الحياة، وهي الرسالة التي ستتوسّع إلى الجهاد على كل جبهة في سبيل الإسلام.

١٩٨٧ : يتخذ أسامة زوجة ثالثة، هي امرأة سعودية تدعى خيرية صابر. والزوجة الأولى نجوى، هي التي اختارت خيرية بتشجيع منه.

١٩٨٧ : في ربيع ١٩٨٧، اكتسب أسامة شهرته بوصفه كبير الأبطال السعوديين، بعد معركة جاجي التي تصدّى فيها المقاتلون العرب للروس.

١٩٨٧ : يتخذ أسامة زوجة رابعة، هي امرأة سعودية من المدينة تدعى سهام، وتتحدر عائلتها من النبي من سلالة الحسين. وسهام شقيقة لسعد، وهو جندي سعودي تحت إمرة أسامة، كان متزوجاً بواحدة من بنات أخي أسامة.

١٩٨٧ : ينقل أسامة زوجاته الثلاث وأولاده إلى المدينة بعد تولّيه مشروع بناء كبير لعائلة بن لادن في المدينة.

١٩٨٧ : يرحب أسامة ونجوى بمولودتهما السابعة، وهي ابنة أسمياها فاطمة. وفاطمة هي الابنة الأولى المولودة في العائلة.

١٩٨٨ : أسامة وزوجته الرابعة سهام يرحبان بمولودتهما الأولى، وهي فتاة أسمياها خديجة.

١٩٨٨: تحوّل أسامة، في آب/أغسطس ١٩٨٨، إلى حملة جهادية عالمية بإنشائه القاعدة العسكرية (التي اختصرت في ما بعد إلى تنظيم «القاعدة»). وكان قد حقق حينها وضعيته كبطل في الصحافة العربية. وبات من السهل عليه تجنيد المقاتلين في تنظيمه بفعل بروز شخصيته.

١٩٨٨: يحلّ أسامة بن لادن محل صديقه ومرشده عبد الله عزام قائداً للمتدربين العرب على القتال في بيشاور.

١٩٨٩: السوفيات ينسحبون من أفغانستان.

١٩٨٩: يعود أسامة إلى السعودية، ويأتي معه بنحو مئة من قدامى مقاتليه للإقامة في المملكة.

١٩٨٩: اغتيال عبد الله عزام وأحد أبنائه بعبوة ناسفة استهدفتهما على الطريق في بيشاور. وأصبح أسامة، بموت عبد الله عزام، زعيماً بلا منازع للمقاتلين العرب.

١٩٨٩: رحّب أسامة وزوجته الثالثة خيرية بطفلهما الثالث: حمزة.

١٩٨٩: أسامة وزوجته الرابعة سهام يرحبان بولدهما الثاني: خالد.

١٩٩٠: في الثاني من آب/أغسطس، اجتاح صدام حسين الكويت. استشار أسامة العائلة المالكة السعودية مقدّماً خبرته العسكرية ومجاهديه لمحاربة صدام حسين وهزيمته. وتيقّن أسامة من قدرته على إقناع العائلة المالكة بحكمة خطته، فشرع في تحضير قواته للدفاع عن المملكة.

١٩٩٠: سمحت السعودية للولايات المتحدة بتشكيل ائتلاف من بلدان عدة، من بينها بلدان إسلامية كثيرة، لمحاربة صدام حسين. وشرعت الولايات المتحدة في إرسال جنود إلى السعودية.

١٩٩٠ : بلغ احتدام الغضب بأسامة حدّاً كبيراً حيال ما اعتبره إهانة من العائلة المالكة بالسماح بوجود جنود ممن أسماهم «الكفّار» على أرض إسلامية مقدسة، فشرع في الحديث علانية أو في كتابة أطروحات ضد النظام السعودي، وهو ما أدى إلى وضع حد لعلاقة الصداقة السابقة التي جمعت بين الطرفين.

١٩٩٠ : رحّب أسامة وزوجته الأولى نجوى بطفلتهما الثامنة، وهي فتاة أسمياها إيمان.

١٩٩٠ : رحّب أسامة وزوجته الرابعة سهام بطفلتهما الثالثة، وهي فتاة أسمياها مريم (وُلدت الطفلة في اليوم ذاته الذي وُلدت فيه إيمان ابنة نجوى).

١٩٩٠ : رحّب أسامة وزوجته الثانية خديجة بطفلهما الثاني، وهو صبي أسمياه عامراً.

١٩٩٠ : الحكومة السعودية تحذّر أسامة بوقف انتقاداته للعائلة المالكة ولقراراتها. لكن أسامة يرفض، ويصعّد من معارضته، فتحدّ العائلة المالكة من حريته، وتأمره بعدم مغادرة المملكة.

١٩٩١ : خاض الائتلاف الذي تقوده الولايات المتحدة «حرب الخليج». وأقامت الولايات المتحدة بعد ذلك وجوداً عسكرياً دائماً في المملكة. عارض أسامة وغيره من المثقفين في داخل المملكة، وجود «الكفار» على أرض الحرمين الشريفين في الإسلام، مكة والمدينة. وازدادت المعارضة للعائلة المالكة، ما أدى إلى توقيف عدد من المثقفين واحتجازهم.

١٩٩١ : يهرب أسامة من المملكة بعدما أقنع أحد أفراد العائلة المالكة بالموافقة على رحلة واحدة إلى باكستان لإنجاز أعماله وإقفالها هناك. ووعد أسامة بأنه سيعود إلى السعودية.

١٩٩١ : يخلّ أسامة بوعده، ويتدبّر بدلاً من ذلك الانتقال إلى الخرطوم في السودان.

١٩٩١ أو ١٩٩٢ : في أواخر ١٩٩١ أو بدايات ١٩٩٢، ينتقل أسامة إلى الخرطوم في السودان. وانضمت إليه هناك زوجاته وأولاده، ونحو مئة من قدامى محاربيه ممن يعيشون في السعودية.

١٩٩٢ : أنشأ أسامة، بموافقة من الحكومة السودانية، الكثير من المشاريع الاستثمارية في البلاد.

١٩٩٢ : شرع أسامة في جلب المزيد من قدامى الحرب الأفغانية المقيمين في باكستان إلى السودان للعمل في مشاريعه، وكذلك في تحضير تنظيمه «القاعدة» لمهام مستقبلية.

١٩٩٢ : رحّب أسامة وزوجته الثانية خديجة بطفلتهما الثالثة والأخيرة، وهي فتاة أسمياها عائشة.

١٩٩٢ : وقع، في ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٢، هجوم إرهابي في عدن، اليمن، استهدف فندقاً ينزل فيه عادة الجنود الأميركيون. لكن الجنود كانوا قد غادروه في ذلك اليوم في طريقهم إلى الصومال، حيث تقوم الولايات المتحدة بمهمة «إنسانية». وقُتل سائحان نمساويان. ويعتقد الخبراء أن هذا الهجوم هو الأول الذي ينظمه أسامة بن لادن وتنظيمه «القاعدة»، إلا أنه لم يتم إثبات ذلك أبداً.

١٩٩٢ : رحّب أسامة وزوجته الرابعة سهام بطفلتهما الرابعة، وهي فتاة أسمياها سمية.

١٩٩٣ : في تشرين الأول/أكتوبر، تعرّضت بعثة حكومية «إنسانية» أميركية لكمين في مقديشو في الصومال، وقُتل ١٨ جندياً أميركياً. وأقرّ أسامة، بعد

الهجوم، بأن بعضاً من مقاتليه شاركوا فيه. وهزئ من ثم بالولايات المتحدة لانسحابها من الصومال بعد الكمين.

١٩٩٣: يرحب أسامة ونجوى بطفلهما التاسع. وهو ولد أسمياه لادناً. واكب عبد الله أمه إلى السعودية. وعادت منها بعد الولادة إلى الخرطوم. غيّر أسامة رأيه وأعاد تسمية ابنه بَكراً. ومن ذلك الوقت، أخذ الأولاد ونجوى يدعون أخاهم لادناً، في حين يسميه أسامة بَكراً، الأمر الذي أدى إلى الكثير من الارتباك.

١٩٩٣: شرعت مجموعات مجاهدة أخرى في التجمّع مع «قاعدة» بن لادن في السودان، وهو واحد من بلدان قليلة ترحّب بهم. فهناك تنظيم الجهاد بقيادة الدكتور أيمن محمد الظواهري. وهناك كذلك تنظيم الجماعة الإسلامية بقيادة عمر عبد الرحمن (أصبح ابنه المنظّم المحلي بعد توقيفه وسجنه في الولايات المتحدة.) والتقت التنظيمات الجهادية الثلاثة معاً بهدف العودة إلى الجهاد الإسلامي، وهدفها هو أن يحكم الإسلام العالم.

١٩٩٣: زوجة اسامة الثانية، خديجة، تطلب الطلاق. أسامة يوافق ويسمح لها بمغادرة السودان مع أولادها الثلاثة، فتنتقل عائدة إلى السعودية.

١٩٩٣: تفجير مقر التجارة العالمية في نيويورك. مقتل ستة أشخاص وجرح ألف. تعتقد السلطات بوجود رابط مع «القاعدة»، لكن لم تُرفع أي تهم في وجه أسامة بن لادن أو تنظيمه بسبب الافتقار إلى الدليل. إلا أنه تم تسجيل صوت عمر عبد الرحمن، رجل الدين المصري الضرير وأحد شركاء أسامة، وهو يصدر فتوى تشجع أعمال العنف ضد الأهداف المدنية الأميركية (أوقف عمر عبد الرحمن في ٢٤ حزيران/ يونيو ١٩٩٣، وحوكم، وأدين بالتآمر التحريضي. وحُكم عليه في ١٩٩٦ بالسجن لمدى الحياة).

١٩٩٣ أو مطلع ١٩٩٤: بعد طلاقه من زوجته الثانية خديجة، يتزوج أسامة للمرة الخامسة وهو في الخرطوم. لكن الزواج ألغي قبل أن يقع فعلاً. ولا تريد العائلة الإفشاء عن سبب إلغائه، لأنها تعتبره مسألة خاصة.

١٩٩٤: تسحب حكومة المملكة العربية السعودية جنسية أسامة بن لادن. يتبرأ منه أشقاؤه آل بن لادن، وتُجمَّد حساباته في المملكة.

١٩٩٤: الحكومة السودانية تمنح أسامة بن لادن وعائلته الجنسية السودانية وجوازات سفر رسمية.

١٩٩٥: في ٢٦ حزيران/يونيو، حاولت مجموعتان إسلاميتان مرتبطتان بـ «قاعدة» بن لادن اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك وهو في إثيوبيا لحضور اجتماع منظمة الوحدة الأفريقية. فشلت محاولة الاغتيال، لكنها أدت إلى ضغوط من المصريين والسعوديين والأميركيين لطرد أسامة بن لادن والمجموعتين الأخريين من البلاد.

١٩٩٥: يكتب أسامة بن لادن رسالة مفتوحة إلى العاهل السعودي الملك فهد. وقد دعا فيها إلى حملة من هجمات المتمردين في المملكة على القوات الأميركية التي لا تزال متمركزة هناك.

١٩٩٥: انفجار شاحنة مفخخة في الرياض، السعودية، في مركز لتدريب الحرس الوطني السعودي يديره أميركيون. مقتل خمسة أميركيين وهنديين. أسامة ينفي أي مسؤولية، لكنه يشيد بالمهاجمين.

١٩٩٦: الحكومة السودانية تخضع للضغط الدولي وتطرد أسامة بن لادن وشركاءه.

١٩٩٦: في أيار/مايو ١٩٩٦، طار أسامة بن لادن، وكبار قادته، وابنه عمر، من الخرطوم إلى جلال أباد في أفغانستان. وبغض النظر عن أي تقارير

إعلامية أخرى، فإن عمر بن لادن يقول إنه الابن الوحيد الذي رافق والده. وأفاد أيضاً أن طائرتهم عبرت الأجواء السعودية، وأن توقفهم الوحيد كان في إيران بهدف وحيد، هو إعادة التزوّد بالوقود.

١٩٩٦ : أُوقف أربعة رجال سعوديين بتهمة تفجير الشاحنة في الرياض، ما أدى إلى وفاة الأميركيين والهنديين. وقد اعترفوا بأن نشاطات أسامة بن لادن الجهادية هي التي حرّكتهم. قُطعت رؤوسهم في ساحة الديرة في الرياض، التي تعرف باسمها الشائع «ساحة التقطيع».

١٩٩٦ : الرئيس بيل كلينتون يوقّع على أمر سرّي للغاية يسمح فيه لـ «السي.آي.أيه.» باستخدام جميع الوسائل للقضاء على تنظيم أسامة بن لادن.

١٩٩٦ : شاحنة ثانية مفخخة تدمّر أبراج الخبر في الظهران، وتقتل ١٩ جندياً أميركياً. لم يوجد أبداً دليل بأن «قاعدة» أسامة بن لادن هي المسؤولة، إلا أن الحكومة الأميركية تعتقد أنه أوحى بالهجوم.

١٩٩٦ : أسامة بن لان يوقّع ويصدر «إعلان الجهاد»، الذي يضع الخطوط العريضة لأهداف شبكته. دعا إلى الإطاحة بالحكومة السعودية؛ وتحرير الأماكن الإسلامية المقدسة من جميع الأجانب؛ ومساندة المجموعات الثورية الإسلامية؛ وإخراج القوات الأميركية من شبه الجزيرة العربية.

١٩٩٦ : جاء أسامة بن لادن، في أيلول/سبتمبر ١٩٩٦، بزوجاته، وأولاده، وقدامى محاربيه في أفغانستان من السودان إلى جلال أباد في أفغانستان (ملاحظة هامة: لم توضح نجوى وعمر التواريخ المحددة للسنوات والشهور التي قضتها العائلة في أماكن مختلفة من أفغانستان، أو الوقت الدقيق لولادة رقيّة. فالعرب لا يحتفلون بأعياد الميلاد بالطريقة ذاتها التي يحتفل بها الغرب. وهما يعرفان أن الأحداث الشخصية المدرجة

أدناه تعود إلى الفترة الزمنية ما بين أواخر ١٩٩٦ وأواسط ١٩٩٧).

١٩٩٦: أسامة بن لادن ينقل زوجاته وأولاده إلى جبل تورا بورا في أفغانستان.

١٩٩٧: تنتقل عائلة أسامة موقتاً إلى جلال أباد، في حين رُزق أسامة ونجوى هناك بطفلتهما العاشرة، وهي ابنة أسمياها رقيّة. وقد وُلدت في أحد مستشفيات جلال أباد.

١٩٩٧: ينقل أسامة عائلته إلى مجمع المطار في قندهار، حيث أقاموا حتى تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ (أقامت العائلة لفترات وجيزة جداً في مناطق أخرى من أفغانستان، بما في ذلك كابول وجلال أباد، في خلال تلك الفترة ذاتها، إلا أن المسكن الأساسي كان في مجمّع المطار في قندهار).

١٩٩٨: بالرغم من أن أسامة ليس برجل دين، فقد أصدر فتوى تدعو إلى مهاجمة الأميركيين. ووقع على بيانات تدعو إلى قتل الأميركيين، قائلاً إنه «الواجب الشخصي لكل مسلم قادر على ذلك في أي بلد يمكنه القيام به فيه».

١٩٩٨: هيئة المحلفين العليا التي تحقق في قضية أسامة بن لادن، والتي افتتحت أعمالها في ١٩٩٦، أصدرت أخيراً، في ٨ حزيران/يونيو، اتهاماً مبرماً لأسامة بن لادن «بالتآمر لمهاجمة منشآت دفاعية في الولايات المتحدة». واتهم مدّعو النيابة في الولايات المتحدة، أسامة بأنه يرأس منظمة إرهابية تدعى «القاعدة»، وأنه أيضاً مُموّل رئيسي لمنظمات إسلامية حول العالم.

١٩٩٨: مجموعة تطلق على نفسها اسم «الجهاد المصري»، ترسل تحذيراً إلى الأميركيين مفاده أنها سترسل عمّا قريب رسالة مهمة إلى الأميركيين،

«الذين نأمل أن يقرأوها بعناية، لأننا سنكتبها بمساعدة من الله، بلغة سيفهمونها».

١٩٩٨ : في ٧ آب/أغسطس، حدث تفجيران متزامنان للسفارتين الأميركيتين في كينيا وفي تنزانيا. وقُتل ما مجموعه ٢١٣ شخصاً في كينيا، من بينهم ١٢ أميركياً. وقُتل أحد عشر شخصاً في تنزانيا وجُرح ٨٥ (لم يلقَ أي أميركي مصرعه في تنزانيا).

١٩٩٨ : قالت وكالات الأمن الأميركية إنها اعترضت مكالمات هاتفية بين اثنين من قادة أسامة بن لادن تشير إلى تُورّط «القاعدة» في هجومي ٧ آب/ أغسطس على السفارتين.

١٩٩٨ : الملاّ عمر، زعيم الطالبان، وهي المجموعة التي تتولى السلطة في أفغانستان، يرفض طلباً سعودياً بتسليم أسامة بن لادن.

١٩٩٨ : في ٢٠ آب/أغسطس، تردّ الولايات المتحدة على أسامة بن لادن و«القاعدة»، بقصفها معسكرات التدريب التابعة لها بصواريخ كروز وقبل ساعتين على الهجمات، غادر أسامة وأبناؤه وقادته واحداً من معسكرات التدريب على مقربة من خوست للسفر إلى منزل آمن في كابول. وتقول المصادر إن ستّة مقاتلين فقط قُتلوا. ويفيد عمر بن لادن عن سقوط ثلاثين مقاتلاً.

١٩٩٨ : تصدر الولايات المتحدة اتهاماً جديداً في حق أسامة بن لادن، ومحمد عاطف، الذي أُدرج اسمه على أنه كبير القادة العسكريين لدى بن لادن، وآخرين. وقد اتهم أسامة وقادته بتفجيري السفارتين الأميركيتين وبالتآمر لارتكاب أعمال إرهابية أخرى في حق الأميركيين الذين يعيشون في الخارج. وخُصصت مكافأة بقيمة خمسة ملايين دولار لمن يُدلي بمعلومات حول كل من أسامة بن لادن ومحمد عاطف.

١٩٩٩: تلقّى عمر بن لادن، الابن الرابع لأسامة من زوجته نجوى، تحذيراً من أبي هادي يتعلّق بهجوم يتم التحضير له، وهو واحد من مقاتلي أسامة الموثوقين. واعتقد أبو هادي أن الهجوم سيكون كبيراً جداً، إلى درجة أن الولايات المتحدة ستردّ بنية قتل كلّ من له علاقة بأسامة بن لادن. وبعد نقاشات عدة حامية مع والده، أخذ عمر أمه الحامل وشقيقه عبد الرحمن وشقيقته الطفلة رقيّة من أفغانستان إلى سورية.

أواخر ١٩٩٩: رُزق أسامة ونجوى بمولودتهما الحادية عشرة والأخيرة. وأطلق أسامة على الطفلة التي وُلدت في سورية، اسم نور، تكريماً لذكرى أخته غير الشقيقة التي توفيت قبل ذلك ببضع سنوات.

أوائل ٢٠٠٠: تعود نجوى إلى قندهار مع ابنتيها الصغيرتين وابنها عبد الرحمن. بقي عمر في سورية وهو يسعى إلى استعادة جنسيته السعودية التي ستأتيه بعد أربعة أشهر.

٢٠٠٠: وقع في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر هجوم على البارجة الحربية الأميركية «كول» في مرفأ مدينة عدن اليمنية. قتل الانفجار ١٧ بحّاراً أميركياً. لم يرد الرئيس بيل كلينتون قائلاً إنه لا يوجد دليل حسّي على أن «القاعدة» وراء الهجوم، برغم الاعتقاد السائد بذلك.

٢٠٠٠ (أواخرها) أو مطلع ٢٠٠١: يتزوج أسامة بن لادن للمرة السادسة باليمنية أمل الصدّاح. وقيل إن عروسه هي في السابعة عشرة فقط. تم الزواج في قندهار، أفغانستان. ومن المُعتقد، حتى كتابة هذه السطور، أن أسامة وأمل رُزقا بابنة واحدة أسمياها صفيّة.

٢٠٠١: في أوائل ٢٠٠١، يعود عمر القَلِق إلى قندهار، أفغانستان، بعدما أبلغته جدته في السعودية أن والده غاضب ويأمره بالعودة إلى أفغانستان.

٢٠٠١: في أواخر نيسان/أبريل ٢٠٠١، بعد إقامة وجيزة، وبعد تكرار التحذير من هجوم كبير قيد التحضير، يحاول عمر إقناع والدته بأخذ أولادها ومغادرة أفغانستان. بقيت نجوى في قندهار، بينما ترك عمر والده وأفغانستان للمرة الأخيرة.

٢٠٠١: تغادر نجوى أفغانستان للمرة الأخيرة ما بين السابع من أيلول/سبتمبر والتاسع منه ومعها رقية ونور وعبد الرحمن. منعها أسامة من أخذ أولادها الآخرين. وسافرت نجوى المولّهة إلى سورية للإقامة في منزل والدتها. وبقي أولاد نجوى الآخرون وزوجاتهم وأحفادها في أفغانستان تحت رعاية أسامة.

٢٠٠١: في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فقد نحو ثلاثة آلاف شخص حياتهم عندما اختطف ١٩ مشبوهاً من «القاعدة» أربع طائرات ركاب أميركية، وطاروا بها إلى أهداف أميركية. طارت اثنتان منها إلى مركز التجارة العالمية فقتلتا الآلاف ودمّرتا المبنيين. وطارت أخرى إلى البنتاغون على مقربة من واشنطن العاصمة. أما الطائرة الأخيرة فأوقفها عن تحقيق مهمتها ركّاب شجعان قاتلوا الخاطفين. وتحطّمت في أحد حقول بنسلفانيا.

٢٠٠١: في تشرين الأول/أكتوبر، بعد ستة أسابيع على الهجمات على الأرض الأميركية، بدأ الجيش الأميركي هجوماً جوياً عنيفاً على أفغانستان. بلغ القصف حدّاً من التدمير تسبب معه بتصّدع تام لـ «القاعدة» ولمعسكرات التدريب الموجودة في أفغانستان. اختبأ أسامة بن لادن، وقادته، ومقاتلوه، في جبال تورا بورا قبل هروبهم إلى باكستان. ويُعتقد أن مئات من مقاتلي «القاعدة» قد هلكوا، بمن فيهم محمد عاطف (أبو حفص)، الذي قُتل في منزله في كابول. وتمكن أسامة بن لادن والدكتور أيمن الظواهري من الهرب إلى باكستان (لم يعرف شيء عن

مصير أولاد نجوى، أو زوجات أسامة بن لادن الأخريات وأولادهن).
وانهار في الهجوم نفسه الملاّ عمر السيئ السمعة وحكومة الطالبان،
وقد هرب الملاّ عمر وأتباعه إلى باكستان.

٢٠٠٤: في تشرين الأول/أكتوبر، وزّع أسامة بن لادن شريطاً مسجلاً يتبنى فيه
هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

٢٠٠٨: يوزع أسامة بن لادن شريطاً مسجلاً يُدين فيه نشر رسوم قال إنها تهين
النبي محمد، وحذّر الأوروبيين من رد فعل قاسٍ قادم.

٢٠٠٩: يوزع أسامة بن لادن شريطاً مسجّلاً يحث فيه المسلمين على شن
الجهاد ضد إسرائيل. وتعهّد زعيم «القاعدة» بفتح جبهات جديدة ضد
الولايات المتحدة وحلفائها. وتضمّن الشريط، ومدته ٢٢ دقيقة، نداءً
للتبرع دعماً للقتال الذي يخوضه.

الملحق ج

التأريخ الزمني لـ «القاعدة»: ١٩٨٨ - ٢٠٠٨

ما إن أضحت نهاية الحرب مع روسيا في مرمى البصر، حتى شرع أسامة والرجال المحيطون به، يحلمون بجهاد عالمي لنشر رسالة الله ولوضع العالم تحت الحكم الإسلامي.

كان مرشد أسامة، عبد الله عزام، وهو باحث ورجل دين سني فلسطيني متميّز ومفوّه، أول من أدرك ضرورة وجود مؤسسة منظمة يمكن للمؤمنين من خلالها شن كفاحهم للوصول إلى عالم إسلامي صافٍ. إلا أنه، في حين اعتمد الخطيب عزام الوصول إلى غايته بالفكر الديني، شرع الرجل العسكري في العمل بالوسائل القتالية التي يؤمن بها. ودعا أسامة إلى عقد أول اجتماع للتخطيط، سيُسمّى «القاعدة»، في منزله العائلي في بيشاور، باكستان.

تأسس تنظيم «القاعدة» التابع لبن لادن في آب/أغسطس ١٩٨٨، وامتلك ذراعاً إسلامية وأخرى عسكرية، وقد أخذت الذراع العسكرية في النمو لتحتل الصدارة. ومع وصول المقاتلين الإسلاميين الجدد إلى باكستان، أُرسلوا إلى معسكرات تدريب في داخل أفغانستان، حيث وُزّعوا من هناك على مختلف جبهات القتال.

وبعدما أخذت الحرب مع روسيا في التباطؤ، أصبح لدى أسامة المزيد من الوقت لتكريسه لأهداف القاعدة الإسلامية. وتزايد تخطيطه لجعل الإسلام دين العالم بعد انتقاله من السعودية إلى السودان، وأخيراً إلى أفغانستان. وأخذ التنظيم يتحول ببطء إلى تهديد للناس الأبرياء حول العالم.

وفي ما يلي الهجمات التي يُعتقد أن «القاعدة» نفّذتها، أو أوحت بها:

٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٢: عدن، اليمن: انفجار قنابل في فندقين في عدن في هجوم استهدف جنوداً أميركيين في طريقهم إلى الصومال. لم يُقتل أي جندي، بل قضى سائحان نمساويان.

٣-٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٣: الصومال: الميليشيا الصومالية تُسقط طائرتي هيليكوبتر بلاك هوك أميركيتين، وتقتل ١٨ جندياً أميركياً.

٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٦: الظهران، السعودية: تفجير أبراج الخبر، وهي كناية عن مجمّع سكني للجيش الأميركي، ومقتل ١٩ جندياً أميركياً.

٧ آب/أغسطس ١٩٩٨: كينيا وتنزانيا: انفجار سيارتين ملغومتين في سفارتي الولايات المتحدة في الدولتين الأفريقيتين. مقتل أكثر من ٢٢٢ شخصاً، معظمهم من الأفارقة.

١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠: عدن، اليمن: مُفجّران انتحاريان يصدمان زورقهما بالسفينة الحربية الأميركية كول، وهي راسية. بلغت حصيلة القتلى ١٧ بحّاراً أميركياً.

١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١: اختطف ١٩ مشبوهاً من «القاعدة» أربع طائرات ركاب أميركية داخلية. صدمت اثنتان منها مركز التجارة العالمي، فقتلتا الآلاف ودمّرتا المبنيين. وصدمت أخرى البنتاغون على مقربة من واشنطن العاصمة. أما الطائرة الأخيرة فتحطّمت في أحد حقول بنسلفانيا عندما قاوم الركاب الخاطفين. وثمة معلومات مختلفة عن عدد الضحايا، إلا أنه يبدو أن الرقم الأكثر قبولاً هو مقتل ٢،٩٨٦ شخصاً.

١ شباط/فبراير ٢٠٠٢: كراتشي، باكستان: اختُطف الصحافي الأميركي دانيال بيرل وقُطع رأسه.

١١ نيسان/أبريل ٢٠٠٢: جربة، تونس: شاحنة غاز طبيعي تفجّر الكنيس

اليهودي في غريبة. أدى الهجوم إلى مقتل ١٥ سائحاً (١٤ ألمانياً وفرنسي واحد) وستة تونسيين، وجُرح ٣٠ آخرون.

١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢: بالي، إندونيسيا: مفجّرون انتحاريون وسيارات مفخخة ينفجرون في داخل منطقة نواد ليلية مكتظة، أو على مقربة منها، ومقتل أكثر من ٢٠٠ شخص، بينهم ١٦٤ سائحاً و٣٨ أندونيسياً. وأصيب أكثر من ٢٠٠ آخرين بجروح خطيرة.

٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢: مومباسا، كينيا: سيارة مفخخة تصطدم ببهو فندق بارادايز الذي يملكه إسرائيليون وتقتل ١٦ شخصاً. وقد أُطلق خلال ذلك الوقت صاروخا أرض جو على طائرة إسرائيلية مُستأجرة: أخطأ الصاروخان الطائرة، ما أنقذ حياة الكثيرين.

١٢ أيار/مايو ٢٠٠٣: الرياض، السعودية: قُتل ٣٤ شخصاً في سلسلة من الهجمات بالقنابل استهدفت منازل مواطنين أجانب وأحد المكاتب الأميركية.

١٦ أيار/مايو ٢٠٠٣: الدار البيضاء، المغرب: سلسلة من التفجيرات الانتحارية تضرب مطعماً إسبانياً، وفندقاً، ومركزاً يهودياً، والقنصلية البلجيكية، وتقتل ٣٣ شخصاً.

٥ آب/أغسطس ٢٠٠٣: جنوب جاكرتا، إندونيسيا: انفجار سيارة ملغومة خارج بهو فندق ماريوت، يقتل ١٢ شخصاً ويجرح ما يزيد على ١٥٠. والقتلى هم أربعة سياح وثمانية إندونيسيين.

١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣، و٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣: اسطنبول، تركيا: انفجار أربع سيارات ملغومة في كنيس يهودي ومقتل ٥٧ شخصاً وجرح أكثر من سبعمئة.

٢٠٠٣-٢٠٠٨: العراق: وقوع المئات من هجمات «القاعدة» في كل منطقة من مناطق العراق، ما أدى إلى مقتل آلاف العراقيين الأبرياء.

١١ آذار/مارس ٢٠٠٤: مدريد، إسبانيا: انفجار عشر قنابل في قطارات للركاب في مدريد، أدت إلى مقتل أكثر من ١٩٠ شخصاً وجرح ١,٨٠٠.

٢٩ أيار/مايو ٢٠٠٤: الخبر، السعودية: أربعة إرهابيين يهاجمون منشآت لصناعة النفط ومجمّع الواحة، وهو مجمع سكني للعمال الأجانب. أخذ الإرهابيون خمسين أجنبياً رهائن وقتلوا ٢٢ منهم، بعضهم نُحرت أعناقهم.

١٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٤: السعودية: اختطاف الأميركي بول جونسون وأخذه رهينة، ومن ثم قطع رأسه.

٧ تموز/يوليو ٢٠٠٥: لندن، إنكلترا: أربعة مفجّرين انتحاريين يهاجمون وسائل النقل العام في لندن، ويقتلون ٥٣ شخصاً ويجرحون سبعمئة.

٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥: عمّان، الأردن: انفجارات متزامنة في ثلاثة فنادق ذات ترخيص أميركي، تقتل ٥٧ شخصاً وتجرح ١٢٠ آخرين.

١١ نيسان/أبريل ٢٠٠٧: الجزائر العاصمة: انفجار قنبلتين، واحدة في مخفر للشرطة، والأخرى في مكتب رئيس الوزراء الجزائري، ومقتل ٣٣ شخصاً.

٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٨: باكستان: مهاجمة السفارة الدانمركية بسيارة مفخخة تقتل ستة أشخاص وتجرح كثيراً غيرهم.





لوحة زيتية تعود إلى عام ١٩٦٤
لمحمد بن لادن والد أسامة.
(من مجموعة صور عائلة أسامة بن لادن)



صورة لأسامة بن لادن التقطت في جدة
عام ١٩٧٣ وهو في السادسة عشرة، قبل
سنة من زواجه بابنة خاله نجوى.
(من مجموعة صور عائلة أسامة بن لادن)



صورة التقطت عام ١٩٩٠
لعمر وشقيقته الصغيرة فاطمة
في منزل العائلة في جدة.
(من مجموعة صور عائلة أسامة بن لادن)



من اليمين إلى اليسار: عمر، فاطمة، وسعد في منزل العائلة في جدة عام ١٩٩٠.
(من مجموعة صور عائلة أسامة بن لادن)

عبدالله بن لادن عام ١٩٩٣ في السودان يعمل على **إحدى أليات والده الثقيلة.**
(من مجموعة صور عائلة أسامة **بن لادن)**



عبدالله بن لادن على ضفاف النيل عام ١٩٩٣ في الخرطوم.
(من مجموعة صور عائلة أسامة بن لادن)



عمر عام ١٩٩٣
في غرفة نومه في الخرطوم.
(من مجموعة صور عائلة أسامة بن لادن)



أيام عمر السعيدة في الخرطوم.
(من مجموعة صور عائلة أسامة بن لادن)

قرية أفغانية صغيرة عبرها عمر وهو في طريقه من **جلال أباد إلى تورا بورا. (هيل برمونت)**

البرقع الذي تُجبر النساء على ارتدائه في أفغانستان. (هيل برمونت)

عمر وابنه أحمد عام ٢٠٠٧ في جدة.
(من مجموعة صور عائلة أسامة بن لادن)



عمر بن لادن مع حصانه المحبب عام ٢٠٠٧ في جدة.
(من مجموعة صور عائلة أسامة بن لادن)



جين ساسون

كاتبة ومحاضرة أميركية ذات شهرة عالمية، لفتها الكثير من قضايا الشرق الأوسط. سافرت عام ١٩٧٨ إلى المملكة العربية السعودية حيث عملت كمنسقة إدارية للشؤون الطبية في مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث في الرياض. لها ثمانية كتب احتلت صدارة أفضل الكتب مبيعاً في العالم. كما نالت جوائز عالمية.

كتاب تجد فيه السيرة الكاملة لأسامة بن لادن كما رواها ابنه عمر وزوجته نجوى ودوّنتها جين ساسون صديقتهما الموثوقة.

يعرّفنا بحياته الشخصية وأسراره الدفينة، من خلال أقرب الناس إليه.

يدخل إلى عمق تفكير أسامة بن لادن ومخطّطاته، مانحاً القارئ قدرة استقراء، وتوقّع تحركات بن لادن المستقبلية.

يتابع نشاطاته السياسية والعسكرية وانطلاق حركته الجهادية.

يتناول تمركزه في أفغانستان ومغادرتها وعودته إلى السعودية وارتباطه الملتبس بأحداث ١١ أيلول/سبتمبر، كما يرصد تحركاته المعلنة والسرية وإقامته الاختيارية والقسرية في مختلف المدن والكهوف!

يطرح شبكة علاقاته وتعرّضه للمخاطر ومحاولات الاغتيال التي استهدفته وأفراد أسرته.

يتحدّث عن حياته الزوجية مع جميع زوجاته.

يفصّل علاقته بأبنائه الذين كان يطلب إليهم القيام بعمليات انتحارية والذين حرمهم العلم والطعام!

كتاب يذهب إلى أبعد من ذلك مؤرّخاً للقاعدة ولأسامة بن لادن شخصياً ويحدّد مصير أفراد عائلته.


ISBN 978-9953-88-392-2

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥٠ - بيروت - لبنان
تلفون ٧٥٠٨٧٢ - ٠٩٦١١١٣٥٠٧٢٢
تلفون+فاكس ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٠٩٦١١١٧٥٢٥٤٧

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر